
غير مخصص للبيع
الفيصل
مجلة ثقافية شهرية ـ العدد (٢٢٤) صفر ١٤١٦ ـ يوليو ـ ١٩٩٥ م
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE (224) JUL. 1995
• مسرح الطفل ضرورة أم ترف؟
• التخصيص عربياً ودولياً: تجارب ونتائج
الحرف الشعبية
في المملكة
العربية السعودية

الفتوحات السبحانية

في شرح نظم الدرر السنية في السيرة النبوية

للحافظ عبدالرؤوف أو محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري زين الدين (المتوفى سنة ١٠٣١هـ).





هذا الكتاب، كما ذكر في مقدمته، هو شرح موجز مختصر لشرحه السابق لنظم الدرر السنية في السيرة النبوية لجده لأمه الإمام الحافظ زين الدين أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن بن أبي بكر المصري الشافعي المعروف بالعراقي (المتوفى سنة ٨٠٦هـ).

وقد بدأ المناوي شرحه بمقدمة عن الكتاب الأصلي، وهو نظم الدرر السنية وما نالت من استحسان الناس وإقبالهم عليها، وعَرَّفَ بالناظم وترجم له. وينقسم الكتاب إلى عدة أبواب بدأها بباب ذكر أسمائه الشريفة. ثم ذكر نسبه الزكي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر مولده عليه الصلاة والسلام، وكفالة عمه أبي طالب له، وقصة بناء الكعبة، ثم إقامته بمكة بعد البعثة، ثم ذكر السابقين إلى الإسلام، واجتماع المسلمين بدار الأرقم. ثم باب تأييده صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن. وهكذا توالت الأبواب والفصول حتى انتهت بمرضه ووفاته صلى الله عليه وسلم.

يقع الكتاب في ٢٥٩ ورقة مسطرتها ٢٥ سطرًا، ومقاسه ١٨,٥×٢٨,٥سم. وقد كتب المخطوط بخط مغربي حسن من خطوط القرن الثاني عشر الهجري، وفرغ منه مؤلفه سنة ١٠١٤هـ. وقد سبق المتن فهرس لأبوابه كتب داخل مربعات صغيرة مسطرة بالحبر الأحمر ذكر أعلاها أو أسفلها رقم الصفحات بالحبر الأحمر. كذلك كتبت رؤوس الفقرات وبعض الكلمات والعبارات الأخرى بالمداد الأحمر. كما جُدولت صفحاته بالحبر الأحمر كذلك. وقد ظهرت فيه آثار الرطوبة خاصة في حواف صفحاته، وتم ترميمه. وعموماً فإن أثر الأرضة قليل في المتن.

والمخطوط من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، برقم ١٩٢٦.

إعداد: **فراج عطا سالم**

في العدد القادم:

- **هجرة العقول الإسلامية والتلاقح الحضاري.**
- **كيف يتساقط الشعر؟ وما العلاج؟**
- **هل يموت المجتمع؟**

البريد

الاستراحات الثقافية مطلوبة

لقد لاحظت أن «الفيصل» تحرز تقدما ملحوظًا في أعدادها الأخيرة، ولاسيما في مجالين: الأول: التجديد في الشكل والمضمون، الثاني: تخصيص توازن أكبر بين فروع المعرفة المختلفة، وبخاصة بين المادة الأدبية والتراثية من جانب، والمادة العلمية والموضوعات المتعلقة بالمستقبل من جانب آخر.

وأحب أن أضيف: حبذا لو خصصتم حيزاً أوسع للزوايا القصيرة، والمادة الخفيفة الهادفة لتكون بمثابة استراحات بين الموضوعات الطويلة والمتعمقة.

ياسر الفهد
سورية

لو كنت المسؤول!

يؤلمني أشد الإيلام أن التواصل الثقافي يكاد ينعدم بين دول العالم العربي والإسلامي، وأن العلاقات الثقافية لايُقام لها وزن يرقى لمستوى أهمية الثقافة وخطورتها في حاضر الشعوب ومستقبلها. في اعتقادي أننا نعيش «شبه قطيعة ثقافية»، وكل دولة تكاد تحصر نشاطاتها الثقافية داخل حدودها، وفي إطارها المحلي. ففي الوقت الذي يلح فيه الواقع بالتعاضد على المستويات جميعها، نجد أنه عندما يصدر كتاب - مثلاً - في دولة عربية، فلا تجده بسهولة، ودون كثير عناء في الدول العربية الأخرى، وهذا مما يؤسف له، فضلاً عما ينطوي عليه من مضامين القطيعة الثقافية غير المعلنة.

ونحن في شوق لتعرف الإنتاج الثقافي للأدباء العرب، ولكن قصور المكتبة العربية عن توفير إبداعات أدبائنا يحول دون تحقيق هذه الرغبة، فحتى لو تم التعريف بأدباء عرب، فكثيرا ما تقف هذه المحاولة عند حدود الاسم وعناوين بعض الإصدارات.

لا أبالغ لو قلت: إنني أحب القراءة إلى حد الهوس، ولكن سرعان ما تصطدم هذه الهواية بجبال من المصاعب، وتسبب لي حسرة وأسفًا، حيث إنني أعلم أن الحصول على إصدار كاتب عربي ليس ميسوراً... إنني أقدر الجهد الذي تقدمونه عبر ملف الفيصل «الحركة الثقافية في شهر»؛ فمن خلال هذا الملف يمكن تعرف المسارات الثقافية في العالم العربي والإسلامي، وإنتاج الأدباء العرب، ولكن - للأسف - كل ذلك بطريقة مقتضبة، لاتشبع نهم القارئ المتطلع للاستزادة، وأعلم أن هذا ما تسمح به ظروف المجلة وسياستها التحريرية الهادفة لتقديم مادة متنوعة، ولذلك سأكون ممتنًا لكم لو تفضلتم وزودتموني بعناوين عدد من الأدباء السعوديين لأتمكن من مراسلتهم، وسوف أكون أكثر امتنانًا لو أتحفتموني ببعض الإنتاج الأدبي السعودي.

لحسين باكور
مراكش - المغرب

المحرر: **الإنتاج في الأدب السعودي غزير، ولو أخبرتنا عن التخصص الذي تهتم به لأمكن تزويدك بقائمة من الأدباء. يمكنك الاتصال بقسم الأندية الأدبية في الرئاسة العامة لرعاية الشباب لتزويدك بعناوين الأندية الأدبية في المملكة، وعنوانه: الرياض، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، قسم الأندية الأدبية.**

تصحيح المفاهيم

من خلال اطلاعي المستمر على مجلة «الفيصل» ومتابعتها مدة طويلة، لاحظت - كما لاحظ غيري - ذلك الانتشار الواسع الذي تؤكده كتابات متنوعة تَردُ إلى المجلة من مختلف الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، وهذا - بلاشك - يؤكد اهتمام عدد كبير من المثقفين بالمجلة في كثير من البلاد، وحرصهم على قراءتها ومن ثم مراسلتها والكتابة إليها.

لذلك فإنني أقترح عليكم تخصيص زاوية ثابتة تُعنى بنشر العقيدة الصحيحة، وتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة المنتشرة بين المسلمين في عقيدتهم؛ بل وتكون تلك الزاوية منطلقا لمحاربة البدع والخرافات التي لا أصل لها في الدين، وأن يشرف على تلك الزاوية أحد شيوخنا الفضلاء المشهود لهم بالعلم وفهم واقع المسلمين، والذين يحظون، ولله الحمد، بثقة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، خاصة وأن هذه المجلة تحمل اسم رجل كان له إسهام كبير في الدعوة إلى التضامن الإسلامي، الذي من أُسسه تصحيح العقيدة في كثير من البلاد الإسلامية على أساس من كتاب الله وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام.

سطام بخيت العتيبي
الخفيفة - الرياض

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على البعض الآخر للقراء
يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح
فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة

التّخصيص



مع مطلع حقبة الثمانينيات الميلادية الماضية، شاع تداول مصطلح PRIVATIZATION في الفكر الاقتصادي المعاصر، وقد اختلف الاقتصاديون العرب في تعريب هذا المصطلح، فاستعملوا «التخصيص» و«الخصخصة» و«الخوصصة» و«التخصصية» و«التفريد» للدلالة عليه، ورأى بعضهم أن هذه الكلمات تظل عاجزة عن التعبير عن المعنى الدقيق للمصطلح، ومن ثم وجدوا أنه لامناص من شرحه بجملة بدلاً من كلمة مفردة. فالمصطلح يعني - مع التبسيط - تحويل شركات القطاع العام ومؤسساته إلى القطاع الخاص، إما بالبيع، أو بمنحه حق إدارتها وتشغيلها.

ولم يكن تعريب المصطلح هو الخلاف الوحيد، فقد كان الاختلاف - ومايزال - حول مسوغات الاتجاه نحو التخصيص، إذ هناك من قرن هذا الاتجاه بالرغبة القوية في محاكاة الغرب، أو بالضغوط التي تتعرض لها دول العالم الثالث من قبل دول الغرب الرأسمالي ومؤسساتها؛ كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وهؤلاء يرون أن التخصيص محاولة لربط اقتصاد مايسمى بالعالم النامي بعجلة اقتصاد الدول الرأسمالية، وإجباره على اتباع السياسات الاقتصادية التي تُملى عليه، والتي يصفونها بالاستغلالية، وأنها لاتُعنى بالمصلحة الاقتصادية لدول العالم الثالث قدر ماتُعنى بتحقيق المصالح الاقتصادية الغربية. ويذكرون أن البنك الدولي - حتى عام ١٩٨٨ - موّل ثلاثين مشروعًا تم تخصيصها في ثلاثين دولة معظمها في أفريقيا، مع أن هذا البنك كان سببًا في تنامي القطاع العام في تلك الدول، بقيامه بتمويل مشروعات عامة عديدة في الستينيات والسبعينيات في حين لم يحظ القطاع الخاص بأي تمويل في تلك الفترة. ولكن مع تراكم الديون، وعجز معظم الدول النامية عن السداد، اتجهت دول الغرب ومؤسساتها الاقتصادية إلى تشجيع سياسة التخصيص؛ بل ربطت مساعداتها للعالم الثالث بشرط التحول إلى القطاع الخاص.

وسوغ بعض الاقتصاديين تصاعد ظاهرة التخصيص في أنحاء العالم بانهيار المعسكر الاشتراكي الذي كان يتزعمه الاتحاد السوفييتي السابق؛ الذي قام بالتنظير لفكرة ملكية الدولة لوسائل الإنتاج وتطبيقها، بزعم تحقيق التوزيع العادل للثروة. وقد جارته كثير من الدول النامية في هذا الاتجاه، في محاولة منها للتحديث والتنمية بعد أن عانت كثيرًا من الاستغلال في ظل الاستعمار، ولكنها لم تجن من تطبيق الفكر الاشتراكي إلا مزيدًا من التدهور الاقتصادي والتمزق السياسي.

ويركز المدافعون عن التخصيص على إخفاقات القطاع العام في تحقيق التنمية التي هدفت إليها الدول النامية، وعَدَّدوا كثيرًا من مثالبه التي تتركز في بيروقراطية الإدارة، وعدم كفاءتها، وتفشي المحسوبية، وضعف الإحساس بمتطلبات السوق، وعدم التزامه قوانين الاقتصاد، الذي يتبدى في زيادة العمالة، وضعف الرقابة والمساءلة أو غيابهما، وتأثره بالرغبات السياسية. ومع أن معارضي التخصيص يعترفون بهذه المشكلات التي يعانيها القطاع العام؛ إلا أنهم لايجدونها مسوغًا كافيًا لتجاهل ما أداه القطاع العام من دور في إقامة مشروعات البنى التحتية للدول النامية بعد استقلالها، في ظل غياب قطاع خاص فعال يملك رؤوس الأموال اللازمة للإسهام في تلك المشروعات، أو لارتباط مصالح بعض أصحاب رؤوس الأموال الوطنيين بالمستعمر، مما حدا بهؤلاء إلى تهريب أموالهم إلى الخارج، أو العزوف عن المشاركة الفاعلة، والاكتفاء بالأعمال الهامشية ذات العائد السريع. وحسب هذا المنظور، فقد كان القطاع العام تأمينا للاستقلال الاقتصادي بوصفه أساسا للاقتصاد الوطني واتجاها نحو بناء قاعدة إنتاجية أساسية، ولم يكن في استطاعة القطاع الخاص - لضآلة رؤوس أمواله - أن يشارك في أنشطة كبيرة الحجم، ذات تقنية معقدة، وعائد منخفض، كما كان التأميم - في رأيهم - وسيلة لحرمان الاستعمار من الأنشطة التي كانت حكرًا عليه.

ولكن من الواضح أن هذه الإحالة التاريخية لاتكفي تسويغًا لما أصاب القطاع العام في كثير من الدول النامية - ومن بينها بعض الدول العربية - من إخفاق بيِّن في تحقيق الخطط التنموية، وتكبد شركاته ومؤسساته خسائر فادحة، بسبب سوء التخطيط للمشروعات والافتقار إلى المهارات الإدارية، وعدم توافر الأنظمة الدقيقة لتقويم الأداء. وفي الوقت نفسه لايمكن إغفال ما حققه القطاع العام من نجاحات واضحة في دول أخرى، منها المملكة العربية السعودية؛ حيث تولت الدولة تمويل مشروعات التنمية وبرامجها، نتيجة لكبر حجم الاستثمارات المطلوبة لإنشاء البنى الأساسية والصناعات عالية التقنية، وتقديم الخدمات الاجتماعية المجانية للمواطنين، إلى جانب الإعانات المباشرة وغير المباشرة. ووفرت هذه المشروعات فرص عمل كثيرة للمواطنين والقوى العاملة من دول عربية وإسلامية عديدة، وكانت مجالاً خصبا للتدريب والتأهيل الفني والإداري، لاتباعها أساليب إدارية متقدمة.

ومن الآراء التي يسوقها معارضو التخصيص، أن القطاع الخاص يسيء توجيه مدخراته، ويرمي إلى الربح السريع بأقصر دورة لرأس المال عبر المضاربات والسمسرة وغيرها من الأنشطة الطفيلية، مما يؤدي إلى انتشار الانتهازية والأنانية. وقد يدفع هذا القطاع بمدخراته إلى الأسواق العالمية الأكثر أمانًا، كما أنه يعجز عن مواجهة التطورات التقنية المتسارعة الخطى، ويميل إلى الاستثمار في مجالات تشبع حاجات الطبقات ذات الدخل المرتفع؛ مثل السيارات والسلع الاستهلاكية المعمرة والأغذية المحفوظة وغيرها، مكرسًا بذلك النمط الاستهلاكي في المجتمع.

ولكن أنصار التخصيص يعددون مزاياه التي - في ظنهم - تفوق سلبياته، ومن هذه المزايا أنه يرفع مستوى الأداء كمًا وكيفًا من خلال التنافس، ويخفف العبء عن ميزانية الدولة، بتقليل الاعتماد عليها، ويساعد في توسيع قاعدة المشاركة، واجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية، وتشجيع رؤوس الأموال المهاجرة على العودة للاستثمار في الداخل، وتوفير فرص العمل. وتمثل سياسات الإصلاح الاقتصادي التي تتبعها الدول الاشتراكية كالمجر وبولندا والصين وغيرها دعمًا للرأي القائل بضرورة التخصيص وأهميته؛ إذ تعتمد تلك السياسات على تقليل القيود المركزية، وتطوير أساليب الإدارة، وإتاحة المجال للقطاع الخاص للمشاركة في دفع الاقتصاد الوطني، بل إن هذه الدول فتحت المجال أمام رؤوس الأموال الأجنبية للاستثمار، وإقامة مشروعات مشتركة معها، وبخاصة مع عدم توافر رؤوس الأموال الوطنية المدخرة، التي تستطيع شراء أصول المشروعات العامة. ففي بولندا مثلا، لايكفي مجموع الأموال الوطنية الخاصة المدخرة إلا لشراء ٥٪ فقط من هذه الأصول، وتحتاج إلى ستمئة عام لإتمام عملية التخصيص، في حين تحتاج المجر إلى مئتي عام للغرض نفسه.

وشملت عمليات تخصيص شركات القطاع العام ومؤسساته دولاً مختلفة تتباين اقتصادياتها، وتختلف أنظمة حكمها، ومن ثم جاء التطبيق متباينا، وتفاوتت تبعا لذلك درجات الإخفاق والنجاح، ولكن تبقى سياسات رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت ثاتشر أجرؤها جميعًا، نظرًا للخطوات الواسعة التي قطعتها في هذا الطريق، مما عرضها لانتقادات واسعة من قبل نقابات العمال والاقتصاديين والخصوم السياسيين، وبخاصة أن سياساتها طالت الضمان الاجتماعي، وبعض المرافق الحيوية. ومن أهم هذه الانتقادات أن كثيرًا من الشركات بيعت بأسعار أقل من

بين طرفي نقيض

قيمتها الحقيقية. وبلغ عائد سياسة التخصيص أكثر من ٢٥مليار جنيه استرليني في فترة عشر سنوات تمتد من العام ١٩٧٩م إلى العام ١٩٨٩م. ولم تخل سياسة التخصيص في بريطانيا من بعض القيود التي تضمن المصالح الاستراتيجية لها؛ مثل الاحتفاظ بالسهم الذهبي الذي يضمن للدولة التمثيل الدائم في مجالس إدارات الشركات ويتيح لها المراقبة وحماية مصالحها العليا، كما وضعت القيود على بيع بعض الشركات لأسباب عسكرية، وتقرر ألا يزيد حجم الاستثمار الأجنبي على ٢٠٪. وقد تفاوتت تجارب سياسات التخصيص في كل من فرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا وكندا والسويد والبرتغال، وغيرها. وتنوعت القطاعات التي بيعت للقطاع الخاص في هذه الدول، وحدود الإجراءات التي وضعت لتحقيق المصلحة العامة. كما شملت هذه السياسة دولاً في قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية؛ بل إن كوريا الجنوبية حققت أرباحًا في بعض الصناعات الأساسية مثل تكرير النفط والحديد والصلب وصناعة الآلات ثم باعتها إلى القطاع الخاص، من أجل الحصول على أموال لتمويل الصناعات الأخرى التي تدفع عجلة التنمية.

وطبقت بعض الدول العربية سياسة التخصيص على نطاق ضيق، وتعد مصر من أكثر الدول التي شهدت جدلاً شديدًا حول هذه السياسة، نظرًا لامتلاكها قطاعًا عامًا عريضًا يتولى توظيف ٣٦٪ من مجموع القوى العاملة، وبسبب ما وُجّه إلى سياسة الانفتاح الاقتصادي في حقبة السبعينيات من انتقادات، مما قاد إلى التردد في التوسع في تطبيق سياسة التخصيص، التي بدأ تطبيقها على بعض المرافق السياحية سواء بالبيع أو التأجير. ومن المجالات التي شملتها سياسة التخصيص في بعض البلاد العربية، القطاع الزراعي والنقل والمواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية ومصانع تكرير السكر ومطاحن الدقيق وشركات الأسمدة ومصانع النسيج وغيرها.

وعبرت خطط التنمية الاقتصادية الخمسية المختلفة في المملكة العربية السعودية عن الاهتمام الواضح للدولة بدور القطاع الخاص وأهمية مساهمته في عملية التنمية، وذلك بزيادة فرص تملكه المشروعات التي تقيمها الدولة وإدارتها وصيانتها، وتشجيع قيام شركات مساهمة، وتشجيع المنافسة بين مؤسسات القطاع الخاص كوسيلة لتنميتها ولتحسين أدائها، وعدم إقدام الدولة على أي نشاط إلا بعد عزوف القطاع الخاص عن الإقدام عليه، أو لدواعي استراتيجية التنمية. وهناك مجموعة من الحوافز التي قدمت ـ وتقدم ـ للقطاع الخاص، في شكل قروض وإعفاءات ضريبية وجمركية وحماية قانونية، إلى جانب الدعم المباشر وغير المباشر وغير ذلك من أشكال التحفيز والتشجيع؛ مما يوضح تميز التجربة السعودية في تطبيق سياسة التخصيص من التجارب الأخرى، سواء من حيث المنطلقات أو الأهداف أو طبيعة العلاقة القائمة بين القطاعين العام والخاص؛ إذ نبع خيار التخصيص من قناعة ذاتية بأهمية دور القطاع الخاص. ويجيئ هذا الاتجاه بصورة مرحلية متدرجة، تأخذ في الحسبان طبيعة كل مرحلة وظروفها الموضوعية، في إطار معايير اقتصادية، منضبطة بضوابط أخلاقية تستند إلى الشرع الحنيف.

وفي رأيي أن سياسة التخصيص في المملكة العربية السعودية سوف تؤدي إلى الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة، ورفع مستوى جودة السلع والخدمات، وزيادة إنتاجية المنشآت، وتطوير الكفاءة الإدارية التي تتمتع بالمزيد من المرونة والصلاحيات في اتخاذ القرارات، وتوفير فرص العمل للأيدي العاملة الوطنية، وتحقيق عائدات مالية للخزانة العامة، وتطوير الأسواق المالية وتنميتها، وتوفير المعلومات اللازمة لزيادة الفرص الاستثمارية المحلية، وغيرها.

وبتأثير الضوابط التي ستوجه هذه السياسة وتنظمها، فإن العلاقة بين القطاعين العام والخاص، لن تكون علاقة تنافس، بقدر ماهي علاقة تكامل من أجل الصالح العام؛ وتطبيق سياسة التخصيص لايعني إلغاء دور القطاع العام، وإنما يرمي إلى زيادة فاعليته، وتطوير قدراته الإدارية والتقنية، وتكريس دوره في تنمية الاقتصاد الوطني، من خلال التركيز على الصناعات الاستراتيجية ذات التقنية العالية، التي لايستطيع القطاع الخاص تمويلها وحده، ومن شأن هذا التكامل بين القطاعين العام والخاص أن يخفف العبء عن الميزانية العامة، ويحقق الأهداف المرجوة.

والمتأمل للمساجلة الدائرة بين مؤيدي سياسة التخصيص ومعارضيها يجد أنها قد أوغلت في التمسك بطرفي نقيض في تقويم دور القطاعين العام والخاص، في حين أنه من الصعب ترجيح كفة أحدهما على الآخر، إذ تقتضي الموضوعية ضرورة النظر إلى إيجابياتهما وسلبياتهما، في إطار الظروف التي تحكم نشاطهما، ومن ثم العمل على تكريس الإيجابيات ومعالجة السلبيات، ومحاولة إيجاد صيغة مثلى للتكامل بينهما، بما يحقق الأهداف التنموية.

وفي هذا السياق، فإن المناقشة ينبغي أن تنصب على حجم الدور الذي يجب أن يضطلع به كل منهما في حركة الاقتصاد الوطني، وفي ضوء الظروف التي تحكم هذه الحركة. كما لابد من النظر إلى تجارب الدول المتقدمة في تطبيق سياسة التخصيص انطلاقًا من محاولة الإفادة منها، لا لنقلها كما هي، دون تبصر بالفوارق التي تنشأ بين بيئات التطبيق ، أو دون إدراك للاختلافات في الهياكل الاقتصادية، ودرجات النمو الاقتصادي، وغيرها. ولاشك أن هذه التجارب ماثلة في الواقع مما يعين على دراستها واستخلاص نتائجها؛ ففي الإمكان ـ مثلاً ـ أن نفيد مما حققه الغرب من تقدم هائل في مجالات الإدارة والتخطيط والتنظيم، وما طبقه من نظريات تزخر بها هذه المجالات، ومعرفة مردود كل منها في الواقع الاقتصادي، والوقوف على مايتبعه من أساليب تطوير القدرات المهنية والفنية للعاملين، وطرائقه في تطبيق نتائج البحوث العلمية، وتجربته في إقامة علاقات وثيقة بين الشركات الكبرى ـ مثل IBM و جنرال الكتريك GE وغيرهما ـ والجامعات والمراكز البحثية. وفي الاتجاه نفسه، فإن هناك نماذج تستحق التركيز والتأني في الدراسة، كتجربتي اليابان وألمانيا واستطاعتهما تجاوز كارثة الحرب العالمية الثانية، واحتلال مركز اقتصادي متقدم في هذا العالم .

ومن جهة أخرى، فإن هناك جوانب سلبية لاتخفى في تجربة الغرب تسترعي الانتباه؛ إذ أدى تغليب المعايير الاقتصادية البحتة القائمة على مبدأ الربح والخسارة إلى تغييب القيم والمعايير الأخلاقية، فنجد أن الإنسان في الغرب يعيش تحت ضغوط نفسية شديدة الوطأة، يلهث في سبيل تأمين مستقبله مواجها بحقيقة عجز دخله عن الوفاء بحاجاته التي تتزايد بزيادة التطور التقني، مما يجعله فريسة سهلة للشركات العملاقة والبنوك التي تمنيه بالتسهيلات وتمارس عليه الاستغلال، فانتشرت ظاهرتا التقسيط والاستدانة اللتان أدخلتاه في دائرة (الأسر).

وقد استطاع شوميكر في كتابه القيِّم «الصغير.. جميل» SMALL IS BEAUTIFUL الصادر في العام ١٩٧٣م أن يبين هذه الحقيقة حين قال بأن اتخاذ الإنسان الربح أو المال مقياسا لكل شيء، وتطبيقه لهذا المقياس، جعله يخل بتوازنه، وبالتوازن الطبيعي من حوله، وجعل المال سيدًا له لا خادمًا. وكان هذا الكتاب الذي ركز اهتمامه على قيمة الإنسان في عملية الإنتاج، وأهمية المعايير الأخلاقية في ضبط النشاط الاقتصادي من بدايات اهتمامي بالدراسات الاقتصادية التي لا أدعي التعمق فيها.

ولاتقتصر التجارب الاقتصادية التي تستحق الدراسة على الغرب؛ فتجارب الدول الاشتراكية السابقة وبعض الدول النامية حافلة بالدروس والنتائج التي يجب إمعان النظر فيها والإفادة منها.

ومجمل القول إن نجاح أي بلد في تطبيق سياسات اقتصادية محققة لأهدافها التنموية ـ ومن بينها سياسة التخصيص ـ يتوقف على مدى قدرتها على إيجاد الوسائل التي تلائمها، والتي تنبع من استقراء عميق لبيئتها، والبيئات الأخرى المحيطة بها، مما يجعل سياستها تأتي متسقة مع ظروف الواقع؛ دون نزوع إلى إفراط في التفاؤل أو التشاؤم.

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الفيصل
العدد (٢٢٤) - السنة (١٩) - صفر ١٤١٦هـ - يوليو ١٩٩٥م



مسرح طفل ماقبل المدرسة: الحرية المنظمة!

يعنى العالم المتقدم بمسرح طفل ماقبل المدرسة بهدف تعويد الأطفال التعبير عن أنفسهم، وتدريبهم على التفكير السريع والمنطقي الذي يواجهون به المواقف والمشكلات الطارئة، إضافة إلى زيادة حصيلتهم اللغوية.

ويقال إن هذا النوع من المسرح كانت بدايته مع قصة (علي كوجيا) العربية. فما تفاصيل هذه القصة التي كان الخليفة هارون الرشيد أحد أطرافها؟ ولماذا لم ينتشر مثل هذا العمل الابتكاري؟

الأديب عبد التواب يوسف يكتب عن عجائب ماشاهده في أحد مسارح الأطفال بنيويورك، وعن «خيال الظل» و«الأراجوز»، ويتساءل: كيف نجعل الطفل يمارس لونًا من الحرية المنظمة؟

ص٧١



أجرا: مدينة تبني صرحًا للوفاء

عُرف المغول بأنهم قوم غلاظ القلوب، لايقيمون وزنا لعلم أو فن أو حضارة. هكذا تحدث التاريخ عن تيمورلنك، وجنكيز خان، وهولاكو. ولكن التاريخ يقول: إن السلاطين بابر وأكبر وجاهنجير وشاهجهان - وهم من المغول أيضا - شيدوا آثارًا فنية رائعة في ربوع الهند، يقف العالم مشدوها أمامها، منها: تاج محل، وقصر الشكر، والقلعة الحمراء، وغيرها..

كيف تحول هؤلاء المغول من الغلظة والشدة إلى التسامح والرحمة، ومن الجهل إلى الإبداع؟ عواطف شلبي زارت مدينة أجرا الهندية، ونقلت مرئياتها عن الآثار الإسلامية فيها.

ص٨٤



التوازن الغذائي: غاية تدرك!

يكثر التساؤل عن النظام الغذائي الأمثل الذي يحافظ على توازن المعادن في الجسم، ويتيح للإنسان التمتع بصحة جيدة. وتعددت الإجابات عن هذا التساؤل، حتى أصبح هناك اعتقاد بأن ذلك غاية لاتدرك، مهما اتبعنا نصائح الخبراء والمختصين.

ومما يزيد في حيرة الإنسان أن أجدادنا عاشوا أصحاء موفوري العافية، دون أن يكون لديهم هذا الجيش من الخبراء. ترى ما سر هذا اللغز؟ ولماذا تزايد انتشار أمراض الروماتيزم، والحساسية، والكلى، والقلب، والأعصاب، وغيرها؟

درويش مصطفى الشافعي يحاول الإجابة من خلال تناول عنصر المغنزيوم (MG) أحد العناصر المهمة لسلامة العقل والبدن.

ص٩١

رئيس التحرير

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

من كتّاب العدد



د. نبيل محمد توفيق السمالوطي

- من مواليد الفيوم، مصر ١٩٤١م.
- دكتوراه في علم الاجتماع ١٩٧٣م.
- عمل أستاذا ورئيسا لقسم الاجتماع ووكيلا لكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ويعمل حاليا أستاذًا لعلم الاجتماع بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض.
- له (٢٢) كتابًا، و(٣٦) بحثًا ومقالاً، وحضر عددًا من المؤتمرات العلمية المعرفية والدولية.



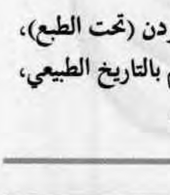
د. عدنان محمد آل طعمة

- من مواليد كربلاء، العراق ١٩٤٨م.
- تخرج في جامعة المستنصرية في بغداد، وكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ثم حصل على الدكتوراه في تاريخ الأدب الأندلسي والدراسات الشرقية من جامعة غرناطة في إسبانيا.
- من مؤلفاته: موشحات ابن بقي الطليطلي، المختار الأنيس لابن بشري، تاريخ عبدالرحمن الناصر، النفحة النسرينية والدولة المرينية، صلة الصلة في علماء الأندلس لابن الزبير (تحقيق)، عقود اللآل (تحقيق)، القند في معرفة علماء سمرقند (تحقيق)، وغيرها.



درويش مصطفى الشافعي

- أردني الجنسية.
- حاصل على بكالوريوس علوم حياتية، تخصص علم بيئة من جامعة أرسطوطاليس، اليونان ١٩٧٨م.
- عمل مشرف تجارب حيوانات مخبرية في الجامعة الأردنية، ومدرسًا للعلوم الحياتية في الجزائر، ويعمل منذ عام ١٩٨١م في متحف التاريخ الطبيعي الأردني الذي قام بتأسيسه في جامعة اليرموك.
- من مؤلفاته: الطيور البرية في الأردن، الحيات والثعابين في الأردن (تحت الطبع)، وقدم عددًا من الأبحاث العلمية إلى جهات محلية ودولية تهتم بالتاريخ الطبيعي، وله مقالات علمية منشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.



إبراهيم عبدالله العلو

- من مواليد الرقة، سورية ١٩٦١م.
- حاصل على بكالوريوس الهندسة الزراعية جامعة ولاية تنسي الأمريكية ١٩٨٤م، وعلى دبلوم في البستنة من الجامعة نفسها ١٩٨٥م.
- عضو الجمعية الأمريكية للمهندسين الزراعيين.
- له مقالات متعددة، منشورة في الدوريات العربية والإنجليزية. كما حضر بعض المؤتمرات العلمية في مجال تخصصه.
- يجيد الإنجليزية والفرنسية.



الحرف والصناعات الشعبية

إعداد: محمد بن علي القعطبي - حسين حسن حسين

جُبل الإنسان، منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى، على محاولة التكيف مع بيئته، وإعمال العقل للإفادة من مكوناتها قدر المستطاع. وتفاوتت حظوظ الأمم والشعوب في هذا التكيف، بقدر اختلافها في سلم التحضر والمدنية، ولكنها - على اختلافها - كانت تتقدم وتزداد قدرتها على توظيف ما في بيئتها من خيرات ونِعَم كلما مر الزمن، وتراكمت لديها المعارف والخبرات، فما لم يكن في استطاعة جيل أن يفعله، يكون متاحاً للجيل الذي يليه، وهكذا يستمر التقدم ويطَّرد.

ويؤثر المناخ تأثيرًا كبيرًا في تحديد الأنشطة والمهن التي تتجه إليها المجتمعات لتدبير معيشتها، وتأمين متطلبات حياتها، وإشباع حاجاتها من المأكل والمشرب والملبس؛ فنجد بلاداً تروج فيها حرفة الزراعة، لأنها تقع على ضفاف أنهار أو بحيرات أو يكثر فيها سقوط



هل يجرفها تيار التقنية الحديثة؟

الأمطار. وأخرى تقع في الصحراء تتخذ من الصيد البري حرفة رئيسة لها، أو تطل على بحار ومحيطات فتعمل في صيد الأسماك. وهكذا تتعدد الحرف وتتكامل أيضا، إذ إن هناك حرفًا يرتبط بعضها ببعض، كما لو كانت حلقات في سلسلة واحدة. فصيد الأسماك ـ مثلا ـ يرتبط بصناعة السفن وحذقها، بحيث تتباين أنواع السفن بحسب الأغراض التي تصنع لها، وهذه الصناعة ـ بدورها ـ تنعش التجارة، وتشجع على التبادل التجاري مع البلدان المجاورة، واستيراد مواد خام تدخل في صناعات أخرى، تعين على تلبية حاجات المجتمع، ورفع مستوى أفراده. بل إننا نجد أن صناعة السيوف ـ مثلا ـ تقتضي عمل النجار والحداد والصائغ ودابغ الجلود؛ فالصناعات والحرف تتكامل مع بعضها، وتختلف في أهميتها باختلاف المجتمعات.

ولقد تميزت الجزيرة العربية منذ العصور الأولى بتنوع أنشطة السكان وتعدد المهن والحرف التي يزاولونها؛ فاشتغلوا بالرعي وتربية الماشية والزراعة والصيد والصناعة، والحرف اليدوية؛ كالنجارة والحدادة والحياكة والصياغة والدباغة والبناء وغيرها.

وتفاوتت منازل هذه المهن والأنشطة عند العرب، فكان كثير منهم في الجاهلية ينظرون إلى أصحاب الحرف اليدوية بنوع من عدم التقدير، حتى إن أحدهم كان إذا أراد تحقير إنسان وصفه بابن الصانع.

ويزخر تراث الهجاء العربي بأشعار تبيّن نظرة المجتمع الجاهلي إلى أصحاب الحرف؛ فنجد عمرو بن كلثوم يُعَيِّر النعمان بن المنذر بأن أمه كانت من أسرة تشتغل بالصناعة، حيث يقول:

لحى اللّه أدنانا إلى اللؤم زلفةً
وألأمنا خالاً وأعجزَنا أبا
وأجدرَنا أن ينفخ الكِير خالهُ
يصوغُ القروط والشنوف بيثربا

وكان احتقار العرب للصناعة سببًا في أن تكون حكرًا على الأرقاء والموالي. ولم تكن الحرف على



صناعة القلائد من الذهب والفضة والأحجار الكريمة

درجة واحدة من هوان المنزلة؛ بل كانت تتفاوت من حرفة إلى أخرى. وقد أتاح ذلك الفرصة لليهود كي يكونوا مركزًا للثروة، لاحترافهم المهن التي كان يأنفها العرب.

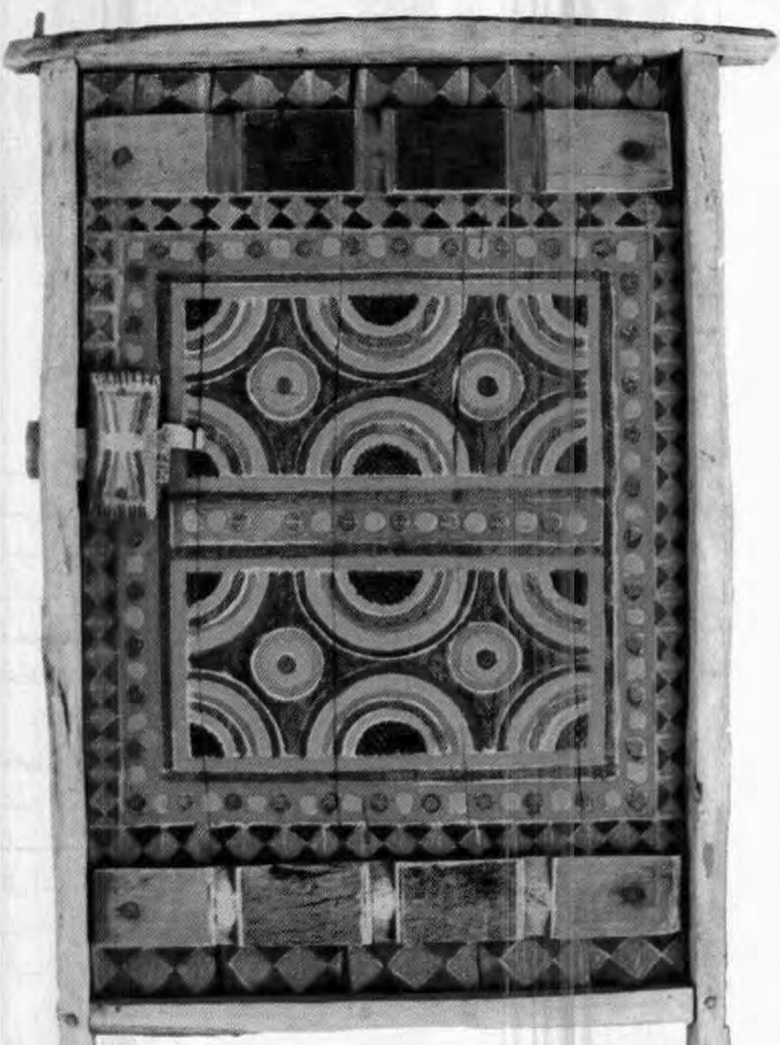
وعندما جاء الإسلام غيّر من هذه النظرة المتدنية للحرف وأصحابها، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب الناس في الكسب وامتهان الحرف التي تدر الرزق وتحمي من ذل الحاجة، وهناك أحاديث كثيرة تعلي من شأن العمل وتحث عليه مهما كان نوعه، مادام عملاً شريفا لاشبهة فيه.

وفي ظل الإسلام ازدهرت صناعات وحرف متعددة، وكان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم يزاولون بعضها. ومع مرور الزمن، تَكَوَّن تراث زاخر من العادات والتقاليد و(الأصول) المرتبطة بكل حرفة من الحرف، فغدا لكل منها أسرارها ودروبها التي تتوارثها الأجيال وتضيف إليها، ولكن عصرنا التقني بآلياته وأدواته أصبح يهدد كثيرا من هذه الحرف والصناعات بالاندثار، فبات من الطبيعي أن نتساءل: كيف يمكن حماية هذا الموروث الشعبي، وما التدابير الكفيلة باستمراره؟.

الإجابة عن هذا السؤال تقتضي الموازنة بين حال الصناعات والحرف في الماضي وحالها في عصرنا الحاضر. وإجراء هذه الموازنة يتطلب توافر الإمكانات المادية والكفاءات البشرية المتخصصة التي تدرك مراحل تطور هذه الحرف والصناعات، والأطوار التي مرت بها، إلى أن صارت إلى ماهي عليه اليوم، علمًا بأن هناك تراثا أدبيا زاخرًا يرتبط بهذا الموروث من الحرف والصناعات؛ فقد أبدع أرباب الحرف في وصف حرفهم ومساكنهم وطعامهم وملابسهم ومراكبهم شعرًا، وكذلك كثر المديح والهجاء للحرف وأصحابها، وارتبطت بكل حرفة أهازيج يرددها أصحابها حين انهماكهم في العمل.

ولكن التعلل بضعف الإمكانات لايمنع من المحاولة والتنبيه إلى ضرورة الاهتمام بالحرف والصناعات الشعبية حتى لايجرفها تيار التغيير فتصبح أثرًا بعد عين.

وجاء انعقاد المهرجان الوطني التاسع للتراث والثقافة في مدينة الرياض في ذي القعدة الماضي مناسبة لاستطلاع آراء الحرفيين والصناع، وتعرف رؤياهم لمستقبل حرفهم وصناعاتهم، مع إشارات إلى تاريخها، اعتمدنا فيها على بعض المراجع والدراسات اليسيرة المتوافرة في هذا المجال، وبالطبع لم يكن في المستطاع تغطية الحرف والصناعات كافة، ومن ثم اقتصر التناول على



باب خشبي مزخرف يعود للقرن التاسع عشر



الهاون النحاسي، لايستغني عنه بيت



المسابح، فن جميل وأشكال متعددة



عقد مصنوع من اليُسر والعقيق

بعضها، لكنه يكفي للتساؤل: ما مستقبل الحرف والصناعات الشعبية في ظل التطور التقني؟ وهل يمكن أن تمثل رقما في اقتصاديات بلداننا العربية؟

النجارة

قال ابن منظور في اللسان: «النَّجْر نحتُ الخشبة، نَجَرها ينجرها نجرًا: نحتها، والنجار: صاحب النجر، وحرفته النجارة».

وقال عنها ابن خلدون: «هذه الصناعة من ضرورات العمران ومادتها الخشب.. ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر؛ فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسيّ والسهام لسلاحهم، وأما أهل الحَضَر؛ فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم، والكراسي لجلوسهم، وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها، ولاتصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة... وفيما يقال إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة».

وقد استخدم الخشب في صنع أثاث البيت وفي كثير من الأدوات المستخدمة في حياة الإنسان، وورد ذكر الأرائك في القرآن الكريم مما يدلّ على معرفة العرب بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ (يس:٥٦)، كما ورد ذكر السرر والكراسي والعرش.

وكانت العرب تصنع أواني الطعام من الخشب لاسيما الأواني الكبار، ومنها الجفان وهي كما ورد في اللسان: أعظم مايكون من القصاع، وفي المثل «أدعُ إلى طعانك من تدعو إلى جفانك»، أي استعمل في حوائجك من تخصه بمعروفك.

والخشب الذي يستخدمه النجارون نوعان: نوع مستورد من الهند وأفريقيا، وهو النوع الجيد الصلب القوي المقاوم للآفات، ويستخدم في الأثاث الفاخر وفي القصور، وهو من شجر الساج والأبنوس والصندل. ونوع من أرض الجزيرة وهو دون الأول يستخدم في الأعمال النجارية العادية، ومنه السدر وأقوى منه الجوز والنضار ومنه



الأواني النحاسية، كيف تصمد في وجه الأواني المستوردة



دلال القهوة، رمز الضيافة العربية

التـألب والشـوحط والنبع والقـرظ والعرعر.

أما الطلح والقتاد والسدر الجبلي فهي من الأشجار العظيمة جداً.

ومن الأشياء التي كانت تعتمد على الخشب في صناعتها بعض الأسلحة كالدبابة والمنجنيق والأقواس والرماح وأغماد السيوف ومقابض السكاكين والخناجر.

وقد كان أبو رافع رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً بنحت الأقداح، وكان قبل ذلك ينحت للعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة زمزم بالمسجد الحرام.

وصُنعت السرر من الخشب، وقد أهدى أسعد بن زرارة للنبي صلى الله عليه وسلم عند مقدمه إلى المدينة سريراً قوائمه من نوع من الأشجار الضخمة يعرف بالساج، ورحله - أي ظهره - من خزم، وهو شجر تُتخذ من لحائه الحبال، فكان صلى الله عليه وسلم ينام عليه حتى تحول إلى منزل عائشة فوهبه لها، ثم تُوفي فوضع عليه وصُلي عليه، وحُمل عليه أبو بكر وعمر بعد وفاتهما، وكان الناس يأخذونه بعد ذلك يحملون عليه موتاهم يطلبون بركة النبي صلى الله عليه وسلم.

كما صُنع له - صلى الله عليه وسلم - منبر من خشب في السنة السابعة من الهجرة من طرفاء المدينة، صنعه نجار لامرأة من الأنصار وجعله على ثلاث درجات، ويقال إن سبعة نجارين اجتمعوا على صنعه.

وقد عُرف أهل الحجاز بصناعة الهودج، وهو مركب خاص بالنساء يحمل على ظهور الإبل، يصنع من العصي، ثم يجعل فوقه الخشب ويقبب بأستار تمنع الناس من نظر المرأة التي فيه، وقد استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم في نقل نسائه أثناء غزواته.

وأعمدة الخيام والمِيْتَدَة التي تدق بها الأوتاد كلها من مصنوعاتهم.

وقد ورد في تاج العروس للزبيدي وغيره بعض أدوات النجارة، ومنها المنشار والفأس والمثقب والمحفرة والكلبتان (أداة يؤخذ بها الحديد المحمي وغيره) والمسمار والقدوم والنصاب والوشيظة (قطعة خشب يصلح بها القدح).



المبخرة، لايستغني بيت عن عطرها الفواح

ولاتزال نجارة الصحاف موجودة إلى يومنا هذا، وكانت إلى عهد قريب من ضرورات بيت الزوجية في المنطقة الجنوبية من المملكة، فلايتزوج الرجل إلا إذا كانت في بيته صحاف تستخدم من نوع من الخشب يقال له الغرب.

كما يصنع نجار الصحاف في هذه المنطقة المكاييل لقياس مقدار الحبوب، والمقارن وهو أداة خشبية تستخدم لقرن الأبقار ببعضها عند الحرث. وشجر الغرب هذا مرغوب في تلك المنطقة لقوته وخفته. وكلفة الشجرة الواحدة حاليّا (٥٠,٠٠٠)ريال، وتتم زراعة هذه الشجرة في القرية ثم تنقل بعد ذلك إلى أماكن وعرة تتطلب نموها حتى تكبر وتصبح صالحة للاستعمال، فتنقل بآلات النقل وتشق لها طريق بالشيولات ليمكن الوصول إليها ونقلها. ومن أشهر الأماكن التي تزرع فيها باللسمر وباللحمر وبلاد بني شهر وبلاد بني عمر وبلاد بالقرن.

ظاهرة الحنين إلى الماضي

يقول محمد سليمان المزيني، نجار من القصيم:

أعتمد في عملي على أخشاب شجر الأثل، واعتقد أنها أفضل من أخشاب الماجنو التي يستوردونها.

أصنع الأبواب، والنوافذ، والسواني، والمناجر، والكمار (مكان يعد في المجلس لوضع الدلال والعود والقهوة)، وقد حلت الماكينة محل المشرحة التي كنا نستخدمها لشق الخشب، كما أصبحنا نستخدم البويات بدلاً من أصباغ الأشجار التي كنا نستخدمها في التلوين بعد إضافتها إلى الصمغ العربي الذي يؤخذ من شجر الطلح.

استخدم النار في عمل النقوش، واعتقد أن خريجي هذه الأيام في المراكز والمعاهد المهنية لايستطيعون عمل مانقوم به، لأن الممارسة أهم في معرفة تفاصيل المهنة وهندستها.

أشعر بوجود حنين يشد الناس إلى الماضي؛ فكثيرون ممن يبنون بيوتاً هذه الأيام يحرصون على استخدام الأبواب القديمة برسومها ونقوشها وزخارفها، وقد بعت الباب الذي أتيت به للمشاركة في المهرجان في اليوم الأول بمبلغ ألفي ريال، كما يوجد من يستخدمون السواني في ري أراضيهم.

فضل أبنائي الوظائف الرسمية على المهنة، وهم لارغبة لهم في مزاولتها.

من الأدوات التي استخدمها: الفرجار والقادومة والسكين والمتر والمخرطة والمِبْرد (وغيرها مما هو مذكور آنفا).

الحدادة والصياغة وصناعة السيوف

الحديد من المعادن المتوافرة منذ القديم في الحجاز واليمن والساحل الشرقي المطل على الخليج العربي، وقد عرف العرب في الجاهلية صناعة الحلي وإذابة المعادن.

وقد استعمل الأتون في إذابته؛ إذ توقد النار أسفل الأتون لتذيب الحديد وتحيله إلى سائل يسيل من فتحة في جانبه فيشكل بالشكل المراد، ويخرج الدخان من فتحة للتهوية تكون في آخر الموقد، وهذه الطريقة كانت معروفة عند الرومان



بندقية صنعت في نجد عام ١٩١٠م

واليونان والفرس والعرب.

وقد اشتغل بهذه المهنة الموالي، وكان العرب يأنفون منها غالبًا؛ إلا أنه ذكر أن العاص بن هشام أخا أبي جهل كان حدادًا، وقد كان في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من يعمل بهذه المهنة كخباب بن الأرت - رضي الله عنه -، وعمل بها اليهود في الجزيرة، وكانت مصدر دخل كبير لهم.

واشتهر الحجاز بوجود عدد كبير من الحدادين، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر أحضر منها ثلاثين حدادًا إلى المدينة.

أما المصنوعات الحديدية التي اشتهر بها؛ فمنها المعادن ونصال السكاكين والمقراض والإزميل، ومنها حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس، وكذلك المبرد والمنجل وجفان الحديد، إلى جانب آلات الحرب من سيوف ورماح ودروع وسنان وسهام وترس وبيضة، إضافة إلى آلات الزراعة كالمسحاة والفأس وغيرها، وصنعوا كذلك آلات البناء والحفر، والأواني المنزلية كالقدور وغيرها.

ومن الأدوات التي يستخدمها الحدادون: المطرقة (لطرق الحديد)، والسندان (مايوضع عليه الحديد لطرقه بعد التسخين)، والمبرد (لبرد الحديد والخشب) والمقص (لقص شرائح الحديد)، والمشقاق (لشق الحديد).

وأما آلات الحرب التي صنعها العرب؛ فمنها السيف وهو أشهر أدوات القتال، ذو حد وذو حدين، وقد يكون رأسه مدببًا أيضا فيستعمل للطعن، ويقال لحديدة السيف النصل، وحدّه ظُبَة، وكان العظماء والملوك يحلون سيوفهم بالذهب والفضة.

ويسمى صاقل السيوف الصَّقَّال والصَّيْقَل، وأداته المِدْوَس وهي خشبة يُشدُّ عليها مِسَنٌّ يَدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه.

وكانت اليمن من أشهر المناطق العربية في صناعة السيوف كما كانت تصنع في مكة وفي نجد، وقد تستورد من خارج الجزيرة من الشام أو من البصرة.

وكانوا يحبون من السيوف ماكان خفيف النصل رقيق الشفرتين أملس لينا صقيلاً أبيض، يتلألأ حدّه وتبرق صفحته.

ومن آلات الحرب: الرماح ومنها الطويل والقصير. والرمح مكون من ثلاثة أجزاء رئيسة: القناة: وهي القائم الخشبي الذي يدخل في أعلاه السنان ويثبت في أسفله الزُّج، ويصنع من نبات الوشيج أو المران أو القصب الهندي.

والسنان: وهو النصل. وقد استحسنوا منه ماكان صافيًا لامعًا حادًا ماضيًا مصقولاً متوقدًا أزرق أو أحمر. واشتهر من السنان السنان الشرعبية. والزج: وهو حديدة في أسفل الرمح ولم يكن يستخدم بكثرة.

وهناك أقسام أخرى للرمح منها الجبة ،وهو الجزء الذي تدخل فيه القناة في السنان ويسمون رأس السنان المدبب ظبة.

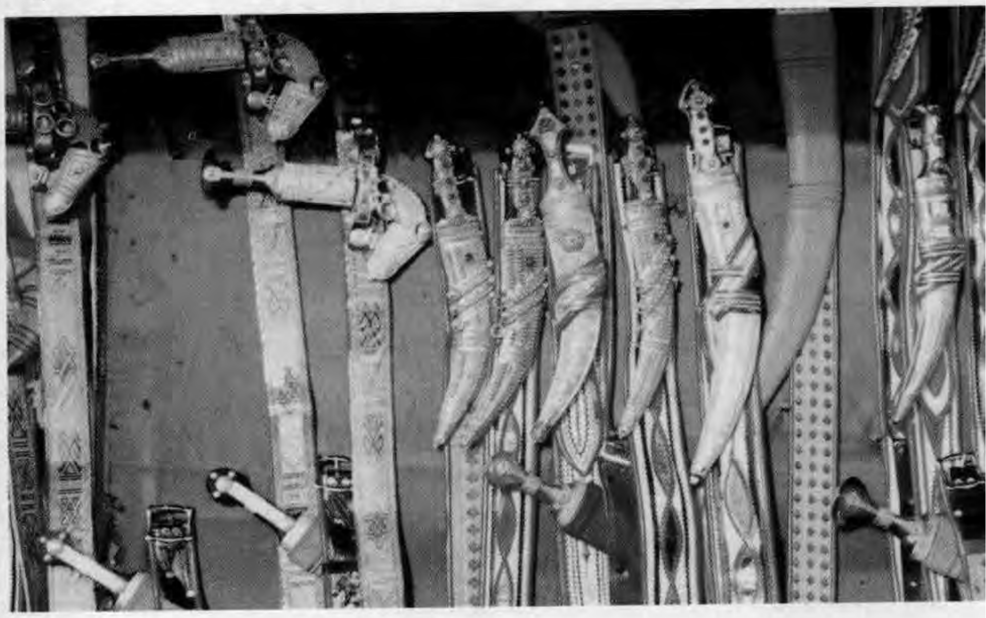
ويفضلون قائم الرمح أصمّ غير أجوف، معتدلاً أملس مرنًا، يضطرب عند اهتزازه لدنًا لينًا، ومن أسمائها الردينية، والسمهرية وهي الشديدة، والخطيّة وهي منطقة بعمان أو باليمامة، واليزنيّة منسوبة إلى ذي يزن.

ومن آلات الحرب: الدروع، وهي ما يلبس من الحديد. وقد لبسه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وقد صنعت من أيام داوود وسليمان عليهما السلام إذ ألان الله لداوود الحديد. قال تعالى: (ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبالُ أوِّبي معه والطيرَ وألَنَّا له الحديد﴾ (سبأ: ١٠).

ومنها المفاضة التي تشمل السواعد والأكف والأبدان. وقد تفننوا في صناعتها من أجود أنواع الحديد، وجعلوها فضفاضة لينة ذات نتوءات، وبعضها مضاعف الحلقات، وتربط حلقات الدرع بعضها بواسطة مسامير محكمة الصنع.

ومن آلات الحرب: القوس والسهم، ومن أسمائها الماسخيّة نسبة إلى رجل من الأزد هو أول من عملها، والرضوية نسبة إلى جبل رضوى قرب ينبع، وكانت تؤخذ من شجرة القسي، ومنها العصفورية.

وتتكون القوس من أجزاء هي:



السيوف والخناجر والجنبيات، لماذا قلّ الإقبال عليها؟

السِّيتان (واحدتها: سِيَة) والذراعان والمقبض، إضافة إلى الوتر، وكبد القوس وهو الموضع الذي يمرّ منه السهم عند الرمي. ويصنع الوتر عادة من جلد الإبل غير السمينة، أما خشب القوس فمن شجر الجبال وأحسنها النبع.

أما السهام فهي التي ترمى بها الأهداف، وتتكون من أربعة عشر جزءاً.

ويُصنع السهم من خشب قوي مثل الشوحط ويوضع لها الريش، ويختار لها الريش اللين، وترتب بحيث تكون بطن الريشة إلى ظهر الأخرى، وقد تُسَمّ فيتضاعف خطرها.

ومن آلات الحرب: الترس والبيضة، ويتخذ الترس للوقاية ويصنع من الخشب ويغطى بالجلد الذي قد غمس في الزيت حتى لايتشقق، وربما صنع كله من جلد ثخين كجلود الجمال والبقر وبعض الحيوانات الوحشية، ويمسكه المحارب بيده اليسرى ليحميه من السهام والرماح والسيوف والحجارة وهي في الغالب دائرية على شكل قرص.

أما البيضة فهي غطاء الرأس وتصنع من الحديد أو المعادن الأخرى، وربما كانت غالية الثمن، فيندر استعمالها في الحروب، وقد تكون موشاة بالذهب أو الفضة، مما يدل على أن العرب عرفوا الصياغة أيضا.

وكان يعمل في هذه الصناعة اليهود والموالي، واشتهر بها من اليهود بنو قينقاع في المدينة المنورة، ولم تخل مكة من الصائغين، وكذا مدن كثيرة في الجزيرة العربية، فصنعوا القلائد والخواتم والأقراط والأساور والخلاخيل وغيرها من الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان ومن الأحجار الكريمة كالخرز والعقيق. وكتبوا عليها أسماءهم ورسموا عليها نقوشا فنية. واستخدم بعضهم أواني من الذهب والفضة في الجاهلية حتى حرم الإسلام ذلك. وتفنن الصاغة في تحلية السيوف بالذهب والفضة، وسكوا النقود من الذهب والفضة وغيرهما؛ فسك الخليفة عبدالملك بن مروان الدنانير من الذهب والدرهم من الفضة، وجاء في تراجم الأعلام أنه كان مشبك الأسنان بالذهب، ونقش على خاتمه عبارة (آمنت بالله مخلصاً).

الصناعة أمان من الفقر

يقول حسين علي بن حسن بو سعيد، صفّار (حداد) من مدينة الأحساء بالمنطقة الشرقية: أعمل حداداً وصفاراً للدِّلال والقدور والقدوم والسكاكين و(المطبخيات) وحَميس القهوة (المحاميس) ومختلف الأواني المنزلية والزنود والأخلة والمخارز، ولي في هذه المهنة حوالى ستين عاماً، وقد توارثتها عن الأجداد. وفي اعتقادي، أن دلال القهوة التي نصنعها أفضل كثيراً من (ترامس) اليابان وغيرها.

تمر صناعة الدلة بعدة مراحل، وهي تتكون من أربع قطع، يتم تلحيمها معًا وصبها، ويأخذ تصنيع دلتين نهاراً كاملاً، وأسعارها تتراوح من ٧٠ إلى ٨٠ ريالا وقد تزيد.

المواد الخام التي نستخدمها: الخشب والرصاص والحديد للتنظيف، والنحاس الأحمر للحام، و(الماو) الأصفر لتصفير الأواني، ومن هنا جاءت اسم الحرفة (صفّار)، ويستورد من الهند، ويتراوح سعر الكيلو بين ٨ إلى ٩ريالات، وتستخدم الجِلاب لمسك الدلة عند لحامها.

هناك إقبال على بعض المصنوعات كالدلال و(المحاميس) وقلّ الطلب على السيوف والبنادق

لم يعد الشباب يقبل العمل بهذه المهنة، لأنها تحتاج جهداً كبيراً، وهم يفضلون الدراسة، لذلك قل عدد العاملين في هذه المهنة، وليتهم يدركون أن «صناعة في اليد أمان من الفقر».



ثوب مصنوع في الحجاز (قبل ١٩٦٠م)

الخياصة

(صناعة الخوص)

جاء في المعجم الوسيط: الخُوص: ورق النخل والمُقْل والنارجيل وما شاكلها، وأخْوَصَت النخلة: تشققت عن الخوص فبدا، والخَوَّاص: بائع الخوص، والذي يعمل الأشياء منه.

وقد انتشرت هذه الحرفة في كثير من البلدان العربية، نظراً لوجود أشجار النخيل بها. وكانت المدينة المنورة من أكثر المدن المعروفة بهذه الصناعة لاشتهارها بزراعة النخيل، ويقال إن سلمان الفارسي تعلم هذه الصنعة في المدينة بعد الهجرة، وظل يعمل بها حتى بعد أن أصبح أميراً على المدائن.

ومن الصناعات التي يستخدم فيها الخوص:

- صناعة الحُصرُ: التي تستخدم كفرش أو سجادات للصلاة.
- القُفف: وهي أوعية (مقاطف)



الثياب اليدوية ـ في رأي صانعيها ـ أجمل من الثياب الجاهزة



الصباغة اليدوية للأقمشة، تعجز عن الصمود أمام المصانع الحديثة

توضع فيها الأمتعة والمحاصيل.

ـ الزُّبُل: مفردها زبيل، وهي نوع من القفف تستخدم لرفع الرمال والحصى وغيرها عند حفر الآبار، وما شاكل ذلك.

ـ السفر: موائد الطعام.

كما يستفاد من ليف النخل في صنع بعض أنواع الحبال، وفي حشو الوسائد والفرش، ويستعمل جريد النخيل في صناعة أقفاص للفواكه والتمور والدواجن، وأسرة للأطفال (منزّ، أو مهد).

الأبدال الصناعية تسود

محمد حسين آل مسعد، صانع خوص من نجران، قال عن مهنته: يفصل ورق السعف عن عود الجريد، ويتم تجفيفه خلال يوم أو يوم ونصف، وبعده يشق ويوضع في الماء، ليكون بعد ذلك جاهزاً للاستخدام.

تختلف أغراض الأواني التي تستخدم الخوص في صناعتها: فالمخْرف للتمر، والزبيل للحبوب، والسفرة لتناول الطعام، والمنعشة تشبة الخرج، وتستخدم لحمل الأشياء عند الرحيل من مكان إلى آخر، ونصنع كذلك قبعات للوقاية من حرارة الشمس.

أما الجونة فتصنع من النمص، (وهي من النباتات العشبية، تنبت في الأراضي الرطبة، وأوراقها أسطوانية طويلة، وهي التي تصنع منها السلاسل والحصر والأطباق وغيرها).

الجونة الكبيرة كانت تستخدم لتخزين الخبز، فلا يتعفن، وكانت الصغيرة لحمل فناجين القهوة في أيام الحج.

من الأدوات المستخدمة: المسلة وهي نوعان: خشبي من عود الشوحط، وتستمر لسنوات طويلة، والآخر معدني، وهو يستخدم في عمل العراوي (المقابض التي تحمل منها السلاسل وغيرها).

نصنع مخرفين في اليوم، بينما لانصنع غير أربع قطع من الجونة شهريًا.

نُرغب أبناءنا في تعلم الصنعة، وهم لديهم فكرة من خلال المعايشة، وإن كانوا لايفضلونها. فالصناعة لم تعد كالسابق، وأصبحت الأبدال الصناعية هي السائدة.

المصنوعات الجلدية

تمر المصنوعات الجلدية منذ القدم وإلى اليوم بمراحل مختلفة، وأول مرحلة لها هي الدباغة، وفي الحديث: «أيما إهاب دُبغ فقد طَهُرَ»، والإهاب معناه الجلد.



ويعالج الجلد قبل دبغه بمواد مختلفة لترقيقه وتنظيفه وصقله.

ومن الأماكن المشهورة بالدباغة في الجاهلية جرش وصعدة في اليمن. وكانت مكة ـ كذلك ـ مشهورة بدبغ جلود الإبل والبقر والغزلان، وكذا صنعاء ونجران وزبيد وحضرموت ونجد، وقد وصف الهمداني الطائف بأنها بلد الدباغ ، مما يدل على كثرته فيها وشهرتها بالدباغ.

وكانت الأدم، وهي الجلود المدبوغة من هدايا قريش إلى الحبشة لحمل النجاشي على إيذاء المهاجرين من المسلمين إلى بلاده.

وأهم النباتات المستخدمة في الدباغة الأرطَى والحُلبة والدِّهناء والسَلَمَة والشث والصِّرف والظَّيان والعفص (البلوط) والعرْفة والغَرْفة والقَرَظ والقرنوة والقرضِم وهو قشر الرمان والنَّجَب (قشور سوق الطلح).

ومن أسمائه الأديم، والحور ويستعمل بطانة للجلود الأخرى، والقضيم وهو الأبيض الذي يكتب فيه، والنصَع والسِّبت، والمذاهب وهو الذي يموّه بالذهب. وتصنع منه النِّعال والسيور والسياط، وما يكتب عليه، واستخدم في صنع الدروع والخوذ والسروج واللجام والرش والغرز.

كما استخدم كأوعية للماء والخمر والسمن والطيب. ومن أسمائها الأصيص والبدرة والجراب والحَميت ويستخدم للسمن، والدَّن والزِّقّ وأكثر مايستخدم للخمر، والزير والسقاء ولايكون إلا للماء، والوَطب والشَّكوة وتستخدم للّبن،

والعُكَّة من ثلاثة جلود للمـــاء وللســـمن، والنِّحيُ، والطِّراف وهو بيت من جلد.

واستخدمت كذلك في القباب، وهي غالية لم يستخدمها إلا ذو جاه أو مال.

الأبناء لايهتمون

عن عمله في الدباغة يقول دالي مـرزوق ريحـان من رجلة بمدينة نجران:

أقوم بعمل المصنوعات الجلدية، وهذه المهنة متوارثة في الأسرة، إلا أن الأبناء لا أحد منهم يرغب في العمل بهـا، ولكن كـبـار السن لايزالون حريصين عليهـا، لأنهم متعلقون بالعادات والتقـاليد القديمة. وأول خطوة في دباغة الجلد، وضع الغلقة في جوف الأديم، حيث يتسـاقط الشعر، وما علق به من لحم، وبعد مرور يوم كامل يوضع الجلد في الماء والقرظ، فيكون جاهزًا للاستعمال لأي غـرض من الأغـراض، دون أن تبقى فيه أي رائحة غير مستحبة.

وجـاء في لسـان العـرب عن الغلقة: هي عشبة تجفف وتطحن ثم تُضـرب بالماء وتنقع فيهـا الجلود فتمرّط.

تتـعـدد المصنوعات الجلدية ومسمياتها، فهناك المزادة وتستخدم عند جني التمر، والزمالة للحبوب وكانت العروس تضع فيها حاجياتها ثم تحملها على جمل حين تذهب إلى بيت زوجها، أما العُصم فللدقيق والطحين، والقُطف للقهوة والعود والهيل، والخمشة تشبه الزمالة إلا أنها أصغر منهـا، وهناك قربة للسمن وأخرى للماء والاختلاف بينهما، أن الأخيرة بها صنبور، أما (المِسأب) المسَب فيستخدمها الراعي لحمل التمر والخبز في رحلته للرعي.

يتراوح سعر الزمالة بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ريال، ويستغرق عملها ثلاثة أو أربعة أيام، ويبلغ عمرها الافتراضي حوالي ١٥ سنة، أما القربة فسعرها بين ٥٠ ـ ٦٠ ريالاً.



دالي مرزوق ريحان يشرح للزميل حسين حسن مراحل تجهيز الجلود



حافظة مصنوعة من الجلد

الغزل والنسيج

تعدُّ صناعة المنسوجات من الصناعات القديمة، وقد اشتهرت الحلل اليمانية والثياب السعيدية بصنعاء، واشتهرت عدن بصناعة البرود، وكذلك قطر وهجر والمعافر وصحار، وظلت اليمن محتفظة بمكانتها بوصفها أكبر مصدر للبرود النفيسة إلى القرن الرابع الهجري، ونسبت أنواع كثيرة من البرود إلى مدن وقبائل، مثل: المعافرية السحولية والحيشانية والسديرية.

وقد اشتهرت صناعة البُسُط وصناعة الخيام من الأصواف ومن شعر الماعز ومن وبر الإبل، وقد ورد ذكر هذه الصناعة في القرآن الكريم: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعا﴾ (النحل: ٨٠).

كما يصنع أيضا العباءات الوبرية، وهي معروفة إلى يومنا هذا، ويستخدم الصوف في هذه الصناعات، فيجزّ صوف الضأن مرة في كل عام عند اقتراب موسم الصيف ليخفف وطأة الحرّ عن الحيوان، وليستفاد منه.

ومن المواد المستخدمة في صناعة المنسوجات القطن ويستخدم للثياب، وقد كانت الثياب السحولية من الثياب المشهورة في جزيرة العرب.

وأيضا الحرير الذي كان معظمه مستوردًا من الهند والصين ومصر والشام وهو خاص بالنساء.

ومنه أيضا الكتان، وكان معظمه مستوردًا أيضا من فارس ومصر.

تجربة ناجحة ..ولكن!

وفي ختام هذا الاستطلاع، كان اللقاء مع محمد بن علي ظُفرة أحد أصحاب المنشآت الصناعية العاملة في مجال المصنوعات الشعبية والتراثية، ليوضح تجربته في هذا المجال، فقال: يجب أن أشير ـ بداية ـ إلى أن إنشاء المؤسسة جاء بعد الوقوف على واقع إقبال المواطنين على كل ماهو قديم. فقامت على أساس تجاري في المقام الأول، بهدف تقديم مايحتاج إليه المواطن السعودي والخليجي والعربي من



حافظة جلدية محلاة بشراريب من الصوف

السيوف والخناجر والسبح والأثاث وغيرها من المنتجات الشعبية التي توارثتها الأجيال.

ويعترف ظُفرة بأن أسعار منتجاته مرتفعة، وسبب ذلك ـ على حد قوله ـ هو ارتفاع أسعار المواد الخام إضافة إلى الاستعانة بأيد عاملة أجنبية نظرًا لعدم إقبال الشباب على العمل في هذا المجال، ولما تحتاج إليه هذه الصناعات من وقت وجهد كبيرين ومهارة في التنفيذ.

وعن مدى الإقبال على المنتجات الصناعية القديمة، يقول: هناك حنين دائم إلى الماضي، ويقبل المواطنون إقبالاً كبيرًا على كل مايمت إلى التراث بصلة؛ فهم يريدون إضفاء لمسات جمالية على حياتهم، وهذا هو الفارق بين الماضي والحاضر في استعمال هذه المنتجات، فقد كانت في الماضي تمثل ضرورة من ضرورات الحياة؛ إذ كان الأجداد يصنعون مايحتاجون إليه لاستعماله في حياتهم اليومية، أما الآن، فإن هذا الموروث أصبح لتزيين المنازل وتجميلها، وللتذكير بالماضي.

وقد لاقت التجربة نجاحًا كبيرًا، فبعد أن كان زبائننا من مدينة الرياض فقط، أصبحت تأتينا طلبات من مدن المملكة الأخرى.

وتطرق الحديث إلى منتجات منشأته الصناعية وأسعارها فقال: نقوم بتصنيع أنواع مختلفة من السبح، وهي من الكهرمان واليُسر والعاج وتراب الذهب والفضة والفيروز وأحجار كريمة متعددة.

ومن أغلى الأنواع، اليسر بالذهب، وأغلاها الكهرمان الأصلي.

أما المواد الخام فبعضها محلي، وكثير منها يستورد. فاليسر ـ مثلا ـ من المواد المحلية، ولكن يرسل إلى مصر وتركيا لتحسينه وتطعيمه بالأحجار الكريمة والفضة، وهناك من يقوم بهذه الصنعة في مكة المكرمة وإن كانوا قليلين.

وهناك العديد من المؤثرات في تحديد الأسعار؛ فغلاء سبح العاج ـ على سبيل المثال ـ يرجع إلى منع اصطياد الفيلة في أفريقيا، في إطار إجراءات ترمي إلى المحافظة على البيئة.

أما اليسر، فهناك مايصنع، وآخر يستورد.

ويتراوح سعر السيف المصنوع من الذهب الخالص مابين ٣٠ إلى ٤٠ ألف ريال، وإن كان من الفضة فمن خمسة إلى عشرة آلاف، وتضاف نسبة ١٠٪ إلى السعر إذا كان السيف الفضي مطليا بالذهب.

ويتم تصنيع المجالس العربية والصناديق التقليدية والتحف والمباخر والمزاهر والدواليب والأواني والأبواب حسب رغبة الزبون؛ فالأذواق تختلف كثيرًا بالنسبة لهذه المنتجات، وبخاصة أن هناك نقوشًا فنية عليها، فلكل زبون رؤيته وغرضه من اقتنائها.

ويبلغ سعر مجلس عربي مساحته ٢٠ مترًا مربعًا حوالى خمسة عشر ألف ريال، ويعتمد هذا السعر على نوع الخشب المستخدم، فهناك المحلي (كالأثل والطلح)، ويوجد المستورد كالمجنو والسنديان، ويفضل الناس المجنو لخفته وطول عمره الافتراضي.

ويقر ظفرة بأن ارتفاع أسعار المنتجات التراثية يجعل الإقبال عليها منحصرًا في فئات محدودة، وإن كان ذلك لايمنع وجود من يحاولون الحصول على بعض المقتنيات التراثية التي تناسب دخولهم، والتي تضفي على منازلهم لمسات جمالية، كأن يشتري أحدهم دولابًا أو يجعل مدخل بيته ذا طابع تراثي.

إن إمعان النظر في واقع الحرف والمهن الشعبية ـ الذي عبرت عنه بعض الآراء السابقة ـ يوضح أن هناك عزوفًا من الشباب عن العمل فيها، وأن التحول الاجتماعي وتغير نمط الحياة والاعتماد على الصناعات الحديثة أدى إلى تراجع كثير من الحرف والصناعات الشعبية، واقتصار استعمال المنتجات الشعبية في تزيين المنازل وتجميلها، على الرغم من أن هناك كثيرا من الناس يتفقون على



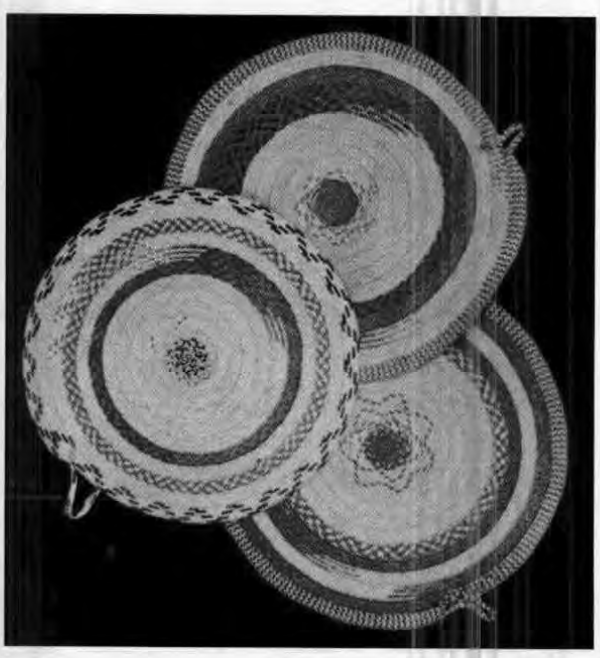
جودتها، وإمكان استمرارها لحاجتهم إليهم في حياتهم المعاصرة، إضافة إلى اعتمادها على مواد خام تتوافر في البيئة المحلية، مما يعني أن المحافظة على الحرف والصناعات الشعبية، لاتأتي بدافع الحرص على التراث فحسب، وإنما هي ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية، إذ تسد بعض حاجات المجتمع، وتوفر فرص العمل لكثير من أفراده. ولعل من أهم خطوات الرعاية والتطوير، تعرف واقع الحرف والصناعات الشعبية: ما لايزال منها يؤدي وظيفته وما اضمحل منها، وما اندثر، وهذا لايتم إلا بالاستطلاعات الميدانية، وبمقابلة الحرفيين وأولئك الذين تخلوا عن عملهم، وتوثيق هذه الحرفة توثيقًا علميًا دقيقًا.

وتوصلت الاستطلاعات التي أجريت في هذا المجال إلى نتائج جيدة، تعكس واقع كثير من الحرف والصناعات، بحيث يمكن تحديد الوسائل التي تضمن لها الاستمرارية؛ فقد جرى استطلاع لصناعة الجبس من طريق زيارات ميدانية لكل من البحرين، والمنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، وإمارتي دبي والشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة، والكويت، وقطر، حيث تتوافر مادة الجبس في المنطقة الساحلية للخليج العربي، واتضح من الاستطلاعات أن الجبس الذي كان يستعمل فيما مضى في أغراض البناء أصبح استعماله وقفًا على تزيين المنازل وزخرفتها، وفي استخدام طريقة حديثة بدلاً من الطريقة التقليدية لصناعة الجبس. فعملية التكسير والطحن والحرق تتم



بآلات حديثة. وقد نافس الجبس الصناعي الحديث هذا الجبس التقليدي، وتوقفت لذلك الورش التقليدية.

وهذا الواقع ينطبق على كثير من الحرف والصناعات الأخرى؛ فحبال البلاستيك أصبحت بديلة للحبال المصنعة من ألياف النخيل، وتراجعت صناعة الفخار، وحلت الأواني الحديثة محل الأواني الفخارية؛ بل إن الحرف والصناعات الشعبية العريقة تتعرض للتشويه من خلال تصنيع هدايا رديئة الصنع ذات شكل تراثي ممسوخ تنسب إلى الموروث الشعبي، بغرض الربح المادي، ويستغل صانعوها إقبال الناس عليها، من دون أن تكون لهم القدرة على التمييز بين ماهو جيد ورديء، وبخاصة أن الأجانب هم الأكثر إقبالاً على اقتناء مثل هذه المصنوعات التراثية، مما يترك في الأذهان انطباعا سيئًا عن الموروث الشعبي لبلداننا.



الخوص: فن رائع وأشكال بديعة



صناعة القبعات من الخوص بعد تجهيزه

وتقتضي النظرة الاقتصادية للحرف والصناعات الشعبية ضرورة إجراء دراسات جدوى تحدد معلومات واضحة ووافية عن المواد الخام ومدى توافرها، والحرفيين ومستوياتهم ومهاراتهم، والأدوات المستخدمة وإمكان تطويرها، والتوزيع ومدى إقبال الناس على المنتج الشعبي، وأساليب تنشيط السياحة الداخلية والخارجية وغيرها من الجوانب ذات العلاقة بهذه الحرف والصناعات.

وقد توصل مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية إلى عدد من الاقتراحات التي تحتاج إلى خطوات تنفيذية، ومنها:

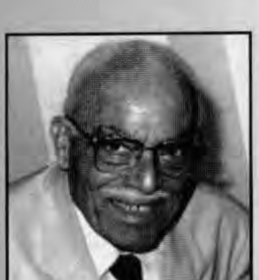
- إنشاء مراكز ومعاهد فنيه لإعداد جيل من الحرفيين، يقوم بمهمة التدريب فيها حرفيون ذوو خبرة تشربوا الحرفة أبا عن جد.
- التكامل بين دول الخليج العربي في مجال الصناعات والحرف الشعبية. بحيث يكون المعهد الذي تقيمه الدولة خاصا بالصناعة التي تشتهر بها.
- إضافة حصص للأعمال اليدوية لمناهج التعليم خاصة في المرحلة الابتدائية.
- العناية بأقسام التربية الفنية على المستوى الجامعي.
- تغيير النظرة إلى العمل اليدوي من خلال التوعية الإعلامية.
- إنشاء متاحف تعليمية توضح تاريخ الحرفة ومراحل الصنع.
- إقامة الأسواق الشعبية الدائمة، بأن تشمل إلى جانب أماكن الحرفيين والصناع الشعبيين، وهم يمارسون أعمالهم، مطاعم شعبية وأركانًا للاستعراضات الشعبية ومعارض ومتاحف.
- إنشاء جهاز أو مجلس عال في كل دولة يضم المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، ويضطلع بالاتصال مع المجالس والأجهزة المماثلة، وبخاصة أن هناك تجارب مسبوقة يمكن الاستفادة منها، على مستوى الدول والمنظمات المعنية بالتراث والثقافة، كمجلس الحرف العالمي الذي ترعاه منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو»، وحركة تنمية المجتمع والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعين لجامعة الدول العربية.

ومما لاشك فيه، أنه يجب تقديم اقتراحات تصلح للتطبيق العملي على مستوى الأقطار العربية كافة، حيث يمكن التعاون والتنسيق وتبادل الخبرات فيما بينها في هذا المجال الحيوي. ولعل نجاح المهرجان الوطني للتراث والثقافة في المملكة العربية السعودية يكون دافعًا لإقامة مهرجان سنوي للحرف والصناعات الشعبية العربية تشارك فيه جميع أقطار العالم العربي، ليكون جسرًا للتواصل يؤكد وحدة تراثها وهويتها، وليكون - من ناحية أخرى - محققًا لهدف تفاعل الأجيال الناشئة مع هذا التراث.

المراجع:

(١) ورقة مركز التراث الشعبي، المأثورات الشعبية، ع ١٨. ١٩٩٠م.
(٢) عبدالله بن سليمان الجبالي، حرف ومفردات من التراث.
(٣) واضح عبدالصمد، الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي.
(٤) د. محمود سالم محمد، أدب الصناع وأرباب الحرف.
(٥) عبدالعزيز إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

المرأة في الفكر اليهودي



د. حسن ظاظا

كما خلق الله الناس وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا - لا ليتقاتلوا - فكذلك خلقهم ذكورًا وإناثا ليتحابّوا، ويتراحموا - لاليتنازعوا، ويتشاكسوا -. لكن شاءت بداوة الأمم أن تنقسم فيها المجتمعات إلى نظامين: النظام الأبوي، حيث يحكم الرجال في الأسرة والمدينة والدولة، والنظام الأمومي، حيث تُعهد مقاليد هذه الأمور إلى النساء. وقد تكون هناك تفاصيل وتكملات كتعدد الزوجات في المجتمع الأبوي، وإن كانت هناك أمثلة في مجتمعات الأمومة تبيح تعدد الأزواج، منها قبائل صينية قديمة، كانت الأم - وهي شيخة القبيلة - إذا ولدت مولودا - نسبته إلى واحد من أزواجها بلا اعتراض ولا معقّب لحكمها. كما كانت بعض النظم السياسية تبايع على رأسها ملكا أو ملكة من دون تفريق، وعندنا نقوش مسمارية تذكر حروبا قامت في الألف الثاني قبل الميلاد بين ملوك بابل وأشور وملكات العرب القادمات من اليمن، ونعرف من أسمائهن «زبيبة» وابنتها وخليفتها على رأس الدولة، «شمس بنت زبيبة». كما عرفنا امرأة أخرى تملكهم ﴿ولها عرش عظيم﴾ هي ملكة سبأ المذكورة في القرآن الكريم، وفي أسفار الملوك من كتب اليهود، وما كان من زيارتها لمُلْك سليمان بن داود عليهما السلام. وماتزال أممَ معاصرة لنا تحكمها ملكات، أو ترأس حكوماتها وجمهورياتها وبرلماناتها ووزاراتها سيدات نوابغ، لسن بأقل ذكاء ولا مهارة من الرجال. وأحيانا تكون الأمة محكومة برجل مرهوب الجانب، يُحسب حسابه، وتُخشى بوادره، ويكون الحاكم الحقيقي من وراء ستار امرأة تزوجها - أو عشقها - هذا الدكتاتور أو ذاك.

لكن المتتبع للتاريخ القديم والوسيط لليهود، تفاجئه المنزلة المتدنية للمرأة عندهم، وهذا واضح حتى في التشريع الديني عندهم كما سنبينه في مواضعه ومناسباته من هذا المقال، وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ! ولم يجاوزه إلى الزراية والتحذير والتحقير. وهو أمر طبيعي في نظام قبلي أبوي يقوم على مجموعات ضعيفة من البشر، لاتملك أرضا ولاماءً، ولم ترث حضارة إلا ماشاء الله من معونتها على الهداية، بأعداد من الرسل والأنبياء والحكماء والآداب والعبادات والقيادات الروحيّة، خالفوا أكثرها إلى درجة أن كتبهم التي يتعبدون بها قد غصت بأخبار هذا الفسوق والعصيان:

«اسمعي ياسماوات، وأنصتي يا أرض، فإن الرب تكلم! إنني ربيّت بنين، ورفعتهم، لكنهم تمرّدوا عليّ! عرف الثور راعيَه، والحمارُ مَعْلَفَ صاحبه، لكن إسرائيل لم يعرف، وشعبي لم يفهم، ويل للأمة الضالّة، الشعب المثقَل بالإثم، ذرية المجرمين، البنين الفجار! إنهم تركوا الرب، واستخفوا بقدوس إسرائيل، ونكصوا على أعقابهم» (سفر النبي إشعيا ١: ٢ - ٤). ويقول النبي إرميا لهذه الأمة اليهودية: «إنك منذ القدم شققت عصا طاعتك، وقطعت ارتباطك بي، وقلت: لا أتعبّد! وها أنت على كل أكمة عالية، وتحت كل شجرة خضراء، قد اضطجعت للزنا. ولقد غرسْتُكِ أفضل كرمة، وجعلتك زرعًا للحق كله، فكيف تحوّلت إلى غرسة كرم أجنبية؟ إنك، لو اغتسلت بالنَطْرون، واستكثرت من الصابون، لبقيت ملطخة أمامي بإثمك» (إرميا٢: ٢٠ -٢٢).

وفي سفر نبيهم هُوشَع: «اسمعوا كلمة الرب يابني إسرائيل، فإن للرب خصومةً مع سكان الأرض. إذ ليس في الأرض حق، ولا رحمة ولامعرفة لله! بل اللعنة، والكذب، والقتل، والسرقة، والفسق! قد فاضت الدماء تلحقها الدماء» (سفر هوشع ٤:١، ٢).

ويطول بنا الحديث عن انتشار الفساد الأخلاقي في المجتمع اليهودي منذ القدم، على الرغم من شريعة موسى - أو ما بقي لهم منها - وعلى الرغم من مواعظ أنبيائهم. وفي تلك العصور القديمة كانت القبيلة هي الوحدة السياسية التي يخضع أبناؤها وبناتها لأحكامها، لكن قبائل بني إسرائيل ظلت أجيالا طويلة في حياة هامشية، لا أرض لها ولاوطن، فهم عدد قليل في العراق، وانتقلوا وهم أقل عددا إلى سورية (أرض جلعاد) ثم واصلوا المسيرة على خطى سيدنا إبراهيم قديما إلى أرض كنعان (فلسطين) ومنها إلى مصر، وكأنهم سفينة لا مرسى لها، وسط خضم من الشعوب والقبائل والدول المقيمة في أرضها، ترتحل فيها حيث

الماء والعشب، ولكنّ هناك حدودا معروفة لايتخطونها، إلاّ إذا وطنوا العزم على القتال. ولأن النظام كان نظاما أبويا، فإن الرجال كانوا مسؤولين عن حماية النساء، ومواجهة الموت في سبيل ذلك. وهكذا بقي الحصول على زوجة في تلك المجتمعات أمرا عسيرا وباهظ التكاليف، إلا إذا تم الزواج بالخطف أو بالأسر أو بين ذوي القربى الأدنَيْن حيث يكون بعض التساهل في الشروط، في مقابل المعرفة التامة بعشيرة العروسين. وكان الخوف من الفضيحة مصدر رعب للجميع، فالشاعر الذي يذكر واحدة من أبناء قبيلته أو غيرها، مهما كان ذكره لها رائعا وحميدا، تحرم عليه! وكاد المجتمع العبري أن يكون كذلك، لولا أنه كان ينقصه أهم شيء، وهو أرض ووطن وسلطة حاكمة منظمة تحظى من رعيتها بالثقة والطاعة، وبقوة عسكرية يحسب لها حساب. وباختصار كان اليهود مستضعفين في الأرض، في كل أرض، وكانت نساؤهم صيدا سهلا لكل طامع فيهن من الأمم الأخرى، فأصبحت المرأة العبرية عبئا كريها على اليهودي، ومصدرا إزعاج وخوف وخطر، تقول التوراة مثلا في قصة (خطف) دينا بنت يعقوب بمجرد وصوله هو ونسائه وأبنائه إلى فلسطين:

«وخرجت دينا بنت لَيَا التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات البلد، فرآها شكيم بن حمور الحِوّي رئيس البلد، فأخذها، وضاجعها، وأذلها. ثم تعلقت نفسه بدينا بنت يعقوب، وأحب الفتاة ولاطفها. وكلم شكيم أباه حمور قائلا: خُذْ لي هذه زوجة! وسمع يعقوب أنه دنَّسّ دينا ابنته، وكان بنوه مع ماشيته في الصحراء. فسكت يعقوب حتى أتوا. فخرج حمور - أبو شكيم - إلى يعقوب ليخاطبه. وجاء بنو يعقوب من الصحراء حين سمعوا، فغضب جميعهم، وشقّ عليهم جدا، لأنه قد ارتكب فاحشة في إسرائيل بمضاجعته ابنة يعقوب، ومثل ذلك لايجوز. فتكلم حمور معهم قائلا: إن شكيم ابني قد علقت نفسه بابنتكم، فأعطوها له زوجة، وصاهرونا فأعطونا بناتكم، وخذوا بناتنا، وأقيموا معنا. وهذه الأرض بين أيديكم، أقيموا بها، واتجروا وتملكوا. وقال شكيم لأبيها وإخوتها: امنحوني حظوة في عيونكم، وماتريدونه منيّ أعطه لكم، أكثروا علي المهر والهدايا جدا، أعطكم كما تقترحون عليّ، وأعطوني الفتاة زوجة! فأجاب أبناء يعقوب شكيمَ بخبث، ومكروا بهما، لأنه دنّس دينا أختهم، وقالوا لهما: لانستطيع أن نعطي أختنا لرجل أقلف؛ لأنه عارٌ عندنا، لكننا نوافقكم على هذا إذا خُتِنَ كل ذكر منكم، فنعطيكم بناتنا، ونتخذ بناتكم، ونقيمُ عندكم، ونصير شعبًا واحدًا، وإن لم تقبلوا منا أن تختتنوا، نأخذ ابنتنا ونمضي، فحسُنَ كلامهم عند حمور وشكيم ابنه. ولم يلبث الفتى أن صنع ذلك، لأنه كان قد شغف بابنة يعقوب، وكان هو أوْجَه جميع أهل بيت أبيه. فلما دخل حَمُور وابنه شكيم باب مدينتهما، خاطبا أهلها قائلين: إن هؤلاء الناس مسالمون لنا. فيقيمون بالبلد، ويتّجرون فيه، والأرض واسعة الأطراف أمامهم، فنتخذ بناتهم زوجات، ونعطيهم بناتنا، وقد اتفقنا مع القوم على أن يقيموا معنا، ونصير شعبا واحدا، بشرط أن يختتن كل رجل منا كما هم يختتنون. أفلا تصير مواشيهم ومقتنياتهم وجميع بهائمهم لنا؟ فلنواطئهم على هذا، فيقيموا معنا. فسمع لحمور وابنه شكيم كل من خرج من باب مدينته، واختتن كل ذكر منهم، كل الخارجين من باب المدينة. وكان في اليوم الثالث، وهم مَوْجُوعُون، أن أبناء يعقوب شمعون ولاوى شقيقيْ دينا، أخذ كل واحد سيفه، ودخلا المدينة آمنين، فقتلا كل ذكر، حتى حمور وابنه شكيم قتلاهما بحدّ السيف، وأخذا دينا من بيت شكيم وخرجا، ثم دخل أبناء يعقوب على القتلى، وسلبوا ما في المدينة من أجل تدنيس أختهم، وأخذوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الصحراء، وسَبَوْا وغنموا جميع ثروتهم، وكل أطفالهم ونسائهم وسائر ما في البيوت» (التوراة، سفر التكوين - ٣٤: ١ - ٢٩). وفي كل هذا لم نسمع أن دينا استغاثت، ولانساء المدينة - مدينة نابلس - قد قاومن السبي الذي ساقهن إليه اثنان فقط هما شمعون ولاوى شقيقا دينا، وكأن أولئك الحرائر من عشيرة شكيم بن حمور، هنّ ودينا بنت يعقوب مجرد صور تنتظر الزواج أو الخطف أو السبي، بلا مقاومة ولا احتجاج، تماما مثل الماشية من الغنم والبقر والحمير! وقد كدت مع هذا النص الطويل أن أنسى ماينطوي عليه من التآمر والخيانة والمكيدة والخديعة، مع قوم جنحوا إلى السلم، وأفسحوا لأولئك الغرباء مكانا في بقعة من أرض فلسطين، فعاثوا فيها قتلا وسبيا وسلبا ونهبا. والذي يهمنا هو أن النساء كن مجرد تماثيل جميله يُطعن أول آمر أو آسر!

شاعت العداوة للمرأة في الشريعة اليهودية إلى حد أن فقهاء هذه الشريعة اعتبروا المرأة أشد مرارة من الموت!

ومنذ تلك الأزمان السحيقة أحيطت المرأة بأسوار من الحراسة والرقابة والمعاملة الخاصة. كان القائمون عليها أول من يعاني منها. لايبتهج إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى، وكان يقوم بوأدها أحيانا، وكان يتخذ له كنية من أكبر أبنائه من الذكور: أبو زيد ، أبو عمرو.. إلخ، ولايكتني باسم ابنته إلا السيد القوي الواثق من نفسه ومن قوته على البطش بمن يمس ابنته بسوء. وكانوا في هذا المجتمع الأبوي يرون أن الأبناء اتصال لآبائهم وأجدادهم في هذه الدنيا، أما البنات فكثيرا ما كان ينقطع هذا الاتصال إذا تزوجن. والشاعر العربي القديم يقول:

بنُونا بنو أبنائنا، وبناتنا

بنوهنّ أبناءُ الرجال الأباعد

هذا مع إمكان الصمود للأعداء، والدفاع عن الأهل والعشيرة، وهو أمر كان لايتيسر لليهود إلا قليلا جدًا، لدرجة أن بعضه كان يُعدّ من المعجزات. ومن هنا انبثق في نفوسهم الخوف من المرأة، واعتبروها (نجسة) دينيا، وفي مقال قادم نبسط القول في بعض مانُجمله في هذا المقال. وكانت نتيجة الخوف من المرأة فقدان الثقة بها وباستقامتها، وانقلب عدم الثقة بها إلى نوع من الهاجس والوسواس. وتمكّن اتهام المرأة في عفتّها في نفوس اليهود، حتى خُصص لها تشريع في التوراة التي بين أيديهم، ليس له مايقابله في سلوك الرجل. يقول هذا النص:

«وكلم الربّ موسى قائلاً: مُر بني اسرائيل، وقل لهم، أيّ رجل انحرفت زوجته، وخانته خيانةً، فضاجعها رجل مضاجعةً للتناسل، وأخفى ذلك على بعلها، وخَفِيَ دَنَسُها، ولاشاهد عليها، ولم تؤخذ متلبسةً، ثم استولى عليه روح الغيرة، فغار على زوجته وهي نجسة، أو استولى عليه روح الغيرة فغار على زوجته

المرأة في الفكر اليهودي

وهي غير نجسة، فليأت ذلك الرجل بامرأته إلى الكاهن، وليحضر من أجلها قربانًا عُشْر صاع من دقيق الشعير، لا يصب عليه زيتًا ولايجعل عليه لُبَانًا، لأنه تقدمة غيرة، قربان تذكرةٍ يُذكِّر بالذنوب. فيأمرها الكاهن بأن تتقدم، فيوقفها أمام الرب. ويأخذ الكاهن ماءً مقدّسًا، في وعاء فخار، ويأخذ من الغبار الذي في أرض المحراب فيلقيه في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأسها، ويضع على كفيها قربان التذكرة، تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن الماء المرّ الذي يجلب اللعنة! ويحلّف الكاهن المرأة، ويقول لها: إن كان لم يضاجعك رجل، ولم تنحازي إلى نجاسة مع غير زوجك، فأنت بريئة من هذا الماء المرّ الجالب اللعنة، ولكن إن كنت قد انحرفت إلى غير زوجك وتنجّسْت به، وارتكب غيره مضاجعته معك، ثم يحلّف الكاهن المرأة بيمين اللعنة، ويقول لها: جعلك الله لعنة وعبرة بين قومك! بأن يجعل الرب فخذيك ساقطَيْن، وبطنك وارمًا، ويدخل هذا الماء الجالب اللعنة في أحشائك لتوريم البطن وإسقاط الفخذ! فتقول المرأة: آمين! آمين! فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب، ويمحوها بالماء المرّ، ويسقي المرأة الماء المرّ الجالب اللعنة، فيسري فيها الماء الجالب اللعنة للمرارة، ويأخذ الكاهن من يدها تقدمة الغيرة، ويحركها أمام الربّ، ويقدمها إلى المذبح، ويأخذ الكاهن من تقدمتها للتذكرة، ويحرقها على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء، فإذا سقاها الماء، فإن كانت تدنست وخانت بعلها خيانة سرَى فيها ماء اللعنة للمرارة، فورمَ بطنها وسقط فخذها، وصارت المرأة لعنة بين قومها، وإن لم تكن المرأة قد تدنست، بل كانت طاهرة تبرأ وتحمل بأبناء، هذه شريعة الغيرة» (التوراة - سفر العدد ١١:٥ -٢٩). كل هذا في كتاب يقول اليهود إن الله - تعالى عن ذلك - قد كتبه بإصبعه وسلمه إلى موسى! وفي هذه التوراة نفسها يرد تحريم السحر نصًا، ويجعل جزاءه القتل. أليست كل تلك الطقوس والكتابات والتقدمات واللعنات من صميم أعمال السحر التي حرّمها موسى في هذا الكتاب نفسه، أم إن الكاهن مستثنى من هذا التحريم مهما ناقض أخص خصوصيات الشريعة؟ وإذا كُنت قد ذكرت هذا النص برمته، فلأنه أثار في الأوساط الدينية اليهودية منذ عهود المدراش والتلمود المُوغلة في القدم لغطا وحيرة وجدالاً طويلاً، لدرجة أن بعض الفكهين من أحبار التلمود سأل: متى يجب انتظار هذه اللعنة الرهيبة على المرأة المنحرفة، وزعم أن شيخًا أجابه بأنه في زمن موسى كانت اللعنة تقع قبل مجيء السبت التالي. وبعد خراب هيكل سليمان كانت تتأخر شهرا، وبعد خراب هيكل عزير (عزرا) ونحميا أصبحت تتأخر سنة. قال والآن؟ أجاب: إلى أجل غير مسمى علمه عند ربّي!

وإذا كان الذين ألصقوا تهمة الزنا بالنساء في المجتمع اليهودي، قديما وحديثا، لايُحصى عددهم، فإننا لانجد في الكتابات اليهودية كلها زانيا واحدا من الرجال يتعرض لطقوس الغيرة فضلا عن معاقبته، في حين كانت المرأة تُرجم حتى الموت، مع أن الزنا جريمة لاتتم إلا باثنين، وقد تكون المرأة فيها فريسة اغتصاب أو إرهاب أو ابتزاز دنيء، أو إسكار أو تخدير. ولكن مظلة الشريعة لم يكن تحتها مكان مناسب للمرأة، بل كان ينظر إليها من فوق. لدرجة أن المعجم الموسوعي للفكر اليهودي، المنشور في باريس عام ١٩٩٣م، يقول عن وضع المرأة في المجتمع اليهودي في عصور الأحبار (المدراش - المشنا - التلمود.. وما يليها): «كانت المرأة تُصنّف، في الواجبات الدينية، في غمار العبيد والأطفال، فلا تقبل شهادتها أمام القضاء، ولايُسمح لها بدراسة التوراة، وكانت تُعزل في مكان خاص في المعبد المركزي للحج، والمعابد الأخرى للصلاة، وكانت تعدّ مخلوقا نجسًا على الأقل في أحيان كثيرة بسبب الحيض، والنفاس. وتعويضا عن ذلك، فرض عليها البقاء في بيتها والقيام بخدمة زوجها ورعاية أولادها، وأن تعدّ الخبز لأسرتها - في حالة طهرها - وتعزل منه رغيفًا للكاهن في المعبد».

وفي كل هذا كانت النظرة إليها فيها كثير من الزراية والاحتقار والاستعاذة من شرها. ففي سفر من أسفار العهد القديم اسمه «سفر الجامعة بن داود ملك أورشليم» نقرأ الكثير من الحكم والأمثال التي حاول فيها المؤلف أن يقلّد سليمان في «سفر الأمثال»، لكن هذا الرجل غلبت عليه فلسفة تشاؤمية افتتحها بقوله: «باطل الأباطيل! - يقول الجامعة - باطل الأباطيل! كل شيء باطل! أي جدوى لبني آدم من كل تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس؟» (الجامعة ٢:١). وفي هذا السِّفر - ولانعرف من هو هذا (الجامعة) الذي كتبه - وقع اليهود على فكرة تغذي نقمة اليهودي على المرأة، فشاعت بينهم وجرت على كل لسان. يقول فيها: «ووجهتُ قلبي لأتعلم وأبحث لعليّ أجد الحكمة، وحقيقة الأمور، وأعرف نفاق الجهلة، وجنون الحمقى، فوجدت أن المرأة أمرّ من الموت! فقلبها مصيدة وأحبولة، ويداها أغلال، من كان صالحًا أمام الله ينجو منها. أمّا الخاطئ فإنها تقتنصه!»، ثم يواصل حديثه عن الحكمة «التي لم تزل نفسي تطلبها ولاتجدها، فوجدت رجلا واحدا حكيما في كل ألف، ولم أجد امرأة واحدة فيهنّ جميعًا» (الجامعة ٢٦:٧، ٢٧، ٢٩).

ودليلي على أن هذه العداوة للمرأة قد شاعت وذاعت ماجاء في التلمود من أن اثنين من كبار أحبار اليهود هما «الربّي هيّا والربّي آب» التقيا وتباحثا في الشريعة، وعندما آن أن يفترقا ودع الأخير منهما صاحبه بقوله: وقاكَ الله من بلاء أمرّ من الموت. وظل «آب» يفكر ويسأل نفسه: وهل هناك ماهو أمر من الموت؟ ثم تذكر القولة السابقة (التلمود - باب النساء - فقرة ١٩).

وجاء في أمثال سليمان: السُكنى في أرض مقفرة خير من السكنى مع امرأة منازعة شرسة (أمثال سليمان ١٩:٢١)، وينتهي سفر الأمثال بمجموعة ليست لسليمان، بل واحدة تنسب لمن يُدْعى أجور بن ياقة، جاء فيها: ثلاثة يعجزني فهمها، والرابع لا أعلمه، طريق النسر في السماء، وطريق الحيّة على الصخر وطريق السفينة في قلب البحر، وطريق الفتى مع الفتاة.. تحت ثلاثة ترتجّ الأرض، وتحت الرابع لاتستطيع الاحتمال، تحت عَبْد إذا ملك، وأحمق إذا شبع من الطعام، وتحت بغيضة إذا زُوّجت لرجل، وأمَة إذا ورثت ربّتها! (١٨:٣٠).

أما المجموعة الثانية والأخيرة في سفر أمثال سليمان فإنها تنسب إلى مَن يسمونه (لموئيل الملك) - يرويه عن أمّه -: «لاتسلّم ثروتك إلى

النســاء، ولاخطـطك إلى مـبـيـدات الملوك» (٣١: ٣٠) ونقـرأ في هذا الـفـصل الأخـيـر من سفر الأمـثـال وصـفا لـلمرأة الجـديرة بأن تكون زوجة وربة بيت، فتتساءل أمُّ هذا الملك المجهول في يأس واضح: «مَن يجد المرأة الفـاضلة؟ إن قـيـمتـهـا تفـوق اللآلئ! قلب رجلهـا يثق بهـا، فلايحتاج إلى مغنَم، تأتيه بالخير دون الشر طيلة أيام حيـاتها. تأخذ صُوفًا وكتانًا وتعمل بمهارة كفيها فتكون كسفن التاجر، تجلب طعامها من بعيـد. تقـوم بالليـل وتعطي لأسـرتـهـا أكـلاً، ولجواريها مايكفيهنّ. تبصـر حقـلا فتـأخذه، وبثمر كـفيها تغرس كَرْمًا. تحزّم حقْـوَيْها بعَزْم، وتقوّي ذراعيـهـا، تذوق ربح تجارتها، ولاينطفئ في الليل سـراجهـا، تلقي يديها على الـصـوف، وأناملها تمسك المغزل، تبسط كفيها إلى البائس ، وتمدّ يديها إلى المسكين، لاتخشى على بيتـها من الثلج، لأن أهل بيتها جميعا يلبسون الحلل. تنسج لنفسـهـا أغطيـة موشـاة، ولباسـهـا البـزّ والأرجوان، رجلها مـعـروف عند أبواب المدينة حـيـث يجلس بين شـيـوخ الأرض. تصنع القـمـصـان وتبـيـعـهـا، وتعـرض المآزر على الكنعانيين. لبـاسها العزُّ والبهاء، وسـوف تفرح في اليوم الأخير. تفتح فـمهـا بالحكـمة، وفي لسـانها عـادة الرأفـة. تـلاحظ أحـوال بيـتـهـا، ولاتأكل خبز الكسل. يقوم أولادها فـيغبطونها، ويُثني زوجها عليها. هناك بنات كثيرات أنشأن لهنّ فضلاً، أما أنت فقد تفوقت عليهن جميعًا. الثـروة غرور، والجـمال باطل، والمرأة التي تتـقي الربّ هي الجـديرة بالثناء، أعطوها مـن ثمـر يديها، فإن أعمالهـا تزكيهـا عند أبواب المدينة» (سفر الأمثال ـ الفصل الأخير ٣١: ١٠ ـ ٣١).

هذه صورة المـرأة اليهوديـة المثاليـة، الميؤوس من العـثـور عليـهـا في مـجـتـمـعـهم. وهي في جملتها امـرأة عاقلة، أصيلة، تقية، قعيـدة بيتها، تقضي وقتها في العناية بزوجها، وتربية أولادها، والإنتـاج التـجـاري المثـمـر، مع رعـايـة مملكتهاالصغيرة التي هي البيت. أما الاشتغال بالعلم أو الفـكر أو الجدل في مـصـالح العـبـاد فتلك أمور أغلقت أبوابها دونها، بناء على غرور رجاليّ حـرص دائما على أن يـضعهـا في منزلة أدنى من الرجل بكثير، ناسين أن توراة مـوسى قالت لهم في قصة خلق حوّاء: «ليس جميلاً أن يكون الإنســان وحـيـدا، وإني صـانـع له عـونا بإزائه» (التوراة ـ سفر التكوين ـ ٢: ١٨). وجاء القـرآن الكريم مـصدقـا لما بين يديه من التـوراة، وزائدا على ذلـك من فـضل اللـه على البـشـر: ﴿ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لـقـوم يتـفـكرون﴾ (الروم: ٢١). فـالزواج في اليـهـوديـة كـمـا هو في الإسـلام، شركة تنعقد بين طرفين من ذكر وأنثى أمام الله سبحانه وتعالى، لتكويـن أسرة أساسها السكينة والمودة والرحـمـة، ولابد للـشـركـة من رئيس مسؤول، يديرها بالعـدل والحلم والصبر والأناة، والمودّة والرحـمـة، لا بالأمـر والنهي والـعنف والصياح والاستبداد. لكن الشريعـة اليـهـودية انحرفت عن حكـمـة الخالق فـي الزواج، فبـات الرجل في فـزع من أن تـخـونه امـرأته، وأُعطي حق اتهامها بذلك، من غيـر دليل، وسحبها إلى المعبـد لمعاناة طقـوس الكاهن السحـرية المقززة، لأن السكينـة والمودة والرحـمـة والتـعـاون قـد حذفها رجـالهم من سجل الالتزام الزوجي؛ مع أن التـوراة تقـول علـى لسـان آدم عـنـدمـا رأى حـواء: هذه الآن عـظم من عظامي، ولحم من

انحـرفت الشـريعـة اليـهـودية عن حكمـة الخـالق في الزواج، واعـتـبـر اليـهـود المرأة مخلوقا نجسـا، ورغم ذلك كـثـر تهـالكهم عليـهـا!

لحمي، وهي تسمى المرأة لأنها من المرء خُلقت، ولذلك يتـرك الرجل أباه وأمـه، ويلتحم بامـرأته فيصيران جسدا واحدا (التكوين ٢: ٢٣، ٢٤).

وإذا كنت ـ في هذا المقال ـ قد توسعت في الاستعانة بالنصوص الـواضحة الملزمة من التوراة وبقيـة أسفـار العهد القـديم اليهـودي، والتلمود أحيانا؛ فلأن الموضـوع دقيق وشائك، وليس من حقي أن أقول فيه برأيي، فـهناك في أصول الفقه الإسلامي أمـر ملزم بأنه «لايفـتي المفتي في غير مـذهبـه، حـتى ولو كـان عـالما بهـذا المذهب»، فكيف أفتي في دين ـ لامـذهب ـ غيـر ديني؟ ولكن لأن عدداً من قراء «الفـيصل» وقارئاته قد بعثوا إليّ ببريد وفير غزير، يسألون فيه عن وضع المرأة في المجتمع اليهودي، فكان لابد من تلبية هذه الرغبـات الكريمة، والإجـابة. وكنت أظن أنني أبرئ ذمـتي بـتلخـيـص سـريـع للشـرائع والأحكام الخـاصة بالنسـاء في اليهـودية، ولكن بدا الأمـر أكثـر احتياجا إلى التفـصيل، لكثـرة النصوص، وتبـدل هذه الشرائع مع الأيام، ولأن الشـريعـة ـ عند اليـهود خـصـوصـا ـ يبـدو أنهـا فُرضت عليـهم ليخالفوها لا ليطيـعوها، وهكذا تبـدو للبـاحث فـي جـانب، وواقع المجـتمع في جـانب آخـر بعيـد عنهـا كل البعـد، وكل هذا مازال منـحصرا في المـرأة اليهوديـة المطيعـة، أما العاصيات والخارجات على القانون والمتحديات للشريعة قديما وحديثا فـربما خصصتهـن أيضا ببحث خاص إن شاء الله.

وإذا كنا قـد عـرفنا الأسس (النظـرية) التي جـاءت في وصف المرأة المثـاليـة ـ المسـتـحيلة الوجود في المجتمع اليهودي؛ فقد جاء في العهد القديم وصف لواقع أكثر النساء في هذا المجتمع. ونبيهم (إشعيا) يفصل ذلك إلى حد كبير فيما يتـصل بالمظهـر المـادي لنسـائهم، إذ يقـول: «بسبب اختيـال بنات صهيون، إذ يَسِرْنَ وقد مـددن الأعـناق، غـامـزات بالعـيـون، ويمشين فـيـقـاربن الخُطى في مـشـيـهـنّ، ويجـلجلن بخلاخيل أقدامـهن، فسيصيب الـقدير رؤوس بنات صـهـيـون بالصلع، ويكشـف الربّ عـوراتـهن. وفي ذلك اليـوم يزيل الـقـدير بريق الخـلاخـيل، والأهداب، والحليّ الهـلاليـة، والجُـمانات الفـضـيـة، والأساور، والأكـاليل، والعـصائـب، والأوشحـة، والأحـزمة، وقـوارير العطر، والتـمائم، والخواتم، وحلقـات الأنوف، والخِلَع، والمعاطف، والمناديل، والحقائب، والمرايا الفضـيـة، والقمصان، والتيجان والمآزر. ويكون لهن بدل الطيب الجيـفـة، وبدل الحـزام حبل الليف، وبدل تصـفيف الشعـر القُـراع، وبدل الوشـاح نـطاق الحـداد، والكيّ بدل الجـمـال» (سفر إشعيا ٣: ١٦ ـ ٢٤).

ويسـأل أحـبـار التلمـود لماذا دمّر الهـيكل الأول في أورشليم (هيـكل سليمـان)؟ ويجـيب بأن ثلاثة أنواع من الجـرائم كانت ترتكب فـيه: عبادة الأصنام، والزنا، وإراقة الدماء. ويستشهد على عـبـادة الأصـنام بكلام النبي إشـعـيـا (٢٨: ٢٠) حيث يرمز إلى الشرك بالله بقـوله: سيضيق الفراش بالنائم عليه، والغطاء عن الملتف به. وسئل الربي صموئيل بن نحماني فروى عن الربي يوناثان قوله: سيضيق الفراش باثنين ينامان عليه من دينين مختلفين... وعن الجريمة الثانية ـ

الزنا ـ ذكر قول إشعيا السابق في وصف وقاحة نساء أورشليم وتبرجهن. وعن الجريمة الثالثة ـ القتل ـ استشهد هذا التلمودي بما جاء في العهد القديم: «من أجل أنهم ارتكبوا الشر أمام عينَيْ (الربّ) وأسخطوني، منذ خرج آباؤهم من مصر إلى هذا اليوم، وأيضا منسّى (ملكهم) سفك دما زكيًا كثيرا جدا، حتى ملأ أورشليم من أقصاها إلى أقصاها، بالإضافة إلى خطيئته التي أضلّ بها اليهود، فصنعوا الشر في عيني الربّ» (سفر الملوك الثاني ٢١: ١٥، ١٦)... قال في التلمود: وبسبب هذه الجرائم الثلاث سيرسل عليهم القدوس تبارك اسمه ثلاث عقوبات وردت في سفر نبيهم (ميخا) إذ يقول: اسمعوا هذا، يارؤساء آل يعقوب، وياحكّام آل اسرائيل! الذين يكرهون العدل، ويَعْوجون كل استقامة، الذين يشيدون صهيون بالدماء، وأورشليم بالإثم، إنما رؤساؤها يحكمون بالرشوة، وكهنتها يعلّمون بالأجر، وأنبياؤها يتخذون العرافة مصدر ثروة، متكلين على الربّ، يقولون: أليس الربّ في وسطنا، فلا يصيبنا شر؟ لذلك (وهنا تبدأ العقوبات الثلاث) ستُحرث صهيون بسببكم كحقل، وتصير أورشليم أنقاضا، وحبل الهيكل آكاما وآجاما (يوئيل ٣:٩ ـ ١٢)، والنصّ في التلمود البابلي (باب يوم الغفران ـ الفقرة ٦).

وبنات أورشليم، على تبرجهن وخلاعتهن، مظلومات؛ فالمجتمع كله فاسد، يغرق في الرشوة ويتغذى بالخرافات التي يقدمها له كهنته، وحتى أنبياؤه الكذّابون يحترفون التنجيم والسحر، والجميع يغوص في مستنقعات من الاغتصاب والنهب وسفك الدماء. وما أشبه الليلة بالبارحة!

وهذا الفساد كان قديما ومتأصلاً، ربما لأن اليهود عمقوا الفجوة التي تفصل بين الرجل والمرأة عندهم، فاستأثر رجالهم بكل الحقوق، وحرموا النساء حتى من قراءة التوراة، أو لمس الملابس التي يرتديها الرجل للعبادة: عباءة الصلاة (الطاليت) وأهدابها أو شرّاباتها (الصيصيت) وأربطة الصحف الدينية التي يشدها على الجبين واليد (التفلين) كما أشرنا إلى ذلك باعتقادهم أن المرأة مخلوق نجس. ومع ذلك كثُر تهالكهم عليها ـ حلالاً أو حراما ـ واستغلت النساء نقطة الضعف هذه في الرجال فاستثمرنها بذكاء، وأصبح الحب عندالكثيرين والكثيرات من اليهود سوقا اقتصادية يحاول كل من الطرفين أن يكون له فيها كل الغُنْم وأن يلقي كل الغُرْم على الطرف الآخر، حتى ندر بين أحبارهم وكهنتهم وعلمائهم من لايشكو من ظلم امرأته له. والجميع واقع في تناقض رهيب، عليه أن يحب ويكره في آن واحد، وأن يثق إلى أبعد الحدود دون أن يكف عن الارتياب، بحيث كانت الذرية حزينة: البنات في جانب الأم والبنون في جانب الأب، ولم يقصر مشرعوهم في توسيع هذا الخندق الفاصل بين الجنسين وتعميقه مما أدى في النهاية ـ وقليلاً قليلاً ـ إلى أن قامت النساء بالتحرر الذاتي، واستفدن من الصهيونية في الوصول إلى تشريعات وضعية، مايزال المحافظون من شيوخ الدين اليهودي التقليدي يعدّونها من باب الكفر حتى في داخل إسرائيل، مع أن العقدة بين النساء والرجال نشأت في الفوضى التي عاش فيها بنو إسرائيل في قديم الزمان، هائمين على وجوههم لا حكام ولامحكمة ولا حكم منظم. والمرأة في شريعة القوة البدنية هذه هي الجانب الضعيف، فكانت تستمد قوتها من إغرائها وجاذبيتها، وسفر «نشيد الأناشيد» في كتاب العهد القديم اليهودي، على الرغم من أنه أغنية عشق وحب، يبدو أحيانا على حدود الأدب المكشوف، بما فيه من خلاعة وشهوانية. مثلا تقول الفتاة: «قبّلني بقبلات فمك، فإن غرامك ألذّ من الخمر! أدهانك عطرة الأريج، واسمك عطر يترقرق! لذلك أحبّتك الأبكار. اجذبني وراءك فنجري، قد أدخلني الملك خدوره، لنبتهج بك ونفرح، ذاكرين حبك الذي هو ألذّ من الخمر. إن الفاهمين يحبونك! أنا سمراء ولكني حلوة يابنات أورشليم، كخيام العرب، أو كسرادق سليمان، لايهمكن كوني سمراء، فإن الشمس قد لوحتني. غضب عليّ بنو أمي، فجعلوني حارسة للكروم، أما كرمي أنا فلم أحرسه! أخبرني ـ يامن تحبه نفسي ـ أين ترعَى، وأين تريح عند الظهيرة؟ لماذا أبقى كالمغشي عليّ وراء قطعان رفاقك؟ إن كنت لم تعرفي أيتها الجميلة. بين النساء، فاظهري في إثر الغنم، وارعي جداءك بإزاء مساكن الرعاة. ما أشبهك يامحبوبتي بفرسي في عربات فرعون! ما أجمل سموط الجواهر على خدّيك! والخرز عقداً حول عنقك. سنصنع لك سموطًا من الذهب مع جمان من الفضة (٢:١ ـ ١٠). والسفر، بعد، أقل تعففا واحتشاما مما ذكرناه، وهو نص حيَّر الأحبار والمفسرين، وشطح فيه المؤولون ونطحوا، من يهود ومسيحيين، وترجمه أو استوحاه ما لايحصى من الأدباء، وواضح أن هذه الحلوة المعشوقة لم تكن زوجة، ولو كانت لما تمخض الزواج عن هذا الشعر، بل ـ ربما ـ عن أولاد.

وبعد، فإن أمر المرأة اليهودية مايزال يطالب بالتفكير، شأنه شأن المرأة في كل الأمم والأجناس، بل أكثر تعقيدا. وقد شغلت المرأة في العالم أكثر المفكرين والفلاسفة والفنانين والأدباء؛ حتى رووا عن سقراط شيخ فلاسفة اليونان أنه كان سيئ العلاقة بزوجته، وكانت تسيء معاملته، فسمعها تصيح متبرمة صاخبة غاضبة فنظر إلى تلاميذه وقال: تزوجوا فإما أن تعيشوا سعداء وإما أن تصيروا.. فلاسفة! فأين هذا من كلمة شاعر الألمان الكبير في القرن التاسع عشر «غوته» التي ختم بها الجزء الثاني من (فاوست) فكتب: الأنوثة الأبدية! إشارة إلى القوة السحرية الخفية التي تجذب الرجل فيهيم بها حبا. ففي هذه الخاتمة يأتي صوت «مرغريت» تقول للشاعر: «تعال، وحلق، وطرْ نحو الآفاق العليا، ولو تعلّق بك الظنّ لأطاعك، واتبعك، وينطلق نشيد علويّ يقول: الأنوثة الأبدية تشدنا إلى الأعالي»! وقبله جعل الشاعر الإيطالي دانتي دليله إلى العالم الآخر: «بياتريس». ويقول نيقولا بيردياييف الباحث في مشكلات النساء في كتاب له عنوانه «العصور الوسطى القادمة»: إن المرأة أشدّ ارتباطا من الرجل بروح العالم وما فيه من عناصر القوة الأساسية الأولى، وتقوى هذه الحاسة عندها بقوة امتزاج الرجل بها. ويضيف أنه ليست المرأة المتحررة المشبهة للرجل هي المقدّرة لتلعب دورا في مستقبل العالم. ويبدو أنه يقصد الحُرّة الكاملة الأنوثة، لا المسترجلة، هي التي ينتظرها التاريخ.

ومرة أخرى، شكرا لجميع القراء الذين سألوا عن المرأة في المجتمع اليهودي، وإلى عودة لجانب آخر من هذا الموضوع المهم الذي أثاروه في تفكيري، ولولا هذا لتأخرت في اختياره.

الدعوة إلى العامية من يوقظها؟



د. وليد إبراهيم قصّاب

لم تخمد رياح الهدم والتشكيك التي هبَّت على اللغة العربية منذ عهد بعيد، ولم تنقشع يومًا عجاجة البغض الأسود التي علت رأس هذا اللسان الكريم المقدس. ومنذ تفشّغ (أي انتشر) سرطان العبودية للفكر الغربيّ، عندما تمّ اختراق العقل المسلم في أوائل هذا القرن في أعقاب التآمر على إسقاط الخلافة العثمانية؛ والحربُ - ظاهرةً وباطنةً - ضروسٌ على هذا العقل، تحاول زرع الشكوك في كل ماأنتجه من حضارة وتراث ولغة. وكلما قيّض الله قومًا غُيُرًا ليطفئوا نار الحاقدين شبّت نار غيرها، وراح اللاحق يستضيء بخبرة السابق، ويتهدّى بخطواته، فيغلو فيما أتت به الأوائل، أو يزيد عليها.

وأحدث مؤامرات الهدم والتخريب للغة العربية - ولن تكون آخرها - ماتمارسه الحداثة المعاصرة اليوم على أيدي قوم أكثرهم بين ظهرانيّنا، يصنعون مايصنعون - ممّا سيعرض لجانب منه هذا المقال - باسم التجديد حينًا، والمعاصرة حينًا، وباسم تحرير العقل العربي من جموده ليلحق بالعقل الغربي المتوثب، وباسم فكّ القيود عن اللسان العربي ليوائم طوارق الحضارة والتقدم حينًا ثالثًا.

ومن المعروف أن الحداثة العربية المعاصرة قدّمت نفسها - على أيدي الكبراء ذائعي الصيت فينا - على أنها رؤية حضارية ثورية تدميرية، تريد إعادة صياغة العالم من جديد، صياغةً مخالفة للأذواق والأعراف السائدة في المجتمع العربي.

قال غالي شكري: «الحداثة الحقيقية ثورة في المجتمع، والفكر، والفن. والمبدع الحديث إنسان ثوري لأنه يدرك أن الحداثة تجربة ورؤية متناقضتان مع الذوق السائد، والوجدان السائد، والعقلية السائدة»(١).

وقال كمال أبو ديب: «الحداثة ليست انقطاعا نسبيا فقط، بل هي أعنف شرخ يضرب الثقافة العربية في تاريخها الطويل. ليس في هذه الثقافة - في أي مرحلة من مراحلها - مايعادل هذا الانشراخ المعرفي، والروحي، والشعوري، الذي يكاد يكون انبتاتا عن الجذر.. إنها تمثل انشراخًا عميقا عمق الهاوية، وانسلاخًا يكاد أن يكون كليا ضمن بنية هذه الثقافة»(٢).

ولم تكن الحداثة العربية المعاصرة - وهي تتشدّق بهذا الكلام اللاواعي - إلا ببغاءً يتلقف مايقوله الآخرون، إنها الظلّ الباهت لنظيرتها الغربية التي عرّفها مارشال بيرمن بأنها: «تحمل تدمير كلّ مالدينا ، كلّ مانعرف»(٣).

وأنها - كما يقول جان بودربار - : «نمط حضاري خاص، يتعارض مع النمط التقليدي، أي مع كلّ الثقافات السّابقة عليه أو التقليدية»(٤). وأنه ينبغي أن يتم على يديها - كما يقول تزارا، مؤسس الدادائية -: «عمل تهديمي كبير.. لابد من الكنس والتنظيف»(٥).

الحداثة واللغة

أتقنت الحداثة العربية ماثقفته من الفكر الغربي أمثل إتقان، فمضت تمارس مادُعيت إليه من كنس وتنظيف لقيم الثقافة العربية الإسلامية، فلم تقف دعوتها التدميرية عند حدّ، فكما طالت عقيدة الأمة، وثوابتها، وأعرافها، وذوقها الفنيّ والاجتماعيّ، فمضت تسخر من هذا كله، وتشكك فيه، وتدعو إلى الثورة عليه، طالت لغتنا العربية، التي هي وعاء فكرنا، ورمز شخصيتنا، فنادت بزلزلة تغيّر ملامحها.

قال أحدهم: «إنّ الحداثة المعاصرة منظومة تأسيسية، قائمة على نظام معرفي كشفي، فيه خرق للمؤسسات الثقافية السائدة، وخروج عن المألوف في الفكر والأدب، سواء على صعيد التشكيلات البنائية، أو البنى التعبيرية المكونة.. إن الحداثة الشعرية زلزلة بنائية للتشكيلات اللغوية السائدة.. وهي تعبّر عن رؤية فكرية شاملة»(٦).

ومضت الحداثة المعاصرة تمارس على اللغة العربية الفصحى ضروبا من الانتهاك والتدمير لاحصر لها.

وسيعرض هذا المقال لتبنّي الحداثة للعامية، وعدّها واحدًا من ملامحها الفنية.

الحداثة والدعوة إلى العامية

الدعوة إلى العامية قديمة، أذاعها منذ مطلع هذا القرن المستشرقون والمبشّرون من أمثال الألماني فلهلم سبيتا، والإنجليزي وليام ويلكوكس،

والألماني كارل فولرس، والإنجليزي ولمور، واللورد دفرين البريطاني، وغيرهم، ثم ارتسم مراسم هؤلاء من أبناء جلدتنا ممن تربّوا على موائدهم، ورضعوا من لبانهم، من أمثال لطفي السيد، ومارون غصن، وسلامة موسى، ولويس عوض، وأنيس فريحة، وأنطون مطر، وسعيد عقل، وكثيرين غيرهم(٧). وجوبهت هذه الدعوة الحاقدة ـ في ظل التنامي الوطني والإسلامي ـ بالمعارضة والتفنيد، وتصدت لها أقلام الغُيُر من أبناء هذه الأمة، فأبطلت حجج دعاتها، وفضَحت زيفها.

ويعود فرسان الحداثة العربية المعاصرة اليوم ليحملوا راية هذه الدعوة، وليرفعوها مَعْلَمًا بارزًا من معالم حداثتهم، وهي تتسلح على أيدي هؤلاء المفسدين الجدد بأسلحة أكثر تطورًا، وأشدّ جلاء، وأبعد مرامي وأهدافا؛ بل إنها تحتلّ في حيّز التطبيق العملي مساحة لم تحلم بها تلك القديمة؛ إننا اليوم أمام موجة عارمة كاسحة تسعى ـ جاهدة ـ إلى إحلال العامية محل الفصحى، وهي تتبناها لغة كتابة في العمل الأدبي بأكمله.

وإذا كنا عرفنا عددًا غير قليل من كتاب القصة المعاصرين ممن استعملوا العامية، فإن ذلك لم يجاوز عندهم كتابة الحوار، ولكن فاشية خطيرة تفشو اليوم، وهي التزام العامية في القصة كلّها. وهذا ماصنعه القاص المصري يوسف القعيد في أحدث رواية صدرت له في (مايو /أيار ١٩٩٤م) وعنوانها «لبن العصفور». ولعله ـ وقد اغتذى بأفكار الحداثة ـ رأى أن كتابه الحوار وحده بالعامية غدا عتيقا، والحداثة النزّاعة إلى نسف كلّ قديم لابدّ أن تتجاوز ذلك، فالتزم القعيد العامية في كتابة الرواية كلها من ألفها إلى يائها، ثم عبّر في بيان نشره في أخبار الأدب يوم (١٥ مايو /أيار ١٩٩٤م) عن فرحته العارمة بهذا الفتح العظيم الذي حققه، وبيّن أن الكتابة بالعامية كانت هاجسه المستمر، وراح يقول: «ظلت الكتابة بالعامية وجعًا يطاردني، لأنني عندما أكتب عن الهوامش البشرية وبالفصحى أشعر أنني مندوب عنهم، أكتب نيابة عنهم، أترجم كل مافي حياتهم إلى فصحى غريبة عنهم، إن ذلك يقلل من الصدق الذي أبحث عنه في كافة ماكتبت»(٨).

ومن الواضح أن القعيد مايزال مستمسكًا في تسويغ كتابته بالعامية بحجج بالية لاترتكز على أي أساس واقعي أو فني، فليس صحيحًا أن العامة لاتفهم الفصحى، كما أن أبسط قواعد الفن تعلّم المبتدئين أن الواقعية لاتعني نقل الواقع نقلاً فوتوغرافيا حرفيا، ناهيك عن عجز العامية التام عن أن تكون لغة فن راق يكتب له الذيوع أو الخلود.

ويرسّخ القعيد في هذه الرواية التي كتبها كاملة باللهجة المصرية تيارا تنادي به الحداثة، وتشجع عليه، وتجعله من ملامحها الكبرى، كذلك المقال الذي نشر في العدد الأول من مجلة مصرية جديدة تتبنى شعار «الشعر المصري الحديث» وتعلن «التجديد والتمرّد على كل شيء، وتبدأ تمردها على الأخلاق بنشر القصائد المكشوفة، وعلى اللغة العربية بنشر المقال المذكور»(٩).

تيار يحشد أسلحته!

وعنوان المقال «في اللغة المصرية المعاصرة» وهي ـ كما يسميها ـ لغة أهل مصر، التي ينبغي أن تصبح لغة البلاد الرسمية للقضاء على ازدواجية اللغة، والمقال مكتوب كله باللهجة العامية(١٠)، ممّا يعني أن مايجري الآن من، كتابات بالعامية ليس محاولات فردية، ولكنه «تيار يحشد نفسه ليحقق أهداف ولكوكس وعبدالعزيز فهمي وسلامة موسى ولويس عوض وأدونيس للنيل من اللغة العربية وتراثنا ومعتقداتنا»(١١).

والحق أن الدعوة إلى العامية هي ـ كما ذكرنا ـ ملمح بارز من ملامح الحداثة، وقلّ أن يتخلف أحدٌ من رموزها عن الإعلان عنه، أو الحماسة له:

ليس صحيحا أن العامة لاتفهم الفصحى، والعامية تعجز عن أن تكون لغة فن راق له حظ من الذيوع أو الخلود

صراحة أو إيماء، وعن النظر إلى العامية ـ خلافًا للمعهود ـ على أنها لغة أدب وفن، لاتقلّ عن الفصحى شأوًا إن لم تتفوق عليها، وفُتح ـ تحت ستار هذا الإيحاء المزيف ـ الباب على مصراعيه أمام الشعر العامي والحكايات العامية، أو ماأطلق عليه اسم «الأدب الشعبي»، وراحت صحف ومجلات كثيرة تخصّص صفحات في كلّ يوم لنشر هذا الأدب، على حين لايحظى منها الأدب الفصيح بغير صحيفة واحدة أو أقل في الأسبوع، واحتلت اللهجات العامية حيزًا في الدرس الجامعي، وامتلأت المكتبة العربية بعشرات المؤلفات الأكاديمية التي تدرس الأدب العامي، واللهجات العامية، على نحو مايدرس الأدب الفصيح، وخرج هذا الدرس ـ في أحيان غير قليلة ـ عن أن يكون عونًا على فهم الفصحى، أو شدًا لأزرها، أو محاولة لردم الفجوة بينها وبين اللهجات؛ ليبدو أقرب إلى الحماسة لهذه العامية، وإجراء لدماء الحياة في شرايينها، وتشجيعًا لها على النمو والاستعلاء.

قال محمد النويهي ذات مرة عن القصائد العامية التي ينظمها صلاح جاهين وأمثاله: إن لها من الحيوية ما لايوجد في مجموع الشعر التقليدي الذي أنشأه الشعراء المقلدون منذ البارودي إلى يومنا هذا(١٢).

وكتب إدوارد الخراط في مجلة فصول دراسة موسّعة عنوانها «قراءة في ملامح الحداثة عند شاعرين من السبعينيات»، وهما من شعراء العامية المصرية، التي يسميها الخراط ـ كما سمّاها القعيد وغيره من أصحاب الدعوة إلى«العامية ـ «لغة أهل مصر» في إيحاء خبيث أن اللغة العربية الفصحى ليست لغة أهل مصر، بل هي لغة غريبة عنهم، أو لعلها مفروضة عليهم فرضًا بقوة الحديد والنار.

ظاهرة يحسبونها فتحا عظيما!!

قدّم إدوارالخراط شاعر العامية بحفاوة قائلاً: «نحن هنا مع شاعر يكتب بالعامية التي لا أعرف إلا أن أقول عنها ـ لغة أهل مصر ـ .. لا أريد أن أسميها اللغة العامية لسببين: أولاً، لأن في هذه التسمية نوعًا من التعالي الموروث القالبي، وأرجو أن نحذر من «القوالب الإكليشيهات» وأن نتوقّى

التعالي. والسبب الثاني والأهم، أن هذه اللغة هي أساسًا لغة فنية، أو على الأصحّ أداة فنية، فليست هي اللغة التي يتحدث بها عامة الناس في شؤون معاشهم أو مماتهم.. ومنذ أن دخلت هذه اللغة - لغة أهل مصر - «أرض بلوتولاند» على يد لويس عوض، في أواخر الأربعينيات، لم يعد من الممكن أن نعدّها مجرد لغة «عامية» أو لهجة «متدهورة» من لهجات العربية الفصحى، أو حتى لغة «العامة» بمعنى لغة «الشعب» ولم يعد من الممكن أن ينظر إليها أي إنسان من عل. ومنذ ذلك الاقتحام القديم البهيج، الذي مازال حتى الآن محفوفا بالخطر، بدأت لغة أهل البلد تحمل بحق - في سياقها الفني - أعباء العصر، وتكسب شحنات ثقافته»(١٣).

ويبدو الخراط مزهوًا بفُشُوّ هذه الظاهرة، ظاهرة الكتابة بالعامية، وهو يراها فتحًا عظيمًا، ويتباهى بأنها أصبحت تيارًا عظيم الخطر، يقول: «مايهمني الآن هو أن أشير إلى حقيقة واقعة، هي ظاهرة الشعر المكتوب بهذه اللغة. لم نعد بإزاء مجرد تجارب عابرة، أو اقتحامات تحدث وتمضي، أو شطحات فردية، بل أمام ظاهرة لها وزنها. ونحن نراها في السبعينيات من هذا القرن تحتشد، لا أقول تتضخم، بل أقول تتأكد، وتجتذب خبرات متزايدة بأعداد متزايدة، أي إن لها بحق جاذبية خاصة، وقوة خاصة، ومقدرة خاصة»(١٤).

ويقول في الثناء على هذه اللهجة العامية، وبيان حيويتها ومقدرتها على الوفاء بمتطلبات الحياة والفن: «أريد أن أثبت لهذه اللغة المصرية - في شعرها الحديث - أصالة، ولندع الآن آجروميتها وقواعد نحوها، وإنما الأصالة التي أعني هي تحدّرها مباشرة من الحساسية الثقافية العامة المعاصرة، بكل ماتحمل هذه الحساسية من تراث، وكل ماتسعى إليه من تحقيق في وقت معا»(١٥).

ويقول في موضع آخر مشيدًا بمقدرة العامية: «أريد أن أقول ببساطة إننا أمام ظاهرة واقعة، وإنه لم يعد من الممكن أن يماري أحد في أن للغة المصرية شعرها، وأنها قادرة على أن تفي بهذا الوعد، وأن تحقق هذه البشارة أي أن تحمل أعباء الشعر، الشعر فحسب، على إطلاقه دون تحديد»(١٦).

وكان لويس عوض - الذي تدين له الحداثة بالولاء التام - قد أيقن بعد اطلاعه على الشعر الأوربي المعاصر أن الحداثة لاتتحقق إلا بكسر شيئين: عمود الشعر القديم، وعمود اللغة. وتحقيقا لهذا الكسر تبنى لويس عوض - كما يقدمه غالي شكري فرحًا مزهوًا بصنيعه - كتابة الشعر بالعامية؛ لأنه «لاحظ في أثناء دراسته لمبادئ اللغة الإيطالية أن المسافة بين اللاتينية والإيطالية في الحصيلة اللفظية وقواعد النحو والصرف أقل بكثير من المسافة بين اللغة العربية والعامية المصرية»(١٧).

ولأن الإيطالية وغيرها من النماذج الغربية جميعها ينبغي أن تكون عند لويس عوض وأمثاله، الشاهد على العربية، والمهيمنة عليها، ومثالها الذي ينبغي أن يُحتذى؛ تساءل لويس عوض: «لماذا يترك المصريون عاميتهم بين جدران التراث الشعبي، أو على ألسنة قلة نادرة من الشعراء الموهوبين كبيرم التونسي؟ ولكن علامة الاستفهام ما لبثت أن ذابت في زحمة حياته العلمية بالجامعة، فلم يترك لنا سوى بضع قصائد بديوانه «بلوتولاند» وكتاب صغير يؤرخ لرحلته في أوربا، هو «مذكرات طالب بعثة» لم يتح له النشر إلا في تشرين الثاني «نوفمبر»١٩٦٥م، ولاتعنينا «مذكرات طالب بعثة» إلا في أن كاتبها كان يمتلك ناصية العامية المصرية نثرًا، كما سبق أن امتلكها شعرا.. وأن العامية قادرة على تبني «شعر الخاصة» قادرة على التجريب، قادرة على استيعاب أعمق هموم العصر والجيل»(١٨).

انحياز تنقصه الحشمة!

ويعلن غالي شكري في أكثر من موضع عن ترحيبه بهذه التجربة العَوْضيَّة، وعن رضاه التام عنها، وعن قناعته بصلاحية اللهجة المصرية العامية لغة للشعر المصري، يقول:

«بما أننا شعراء مصريون أولاً - على سبيل المثال - فنحن نرحب بالعامية المصرية لغةً للشعر المصري دون غيرها من العناصر التي اقترحها وجرّبها لويس عوض»(١٩).

ولايتردّد غالي شكري عند الموازنة بين من سمّاهم «المحافظين» أو «أساتذة الأدب الرسمي» وهم الذين يلتزمون الفصحى، ويقسمون الأدب إلى «فصيح» و«شعبي» وبين «الحداثيين» وهم آباء الأدب الشعبي؛ أقول: لم يتردد عند الموازنة بين هذين الفريقين أن ينحاز إلى الفريق الثاني بلا استتار ولاتحشم.

يقول عن الفريق الأول: «ظلّ المحافظون دومًا في الحقل الأدبيّ هم دعاة الجمود اللغوي، وحماة الأدب الرسمي، وهم المشرعون الأول لتصنيف الأدب إلى رسمي وشعبي: الأول، هو ما اتخذ الفصحى أداته التعبيرية، والآخر هو ما اتخذ العامية المصرية. وبالطبع كان المحافظون يتفاوتون في درجات التزمت والجمود»(٢٠).

ويقول عن الفريق الثاني - دعاة العامية -: «أما آباء الأدب الشعبي (أو العامي) فكانوا يصدرون أحيانًا عن مفهوم حضاري متقدم لمعنى اللغة، كما نجد عند لطفي السيد، وعبدالعزيز فهمي، وعبدالقادر حمزه، وسلامه موسى»(٢١).

ومضى يشيد بشعراء العامية في مصر ولبنان، كبيرم التونسي وفؤاد حداد، وصلاح جاهين، والأبنودي، وميشال طراد، وموريس عواد، وغيرهم. ويرحب بتجاربهم أعظمّ ترحيب، ويراها - على مذهب أهل الحداثة - تجارب عظيمة جديرة بالدرس والاحتذاء»(٢٢).

وكان يوسف الخال من قبل قد جعل الفصحى أحد المعوّقات التي تحول بيننا وبين اللحاق بالعصر، وهي سبب اضطراب عظيم في الفكر وفي الكتابة، وبرزخ يحجبنا عن عالم الحداثة، يقول: «أولى هذه الصعوبات اللغة، فنحن نفكر بلغة، ونتكلم بلغة، ونكتب بلغة. فهل يكون أننا في الواقع لاننشئ أدبًا لأننا لانكتب بلغة الشعب؟ أما بدأ الأدب الإنجليزي مثلاً بتشوسر، والإيطالي بدانتي، حين كتبا باللغة التي طورتها الألسن»(٢٣).

الحداثيون ينحازون إلى العامية انحيازا تنقصه الحشمة ، ويزعمون أن الفصحى عائق في وجه الإبداع الحقيقي

الدعوة إلى العامية من يوقظها؟

اللغة تتطور..
لكنها لاتتدهور!

وإذا كانت الفصحى عند الخال ـ وأمثاله من عصابة الحداثة ـ تقف عائقًا دون الوصول إلى أدب حقيقي، فإنها الجديرة عندئذ أن تتلقى سهام السخرية والحقد، وأن تكون موضع الانتقاص والأزدراء. يقول الخال: «هذا الحرص على تجميد اللغة في قواعدها القديمة المتوارثة دليل على أن العقل العربي غير حديث بعد، أي لا علمي ولا علماني، بل لايزال يخضع الحقائق الموضوعية للرغائب الذاتية، فمن الحقائق الموضوعية مثلاً أن اللغة تتطور مع الزمن، وأنها تتطور على ألسنة المتكلمين بها، على أن رغبتنا الذاتية في أن نرى أنفسنا أمة عربية موحّدة تحملنا على التمسك بلغة عربية موحّدة... والواقع أننا استنفدنا ـ أوكدنا نستنفد ـ منذ أبي نواس إمكان تطويع اللغة الفصحى لحاجة التعبير الحي النابض عن خلجات نفوسنا وتأملات عقولنا، ففشلنا في المسرح، وفي السينما، وسنفشل قريبا في الرواية والقصة حيث اقتنعنا حتى الآن باستعمال اللغة المحكية في الحوار، وسيأتي يوم ندرك فيه أن الحقيقة لاتتجزأ، وأن مالا يصح أن يكون لغة المسرح والسينما والحوار القصصي، لايصحّ أيضًا أن يكون لغة الأدب في جميع فنونه»(٢٤).

ولايفتأ الخال ـ شأن الحداثيين جميعا ـ يعزف نغمه الحديث عن الانفصام «الحاد» بين لغة الكتابة الفصحى، ولغة الكلام العامي، وتُحَمِّل الفصحى ـ بطبيعة الحال ـ دائمًا إصر هذه المشكلة التي لاحلّ لها، إلا بأن تتخلى عن مواقعها للعامية، فهي سبب تخلف الأدب العربي، وهي الجدار المقيت الذي تصطدم به كل محاولة تجديدية. يقول الخال في إحدى افتتاحيات مجلة شعر:

«اصطدمت الحركة ـ يعني حركة الشعر الحديث ـ بجدار اللغة، فإما أن تخترقه أو أن تقع صريعة أمامه، شأنها شأن المحاولات الشعرية التجديدية، بما في ذلك التوشيح الأندلسي. وجدار اللغة هو كونها تُكتب ولاتحكى، مما جعل الأدب ـ وخصوصًا الشعر، لأنه ألصق فنونه باللغة ـ أدبًا أكاديميا ضعيف الصلة بالحياة حولنا»(٢٥).

وهكذا ـ على طريقة الخال و أضرابه ممّن توقفنا عندهم ـ تصوّر الحداثة الفصحى عائقًا في وجه الإبداع الحقيقي، وينفخون رماد المبالغة الماكرة فيما بينها وبين العامية من فروق، ويجسدون ذلك مشكلة عويصة لاسبيل إلى حلها إلا بأن تحتل العامية ـ لغة الكلام ـ محل الفصحى ـ لغة الكتابة ـ وليس العكس طبعًا، ناسين أو متناسين أن هذه المشكلة كانت دائما موجودة، ولم تقف في يوم من الأيام عائقًا أمام شاعر أصيل أو ناثر مبدع. إن العامية لهجة محلية ضيقة، وهي لغة العامة في كلامهم اليومي والمعيش، ولكنها لاتصلح أن تكون لغة أدب رفيع خالد، ولابدّ ـ إذا توخينا حلاً صالحًا لمشكلة الازدواجية الحاصلة ـ أن نرقى بها لتقترب من الفصحى الأصل. ولكن الحداثة لاترى حلاً لذلك إلا بأن تُتخذ العامية لغة كتابة مادامت لغة حديث.

يتحدث أحد النقاد عن افتتان شعراء الحداثة العربية بشعراء الغرب في استعمال اللغة المحكية، مما حمل بعضهم على «الاعتقاد أن واحدة من صعوبات اللحاق بشعراء الغرب، واختزال المسافة الإبداعية القائمة، تبدو كامنة في كون الشاعر الغربي يفكر ويكتب باللغة الحية لمجتمعه، في حين أن زميله العربي يفكر ويتحدث بلغة، ويكتب بلغة ثانية»(٢٦).

دعوة يعيدونها جَذَعة!

وهكذا تبنّت الحداثة العربية المعاصرة دعوة العامية التي حسبنا أن الأيام وأدتها، بعد أن فنَّدت أقلام الباحثين مزاعم دعاتها الأول، وبعد أن تبيَّن للأمة خطرها على دينها، وتراثها، ووحدتها.

إن الدعوة إلى العاميات تعود اليوم جذعة، متذرِّعة بالحجج الواهية القديمة نفسها:

ـ العامة لاتفهم الفصحى.

ـ كتابة الأدب بالفصحى تبعده من الواقع.

ـ ازدواجية اللغة ـ فصحى وعامية لغة مكتوبة ولغة محكية ـ تحدث إرباكًا في الفكر، وتشويشًا في الفن، وتحقق برزخًا في وجه الإبداع الأصيل.

ولكن حداثة اليوم تزيد على هذه الحجج الزعم:

ـ أن العامية لغة حيوية متدفقة، تصلح للأدب والفن، وهي لاتقل عن الفصحى طاقات وإمكانات، إن لم تتفوق عليها.

ـ أن العاميات هي اللغة الحديثة للشعب العربي.

وكأن دعاة الحداثة هؤلاء يقولون بملء الفم، وصريح العبارة: «إن اللغة العربية الفصحى قد غدت تراثًا، وهي لاتصلح لغة أدب حي متدفق، والعامية هي التي تصلح لذلك».

ولك أن تتخيل ـ في مناخ ماتمرّ به أمتنا من تناحر وتدابر، وفيما يُدَبَّر لها من كيد، ويُتَربّص بها من دوائر ـ كم يمكن أن تكون العامية ـ زيادة على فُيُول حججها من الناحية الفنية ـ عامل تصديع وهدم في جدار أمة، تناحرت على كلّ شيء، ومازال العربية الفصحى ـ لغةُ الدين والقومية ـ آخر مرفأ يمكن أن ترسو على شاطئه سفينتها التائهة الحيرى.

الهوامش:

١ـ مجلة الناقد، العدد التاسع، آذار/مارس ١٩٨٩م، ص١٥.
٢ـ مجلة فصول، ١٩٨٤/٣/٤م، ص٣٨.
٣ـ قضايا وشهادات (الحداثة ٢) ص٢٦٥.
٤ـ السابق نفسه: ٣٨٦.
٥ـ إيليا الحاوي، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي، ص٢١٣.
٦ـ مجلة الثقافة الدمشقية الأسبوعية (١٩٩٤/٦/١١م)، مقال: الحداثة الشعرية.
٧ـ نذير مكتبي، الفصحى في مواجهة التحديات، ص١١١ ـ ١٤٦.
٨ـ انظر: إبراهيم سعفان، الكتابة بالعامية، مجلة المنتدى، العدد ١٣٣، آب ١٩٩٤م.
٩ـ إبراهيم سعفان، جريدة البيان (١٩٩٤/٩/١م).
١٠ـ نظر مجلة «الجراد»، العدد الأول، مارس/ آذار١٩٩٤م، ٧٩ ـ ١١٢.
١١ـ إبراهيم سعفان، البيان (١٩٩٤/٩/١).
١٢ـ الحداثة ليوسف الخال، ص٥٧.
١٣ـ مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الرابع(١٩٨٤م)، ص٦٨.
١٤ـ السابق نفسه.
١٥ـ السابق:٦٩.
١٦ـ السابق نفسه.
١٧ـ شعرنا الحديث إلى أين؟، ص٣٣.
١٨ـ السابق نفسه.
١٩ـ السابق، ص٤٠.
٢٠ـ السابق، ص٥٧.
٢١ـ السابق نفسه.
٢٢ـ السابق، ص٥٨ ـ ٧١.
٢٣ـ الحداثة، ص٦.
٢٤ـ الحداثة، ص٧.
٢٥ـ مجلة شعر، عدد: ٣١، ٣٢ (١٩٦٤م)، ص ٧، ٨.
٢٦ـ منيف موسى، في الشعر والنقد، ص٢٠٠.

وقفة.. مع القبح الجميل

د. محمد عبد الرحيم الزيني

كيف يكون القبح جميلاً؟ وماذا نعني بهذه المقولة؟ إننا نعني بها؛ النظرة الكلية المتفحصة المدققة لأعماق الإنسان والوجود وموجوداته، صارفين النظر عن الشكل، والصورة، باحثين عن أوجه الجمال البارع التي تختفي خلف القشور القبيحة، والجلد السميك. فعادة مانتوقف عند الشكل القبيح المرئي دون أن نتجاوزه إلى أبعاد أخرى خفية، نتلمس في داخلها معاني الجمال المتعددة؛ مثل: الصدق المحمود، وطيبة القلب المتناهية، وعطف الإنسان على أخيه الإنسان. فدائمًا وراء كل شكل قبيح -أيا كان هذا الشكل- صور متعددة من الجمال، وأنواع لاحصر لها من التناسق والتأليف والإبداع، والسلام الداخلي، والرضا الباطني.

في الفكر اليوناني

سقراط (٣٩٩ ق.م)

النظرة السطحية المتعجلة لوجه سقراط الفيلسوف اليوناني الشهير سوف تلحظ أول ماتلحظ: أنفًا كبيرًا، وشفاهًا غليظة، وتقاطيع كريهة، وصدرًا مفتوحًا، وقدمين عاريتين، وملابس رثة مهلهلة، حتى وصفه بتلر (١٩٤٥م) بأنه «أبعد شيء من الوسامة أو حسن التكوين»(١).

إلا أن النظرة المتفحصة التي تسبر أغوار الإنسان، ستقرأ جمال الكون، ورهافة الإحساس، وعمق الشعور، خلف هذا الشكل المزري، إذ ترك لنا سقراط- من خلال كتابات تلميذه أفلاطون (٤٣٨ ق.م) - ميراثًا من أبدع ماقدمه العقل البشري -الذي هو هبة من الله- من سُمُوٍ في الأفكار، ودقة في النظر؛ فهو يعد مؤسس الفلسفة الخلقية، إذ دعا إلى التمسك بالفضيلة، فضيلة الاتزان والاعتدال، وعدم التطرف في العاطفة، وَحَصَرَ جهده الفلسفي في الاهتمام بقضايا الإنسان من حيث إنه كائن حيّ عاقل مفكر مبدع، وخاطبه قائلاً: اعرف نفسك، أي تأمل ذاتك، واكتشف أغوارها قبل أن تتأمل جنبات الكون، وَتَفَكَّرْ في حقائق الوجود أصله ومصيره. وحاول أيضًا أن يقضي على الصيغ الكلية، والتعريفات المبهمة والألفاظ الغامضة، حتى تصبح الأفكار والمفاهيم واضحة في عقولنا، ومن ثم استخدم منهج التهكم والتوليد لاستخراج الأفكار الواضحة من عقول الشباب.

ويكفي سقراط شرفًا، أنه توصل بعقله، وتأمله المستمر إلى أن وراء هذا الكون قوة قادرة عاقلة مدبرة تعتني به وأنه يسير نحو غاية مرسومة(٢).

ابيكتيتوس (١١٠م)

هذا رجل آخر، كان عبدًا مملوكًا، أسود أعرج، قبيح الوجه والمنظر، هو ابيكتيتوس الفيلسوف الرواقي، وأحد مؤسسي المذهب في مرحلته الرومانية: سنكا الوزير، وماركس أورليوس الإمبراطور، وهو ثالثهما.

ومن مبادئ هذه الفلسفة، الدعوة إلى الأخوة العالمية، إذ تعتبر أن الإنسان الذي يعيش على هذه الأرض، هو مواطن عالمي، والدعوة أيضًا إلى العيش وفقًا للطبيعة، أي وفقًا لمعايير العقل وأحكامه، وقوانين الطبيعة التي تسير عليها. وقد اتسمت حياة هذا الفيلسوف بالبساطة والزهد في الحياة وملذاتها، فعاش وحيدًا من غير أسرة، ووهب كل حياته للفلسفة والدعوة إلى الخير والفضيلة والأمانة. ومن أبرز آرائه فكرته عن الحرية الإنسانية؛ فالإنسان في نظره موجود حر، وتكتمل حريته حينما يتحرر من نوازعه الدفينة، حتى لايكون عبدًا للمال أو للجاه أو للسلطة.

ومن مواقفه الشهيرة التي تدل على قوة تحمله، ورباطة جأشه، وصبره على المكروه، أن سيده ظل يلوي قدمه بشدة بينما هو يقول له: سوف تنكسر، حتى كُسِرَتْ، فقال له بهدوء وثبات: ألم أقل لك ستنكسر قدمي ياسيدي(٣).

في الفكر العربي الإسلامي

وننتقل إلى تراث الحضارة العربية الإسلامية لنقلب فيه، وندقق في صفحاته بنظرة متفحصة متعمقة، وإنا لواجدون كثيرًا من النماذج الخيرة التي من الممكن أن نطلق عليها: القبح الجميل.

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)

شخصية أَثَّرَتْ في الفكر العربي وأدبياته وأَثْرَتْهُ، وتركت بصمات واضحة، وسمات مميزة له، ذلك هو الجاحظ أديب العربية بلامنازع، وعالم من علمائها المبدعين، والذي يطالعنا وجهه القبيح، وعيناه الجاحظتان، حتى إن الخليفة المتوكل صرفه عن تلقين العلم لولي

عهده، لبشاعة منظره، ووصفته إحدى النساء -كما يروي هو- أنه مثل الشيطان!

هذا الجاحظ ترك لنا ميراثًا من أروع ما جاد به عقل إنسان في بلاغة اللغة، وجزالة اللفظ، وقوة السبك، وجمال الأسلوب، ودقة العبارة، وطلاوة التركيب ووضوح الفكرة، وتوارد الخواطر، والتسلسل المنطقي في عرض المعاني والأفكار، وقوة الحجة..

ومن يحب أن يتذوق جمال اللغة العربية وسحرها، وقوة بيانها، وصفاء كلماتها، ووضوحها فليرجع إلى «البيان والتبيين» ، و«المحاسن والأضداد»، و«الرسائل»، و«الحيوان»، الذي يمثل دائرة معارف كاملة.

وفي مجال علم الكلام أسس الجاحظ فرقة كلامية تُنسب إليه، وتتخذ المنهج العقلي طريقًا للمعرفة، وأسلوبا للوصول إلى اليقين، فضلاً عن رفضه جميع أنواع الخرافات التي سيطرت على عقول مواطنيه في عصره.

يقول الجاحظ وهو بصدد الحديث عن أفعاله سبحانه، وأنها كلها خير ورحمة: «جملة القول، أن الخالق تعالى يصرف الأمور إلى الخير والمنفعة، فكما أنه إذا قلعت الريح شجرة أو قصفت نخلة، أخذها الصانع الرفيق فاستعملها إلى ضروب المنافع، كذلك المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم وأموالهم فيصرفها أجمع إلى الخير والمنفعة»(٤).

أبوسليمان المنطقي (ت ٣٩٨هـ)

وشخصية ثانية جمعت هذا التناقض الصارخ بين القبح الظاهري، والجمال الباطني في آن واحد، ذلك هو أبوسليمان محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني الذي يعد من أكبر علماء بغداد في المنطق والحكمة والفلسفة. هذا الرجل، كان به عور وبرص، منعاه حقيقة من غشيان مجالس الأمراء والوزراء، وهذا هو جانب القبح الذي يتمثل في الخلقة المرئية، حتى تطيّر منه أغلب الناس عند رؤيتهم له.

ومع هذا خصته العناية الإلهية بقدرات فائقة، ومواهب متعددة، فَتَمَيَّزَ بذكاء نادر وعلم واسع، وسعة أفق، وقدرة كبيرة على تحليل المعاني وبسط الأفكار الفلسفية الصعبة العويصة. وقد وصفه تلميذه، أبو حيان التوحيدي- وهو بسبيل تقويم صفوة علماء عصره (ابن زرعة، ابن الخمار، مسكويه)- فقال عنه: «أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرًا، وأقعرهم غوصًا، وأصفاهم فكرًا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغُرر»(٥).

فضلاً عن أنه حفظ لنا الكثير من آرائه في الإنسان والنفس والعقل، والموت والبعث والخلود، والله وصفاته(٦).

يقول أبوسليمان: «صار العلم والمعرفة واليقين والفضائل بأسرها، قليلة في هذا العالم، لشرفها في أنفسها، واتصالها بعالمها. وهكذا عزّ كل شيء شرُف بنفسه، وَعَزَّ في جوهره، انظر إلى المعادن في الأرض، وإلى قلتها، إذا تدبرت سائر الأجسام، ثم انظر إلى قلة الأشرف منها وهو معدن الذهب، ثم انظر إلى بخل المعدن بما فيه إلا لمستحقه بالطلب والجهد والمعاناة والكدح، وهكذا المعارف والفضائل تعز في هذا الجانب»(٧).

أبوحيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ)

ونختم هذا المقال بشخصية موهوبة، عبقرية، هو أبوحيان التوحيدي، الذي كان نابي المظهر، سيئ الحظ، متباين الأطوار، فضلا عن اللسان السليط، والقول الساخط، وأحيانا قدرة كبيرة على الكراهية لكل مايحيط به حين تشتد أزمته النفسية، والقلق الداخلي المدمر، والقدرة المذهلة على التهكم والاستهزاء بخصومه، إذ نظر إليهم باستعلاء وازدراء، فزهد فيه الخلفاء والأمراء، وتحاشاه الكبراء والعلماء، فأقدم على حرق كتبه نكاية في معاصرية الذين لم يقدروا عبقريته ويحتفلوا بموهبته، وينزلوه المكانة التي تليق بقدراته العقلية الفذة، فغمطوا حقه، وازدروه أشد ازدراء، فصب عليهم جام غضبه وسخطه، وأرسلها حممًا تحرق كل شيء.

هذا الأديب الفيلسوف قَدَّمَ للمكتبة العربية «الإمتاع والمؤانسة»، الذي بدأ فيه صوفيًا وتوسطه مُحَدِّثًا، وختمه سائلاً ملحفًا.

و«الإشارات الإلهية» ، وفيه أعظم الابتهالات، وأعمق الصلوات، والتوجه بالكلية إلى قيوم السموات والأرض ، والدموع التي تجري على الخد خوفًا من الله، وأملاً في مثوبته. و«المقابسات» التي بسط فيها الكثير من الآراء الفلسفية التي تناولها قبله فلاسفة الإسلام، مع ردود عميقة عليهم وعلى علماء الكلام.

و «الصداقة والصديق »، والكثير من المؤلفات ، وفيها نجد دقة العبارة وحسنها، وعمق الفكرة وصدقها، وسعة الاطلاع وغزارته.

لقبه صاحب معجم الأدباء بأنه: فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة. وقال عنه آدم متز : كان التوحيدي أعظم كُتَّاب النثر العربي على الاطلاق(٨). اسمعه وهو يقول داعيًا، مبتهلاً راجيًا العفو من مولاه : «اللهم إنا قد بذلنا دون طاقتنا في طلب ماعندك. فهب لنا تأييدًا منك حتى نستنفدها في حيازة رضاك، فإنك إن وكلتنا إلينا عجزنا، وإن تركتنا علينا تحيرنا، وإن كانت لنا فيما بينك وبيننا فُزنا»(٩).

هؤلاء العباقرة الأفذاذ؛ كانوا دائمًا المنارة الهادية، والعقول المرشدة، والكنوز المباحة، بالرغم من قبح صورهم، ونبو مظهرهم، وسوء حالهم.

وبعد .. أقول: فلنتجاوز الشكل في نظرتنا إلى المضمون، ولانحكم على الناس من خلال صورهم المرئية التي قد تبدو لنا قبيحة المنظر، فربما وراء هذا القبح، سحر اللسان، وطيبة القلب، ونقاء الفؤاد، وصدق الإيمان، وتقى العُبّاد، وزهد الصوفية، وحكمة الفلاسفة.

الهوامش:

١ – بتلر : سقراط، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، ص ٣٠.
٢ – يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م. وأيضًا: أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، القاهرة، ١٩٧٤م.
٣ – عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، القاهرة، ١٩٤٥م.
٤ – الجاحظ: الدلائل والاعتبار، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٦٤.
٥ – الإمتاع والمؤانسة، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ٣٣.
٦ – المقابسات، طبعة دار المدى، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٢٠.
٧ – المصدر السابق، ص ٢٢٠.
٨ – الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٣٩٤.
٩ – الإشارات الإلهية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٦١.

إشكاليات المنهج العلمي



د. نبيل السمالوطي

يقوم منهج البحث العلمي التجريبي على مجموعة من المسلّمات، وهذه بدورها تقوم على مجموعة من البديهيات. وقد أثار العديد من فلاسفة العلم كثيرا من الأسئلة حول أصل هذه المسلمات والبديهيات، وشككوا فيما تتضمنه من يقين. وبهذا عرَّضوا المنهج العلمي ذاته للتساؤلات والشكوك. ويرمي هذا البحث إلى إثبات أن هذه المسلمات والبديهيات تفترض البعد الديني الإيماني كضرورة لقيام المنهج، ومن ثم إمكان الثقة بالعلم التجريبي. كذلك فإننا سوف نطرح قضية المنهج التجريبي بوصفه إفرازاً للعقل المسلم وليس العقل الغربي.

فالمنهج الإسلامي في دراسة الإنسان والمجتمع والتاريخ والكون يتجاوز أزمة المناهج الوضعية بشكل جذري وحاسم، وذلك من خلال التأكيد على أنه لا يوجد تناقض إطلاقا بين الإيمان بالله، والأخذ بالمنهج العلمي في دراسة كل الظواهر الاجتماعية أو النفسية أو الطبيعية، وذلك على عكس ما يدعيه أنصار الاتجاهات الوضعية والمادية والعلمانية. فعلى العكس من هذه الاتجاهات فإن المنهج العلمي الإسلامي يؤكد على حقيقة دينية ومنهجية علمية تعد إبداعا من إبداعات العقلية الإسلامية أو الحضارة الإسلامية، وهي أن قيام العلم التجريبي أو الواقعي، يفترض بالضرورة الإيمان بالله.

وتفسير هذا أن العلم يقوم في الأساس على مجموعة من المسلمات التي ينطلق منها الباحث، منها أن العالم ـ سواء المادي أو الاجتماعي ـ معقول ومنظم، ويسوده التواتر والاطراد، ويخضع لمبادئ الحتمية والعلّية، وأن هناك مجموعة من القوانين التي تحكم الظواهر المشاهدة أو المدروسة، وأنه يمكن للعقل البشري الوصول إلى هذه القوانين. فمن أين أتت هذه المسلمات؟ الواقع أن العلماء والمفكرين تنبهوا إلى هذه المشكلة عندما تساءلوا عن أساس الاستقراء العلمي؛ فالمفكر يمر بعدة مراحل بحثية، وهي(١):

أولا: مرحلة البحث، ويستخدم فيها الملاحظة والتجربة للوقوف على ما بين الأشياء من أوجه شبه واختلاف.

ثانيا: مرحلة الاختراع والكشف، وهي مرحلة وضع الفروض التفسيرية التي توضح العلاقة بين الظواهر المشاهدة أو التي أجرى عليها التجارب.

ثالثا: مرحلة البرهان، وهي مرحلة تحقيق الفروض من خلال الرجوع للواقع.

تساؤل «هيوم» وغائية «كانت»

وقد كان دافيد هيوم D.Hume (١٧١١-١٧٧٦م) أول من أثار مشكلة الاستقراء وحددها بوضوح. فإذا رأينا عدة مرات أن الماء يغلي في درجة مائة مئوية، فما الذي يضمن لنا أنه سيستمر كذلك في المستقبل، وقل مثل هذا بالنسبة لظواهر الجاذبية والطفو والليل والنهار... ويشير هيوم إلى أنه لايوجد أي برهان منطقي أو تجريبي يدل على صدق الاستقراء ويسوغ الاعتماد عليه، بخلاف البراهين الهندسية الاستنباطية اليقينية(٢). وهو، وإن كان لا ينكر استخدام التعميم، والتنبؤ بحدوث الظواهر لأسباب عملية، فإنه يؤكد أنه لايوجد برهان منطقي أو تجريبي على مشروعية الاستقراء. وقد حاول إيمانويل كانت E. Kant (١٧٢٤-١٨٠٤م) إقامة الاستقراء على مبدأ السببية العام، فكل شيء يحدث نتيجة لسبب، والعلة تؤدي إلى المعلول، ثم ما لبث أن وجد أن هذا المبدأ وحده ليس كافيا ليفسر أساس التعميم وإطلاق القوانين، فأضاف إليه مبدأ آخر هو مبدأ الغائية، فكل ما يوجد في الطبيعة يرمي إلى غاية محددة، هي السبب في وجوده. وقد حاول جون ستيوارت مل J.S.Mill

(١٨٠٦-١٨٧٣م) الإجابة عن تساؤل «هيوم» من خلال القول بمبدأ السببية العام، لكنه مالبث أن شكك في صحة هذا المبدأ لأنه ليس مبدأ فطريا في النفس الإنسانية، وليس أمرًا بديهيًا(٣). ثم ينتهي إلى أن مبدأ السببية ضرب من التعميم يصل إليه الباحث استقرائيا. وهنا يقع «مل» فيما يطلق عليه المناطقة «الدور المنطقي» حيث يجعل مبدأ السببية أساسًا للاستقراء، وتطبيقا له في الوقت نفسه. وقد وجد أن الحل في القول إن هذا المبدأ يبدأ ظنيا ثم يصبح يقينا بعد تكراره باستمرار، غير أن هذا يُبقي على المبدأ كفرض قابل للتكذيب، ولم يكن هناك من سبيل إزاء هذا المبدأ إلا القبول به، وإلا وقع العلماء في الشك المطلق. وكما يشير محمود قاسم؛ فإنه من الضروري توضيح السبب في الثقة بالاستقراء، وإلا استحال البحث العلمي. وهنا ذهب بعض العلماء إلى أنه من الضروري الإيمان بوجود نظام طبيعي وأن الطبيعة غير معقدة، وأنه يمكن فهمها، وقد ذهب «بوانكاريه» إلى أن فكرة عدم تعقد الطبيعة تشبع لذة عقلية لدى الباحثين، ولولا ذلك لما استطاع العلماء معرفة العلاقات الضرورية بين الظواهر المدروسة والوصول إلى تعميمات، والتنبؤ بالمستقبل.

المسلّمة التي حيرت دعاة التجريب

ولعل هذا هو ماأدى بالعلماء إلى رد أساس الاستقراء والبحث العلمي والقول بإمكان التعميم والوصول إلى قوانين علمية تفرض أن الطبيعة تخضع لنظام ثابت لا يقبل الاستثناء أو الاحتمال أو التقلب مع الهوى، وأن هذا النظام عام؛ بمعنى أن كل ظاهرة تخضع لقانون محدد، وهذا هو مبدأ الحتمية Determinsm. وقد تساءل البعض كيف تفسر عقيدة العلّية بعقيدة الحتمية؟ ولهذا ذهب فلاسفة آخرون من أنصار الاتجاه العقلي من أمثال ديكارت(١٥٩٦-١٦٥٠م)، و ليبنتز(١٦٤٦-١٧١٦م) إلى أنها عقيدة نظرية لدى الإنسان. وقد حاول العلماء حل المسألة بالقول بأن مبدأ العلية والحتمية والاطراد وانتظام الظواهر ليست إلا مسلمات نحن في حاجة إليها للبحث العلمي نقبلها دون مناقشة على أنها صحيحة.

ونستطيع القول بأن أنصار الاتجاهات التجريبية أو العقلية أو العلمية عجزوا عن تفسير هذه المسلمات، وهي الأساس في قيام العلم(٤)، وهنا نقول: إن تفسير هذه المسلمات وتفسير قدرة العقل البشري على الوصول إلى هذه القوانين والتعميمات، ووجود توازن بين منطق الظواهر المدروسة،



إيمانويل كانت

اجتماعية أو طبيعية، ومنطق العقل البشري، لا يمكن حله إلا في ظل دائرة الإيمان بإله خالق فاعل مدبر منظم هو الموجد وهو المفسر لهذا الانتظام والتواتر والاطراد، وهو الأساس الأول أو المسلّمة الأساسية التي يقوم عليها المنهج العلمي. وهذا يعني أن الإيمان بالله أساس لتفسير المسَلَّمَة القبلية Apriori التي حار في تفسيرها أصحاب الاتجاهات التجريبية (هيوم) والعقلية (ديكارت، وليبنتز) والنقدية (كانت)، وكل أصحاب الاتجاهات المنهجية الحديثة في أوروبا (بيكون، ومل). وهكذا نجد أن منطق العلم لا يستقيم من دون منطق الإيمان. فمن دون مُسلَّمة انتظام الكون والإنسان والمجتمع، ومن دون مسلمة وحدة القوى الطبيعية وخضوع قوى الكون والنفس والمجتمع لقوانين، ومن دون مسلمة إمكان قيام العقل البشري ذي التركيب الخاص بفهم مايحدث في الطبيعة والمجتمع والنفس من ظواهر وقوى وتفسيره.. من دون هذه المسلمات وغيرها يستحيل أصلا قيام العلم أو قيام المنهج العلمي. وهنا نجد أن منطق الإيمان هو المفسر الوحيد لهذه المسلمات جميعا. فمنطق الحتمية العلمية، يفترض مسبقا منطق الحتمية الإيمانية.

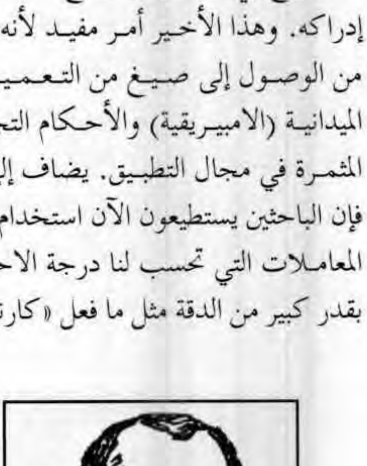
وقد ذهب كلود برنار(١٨١٣-١٨٧٨م) عالم المناهج والطبيب الفرنسي المشهور الذي عاش في القرن التاسع عشر، وألف كتابًا بعنوان «مدخل لدراسة الطب التجريبي» إلى أننا «نجد لدى الجمادات والكائنات الحية، أن شروط وجود أية ظاهرة تتعين بطريقة مطلقة، وهذا يعني أنه إذا أخفقت شروط وجود الظاهرة فإنه يمتنع حدوثها... وإذا وجدت هذه الشروط فإنه لابد من تحقق هذه الظاهرة»، وهذا يعني سريان قانون العلّية، والحتمية، وهذه الحتمية لا يعقل أن تَكون ناجمة عن المصادفة ولا عن المادة الغفل، لأن هذا يطرح تساؤلا عن أصل المادة. وهنا لا يمكن تفسير هذا الانتظام إلا داخل الدائرة الإيمانية، قال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت. وإلى السماء كيف رُفعت. وإلى الجبال كيف نُصبت. وإلى الأرض كيف سطحت﴾ (الغاشية:١٧-٢٠)، وقال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفَسَدَتا﴾ (الأنبياء:٢٢).

التمييز بين الاحتمال والمصادفة

وكما يشير المشتغلون بقضايا المنهج فإن هناك تعارضا بين مبدأ الحتمية، ومبدأ النسبية، فقد حدث اهتزاز في مبدأ الحتمية المطلق بعد ظهور مفاهيم النسبية وتزايد الاحتمالات، وقد أدى تقدم علم الفيزياء إلى ما أطلق عليه أزمة مبدأ الحتمية، ولهذا

ظهرت عدة اتجاهات متباينة، منها اتجاه «ادينجتون Eddington» و«ديرماك» Dirmac، وهما يؤكدان أن فرض الحتمية لا يعتمد على أي دليل، ومصدر فكرة الحتمية هو قصَر معرفتنا الماضية بالأجسام المركبة، أما العناصر البسيطة، واللامتناهيات في الصغر فتخضع لمبدأ اللاحتمية، ومنها اتجاه «بارودي Parodi» الذي يؤكد أنه على الرغم من أن الكشوف الجديدة في علوم الفيزياء قد غيرت بعض معالمه، فإنه لا يجب إنكار مبدأ الحتمية بشكل نهائي. ويؤكد لانجفان Langivin أن النظريات الحديثة في علم الطبيعة (ويقصد النظريات الذرية) لا تهدم مبدأ الحتمية، ولكنها تتهم الأساليب الميكانيكية في التفسير وترفض فكرة القوانين الصارمة(٦). ولاشك أن مبدأ النسبية قد أدى إلى نتائج مهمة في بعض مجالات العلوم الفيزيائية. ويشير هذا المبدأ إلى ضرورة استبعاد أو عزل تأثير الملاحظ وحواسه، ومركز الملاحظة، عن موضوع الملاحظة، أو على الأقل حسابها وأخذها في الاعتبار عند صياغة القوانين.

كذلك فقد بدأت العلوم الطبيعية، فضلا عن الاجتماعية، بمبدأ الاحتمالات، ويجب أن نميز هنا بين الاحتمال والمصادفة؛ فالمصادفة تعني سقوط قانون العلية وإلغاء فكرة الحتمية تماما، ومن ثم سقوط مبدأ انتظام الكون واطراد ظواهره وأحداثه، وتواتر وقائعه، وهي مسلمات لابد منها لقيام العلم. وحتى عندما تحدّث فلاسفة الإغريق القدماء عن المصادفة لم يجعلوها مساوية للفوضى؛ فقد وضع أرسطو قانونا للمصادفة، بوصفها «تقابُل إرادات أو علل بالعرض»(٧). فكيف نوفق بين هذه المبادئ التي يبدو أنها متناقضة: بين مبدأ الحتمية ومبدأ النسبية، وبين مبدأ العلية ومبدأ اللاتَعَيُّنِ أو الاحتمالات؟.. هنا لا يمكن تحقيق هذا التوفيق إلا من خلال المنطق الإيماني. وكما يشير «أبوريان» بحق فإنَّ تعذُّر وصولنا إلى القوانين العلمية اليقينية الحتمية المطلقة لا يرجع إلى غياب هذه القوانين، فهي سنن الله الذي أتقن كل شيء صنعه، ولكن يرجع إلى قصور في معارفنا وقدراتنا وإمكاناتنا. وهذا يعني أن هناك فرقًا بين الواقع في ذاته، وبين الواقع كما يمكننا إدراكه. وهذا الأخير أمر مفيد لأنه يمكّننا من الوصول إلى صيغ من التعميمات الميدانية (الامبيريقية) والأحكام التجريبية المثمرة في مجال التطبيق. يضاف إلى هذا فإن الباحثين يستطيعون الآن استخدام بعض المعاملات التي تحسب لنا درجة الاحتمال بقدر كبير من الدقة مثل ما فعل «كارنو».



كلود برنار

فهم علماء المسلمين للظواهر الكونية

وكما يشير «أبوريان» بحق فإن ظهور الاتجاهات الاحتمالية والنسبية لا يعني سقوط قانون العلية، وإلا معناه سقوط إمكان المعرفة العلمية ذاتها. ويجب أن نشير إلى أن علماء المسلمين تنبهوا قبل علماء الغرب إلى أن العلية ليست سوى شكل من أشكال الضرورة في العلاقة بين الظواهر، وأن الهدف من البحث العلمي هو الوصول إلى القوانين وليس مجرد الوصول إلى العلل. وهذا مايردده علماء المناهج المعاصرون مثل موريس روزنبرج M. Rosenberg. وقد انطلق علماء المسلمين بهدي من القرآن والسنة إلى فهم السنة الكونية والعلاقات الضرورية بين الظواهر الكونية والاجتماعية والنفسية، وحاولوا الكشف عن أنماط الحتمية. وهي التي لم يدركها علماء المناهج إلا حديثًا، فهذا بونج M.Ponge في دراسة له عن العلية(٩) يشير إلى أن هناك عدة طرق للإجابة عن السؤال: لماذا؟، وليست العلية سوى إحدى هذه الطرق، وأن العلية ليست شرطا كافيا للفهم العلمي للدافع على الرغم من أنها تعد أحد المكونات الأساسية للتفسير العلمي، ويؤكد «بونج» أن التفسير العلّي هو في جوهره تفسير بالقوانين، وليس بالضرورة تفسيرا بالعلل(١٠):

Scienlific explanation in-short-is explanation fygaw not necessarily explanation by causes.

فهذا ابن النفيس(١١) اجتهد في دراسة الطب والدورة الدموية وأصدر دراسات قيمة في «تشريع القانون» و«كتاب الرق» و«كتاب الغذاء». وهناك الحسن بن الهيثم الذي اخترع اللوغاريتمات ومازالت تسمى باسمه حتى اليوم، ونبغ في علم البصريات واكتشف العلاقات بين المتغيرات الضوئية، وأشهر كتبه «المناظر»، وله كتاب بعنوان «ميزان الحكمة» سبق فيه تورشيلي في الحديث عن ظاهرة الضغط الجوي، وله حديث عن علاقات الجاذبية، والعلاقة بين المسافة والسرعة(١٢). واعتمد ابن الهيثم على منهج المشاهدة والتجربة والاستنتاج للوصول إلى العلاقات الضرورية بين الظواهر التي يطلق عليها «القانون العلمي». وهناك جابر بن حيان الذي لقب بأبي الكيمياء لمعرفته التكوين الذري للمعادن وفهم العلاقات بين المواد الكيماوية، ومن إنجازاته فصل الذهب عن الفضة، وصناعة مادة تقي الملابس من البلل، وحصوله على حامض الخليك من

تقطير الخل، واستخدام ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج... إلخ.

الدين ضرورة للعلم

وقد أفادت علوم الدين في اكتشاف المنهج العلمي التجريبي أو الاستقرائي عند المسلمين، لذا كان الدين ضرورة من جهة أخرى لقيام العلم. فقد كان منهج الأصوليين هو الأساس في توصل علماء المسلمين إلى المنهج التجريبي، وهو الأساس الذي كرره الأوربيون بعد ذلك مدعين أنهم هم الذين اكتشفوا المنهج العلمي، في حين أنهم نقلوه عن علماء المسلمين الذين سبقوهم بمئات السنين. فقد تحدث الأصوليون عن القياس، وعن العلية، وعن الاستنتاج وعن الحكم. وهم يُعرِّفون القياس بأنه «إلحاق واقعة لا نص على حكمها، بواقعة ورد نص بحكمها، في الحكم الذي ورد به النص لتساوي الواقعتين في علة هذا الحكم(١٣)، فإذا دل نص على حكم في واقعة، وعرفت علة هذا الحكم فيها، فإنها تُسَوَّى بواقعة النص في حكمها بناء على تساويهما في علته، لأن الحكم يوجد حيث توجد العلة». وقد أثبت العلماء حجية القياس من القرآن الكريم، ومن السنة، ومن أقوال الصحابة(١٤). وقد حدد الأصوليون أركان القياس في الأصل وهو ما ورد بحكمه نص، والفرع وهو ما لم يرد بحكمه نص، وحكم الأصل وهو الحكم الشرعي الذي ورد به النص في الأصل ويراد أن يكون حكما في الفرع، والعلة وهي الوصف الذي بني عليه حكم الأصل، وبناء على وجوده في الفرع يسوى بالأصل في حكمه.

شروط العلة

وقد تحدث العلماء عن العلة، وتعرف عند الأصوليين بأنها «وصف في الأصل بني عليه حكمه، ويعرف به وجود هذا الحكم في الفرع. مثال هذا الإسكار وهو وصف في الخمر بني عليه تحريمه، ويعرف به وجود التحريم في كل ما هو مسكر. وقد أفاض الأصوليون في تحديد شروط العلة وأهمها أربعة، وهي مايلي:(١٦)

أ- أن تكون وصفا ظاهرا يمكن إدراكه بالحواس سواء في الأصل أو الفرع، وبهذا لا يصح التعليل بأمر خفي لا يمكن التحقق من وجوده أو عدمه، مثال هذا أنه لا يصح تعليل ثبوت النسب بحصول نطفة الزوج في رحم زوجته، وإنما يعلل بمظنته الظاهرة وهي عقد الزواج الصحيح.

ب- أن يكون وصفا منضبطا دقيقا؛ فالوصف هنا يجب أن يكون له حقيقة



جون ستيوارت مل



فرنسيس بيكون

محددة يمكن التحقق منها في الفرع كما في الأصل أو مع تفاوت يسير. فالأصل في القياس تساوي الفرع مع الأصل في علة حكم الأصل، الأمر الذي يستلزم أن تكون العلة محددة تماما في الحالتين.

ج- أن تكون وصفا مناسبًا؛ بمعنى أن تكون مظنّة التحقيق لحكمة الحكم، أي إن ربط الحكم به وجودًا وعدما يحقق ماقصده الشارع من تشريع الحكم من جلب للنفع ودفع للضرر، فالإسكار مناسب لتحريم الخمر، لأن التحريم يؤدي إلى حماية العقل. ولهذا لا يصح الأخذ بالأوصاف الأخرى في الخمر كاللون مثلا.

د- ألا تكون وصفا قاصرا على الأصل؛ بمعنى أنه يمكن أن يتحقق في عدة أفراد غير الأصل، فالهدف من تعليل حكم الأصل تعديه إلى الفروع(١٧).

وللأصوليين حديث طويل حول أقسام العلة، وحول مسالكها أو الطرق التي يتوصل بها إلى معرفتها، وأهمها النص سواء من الكتاب أو السنة، والإجماع وهو اتفاق المجتهدين في عصر من العصور على علية وصف حكم شرعي، والسبر والتقسيم، والسبر معناه الاختبار، والتقسيم هو حصر الأوصاف الصالحة لأن تكون علة في الأصل، ثم يقوم الباحث أو المجتهد باختبارها وصفًا على ضوء الشروط الواجبة في العلة، ومن ثم يستبعد الأوصاف التي لا تصلح أن تكون علة، ثم يستبقي ما يصلح أن يكون كذلك. ويضيف بعض علماء الأصول تنقيح المناط، ويقصد به «تهذيب ما نيط به الحكم وبني عليه وهو علته». والحق أن تنقيح المناط إنما يكون حيث دل النص على العلية بغير تعيين وصف بعينه علة، فهو ليس مسلكا للتوصل به إلى تعليل الحكم، لأن تعليل الحكم مستفاد من النص، وإنما هو مسلك لتهذيب وتخليص علة الحكم مما اقترن بها من أوصاف لا مدخل لها في العلية. ومثال هذا ما ورد في السنة من أن رجلا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: هلكت يارسول الله. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: وماأهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي في رمضان. فقال له الرسول: «هل تجد ما تعتق رقبة؟...» الحديث. فهنا يحاول المجتهدون استبعاد ماليس علة للحكم مثل كون الشخص أعرابيا، أو كونه واقع أهله في يوم معين من رمضان، أو في سنة معينة... ويستخلصون

إشكاليات المنهج العلمي

علة التكفير وهي الإفطار عمدا في نهار رمضان بالجماع خاصة.

مخالفة المنطق الأرسطي

ويمكن القول إن ذلك المنهج الدقيق العميق الأصيل الذي وضعه المسلمون من المشتغلين بأصول الفقه هو عينه الأساس الذي بنى عليه علماء المسلمين فيما بعد أساسيات المنهج التجريبي(١٨). والمنطق الأصولي يخالف المنطق الأرسطي، فهذا الأخير يتسم بالصورية والعقم ولا يكشف عن جديد، وقد خلا المنطق الأصولي مما



رينيه ديكارت

غرق فيه المنطق الأرسطي من قضايا غيبيّة (ميتافيزيقية) جعلته علما للفكر الصوري الخالص، وجعلته مجدبا غير منتج، وعلى العكس؛ فقد أصبح القياس عند الأصوليين منهجا عمليًا واقعيًا يفيد الجديد، يجمع بين الخبرة الحسية والاستدلال العقلي، أو بين التجربة والعقلية، أو بين مصدري المعرفة وهما أهم ركائز المنهج العلمي التجريبي أو الاستقرائي.

وتجدر الإشارة إلى أن ما أطلق عليه المتكلمون: «قياس الغائب على الشاهد عند الأصوليين» يختلف كثيرا عن التمثيل الأرسطي. فإذا كان الاثنان يشتركان معا في الانتقال من جزئي إلى جزئي، فإن قياس الأصوليين يفيد اليقين، بينما هو عند أرسطو لا يفيد إلا الظن. ويعتمد القياس الأصولي على مبدأين أساسيين هما الآن أساس المنهج الاستقرائي، وهما:

أ- مبدأ العلية؛ الذي يشير إلى أن لكل معلول علة.

ب- مبدأ الاطراد في وقوع الأحداث والظواهر؛ والذي يشير إلى أن العلة الواحدة إذا وجدت تحت ظروف متماثلة أدت إلى ظهور معلول متماثل كل مرة. فمن شروط العلة عند الأصوليين - كما أوضحنا - أن تكون وصفا حسيا ظاهرا منضبطا، محدداً، مناسبا، وألا يكون قاصرا على الأصل. ومن شروط العلة أن تكون مؤثرة في الحكم، وأن تكون مطردة، بمعنى أنه كلما وجدت العلة في صورة من الصور، وجد معها الحكم. أي إن العلة تدور مع المعلول وجوداً. وهذا القول هو ماردده فرنسيس بيكون بعد مئات السنين وأطلق عليه: قائمة الحضور أو قائمة الجوهر، وهي نفسها ما أطلق عليه جون ستيوارت مل بعد بيكون: طريقة التلازم في الوقوع. وقد تحدث الأصوليون عن أن اختفاء العلة يؤدي إلى اختفاء الحكم وهو المعلول أي إن العلة تدور مع المعلول عدما، وهو ما أطلق عليه بيكون: قائمة الغياب، وما أطلق عليه مل: «طريقة الاختلاف أو التلازم في الاختفاء»(١٩).

أما بالنسبة لمسالك العلة فقد اعتمد عليها العلماء في تحقيق الفروض. فالسبر والتقسيم يشبه عند علماء الاستقراء طريقة التصنيف والحصر، والدوران عند الأصوليين وسيلة أساسية عند العلماء للتأكد من صدق العلية، فإذا دار متغير ما مع متغير آخر وجوداً وعدما كان علة له. وبالنسبة لتنقيح المناط فإنه يشبه الطريقة السلبية في إثبات العلية وهي طريقة الحذف والاستبعاد(٢٠)، وهي كلها أساليب منهجية أساسية في تحقيق الفروض التجريبية.

وإذا كان الأصوليون قد صاغوا منهجهم هذا من أجل التطبيق في مجال المعرفة الشرعية، فقد استطاع علماء المسلمين المهتمون بالمجالات الكونية والاجتماعية والنفسية تطويع هذا المنهج بعد أن أضافوا إليه بعض اللمسات التجريبية؛ ليكون المنهج الاستقرائي الناقص الذي أفضى إلى العديد من الاكتشافات العلمية، وهو المنهج نفسه الذي ظهر بعد مئات السنين في الغرب عند «بيكون»، و«مل» تحت اسم المنهج العلمي التجريبي.

وهكذا يحق لنا أن نقول بحق: إن المنهج التجريبي هو إفراز العقل المسلم، وإفراز المنطق الإسلامي على عكس ما يزعمه الغربيون والمستغربون.

المصادر:

١- محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، الأنجلو المصرية، ص٣٩.
٢- المصدر السابق، ص٦٢-٦٣.
٣- المصدر السابق، ص٦٣.
٤- المصدر السابق، ص٦٦-٦٧.
٥- المصدر السابق، ص٧١.
٦- المصدر السابق، ص٧٢ ومابعدها.
٧- محمد علي أبوريان: العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية، دون تاريخ، ص٢٤-٢٨.
8 - Morris Rosenberg: The Ligic of survey analysis: Bosic Books. Inc. Puplishers. N.Y. London 1968 p.10.
9 - Mario Ponge: Causality: Combridge: Harvard University Press 1959 Part III pp. 305-306.
10 - Ibid.
١١- غازي حسين عناية: مناهج البحث: مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٧٤م، ص٤١-٤٧.
١٢- محمد علي أبوريان: مصدر سابق، ص١٠٧.
١٣- عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه، دار القلم، الطبعة الثامنة، دون تاريخ، ص٥٢.
١٤- المصدر السابق، ص٥٤-٥٥.
١٥- المصدر السابق، ص٦، وارجع إلى دراسة صالح عبدالعزيز آل منصور: أصول الفقه وابن تيمية، دار النصر للطباعة الإسلامية، مصر ١٩٨٠م، الجزء الأول، ص٣٦٤ ومابعدها.
١٦- عبدالوهاب خلاف: مصدر سابق، ص ص٦٨-٧٠.
١٧- المصدر السابق.
١٨- علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦م، ص ص١٠٧-١٢٧.
١٩- محمود قاسم: مصدر سابق، ص ص١٥٦-١٥٨.
٢٠- علي سامي النشار، مصدر سابق، ص٢٥.

من أدب الرحلات

مع الموسوي المكي في رحلته (٢)

نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس

« ٢ »



حلقات يكتبها :
حمد الجاسر

لم يتحدث الموسوي في رحلته عن المدينة، وإنما خرج بالكلام إلى موضوعات أدبية لاتتصل بها من قريب أو من بعيد، وكان حديثه في اللغة والتراجم وفي الألغاز، ويظهر أنه من المغرمين بهذا النوع، فقد كان يطغى فيما كتب على غيره، وأورد أبياتًا رقيقة نقلها من مختلف الكتب.

ثم انتقل فجأة إلى وصف خروجه من المدينة في سادس المحرم عام ١١٣١هـ، فكأنه لم يُقِمْ في طيبة الطيبة سوى أربعة أيام، إذ هو مع الرِكب العراقي، ومعروف أن قوافل الحجاج لاتقيم في أيّة مدينة أكثر من الوقت الذي تؤدي فيه الغرض مما أتت من أجله.

الطريق من المدينة إلى نجد

ووصفه الطريق إلى نجد حين خرج من المدينة فيه اضطراب، حيث ذكر أنه بعد يومين أتى (السُويرقية). والسُويرقية البلدة التي لاتزال معروفة ليست في الطريق بين المدينة ونجد، بل في الطريق بين مكة والمدينة، ويبدو أنه مَرَّ بها وهو متوجه إلى المدينة، فانطبع اسمها في ذاكرته، ولما مَرَّ بأحد المنازل الواقعة بين المدينة والحناكية، ويظهر أنه (الصُّوَيْدِرة)(١) كتب مكانها (السويرقية).

ولنستمع إليه واصفًا سيره متجهًا إلى نجد قائلاً: فلما كان سادس محرم الحرام عام ألف ومئة وواحد وثلاثين من هجرة خير الأنام، فزنا في المدينة المنورة بالشرف العالي والمجد، ورحلنا منها قاصدين ديار نجد:

ألاَ ياصبَا نَجْد متى هجْت من نَجْد
فَقَدْ زَادَني مَسْرَاكَ وَجْدًا على وَجْد

فائدة: أرض نجد عظيمة واسعة كثيرة الفواكه والمياه والأزهار، وهواها (كذا) في غاية الصحة والاعتدال، وكذالك ماؤها العذب النَّمير الزلال، وهي بين أرض الحجاز وأرض اليمن. فبعد يومين أتينا (السويرقية) فبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد يومين أرض (الحَناكيَّة) فبتنا هناك ليلة ورحلنا، فأتينا بعد ثلاثة أيام على أرض (الشُّمْط) وأنخنا العيس في (الصحصحان) مساحب الحيات والأفعوان، وبتنا هناك ليلة ورحلنا، فأتينا بعد ثلاثة أيام (وادي الرُّمة) وبتنا ليلة ورحلنا، فأتينا بعد يومين على أرض (قَطَن) وهي أرض بها الأنس قطن، فأقمنا بها يوما وليلة، ونحن في عيشة مرضية، ثم رحلنا منها، فأتينا بعد يومين أرض (المطرفية) فبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد ثلاثة أيام (جبل شَمَّر) والكل منا لذيل الانشْراح شمَّر.

وصف بلدة حايل في شهر المحرم من عام ١١٣١هـ

وهناك قرية تسمى (حائل) ضرب الأنس بينها وبين الهموم بحائل، ذات نخيل وأشجار، وعيون وآبار، وطيور وأزهار، وبساتين واسعة وثمار، كأنها روضة من رياض الجنان، فيها من كل فاكهة زوجان، وأهلها عرب كرام، شمل كرمهم الخاصّ والعام، لم تلق فيهم غير شجاع عظيم، وجواد كريم، وبها كل غادة أُمْلُود، تفتك بلبَّات الأسود، هيفاء رعبوبة رداح، محياها يُضيءُ كالمصباح، كاملة الحسن والأوصاف، وجمعت بين الجمال والعفاف:

مِنْ كُلِّ غَيْدَاء إذَا أسْفَرَتْ
جَلاَ مُحيَّاهَا سُجُوفَ الدُّجُونْ
والْمُقْلَةُ الْكَحلاَءُ مهما رَنَتْ
أثارت الْحَرب بِكَسْرِ الجُفُونْ

إضافة: السويرقية: بلدة لاتزال معروفة في منطقة (المَهْد) المعروف قديمًا بمعدن بني سُلَيم، وتنطق (السُّوارقية) بالألف أيضًا، وهي من القرى القديمة كانت لبني سليم، وعلى ماذكر صاحب «معجم البلدان»: أنها كانت قرية لأبي بكر، وأنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يريد أن يدخلها فسأله عنها فقال: اسمها مُعَيْصم، فقال: «هي كذالك معيصم»، لايُنَالُ منها إلاَّ الشيء اليسير من النخل والزرع، كذا ذكر ياقوت والله أعلم بصحة هذا القول. ويتبعها عدد من القرى، وقد نُسب إليها بعض المحدِّثين، منهم أبو بكر محمد بن عتيق بن نجم الدين بن أحمد السُّوارقي البكري، كان فقيهًا شريفًا شاعرًا ذكره السمعاني في «الأنساب» وياقوت في «المعجم» وغيرهما، وتوفي سنة ٥٣٨هـ. والسوارقية سكانها في العهد الحاضر خليط من القبائل، إلاَّ أن أكثرهم ينتمون إلى قبيلة مُطَير.

الحِناكِيَّة: هي المعروفة قديما باسم (نَخْل) ولها شهرة في كتب التاريخ لصلتها بمدينة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهي منطقة ذات قرى متعددة.

قَطَن: جبل من أشهر الجبال الواقعة على ضَفَّة وادي الرُّمة في منطقة (عُقْلَة الصقور)، ويشاهد رَأْيَ العَيْن من تلك البلدة، ولقطن ذكر كثير في الأخبار والأشعار، وإليه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي سنة أربع من الهجرة، وخبرها موضح في كتب السيرة.

أما الشُّمْط فلعل المراد هنا موضع يقع جنوب النقرة، فيه هضاب سود وحمر تُدعى الشُّمْط، ولكن هذا الموضع منحرف إلى الجنوب عن طريق القاصد إلى حائل من المدينة.

أما (المطرفية) فلا أعرفها، وكذا (الصحصحان) إذا كان عَلَمًا على موضع، ولعل المراد به (الصحصح) وهو وصف للأرض المستوية الواسعة وليس عَلَما.

وبعد سياق ماتقدم أضاف: قال بعضهم: كنت في بعض مياه نجد فسمعت الناس يقولون قد جاءت قال: فتحرك الناس: وقمت معهم، فإذا بجارية قد وردت الماء، مارأيت مثلها قطُّ في حسن وجهها، فلما رأتْ كثرةَ تشوُّف الناس إليها أرسلَتْ بُرْقُعها، فكأنه غمامة غَطَّت شمسا، فقلت لها: لِمَ تمنعينا النظرَ إلى وجهك الأزهر، فأنشأت تقول:

وكُنْتَ متى أرسلتَ طَرْفَكَ رَائداً
لقَلْبِكَ يَوماً أتْعَبَتكَ الْمنَاظِرُ
رَأيتَ الَّذي لاَ كُلُّهُ أنتَ قَادرٌ
عَلَيه وَلاَ عَنْ بَعضه أنتَ صابرُ

قال: فنظر إليها أعرابي وقال: أنا واللّه ممَّن صَبَرَ، ثم أنشأ يقول:

أوَحْشِيَّةَ الْعَيْنَين أينَ لَكَ الأهلُ؟
أبالحَزْنِ حَلُّوا أمْ مَحَلُّهُم السَّهْلُ؟!
وأيَّةُ أرْضٍ أخْرَجَتْك فإنَّني
أرَاكِ مِنَ الفِرْدَوْسِ إنْ فُتِّش الأصْلُ!!
فَفي خَبِّرِينَا ماطَعِمْت وَمَا الَّذي
شَرِبْتِ وَمِنْ أينَ اسْتَقَلَّ بِكِ الرَّحلُ
لأنَّ علامات الجنان مُبينةٌ
عليكِ وإنَّ الشكل يُشبهُهُ الشَّكلُ

واسترسل في ذكر قصص تتعلق بالعشق مضيفاً: حيث وصلنا إلى ذكر العشق فلا بأس بذكر ماورد فيه، وفي مراتبه ومدحه وذمه، فإن الشيءَ بالشيءِ يذكر. ثم استمرَّ في الحديث عن العشق والهوى في عدة صفحات.

الطريق من حائل إلى النجف والكوفة

وقال بعد ذالك: فأقمنا في حائل أربع ليال بثلاثة أيام، ولكنها مرت كأضغاث أحلام:

لَيَالِي سُعُودٍ لَوْ تُبَاعُ شَرَيْتُهَا
بِرُوحي، ولكن لاتُبَاعُ ولاتُشْرَى
ولكنَّها مَرَّتْ كَأضْغَاث حَالم
فَيَالَيْتَها عَادَتْ لَنَا مَرَّةً أخرى

ثم إنّا رحلنا، وعلى الله توكلنا، فأتينا بعد أربعة أيام على أرض (قَفَار)(٣) فبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد يومين على أرض (أُمِّ الدلاء) وبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد أربعة أيام على أرض (الباطن) فبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد أربعة أيام على أرض (بقعة) فبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد أربعة أيام على أرض (زُبَالَة) وبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد ثلاثة أيام على أرض (أم قرون) وبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد خمسة أيام على أرض (السلمان) فبتنا بها ليلة ورحلنا، فأتينا بعد ثلاثة أيام على أرض (الأثيلة) وبينها وبين أرض (النجف) مشهد علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ نصف مرحلة، وكل هذه الأراضي المذكورة بعضها عامر، والبعض دامر، وفي البعض منها آبار، والبعض قفار، وربما يحمل الماء معنا أربعة أيام أو ثلاثة.

وذكر وصوله إلى (النجف)، وقد ذكر

«نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس»

فيما تقدم من كلامه الباطن ولعله يريد مجرى الوادي، إذ كلمة الباطن تطلق عند كثير من أهل نجد على الوادي.

أما (بقعة) فقد يكون المراد منها (بقعاء) وهي بلدة معروفة في أسفل منطقة حائل، ولكن المسافة بينها وبين حائل لاتبلغ ثمانية أيام كما ذكر بل أقل بكثير، ولعل تلك الأيام أيام إقامة.

زُبَالَة: أحد منازل حاج الكوفة لايزال معروفًا، وقد تحدثت عنه بتوسع في قسم شمال المملكة من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» وكذا (السلمان) و (بَقْعَاء).

ثم ذكر أنه في ثالث صفر دخل بلدة (النجف) مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ووجد مجال القول ذا سعة، فاسترسل في الحديث ماشاء له الاسترسال مستهلاً الكلام بإيراد ترجمة لذالك الإمام - رضي الله عنه وكرم وجهه - وقال بأنه سيذكر تَرْجَمَتَهُ بأوفى مما ذكر وترجمة أبنائه الأئمة الكرام بالتفصيل في تاريخه «أزهار الناظرين في أخبار الأولين والآخرين».

ثم انتقل إلى الكلام على وصف مدينة الكوفة التي بينها وبين النجف ستة أميال، وذكر (الحيرة) بإيجاز، وأنها خربت وطمست آثارها فانتقل أهلها إلى الكوفة، وسمَّى من اجتمع به من العلماء والشعراء والأعيان بإيجاز منتقلاً إلى مافيه ديدنته دائمًا، وهو الأدب بإيراد أخبار وأشعار، ومن ذلك قوله: ويعجبني قول أبي الفضل بن شمس الخلافة وهو أبو محمد المعروف بابن شكر، وزير الملك العادل وولده الملك الكامل:

دَعِ الكِبْرَ وَاجْنَحْ للتَّوَاضُعِ تَسْتَمِلْ
وِدَادَ مَنِيعِ الوُدِّ صَعْبٌ مَرَامه
وَدَاوِ بلينٍ مَاجَرَحْتَ بغِلْظَةٍ
فَطِيبُ كَلَامِ الْمَرْءِ طِبٌّ كلَامَه

أقول: هذا المرهم نافع للكريم التيَّاه، كعُمَارة بْنِ حمزة والفَضْلِ بن يحيى، وأمثالهما، وأما اللئيم البغيض فليس ينفعه إلاَّ تقطيع عِرْضِه بسيوف القوافي، إن كان له عرض.

ومن غريب ماذكر تحت عنوان (ذكر أرض مصر): جرت عادة الله أن مصرْ لاتمطر ولاينتفع بمطرها لاستغنائها بالنيل وريِّها به، وللفلاسفة في عدم نزول الغيث بها تعليل ذكروه وبسطه المقريزي في «الخطط والآثار»، ثم استرسل في الحديث عن مصر ولاشك أن قوله هذا غير صحيح، فكثيرا ماتهطل الأمطار في القاهرة حتى تصبح أسواقها كالأنهار من شدة المطر.

وأورد لجدِّه علي بن أبي الحسن ترجمة حافلة نقلها عن «سلافة العصر» لابن معصوم الموسوي، وهو كثير النقل عنه في التراجم.

ثم تحدث عن العروض والقافية حديثا مفصلاً(٤)، ومن أغرب ماجاء فيه مانقله عن الصفدي أن الشعر اليوناني له وزن مخصوص، وأن لليونان عروض لبحور الشعر، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل، وأضاف: قلت: ولايبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شيءٌ من ذالك أعانه على إبراز العروض إلى الوجود، وبعد أن ذكر أن الحاجة ماسة وداعية لمعرفة الوزن أضاف: وقد وقع جماعة من كبار شعراء العرب كالمرقّش ومُهَلْهِل وعلقمة بن عَبَدة وعَبيد بن الأبرص، وغيرهم من كبار المحدثين من الشعراء كأبي العتاهية والبحتري وأبي الطيب المتنبي، وحسبك بوقوع مثل هاؤلاء الفحول في الخروج عن الوزن، وإذا اتفق هذا لهاؤلاء فما الظن بغيرهم؟، قال الصفدي: وقال قوم لاحاجة إلى العروض لأن من نظم بالعروض شقَّ ذالك عليه، وأتى به متكلِّفًا، ولايتأتَّى له وزنُ البيت الواحد، بل الكلمة الواحدة حتى يدخل الوزن وينظر في حركاتها وسكناتها، هل هي من سببين وفاصلة صغرى أَوْ لا؟ إلى غير ذالك من التفعيل، إلاَّ بعد مكابدة مشقة عظيمة، وإلى أن ينظم الناظم في العروض بيتا نظم صاحب الصنيع السليم قصيدةً.

ثم أورد شعرًا في ذم العروض، وأضاف ناقلاً عن الجاحظ: العروض علم مُسْتَبْرَدٌ، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستشكل العقول، بمستفعل ومفعول، من غير فائدة ولا محصول. مع نقله كلامًا عنه بأن العروض ميزان الشعر ومعياره، وبه يعرف الصحيح من السقيم، والمعتل من السليم، وعليه مدار القريض من الشعر.

ثم أتى بلطائف عن تقطيع الشعر، واستمر فيما هو بصدده قبل ذالك، وجل ماساق عن العروض نقله عن الصفدي في «شرح لامية العجم»، ولم يَفُتْهُ إيراد ترجمة للخليل بن أحمد واضع هذا العلم، أورد فيها طائفة من كلامه وأمثلة لأوزان البحور.

وأراني اندفعت في السياق ممثلاً لما تحويه هذه الرحلة في مباحث منوعة.

(للحديث صلة)

الحواشي:

١ـ الصويدرة: تعرف قديما باسم (الطرف). انظر الكتاب المطبوع باسم كتاب «المناسك» المنسوب للحربي، ولعله كتاب «الطريق» للقاضي محمد بن خلف بن حيان تلميذ الحربي، ص٥٢١.

٢ـ هذا البيت من قصيدة طويلة، وقائله يزيد بن الطثرية من شعراء عقيق بني عقيل المعروف الآن باسم وادي الدواسر.

٣ـ قفار: ليس بينها وبين حائل أكثر من خمسة عشر كيلاً، وهي تقع جنوب حايل، ولاتقع في طريق الخارج منها إلى العراق. وانظر الكلام عليها مفصلاً في (قسم شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

٤ـ ص ١١٤ ومابعدها.

قصة قصيدة

بكاء حمامتين

عاصم محمد بهجة البيطار

ذكر ياقوت في كتابه «معجم البلدان» (ج٢ /٢٢١) في حديثه عن «حَجْر» بفتح الحاء: أنها مدينة اليمامة وأم قراها. وبها ينزل الوالي. وقد روى أبو عبيدة معمر بن المثنى أن بني حنيفة بن لُجيم بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل خرجوا يرتادون الكلأ حتى قاربوا اليمامة، وخرج عبيد بن ثعلبة من بني حنيفة منتجعًا بأهله وماله يتّبع مواقع القَطْر حتى هجم على اليمامة، فنزل موضعا يقال له قارات الحُبَل وهو من حَجْرٍ على يوم وليلة. وخرج راعيه ذات يوم حتى أتى قاع حَجْرٍ فرأى القصور والنخل وأرضًا عرف أن لها شأنا، وهي التي كانت لطَسْم وجَدِيس فبادوا. فأخبر عُبَيدًا بذلك، فأردفه خلفه ويمم شطر المكان، فلما رأى حَجْرًا لم يَحُل عنها، فوضع رمحه في الأرض، ثم دفع الفرس واحتجر(١) ثلاثين قصرًا وثلاثين حديقة وسماها حَجْرًا، وكانت تسمّى اليمامة، وقال في ذلك:

حلَلْنا بدارٍ كانَ فيها أنيسُها
فبادُوا وخلَّوا ذات شَيْدٍ حصونَهَا(٢)
فصاروا قطينًا للفلاة بغربة
رميمًا وصرنا في الديار قَطينَها(٣)
فسوف يليها بعدنا من يَحُلُّها
ويسكن عرضًا سهلَهَاوحُزُونَها(٤)

ثم توالت السنون، وقام رجل من بني جُشَم بن بكر يقال له جَحْدر بن ربيعة يخيف السبيل بأرض اليَمَن، وبلغ خبره الحجاج، فأرسل إلى عامله باليمن يشدّد عليه في طلبه، فظفر به وحمله إلى الحجاج بواسط، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: كَلَبُ الزمان وجفوة السلطان وجراءَةُ الجَنَان(٥)؛ فأمر بحبسه فَحُبِس، فحنّ إلى بلاده وقال:

لقدْ صَدَعَ الفؤادَ، وقَد شجاني
بكاءُ حمامَتَيْنِ تَجَاوبان
تجاوبَتَا بصوتٍ أعجميٍّ
على غُصنَينِ من غَرْب وبَانِ
فأسبَلْتُ الدموعَ بِلا احتشامٍ
ولم أكُ باللئيم ولا الجبان
قلت لصاحِبَيَّ: دَعَا ملامي
وكُفّا اللوّم عنّي واعذراني
أليس الله يعلم أنّ قلبي
يُحبّك أيّها البرقُ اليماني
وأهوى أن أعيد إليك طرْفي
على عُدَواءَ من شغلي وشاني(٦)
أليس الله يجمعُ أمّ عمرو
وإيّانا فذاك بنا تدانِ
بلى! وترى الهلال كما أراه
ويعلوها النهارُ كما علاني
فما بين التفرّق غيرُ سبعٍ
بقين من المحرّم أو ثمان(٧)
ألم تَرَني غُذِيتُ أخا حروبٍ
إذا لم أجنِ كنت مِجَنَّ جانِ
أيا أخويّ من جُشَمِ بن بكرٍ
أقلاّ اللوم إن لا تَنْفَعَاني

إذا جاوزتُما سَعَفَاتِ «حَجرٍ»
وأودية اليمامة فانعياني
لفتيانٍ إذا سمعوا بقتلي
بكى شبّانُهم وبكى الغواني
وقولا: جحدرٌ أمسى رهينا
يحاذر وقعَ مصقولٍ يماني
ستبكي كلُّ غانية عليه
وكلُّ مُخَضَّبٍ رَخْصِ البنان
وكلُّ فتى له أدبٌ وحلْمٌ
معدّيٌّ كريمٍ غيرِ وانِ

فبلغ شعره هذا الحجاج، فأحضره بين يديه وقال له: أيُّما أحبّ إليك: أن أقتلك بالسيف أو أُلقيَكَ للسِّباع؟ فقال له: أعطني سيفا وألقني للسباع؛ فأعطاه سيفًا وألقاه إلى سَبُع ضارٍ مُجَوَّع، فزأر السَّبُعُ وجاءَه، فشدَّ عليه جحدرٌ وهو يقول:

ليثٌ وليثٌ في مجال ضنْكِ
كلاهما ذو قوةٍ وسفكِ
وصولةٍ وبطشةٍ وفتك
إنْ يكشفِ اللهُ قناعَ الشكِّ
فأنت لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه وضربه بالسيف ففلق هامته؛ فأكرمه الحجاج واستتابه، وخلع عليه، وفرض له في العطاء، وجعله من أصحابه.

ويلفت النظر في تراثنا هذه الصلة الوثيقة بين الحمام والشاعر الذي حزبته الأمور، وضاقت به الأيام، وأصيب بفقد قريب، أو بهجر حبيب، أو بسجنٍ فُرِضَ عليه، أو بنفي صار إليه. فهذا العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى، يستمع إلى حمامة تنوح فتضجّ في قلبه الذكريات ويشدو:

أإن سجعت يومًا بوادٍ حمامةٌ
دَعَت «ساق حرّ» ماءُ عينيك دافقُ(٨)
كأنك لم تسمع بكاءَ حمامةٍ
بشجوٍ ولم يَحْزُنْكَ إلفٌ مفارقُ
ولم ترَ مفجوعًا بشيءٍ يحبُّه
سواكَ ولم يعشق كعشقكَ عاشقُ
بلى فأفِق عن ذكْرِ ليلى فإنما
أخو الصبر مَنْ كفَّ الهوَى وهو تائقُ

وقد نسبت الأبيات أو بعضها إلى أكثر من شاعر.

والحمام رفيق العشّاق وسمير أصحاب الصبابة، يعبّر بنوحه عن معاناتهم، ويهيج أشواقهم وأحزانهم، يقول جهم بن خلف:

وقد هاجَ شوقي أن تغنَّتْ حمامة
مُطَوَّقةٌ ورقاءُ تَصدَحُ في الفَجْرِ
هَتُوفٌ تُبَكّي ساق حر ولن ترى
لها دمعةً يومًا على خدّها تجري
تغنَّت بلحنٍ فاستجابتْ لصوتها
نوائح بالأصياف من فَنَن السِّدْرِ
إذا فَتَرتْ كَرَّتْ بلحنٍ شجٍ لها
يهيّج للصبّ الحزين جوى الصَّدْرِ

فلاعجب إذا ناجى أبو فراس حمامةً كانت تنُوح بقرب سجنه في حصن خَرْشَنَه من بلاد الروم في قصيدته الشهيرة:

أقولُ، وقد ناحت بقربي حمامةٌ
أيا جارتا لو تشعُرين بحالِي
معاذ الهوى ماذقت طارقةِ النّوى
ولاخطرت منكِ الهموم ببال
أيا جارتا ماأنصف القوم بيننا
تعاليْ أقاسمك الهموم تعالي

ولاعجب كذلك إذا سمع ابن خفاجة الجَبَلَ الذي يعاني ما يعانيه الشاعر من تفرق الصحب، وإدبار الأيام، وخلاء الساحة من الأحبة، ووحشة العزلة، إذا سمعه يقول:

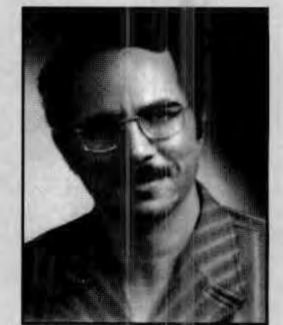
فما خَفْقُ أيْكي غيرُ رجفة أضلُعٍ
ولا نوحُ وُرْقي غيرُ صرخةِ نادبِ(٩)
وما غَيْضَ السُّلوانُ دمعي وإنّما
نَزَفْتُ دموعي في فِراقِ الصواحِبِ

الهوامش:

---

(١) احتجر الشيء: حَجَره على نفسه وجعله خاصًا به دون غيره.
(٢) الشِّيد: كل ما طُلي به البناء من جصّ ونحوه. وشاد البناء شيْدًا: أعلاه ورفعه.
(٣) قطين الدار: أهلها.
(٤) الحُزُون: مفردها الحَزْن وهو ما غَلُظَ من الأرض.
(٥) يقال: كَلِبَ الدهر على أهله كَلَبًا: اشتدّ. والجَنان: القلب.
(٦) العُدَواء: الموانع.
(٧) أي لم يبقَ بينه وبين مقتله إلا ما تبقى من شهر المحرّم الحرام.
(٨) ساق حر: يقول الجاحظ في كتابه الحيوان (٣/٢٤٢ - ٢٤٣): زعم الأصمعي أن ساق حر هو حكاية صوت وحشيّ الطير من هذه النوّاحات. وبعضهم يزعم أن ساق حر هو الذكر منها. وهو الأليق بهذا الموضع والذي سيأتي في الأبيات التي تلي.
(١٠) الوُرق: جمع ورقاء وهي الحمامة.

التجارب العروضية عند نازك الملائكة



د. عبده بدوي

يهتم الكبار المؤكَّدون في الثقافة بعدم الالتفات إلى الماضي في سُخْطٍ أو رضا، فقد يكونون قد عثروا بعد الحَفْر العميق على عِرْق من عروق الذَهب، ولكنهم لن يعيشوا على ذكرى ما اكتشفوه، فما يهمهم هو الحفر بعمق أكثر لإثراء الثقافة. ومن هؤلاء الشعراء الكبار الرائدة "نازك الملائكة"، فهي الأم الحقيقية للبداية الناضجة لحركة الشعر الحر عام ١٩٤٧م، حيث كتبت قصيدة "الكوليرا" في ١٩٤٧/١٠/٢٧م، وأرسلتها إلى بيروت، فَنُشِرَت في مجلة "العروبة"، وقد كتبت هذه القصيدة تُصَوِّرُ مشاعرها نحو مصر التي دهمها الوباء في هذه الفترة، وتحت تأثير إيقاعٍ موسيقيٍ يدورُ في ذهنها عن وقع أرجل الخَيل التي تجر عربات الموتى من ضحايا الوباء في ريف مصر(١).

والقصيدة تبدأ هكذا من المتدارك (الخبب) الذي يتفق وهذا الإيقاع الحزين المُطَّرِد:

طلع الفجر
اصغ إلى وقع خُطى الماشين
في صمت الفجرِ، أصخْ، انظر ركب الباكين
عشرة أموات، عشرونا
لا تُحص، أصخْ للباكينا
اسمع صوت الطفل المسكين
مَوْتَى، موتى، ضاع العدد
موتى، موتى، لم يبق غد!

وفي النصف الثاني من الشهر نفسه صدر ديوان "أزهار ذابلة" وفيه قصيدة من بحر الرمل لبدر شاكر السياب عنوانها "هل كان حبا؟" وقد علق عليها في الحاشية بأنها من الشعر المختلف الأوزان والقوافي. وفي عام ١٩٤٩م صدر ديوانها الثاني بعنوان "شَظَايا ورماد"، ويضم مقدمة رَحْبَة حاولت التنظير لقضية الشعر الحر(٢)، ومع أن إرهاصات هذه الحركة تواترت ابتداءً من هذا القرن، حين حاول البعض نقل بعض المزامير إلى ما يُسمى الشعر الحر، وحين كان للمسرح دور في هذه المجال على يد محمد فريد أبو حديد، وعلي أحمد باكثير، بالإضافة إلى ما كتبه خليل شيبوب، وأحمد زكي أبوشادي(٣)، ثم كانت الوثبة الساطعة في عام ١٩٤٧م لهذين الشاعرين، ثم كان التنظير لهذا الأسلوب الجديد بمقدمة "لشظايا ورماد"، فقد بدأت بالقول: إن في الشعْر كما في الحياة يَصِحُ تطبيق عبارة برنارد شو "اللاقاعدة هي القاعدة"(٤) ذلك لأن الشعر وليد أحداث الحياة، وليس للحياة قاعدة معينة تَتْبعها في ترتيب أحداثها، وليس هناك تناقض بين ما يُقَسِّم إليه النقاد الشعر من مدارس ومذاهب كلاسيكية ورومانتيكية وواقعية ورمزية وسريالية، لأنها في الحقيقة ليست قواعد، وإنما أحكام. ثم إن على الشعراء "المُرْهَفين" هجر القاموس القديم واستخدام قاموس عصري، ولأنه لما كان مدلول الكلام قد تغيّر، فلابد أن تكون هناك عملية "استبدال" بين الحين والحين، ولابد من آفاق جديدة - ما دامت لغتنا لم تكتسب بعد قوة

الإيحاء ـ ولابد من تعديل لطريقة الخليل، عبَّرَتْ عنه بقولها: "في هذا الديوان لون بسيط من "الخروج" على القواعد المألوفة، وهذا الأسلوب يطلق جناح الشاعر من ألف قيد، ويتلخص في التلاعب بعدد من التفاعيل، وترتيبها ترتيبا يختلف عن نظام الشطرين، فإذا جئنا للقافية التي أنزلت بالشعر خسائر فادحة، ووأدت معاني لا حصر لها في صدور الشعراء الذين أخلصوا لها وصانعوها، وابتعدوا عن الملاحم والمسرحيات من أجلها(٥).. وجدنا أنه لا ضرورة لهذه الرَّتابة المعوقة، أو لهذا الحَجَرِ الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت"!.

قواعد للشعر الحر

في عام ١٩٦٢م وضعت نازك الملائكة للشعر الحر قواعده في كتابها المشهور "قضايا الشعر المعاصر"، وقالت في الطبعة الرابعة: إن طائفة من القواعد التي وَضَعْتُها أصبحت تبدو لي على شيء من التزمت، لأن سمعي نفسه قد تطور، وليس هذا غريبًا، وإنما هو مألوف في تاريخ التَّقْنين لحركات الشعرية والبلاغية الجديدة، فما كان من الممكن أن ينضج عروض الشعر الحر دفعة واحدة من دون تدرج(٦)، وقد أثبتَتْ أن عروضها مستمد من عروض الخليل، وقائم على أساسه، بحيث يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة مجموعة قصائد خليلية وافية، ومجزوءة، ومشطورة، ومنهوكة، ثم تقول: إن للشكلين مزايا وعيوبا، وإنها حريصة عليهما معا، محبة لهما كليهما، وكل ما أدعو إليه أن نُقيم أسلوب الشعر الحر توأما جميلا لأسلوب الشطرين، فكلاهما طفل يلثغ بالأغاني الحلوة، وليس لشاعر أن يرفض أيًا منهما(٧). وهي تُقَيِّمُ وتوضح الصلة بين التراث والشعر الحر، معتمدة على نص منسوب للشاعر ابن دريد(٨) في القرن الرابع الهجري، وهذا النص يعتمد على دائرة "المُجْتلب"، فهي تتضمن أشْطرًا من الرّمل، ومن الهزج، ومن الرَّجز، وهي غير موافقة على نص يُنْسب لأبي العلاء المعري(٩) إلا إذا أراد به المزج لسبب لا نعرفه، ثم تذكرُ أن أعظم إرهاص الشعر الحر هو ما يعرف "بالبَنْد" لأنه شعر تفعيلة لا شعر شطر، ولأن الأشطر فيه غير متساوية الطول، ولأن القافية فيه غير موحَّدة، ناهيك عن المَزْج فيه بين وَزْنَيْ الرّمل والهزج دائما.

إعدام ثمانية بحور

وعلى كل فقد انتهتْ إلى القول بأن البحور التي يصحّ نظم الشعر فيها ثمانية هي: الكامل، والهزج، والرّمل، والرّجز، والمتدارك، والمتقارب، والوافر، والسريع، وقد بنت حكمها على أساس اعتبار التفعيلة الواحدة المكررة في الشطر أساسًا، فإذا كانت التفعيلة غير مكرّرة في الشطر تكرارا متجاورا لم يصحّ النظم. صحيح أن البعض حاول النظم من الطويل والبسيط والخفيف، ولكن هذا لم يرق لها(١٠)، وصحيح أن هذا الشعر الحر يعتمد غالبا على ستة بحور من ثمانية، ولكن هذا يسبب فيه رتابة مملة، ويجعله غير صالح للملاحم.

وفي عام ١٩٥٤م كتبت في مجلة الأديب: لا أحد مسؤول عن أن شعراءَ نَزْري المواهب، مُنْحَلّي الثقافة سيكتبون شعراً غثًا بهذه الأوزان الحرة. ثم قالت في الطبعة الرابعة من كتابها قضايا الشعر المعاصر عام ١٩٧٤م: وإذا صح لي أن أطرحَ نبوءةً جديدة، أبنيها على مراقبتي للموقف الأدبي في وطننا العربي اليوم، فأنا أتنبأ بأن حركة الشعر الحر ستصل إلى نقطة الجَزْر في السنين القادمة، ولسوف يرتد عنها أكثر الذين استجابوا لها خلال السنين العشر الماضية، على أن ذلك لا يعني أنها ستموت، وإنما سَيَبْقى الشعر الحر قائما ما قام به الشعر العربي، وما لبثت العواطف الإنسانية، ولسوف ينتهي التَّطرف إلى اتزان رصين(١١).

عودة إلى الأصول

في عام ١٩٦٧م صدر ديوان "شجرة القمر"، وسوَّغت لوجود قصائد فيه من الشعر الشَّطْري، بأنها لم تَدْعُ يومًا إلى الاقتصار على الشعر الحر، بدليل ديوانيها الشطرين: عاشقة الليل، ومأساة الحياة وأغنية للإنسان، أما "شظايا ورماد" الذي دعت في مقدمته بحماسة للشعر الحر، فلم تكن فيه إلا ست قصائد حرة، وفي ديوان "قرارة الموجة" الذي صدر عام ١٩٥٧م اقتصر على تسع قصائد من الشعر الحر. ثم تقول: ولا أذكر قط أنني اقتصرتُ على الشعر الحر في أية فترة من حياتي، وسبب هذا أنني أولا أحبُّ الشعر العربي، ولا أطيق أن يبتعد عَصْرُنا عن أوزانه العذبة الجميلة، ثم إن الشعر الحر يملك عيوبًا واضحة أبرزها الرتابة، والتدفق، والمدى المحدود، وقد ظهرت هذه العيوب في أغلب شعر شعراء هذا اللون. ثم تقول: وإني لعلى يقين من أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد، وسيرجع الشعراء إلى الأوزان الشطرية بعد أن خاضوا في الخروج عليها، والاستهانة بها، وليس معنى هذا أن الشعر الحر سيموت، وإنما سيبقى قائما يستعمله الشاعر لبعض أغراضه ومقاصده، دون أن يتعصب له، ويترك الأوزان العربية الجميلة(١٢). وقد كان هذا الموقف متفقا مع طبيعتها، لأنها نَضَجَتْ ابتداء على الشعر الشَّطْري، وحققت فيه نجاحا ملحوظا، ثم كانت لها بصمة على هذا الأنموذج الجديد، ولم تقف عند هذا الأنموذج، وإنما نَظَرَتْ له، ووقفت على إمكاناته وعلى سَلبياته، وقد استجاب كثيرون لهذا الشعر الجديد، وظهر شعراء باسمه، وكذلك صحف ونقاد تباركه، وتدعو له، وتُنصِّب شعراء على عرشه، وفي الوقت نفسه تكاد تصمت عن نازك الملائكة، ولعل في مقدمة هذه الأسباب أنه تأكّد لها في هذه الفترة موقف عربي وإسلامي واضح، وأنها مضطرة إلى التعامل مع الشعر الشطري في الجامعة.

ظل الإحساس العروضي مستيقظا عند الشاعرة، فقد نشأت في بيت شعري يحترم العروض العربي(١٣) ويطيل القراءة فيه، وكان وراء التحاقها بصف اللغة اللاتينية في دار المعلمين إيقاع أغنية مشهورة اسمها At The Balalica كما أن بدء إعجابها بالشعر الإنجليزي كان بالـ Sonnets لشكسبير وقد ترجمت إحدى هذه المقطوعات، ثم إنها درست الموسيقى في معهد الفنون الجميلة ست سنوات، ولحَّنتْ من شعر أمها "نشيد العرب" على نغم النَّهاوند، وأجادتْ العزف على العود. وما يهمنا أن حركة التجديد عندها قد بدأت ـ واستمرت ـ من خلال الإحساس المرهف بإيقاعات كانت

تأسرها، بالإضافة إلى أنها ابتداء من تعيينها عام ١٩٥٧م كانت وظيفتها معيدة لمادة النقد الأدبي والعروض، وقد استمرت في عملها الجامعي حتى عام ١٩٨٢/٨١م(١٤).

وزن غير مستعمل

..وفي عام ١٩٧٣م كتبت إليَّ رسالة جاء فيها: "بعد أن أنْهيت كتابة الرسالة أعلاه، وقرأتها، انتهيتُ إلى قولي عن طفلتكم دالية: "خَضْرَاءُ بَراقةٌ مُغدقةٌ" فهو كلام موزون، وتفعيلاته: "مستفعلن، فاعلن، فاعلن"، وهو وزن غير مستعمل في الشعر العربي، ولكنه لاح لي جميلا، وفيه إمكانات، وسرعان ما قفزت الأشطر إلى ذهني بسرعة جارفة، فكانت هذه الأبيات السبعة، أرسلها إليك، وإلى الأسرة لتحتفظا بها ذكرى تقدمانها لدالية العزيزة حين تكبر، وتصبح شاعرة مثل أبيها:

خَضْرَاءُ بَراقةٌ مُغدقةْ
كأنها فَلْقَةُ الفستقه
الشَّعْرُ سبحانَ من لَمَّه
والثَّغرُ سبحانَ من فَتَّقَه
شِفاهها شفقٌ أحمر
كم حاولَ الوردُ أن يَسْرُقه
"دالية" غَضَّةٌ عَذْبَةْ
في هُدْبها نَجْمَةٌ مُشْرِقَه
عصفورة حلوة كالرؤى
من يا تُرى صوتها مَوْسَقَه؟
الفجرُ أهدى لها قُبلةً
والروض ألقى لها زنبقه
وتملأُ البيت في فرحة
بالضحك، والرَّقْص، والزقزقه

والأحسن أن يُقرأ الشطر في هذا الوزن قراءة منتبهةً لتتضح موسيقاه غير المألوفة، وذلك بتشديد التفعيلة الوسطية هكذا:

الفجر أهدى لها قبلة
والرَّوض ألقى لها زنبقه

مع إرخاء النبرة فوق التفعيلة الأخيرة "قبلة" و"زنبقة"، وأنت بعد كل ما يقال خير من يتذوق الأوزان ـ٣ ديسمبر ١٩٧٣م". وقد اقترحت أن يسمى هذا البحر "الموفور" لوفور أوتاره مثل الوافر جريا على طريقة الخليل(١٥)، وعلى الفور استجاب عدد من شعراء العربية لهذا البحر(١٦)، وقد أكْمَلْتُها بهذه الأبيات التي لم تَرِدْ نشرها، حين أعادتْ تأمل صُورتها التي كانت على مكتبها:

كأنَّها نفسُ مأخوذة
في عالم الحُلْم مستغرقه
مجهولة البعد، مرمية الـ
ـعينين في لُجة مغلقه
كيانها مرتمٍ، موغلٌ
وراء أبعادنا الضيقه
والروح أُحجيَة سيَّر الـ
ـزمان في بحرها زورقه
صغيرتي فلسفت عمرها
فصارت الفكرة المورقه

وزن أندلسي قديم

وقد أثير حول هذا البحر كلام كثير، بعد أن نشرتُ في مجلة الدوحة مقالا بعنوان "ميلاد بحر جديد في الشعر العربي"، وبعد أن أطلت الكلام حوله في مجلة الشعر القاهرية؛ فقد كتب د. عبداللطيف عبدالحليم من إسبانيا إلى د. عبدالعزيز الدسوقي رئيس تحرير مجلة الثقافة، أن هذا الوزن أندلسي قديم كتب فيه أبوعبدالله بن الحناط الكفيف، وأخذت القضية اهتماما من د. عبدالعزيز الدسوقي، كما نبهني في الوقت نفسه د. نور الدين صمود إلى نص لحازم القرطاجني في منهاج البلغاء وسراج الأدباء(١٧) جاء فيه ".. وقد وضع بعض الشعراء الأندلسيين على هذا البناء وزنًا، إلا أنه جعل الجزءين المزدوجين خماسيِّين فراراً من الثقل الواقع بتشافع السباعيين في النهاية، فكان التشافع في ذلك الوضع أخف من الخماسي، وذلك قوله:

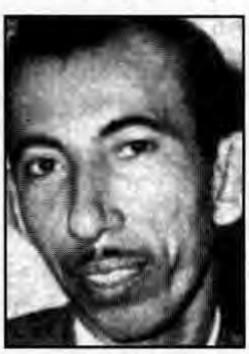
أقصر عن لومي اللائم
لما درى أنني هائم(١٨)

وتقدير شطره: متفعلن، فاعلن، فاعلن

مازلت في حبه منصفا
من لم يزل وهو لي ظالم(١٩)

وتقديره: مستفعلن، فاعلن، فاعلن

كما أن لنور الدين صمود قصيدة على هذا الوزن، ودراسة عنوانها "محاولات لوضع بحور جديدة من عهد الخليل إلى الآن. ذكر فيها نص حازم القرطاجني الدال على سبق الأندلسيين لهذا الوزن، وفي الوقت نفسه التمس العُذر للشاعرة فيما ذهبت إليه(٢٠). كما شغلت هذه القصيدة التي عروضها مطوية مقطوعة وضربها مثلها الدكتور شعبان صلاح(٢١)، وانتهى إلى القول: "ولا يستطيع الباحث المنصف أن ينحي باللائمة على أي من الشاعرة نازك الملائكة أو الشاعر عبده بدوي حين ظنّا هذا الوزن مخترعا وليس قديما، إذ إن ما صيغ عليه في القديم لا يعدو أبياتا، لا تُشَكِّل ظاهرة، ولا تُلفت انتباها، فضلا عن أن تقرّ في وجدان شاعر مدى طويلا، فلعل الشاعرة قرأت النموذج الأندلسي منذ زمن، ثم صاغَتْ عليه ـ حين صاغت ـ غير واعية بأنها مسبوقة بتلك النغمة". وقد عُدْتُ فعرضتُ لهذه القضية في مقال التجديد في العروض والقافية عند نازك الملائكة(٢٢)، وحين تحدَّثْتُ معها في هذا الشأن قالت: يعلم الله أنني لم أقرأ هذا النص القديم، وبالتالي لم أُصْغِ عَلَيْه، ولكن لعله المناخ العام لحضارة المشتغلين بالشعر العربي. وحين صدر ديوانها للصلاة والثورة عام ١٩٧٨م، جاء في مقدمته: وقد رأيت أن أطرح هذا الوزن على الجمهور الأدبي، كما قد تطرح كل تجربة في الوزن، لعل فيها ما ينفع، فإذا كانت غُثاء ذهبت جُفاء ولن نأسف عليها، أما إذا شاء شعراء آخرون أن يستعملوا الوزن فسنكون قد أضفنا جديدا ما إلى أوزاننا في هذا العصر(٢٣).


بدر شاكر السياب

من المعروف أن بحر البسيط التام هو: مستفعلن. فاعلن. مستفعلن. فاعلن، وأن مخلّعه هو: مستفعلن. فاعلن. فعولن. وقد لاحظتُ أن من الممكن أن تقسم هذا البحر إلى تفعيلتين في الشطر الواحد، بحيث يصبح هكذا:

التجارب العروضية عند نازك الملائكة

مستفعلاتن مستفعلاتن

مستفعلاتن مستفعلاتن

وهو وزن صَاف يضيف بحرا جديدا إلى شعر التفعيلة، إذا أضفنا حَرفا واحدا إلى مخلع البسيط الخليلي، بحيث يصبح:

مستفعلن فاعلن فعولن

التي يمكن أن تكون:

مستفعلاتن. مستفعلاتن

وقد يقال: لماذا لم ينتبه الخليل بن أحمد إلى هذا الوزن؟ ولماذا لم يكتبه على "مستفعلاتن مفاعلاتن" والجواب عن هذا السؤال أن التفعيلات العشر التي جعلها الخليل بن أحمد أساسًا لعروضه، لا تتضمن الزيادات والنقصان، فهو قد وضع التفعيلة "مستفعلن" دون زيادة ولا نقصان، فإذا كتبنا الوزن بزيادة حرف واحد على مخلع البسيط الخليلي "مستفعلن فاعلن فعولن" نتج لدينا "مستفعلاتن مستفعلاتن" وهو وزن صاف يضيف بحرا جديدا إلى شعر التفعيلة(٢٤).

صور وموسيقى معاصرة

وما كادت تقتنع بهذا حتى كتبت قصيدة "زنابق صوفية للرسول" التي تبدأ هكذا:

البحر إغماء لحن حب. البحر زرقه
البحر طفل مُسْتَرْسِلِ الشعر
للضحى فوق مقلتيه انكسارةٌ،
رفة
وشهقة(٢٥)

وفكرتها أنها كانت تجلس على البحر في بيروت صيف ١٩٧٤م، فكان أن هبط طائر كبير جميلٌ من الفضاء، وقبع إلى جوارها، فأطعمته بيدها ولامَسَتْ رأسه، وكانت تسير فيتبعها، وتجلس فيجلسُ إلى جوارها طوال ساعة كاملة، وقد أحبَّت هذا الطائر، وخطرت لها خاطرة أن تسميه "أحمد"، وبعد فترة تكاملتْ فكرة القصيدة في الكويت، وكان أن فكَّرت في صيغة تخالف الصيغة القديمة للمدائح التي عُرفت بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فما كانت لتكتب في القرن العشرين على غرار بُرْدة البوصيري الذي عاش في القرن السابع الهجري، وهكذا انهمرت القصيدةُ في صور وموسيقى ووزن وقيم معاصرة، وكان أن ولدت هذه القصيدة الرمزية، التي جعلت فيها هذا الطائر الذي عَبَرَ من قبل في حياتها مجرد رمز لجانب من جوانب الرّسول، وقد لاحظت أن من الممكن أن نقسم شطر مخلع البسيط إلى قسمين شبه متساويَيْن هما "مستفعلن فا"، "عيلن فعولن" بإضافة "ياء" فيتحقق تساوي المقطعين، وبعد ذلك عَنَّ لها أن تعبر عن المقطعين كليهما بتفعيلة واحدة هي "مستفعلاتن" المساوية لكل من المقطعين مساواة تامة، وبهذا يكون قد نشأ لديها وزن صاف هو "مستفعلاتن" أربع مرات، تستطيع حسب المعنى التعامل معها زيادة ونقصا، وما كادت تنتهي من هذه القصيدة حتى أدركت أنها أضافت بحرا صافيا جديدا.

وليس بخاف أن تحول "مستفعلاتن" "مفاعلان" بالخبن، وإلى "مفتعلاتن" بالطي قاعدة واردة في زحافات وضعها الخليل نفسه(٢٦)، ونازك تذكر أن "الرصافي" قد أفادها حين زاد حرفا على مخلع البسيط في التفعيلة الثانية من الأصل الخليلي "مستفعلاتن مفاعلاتن" المساوية للتفعيلات "مستفلن. فاعلن. فعولن"، في نص له، فهي تقول: وبعد فأظنني قد أفدت من تفعيلات الرصافي في استخراج هذا البحر الجديد من بحور الشعر الحر، إذ جعلت من "مستفعلاتن" تفعيلة كاملة في بحر صاف جديد، نوسّع فيه دائرة البحور المستعملة في الشعر الحر.

.. وعلى كل فقد لاحظت حين كتبت قصيدة "زنابق صوفية للرسول" أنها وقعت في خطأ تكرّر مرارا عبر القصيدة، ومؤداه: أنها كانت تقول أحيانا "مستفعلاتن. فعولن. فعولن. فعولن" ومعنى هذا أنها كانت تنتقل من تفعيلة الرّجز التي تبدأ بها إلى تفعيلة المتقارب، وكانت أذنها تتقبل هذا(٢٧)، وحين حاولت إصلاح القصيدة، وجدت أنها ستتفكك، وتزول حرارة معانيها، فكان أن تركتها كما هي. وفي عام ١٩٧٧م كتبت قصيدة "نجم الدم" التي التزمت فيها تفعيلة "مستفعلاتن" التزاما تاما مثل:

بيروت غابه: مستفعلاتن

ومن دماء القتلى على جفنها سحابه:
مفاعلاتن. مستفعلاتن. مفاعلاتن

أين ترى البحر؟ كان بالأمس ها هنا يا بيروت بحر: مفتعلاتن. مفاعلاتن. مفاعلاتن. مستفعلاتن

تكتب أمواجه وتمحو وينثر الشذر والغرابة:
مفتعلاتن. مفاعلاتن. مفاعلاتن. مفاعلاتن.

ونراها تقول: والحقيقة أنني لا أدعو أي شاعر إلى استعمال الوزن الأول المختل، واعترف أنه حدث دون أن أنتبه خلال وهج الحالة الشعرية، وإنما جاء الانتباه بعد الانتهاء من القصيدتين "زنابق صوفية للرسول" و"تمتمات في ساحة الاعدام"، ولا شيء أدافع به عن نفسي إلا كون هذا الوزن ابتكارا مني، ولم يستعمله الشعراء قبلي بحيث تكون أمامي نماذج، وأكون مجهزة بتجارب(٢٨).



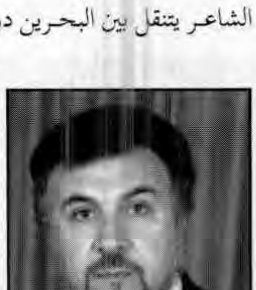
علي محمود طه

وحين كتبت دراستها عن علي محمود طه، انطلق إعجابها من أنه كتب من أوزان عربية قلّ استعمالها في عصرنا، فقد كتب عن المنسرح - مستفعلن. مفعولات. مفتعلن - بحيث تكون التفعيلة الوسطى (مُفْعولاتُ) منتهية بمتحرك، كما كتب من إحدى تشكيلات الخفيف - فاعلاتن. مفاعلن. فعلن(٢٩)-، ومن البحر الكامل الذي ضربه - فعلن -، كما تعامل مع مخلع البسيط، ومع الموشح المسترسل، والموشح الوصفي الغنائي، واستعماله هذه الأوزان المهملة النادرة كان مظهرا من مظاهر قوة الابداع والتدفق عنده، لأنها سمة من سمات القوة والحرارة(٣٠).

تحويل البند إلى قصيدة حديثة

وحين صدر "للصلاة والثورة" حرصت على أن تؤكد دورها في تعصير دورها في الشكل المسمّى "البند"(٣١)، وذلك حين كتبت قصيدتيْ

الملكة والبستان ص ٧٧، وسبت التحرير ص ١٦٥، وكلتاهما من "البند" وليستا من الشعر الحر، وقالت: ولعله لم يحاول شاعر قبلي أن يحوله إلى شعر خالص، يخرج عن إطار الشعر الإخواني، ورتابة موضوعاته وجمود صوره، وتقليدية أفكاره. وقد اجتذبها هذا اللون من الشعر، الذي تتعدّد أطوال أشطره. وتساءلت: لماذا لم يحاول شاعر معاصر أن ينظم منه قصيدة حديثة؟، فهو وزن حر اعتيادي طبيعي، وإن كانت فيه صعوبة لأنه يعتمد على وزنين اثنين هما: الرمل والهزج، مع ملاحظة أن الموسيقية العذبة الجميلة، في هذا الوزن تعتمد على هندسة دقيقة تجعل السمع يقبلها قبولا تاما، ذلك أن الشاعر يتنقل بين البحرين دون قصد، وبالسّليقة حتى ولو لم يعرف العروض، وتلك هي الطريقة التي نشأ فيها البند لأول مرة، كما نشأ الشعر كله في الحياة الإنسانية، وقد ضربت مثالا من الملكة والبستان:



د. نور الدين صمود

أرضه تبر وأسرار

فاعلاتن فاعلاتن (رمل)

وفيه تثمر النار

مفاعيلن. مفاعيل (هزج)

وإذا كان "البنديون" القدامى لم يأتوا بتفعيلة الوافر في سياق البند، لأن بنودهم كلها من الهزج والرّمل، أو من الهزج وحده أحيانا، فإنها تعاملت أحيانا مع مجزوء الوافر والرمل: "وهذه إضافة أضفتها أنا إلى البند وأرجو أن تكون مستساغة، لأن تفعيلة مجزوء الرّمل (مفاعلتن) يصيبها (العصب) فتتحول إلى (مفاعيلن) وهي تفعيلة الهزج". ومن هنا تكون قد نجحت في تحويل البنْد إلى قصيدة حديثة(٣٢)، وقد رجت أن يُكتَبَ النجاح لهذه المحاولة، وأن يتبناه شعراء المستقبل، حتى يتوهَّجَ ويُضيء، ويضيف إلى ما بدأت به، فكل بداية تتَّصف بالوهن، وهذه هي الصّفة العامة لكل البدايات.

لفتة مزاجية!

عندما صدر ديوانها للصلاة والثورة، فإنها - على غير عادتها - كتبت كل قصائده من الشعر الحر، ماعدا قصيدة يتيمة من بحر الخفيف عنوانها: الخروج من المتاهة، وتبدأ بقولها في حيرة وإدانة لليمين واليسار، وترقب للخلاص:

أين نَمْضي، وحولنا التيه والعتـ
ـمة في غابة الضّبّاب الماحي؟
زحف الليل ملء أعيينا مل
ء هتافاتنا، وملء الجراح
فيمين مكشر الفم عن أنـ
ـياب وحش أحداقه همجيه
ويسار يصب في جرحنا المل
ـح، ولمسات كفه دمويه
.. بينما نحن.. إذ تدفّق فجر
نابضُ العطر من وراء الليالي

فكأنها حين تعالج قضية الأمة، لا تنسى قضية الشعر بين التراثيين والمجددين، والملاحظ في هذا الديوان أنها أخذت تتعاطف مع آرائها المتطرفة في مقدمة "شظايا ورماد"، وفي كتاب "قضايا الشعر المعاصر"، وبخاصة فصل "الجذور الاجتماعية لحركة الشعر"؛ فطراز تفكيرنا اليوم يبتعد من فكرة التناظر الهندسية التي ألِفْنَاها في الشعر القديم، وهي ترى أن الانسياق مع قضية الشعر الحرّ يخضع "لِلَفْتَة مزاجية" لأن الإنسان بطبيعته ميّال إلى التغيير والتبديل، ونظرة واحدة إلى الحياة من حولنا تؤكد هذا؛ "فاللفتة المزاجية" كانت ضرورية ومساعدة لظهور الشعر الحر، لأنّه يساعد على الاسترسال، وطول العبارة، والرغبة في عدم التقيد، والتمرد على النماذج الصارمة، والخروج على الثبات والنموذجية في الشعر الشطري.. ثم نراها تتراجع بحساب، لتقترب من نظرتها القديمة فتقول إنه قد يأتي زمانٌ نَرْجعُ فيه إلى النموذج الثابت فلا نثبت على لفتة ذوقية أبدا. ولفتات الذوق تتبدل تبدلا محتوما من عصر إلى عصر، وفي ضوء هذا يكون إقبالُنا اليوم على الشعر الحر مفروضا علينا نفسيا، مع ملاحظة أن الشعر الشطري لا توجد فيه العلة، وإنما توجد في أذهان بعض شعرائه - لا كلهم! -، وفي الوقت نفسه يمكن أن تعشش هذه العلة في شعراء الشكل التفعيلي، وذلك حين يقدّمون قصائد مستهلكة اللغة، بالية الأساليب، وفي الوقت نفسه مستهينة بالعروض، واحتقار اللغة وقواعدها وتراثها، مع الإغراب والتعمية - غير الغموض - والدهشة على حساب العقل الإنساني. وهذا يجب أن يدركه الشعراء الشطريون، فيفتحون قلوبهم للحياة، ويقدمون شعرًا خليليا عصريا، تجري في عروقه الدماء الحارة الفوارة، فلا ينبغي النظم بلغة ابن الفارض والبهاء زهير، لأنه لابدَّ من التعامل مع لغة العصر، ولابد من النظر إلى الأمام لا إلى الخلف.

إنكار القديم ضعف

ويتلخص موقفها أخيرًا في أن حركة الشعر الحر حصيلة اجتماعية محضة، تحاول بها الأمة العربية إعادة بناء ذهنها العريق المُكْتَنز على أساس جديد، شأنها في هذا شأن سائر الحركات المجددة في مختلف المجالات، وقد كان وراء ذلك النزوع إلى الواقع، والحنين إلى الاستقلال، والبعد عن المسلمات العربية في الماضي، وقريب من هذا الإنسان الذي يبدأ بالاستقلال عن أبويه فيبدأ بمقاومتهما، بالإضافة إلى أنه من طبيعة الفكر المعاصر النفور من "النموذج" - والمقصود بالنموذج اتخاذ شيء ما وحدة ثابتة وتكرارها بدلا من تغييرها وتنويعها -. وأخيرا فالفرد العربي المعاصر يتجه إلى إيثار المضمون، وهذا مرتبط بما نراه من ميل إلى الإنشاء والبناء في العمارة(٣٣).

صحيح أننا نعيش الآن في فترة من القلق المصحوبة بالحدة والعصبية، التي تنعكس على المتحمسين لكل شكل، ولكن الواقع يؤكد أن حركة الشعر الحر لنْ ترسخ في تاريخنا حتى يدرك الشاعر الحديث أن تراثه القديم قد كان هو المنبع الذي ساقه إلى إبداع الجديد، ولعل إنكار القديم والمغالاة في النفور منه مظهر من مظاهر ضعف الثقة بالنفس عند الأمم، ولكن لابد من مراجعة كلا الموقفين، وإذ ذاك سَيَبدو له "الشعر الحر" نقطة صغيرة في تاريخه الكبير، وسيدرك

أن أوزانه التي ابتكرها قد بلغت مرحلة النضج وباتت جزءًا حيا من تاريخه الأدبي العريق(٣٤).

وأخيرا..

فهذه رحلة قلقة للإحساس المضاعف بموسيقى الشعر، وإعطائه الأهمية الكبرى للوقوف على مذهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه(٣٥)، فقد قبلت الوضع الخليلي في ديوانيها الأولين، ثم رأيناها ترفض ابتداء من "شظايا ورماد" ثم تميل أخيرًا - بعض المَيْل - إلى ما كانت ترفضه، لأسباب ترى أنها كانت على حق حين قالت بها، ولأن الحركة "طاشت" عند البعض ووصلت إلى دائرة الخطر في "قصيدة النثر"؛ ولأنها في الوقت نفسه أحسَّتْ بالفجيعة حين أهدرت دم ثمانية بحور عربية، وحين انتفع بعضٌ بما قالت، وقوبلت بالهجوم، وانحسار الضوء.



د. عبد اللطيف عبد الحليم

.. المهم أنها دارت أكثر ما دارت في دائرة العروض العربي، وقد كان اجتهادها يمكن أن يوصلها إلى نظرية جديدة لو أنها - بالإضافة إلى إنجازها - تعاملت مع المناهج الإحصائية، ليمكن الكشف عن العلاقة بين النمط السكوني، وإيقاع الكلام المتوثب، ثم إن هناك ما يسمى بنظرية الوزن الصوتي الذي يستخدم - فيما يستخدم - "راسم الذبذبات" الذي يرصد الحدة والارتفاع، وما بين الحدة والارتفاع قرارا وجوابا وإلى تحديد النبرة والزمن، بالإضافة إلى الوقوف على نظرية "التَّنْغم" باعتبارها وسيلة مسموعة، وقرينة للمعنى النحوي، وإلى المفاتيح الصوتية لما يسمّى التصريع، والترصيع، والالقاء، والتقسيم، والجناس. ولعل مما يساعد على هذا علم القراءة والتجويد، والوقوف على ما ذكر النقاد القدامى من أوزان: السبط، والجعد، واللين، والشديد، وما بين البين(٣٦)" وما قيل من أن القافية تقرب من الواقع، وتربط الأشياء بالأغنية، بل وتدعو الأشياء إلى الغناء، وتُحوِّل ماهو عائق إلى ضرورة جمالية، وفي الوقت نفسه تمزج الصوت بالمعنى.

..ولكن مهما كان الأمر، فقد كان لها اجتهادها المخلص، وتنظيرها غير المسبق، وبخاصة أنه تنطبق عليها القوى الثلاث، التي عبر عنها حازم القرطاجني بقوله: "لا يكملُ الشاعر قول الشعر إلا بأن تكون له قوة حافظة، وقوة مائزة، وقوة صانعة"(٣٧).

ومهما يكن من شيء فالملاحظ أنها نظرت للعروض - باعتباره بناء صوتيًا وطريقة لتحويل اللغة إلى شعر - على أنه ضرورة لابد منها، صحيح أنها حاولت في أول الأمر أن تعصف به، ولكنها لم تفقد الإيمان بهذه الثروة، وللتوفيق بين نظرتيْ الغضب والرِّضا نراها تصل إلى محاولة أن يكون الشعر الحر وردةً إلي جانب ورود أخرى في شجرة الشعر العربي!، فهو في الحالتين من صميم التجربة الشعرية، وليس قيدا، أو مجرَّد زينة.

الهوامش:

١- لا توجد هذه الظاهرة في الريف المصري.
٢- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ط٤، ص٣٥ ومابعدها.
٣- قصيدة لا، أحمد عبدالمعطي حجازي، ط١، ص٢٣٣، مؤسسة الأهرام بالقاهرة.
٤- هذه مقولة انفعالية إنشائية لأن الأصل في الأشياء أن القاعدة هي القاعدة، وأن لكل فن قاعدة غناء ورقصا ونحتا وتصويرا، ومن دون ذلك لا يكون فنّ جيد، كما أن العلم يحكم الحياة وأحداثها، وفنون الرواد تكون قلقة - كأبي تمام - ثم تتألق في انتظار القاعدة - كالمتنبي -، فإذا كان كل أسلوب انتهاكا فليس كل انتهاك أسلوبا - كما قيل -.
٥- القصائد الغنائية تحتاج إلى القافية، لأن الصوت فيها مفرد كصوت الحادي القديم، ثم إنها تتسع لصوت الجماعة بالرجز وبأسلوب الموشحات أو ما عبر عنه حديثا بالشعر المرسل، والشعر المسرحي.
٦- ديوان نازك الملائكة، مجلد٢، ص٥ ومابعدها.
٧- قضايا الشعر المعاصر، ص٥، ٦.
٨- استنكر الباقلاني نسبته لابن دريد.
٩- ذكر النص عبدالكريم الدجيلي في كتابه البند في الأدب العربي.
١٠- قضايا الشعر المعاصر، ص٥، ١٧، ومعنى هذا أنها أعدمت ثمانية بحور خليلية.
١١- قضايا الشعر المعاصر، ص٤٨، ٤٩، وقد بنت نبوءتها على قضايا مضللة في الشعر الحر، تتمثل في الحرية الخطرة التي تمنحها أوزانه، والموسيقية التي تضلل الشاعر عن مهمته، والتدفق اللاهث المنساب الخالي من الوقفات فتطول العبارة طولا فادحا، بالإضافة إلى الخواتيم الضعيفة.
١٢- ديوان نازك الملائكة، مجلد٢، ص٤١١، ٤١٢.
١٣- الشعر الأسري المشترك، د. عبده بدوي، العدد٨ عام ١٩٩٢م، مجلة كلية الآداب بجامعة الإمارات.
١٤- نازك الملائكة، إعداد وتقديم د. عبدالله أحمد المهنا، ص٧٢٩.
١٥- ديوان للصلاة والثورة لنازك، ص٣٣، ١٩٢، السيف والوردة، د. عبده بدوي ص٧٤، مجلة الدوحة: سبتمبر ١٩٧٦م، وبهذا تكون قصيدة لأنها بلغت سبعة أبيات فأكثر.
١٦- مجلة الشعر القاهرية، افتتاحية عدد يناير ١٩٧٧م، وكان منهم د. نور الدين صمود.
١٧- تحقيق د. محمد الحبيب ابن خوجة، ص٢٤١.
١٨- في رواية الذخيرة لابن بسام: قَصِّر عن لومي اللائم.
١٩- تسكن الهاء في "وهو".
٢٠- مجلة الحياة الثقافية التونسية، العدد الخامس، ١٩٧٩م.
٢١- موسيقى الشعر بين الاتباع والابتداع، ط٢، ص١٥٣.
٢٢- نازك الملائكة، إعداد وتقديم عبدالله المهنا، ص٧٢٩.
٢٣- أما د. نور الدين صمود فيرى أن هذا البحر قريب من البحر "السريع"، وليس بينهما فرق سوى سبب خفيف، كما أنه في الوقت نفسه قريب من "المتقارب" إذا أضفنا في أول كل شطر متحركا واحدا، كما قدم بإخضاعهما للسريع والمتقارب بإضافة الحروف يا، قد، لي، ما، من، بل، و. وأحسّ أن البحرين بهذه الإضافات ابتعدا عن الشعر - الفيصل العدد ٢١٥ -.
٢٤- يغير البحر ألوانه لنازك، ص٦.
٢٥- مجلة الشعر القاهرية، العدد التاسع، يناير ١٩٧٨م، وكان عنوانها: قصيدة حب للرسول الكريم في صيغة معاصرة.
٢٦- ديوان يغير البحر ألوانه، ص٨.
٢٧- حدث هذا في قصيدة تمتمات في ساحة الاعدام، وهي كذلك من مخلع البسيط. يغير البحر ألوانه، ص١٥٢.
٢٨- يغير البحر ألوانه، ص٩، ١٠.
٢٩- له خروج أحيانا من بحر الخفيف إلى بحر المنسرح، وقد جعل الخفيف مشطورا على خلاف ما يرى العروضيون في ختام قصيدة ميلاد شاعر. موسيقى الشعر، د. شعبان صلاح، ط٢، ص ١٧٧.
٣٠-الصومعة والشرفة الحمراء، لنازك، ط٢، ص١٩٢.
٣١- ضرب شاع في الرسائل الإخوانية في العراق منذ القرن الحادي عشر الهجري.
٣٢- للصلاة والثورة، ص٣٠، ٣١.
٣٣- مقدمة للصلاة والثورة، وفصل الجذور الاجتماعية لحركة الشعر الحر في قضايا الشعر المعاصر، ص ٥٠ ومابعدها.
٣٤- نفسه ص ٦٣.
٣٥- يلاحظ أن البعض جرى على ما رآه أرسطو من رفض ما يميز الشعر على أساس الوزن، وقد اقترب من هذه المقولة الفارابي وابن سينا، مع الإحساس بأن العروض كان من العلوم الصعبة، وقد تلطف الخليل حين أراد أن يُبْعد الأصمعي عنه، فقال له: هل تستطيع تقطيع هذا البيت:

إذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه إلى ما تَسْتَطيع!

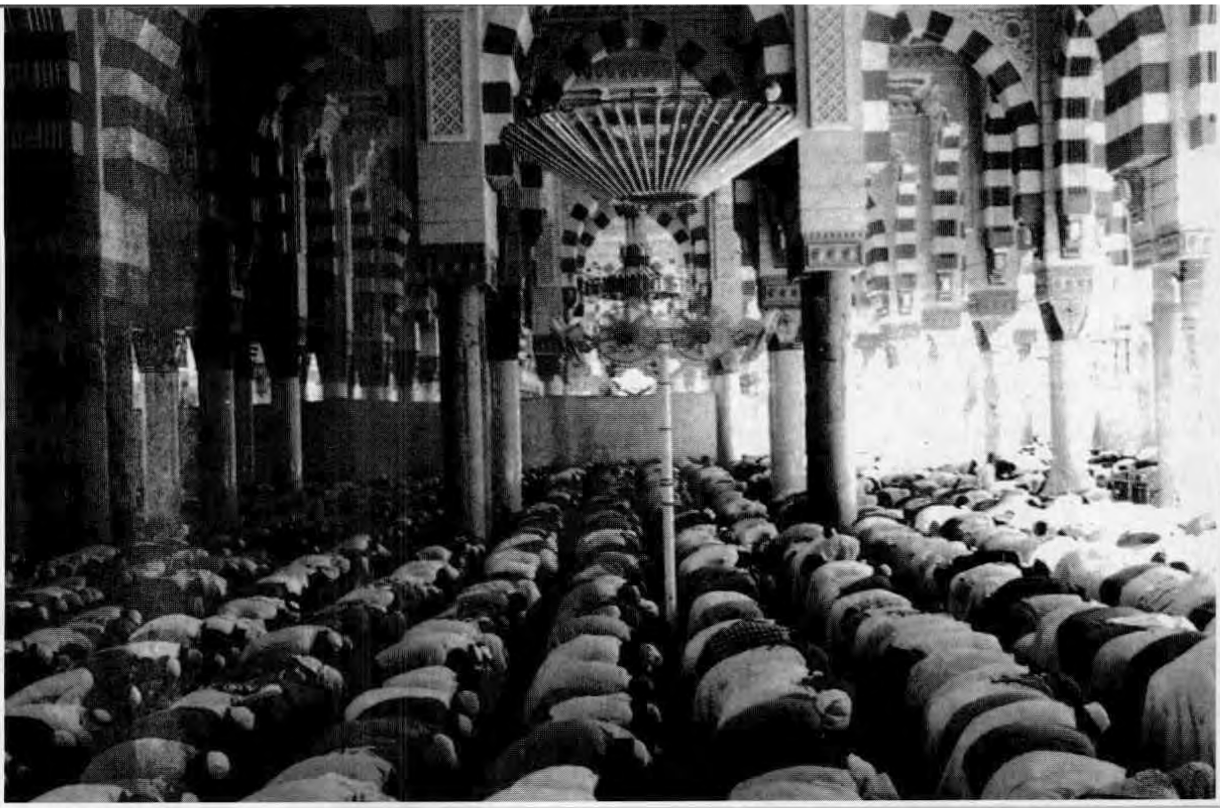
وقد قال النّظام: إن دوائر الخليل لا يحتاج إليها غير الخليل. وقال الجاحظ عن العروض: إنه علمٌ مُسْتَبْرد، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستكد العقول بمستفعلن مفعول من غير فائدة ولا محصول. وقد تلاعب بمصطلحاته في رسالة التربيع والتدوير.
٣٦- نازك الملائكة: إعداد وتقديم د. عبدالله أحمد المهنا، ص ٧٢٩.
٣٧- منهاج البلغاء ص ٤٣، القوى المائزة: هي التي بها يميز الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك، وما يصحّ مما لا يصح، والقوى الصانعة: هي القوى التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النَّظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض، والتدرج من بعضها إلى بعض.

قصيدة:

تسابيح خاشع!!

شعر: محيي الدين فارس

ظِلِّي.. عَلَى ظِلِّي رَقِيبُ   وفَمي.. عَلَى كَلِمي حَسِيبُ
ودَمِي.. يُحَدِّقُ فِي دَمي   ويُريبُني.. مَا لا يُرِيبُ
خَفَّتْ موازيني وَمَا   ثَقُلتْ وادْرَكَني.. المَشِيبُ
والدَّيْدَبانُ بِداخِلي   يَقْظانُ مِنْ حَوْلي يجُوبُ
يُومِي.. فأرْنو حَيْثُما   يُومي ويَلْفَحُني اللَّهِيبُ
ومَشَيْتُ في كلّ الدُّرو   ب.. فَتُرعِشُ الخطْوَ الدروبُ
والرِّيحُ تَمْضَغُ. وَجهَ رَا   حِلَتي.. فَيَلْطُمها الكَثِيبُ
سَقَطَتْ.. فأعْياها النُّهو   ضُ.. وراشَهَا السَّهمُ المُصِيبُ
وعَلَى مَحطَّاتِ الدُّجَى   أرْنُو... وقَدْ دَلَفَ المَغِيبُ
غُفْرانَكَ اللَّهُمَّ. كَمْ   ذَا أثْقَلَتْ خَطْوى الذُّنُوبُ
إنِّي عَلَى أعْتابِ بَا   بكَ ... لايُفارِقُني الوجِيبُ
أتَرُدُّنِي.. رَبِّي..!! وأنـ   ـتَ... لكُلِّ مُضْطَرٍّ مُجِيبُ؟
ولِمَنْ أتُوبُ؟ وأنت غفّـ   ـفارُ الذنوبِ.. لِمَنْ أتُوبُ؟!
هَيَّأتُ للإبْحَارِ مَرْ   كَبَتي.. فَمركَبَتي تَلُوبُ
وَخَلَعْتُ أردِيَةَ التُّرا   ب.. فَهُنَّ سِرْدَابٌ رَهيبُ
وتركْتُ كُلَّ حَدائِقَ الدُّ   دنيَا.. فَمُورِقُها جَديبُ
وخَرجْتُ مِنْ طِينيَّتي   ولكلِّ طافِيةٍ رُسُوبُ
فَيُعِيدُني لِدواخِلي   صَوْتٌ إلهيٌّ حَبِيبُ



صَوْتٌ يقُولُ لنا: قِفُوا … صَوْتٌ يَقُولُ لنَا أجيبُوا

هَلْ يسْتَوِي البَحْرانِ.. ذَا … عَذْبٌ.. وَذَا مِلحٌ يَذُوبُ؟

مَاذا ادَّخرتُم للرَّحِيل … إذا أتى اليَومُ العَصِيبُ؟

سَبْحانَ مَنْ يُحْيي العِظا … م غدًا.. فتنكشفُ الغُيُوبُ

يَومَ المَوَازِينِ الكبيـ … ـرة.. حَيْثُ لاَ ظُلْمٌ يَحُوبُ!!

وَسَبَحْتُ في المَلكُوتِ.. والـ … ـملكُوتُ مُنْفَسِحٌ رَحِيبُ

أُصْغي لأنْغَام الوُجُو … دِ.. ومَابِها نَغَمٌ رَتِيبُ!!

أُصْغي.. فَكُلُّ خَلِيَّةٍ … في الكونِ..إ يقَاعٌ عَجِيبُ

مَعْزُوفَةُ الخَلاَّقِ.. سُبْـ … ـحانَ البَدِيعِ.. لَهُ أُنِيبُ

تَرْنو العُيُونُ وَإنَّما … تَعْمَى بدَاخِلِنا القُلوبُ

يَا أيُّها الإنْسَانُ.. إنَّـ … ـكَ في مَنَاكِبها غَرِيبُ

ضَيَّعْتَ عُمْركَ في السَّرا … بِ وَغَرَّكَ البرقُ الخَلوبُ

هِيَ فَترةٌ في فُنْدقِ الدُّ … نيا. وَيعقُبها المَغِيبُ

صَدِئَتْ قُلُوبُ الغَافلِيـ … ـنَ فَلَيْلُهُمْ أبَدًا ذُنُوبُ

وصَفَتْ قُلُوبُ الخَاشِعِيـ … ـنَ فَلَيْلُهم. ذِكْرٌ رَطِيبُ

السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُـ … ـونَ زَمانُهمْ زَمَنٌ خَصِيبُ

العَابدُون بِلاَ ضَجِيـ … ـجٍ..!! والبُكَاةُ.. ولانحِيبُ!!



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

أنّ الأحكام أمانة!

قدم الدكتور عبدالعزيز رمضان في جريدة الأهرام، ثم في جريدة الرياض خواطره تجاه بلاد الحرمين الشريفين وقائد مسيرتها خادم الحرمين الشريفين.

وهي مقالة محب، والمحب نصوح، وكل كلمة عرفان من الأقطار الشقيقة تقدم لهذه البلاد وراعيها طوق في عنق كل فرد من الرعية يجب أن تقابل بالشكران.

وأنا واحد من الرعية أقابل عرفانه بكل شكران وتبجيل، إلا أن خواطر الدكتور الجياشة لم تكن خواطر مؤرخ فحسب كما جاء في عنوان مقالة الدكتور، ولا خواطر عابر بالمعالم الحضارية والتاريخية الشاهقة فحسب، ولكنها خواطر مفت ومُنظِّر أنتجت أحكامًا، والأحكام كما قلت أمانة.

ومعنى كونها أمانة أن تصدر عن علم أولاً، والمراد العلم التخصصي؛ لأن البتَّ في أي مسألة من حقول أحد الفروع العلمية يقتضي تخصصًا في بقية مسائل الحقل، ويقتضي تخصصًا في تاريخه وأصوله، ويقتضي ملكة في الاستنباط والاستنتاج تحصل من الدُّرْبة على مسائل الخلاف وأسبابه ومآخذ كل ذي إمامة في فنه.

والأمانة موجودة لدى الكاتب بحول الله وقوته، وهو في مجال العلم ليس طارئًا، ولكن مواهب البشر لشدة حيويتها تريد الخير والحق والجمال فتخطؤه بتأثير إلفٍ قائم، أو غياب شاهدٍ علمي.

والله سبحانه وتعالى يكمِّل البشر بعضهم ببعض إذا صدقت نياتهم، فتسدد أحكامهم، وتتلاقى مواهبهم، ويحضر لدى الواحد ما غاب عنه من حجة أو واقعة إذا أصغى لحوار أخيه، ولهذا كان النقاش لقاح العقول.

والدكتور الفاضل امتدت خواطره إلى الفتوى والتنظير، وشمل أمورًا من قضايا الفكر والفقه؛ فمن ذلك مسألة إعادة كتابة التاريخ بناءً على الوقائع المزيفة على رموزنا التاريخية من الخلفاء والسلاطين والولاة، وقد استمد شواهده من نماذج تاريخية بثتها هموم صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز.

وإعادة كتابة التاريخ مطلب ليس جديدًا، وهو مطلب غير ممكن لأنه عن أشياء وقعت ودونت، وما دُوِّن غير ممكن محوه، وغير ممكن طمس الذاكرة التي وعته.

فأما أن المطلب غير جديد فلأنه مما عُقِدَتْ له الندوات والمؤتمرات وساحات الإعلام العريضة، وانتدب لذلك أعلام المؤرخين والجمعيات التاريخية وروابط التاريخ في عالمينا العربي والإسلامي، وساهم في ذلك ذوو التخصص من العالم الأجنبي.

وأما أنه غير ممكن فلأنه لا معنى له إلا بتنشئة الأجيال اللاحقة على تاريخ يُكتب من جديد ومادته ليست سوى المدون قديمًا، مع استنتاج وتحليل تبدعه مواهب المعاصرين، ويكون ركيزتها سبل التوثيق التاريخي المعتبرة، وأصول الفكر الراجحة منطقًا وجدلاً وبحثًا ومناظرة.

فيكون مآل الأمر إعادة قراءة التاريخ وتدوينه من جديد وفق قراءة جديدة، وليس ذلك بطبيعة الحال إعادة لكتابة التاريخ لأننا لا نملك إعادة التدوين المطلقة بوقائع لم نشهدها، وليست بقاياها بين أيدينا.

وتوحيد العالمين على قراءة واحدة لا تمكن إلا بشرط اتحاد العالمين على مذهب واحد في العقيدة والنِّحْلَة والمذهب الفكري والمزاج النفسي، وهذا غير ممكن لأن الله سبحانه خلق الناس مختلفين إلى يوم القيامة.

لكننا نأخذ التاريخ فنفصل بين إثبات وقائعه وتحليل نتائجه.

فأما إثبات الوقائع أو نفيها فيجب أن يكون المذهب فيه واحدًا بشرط صدق النية ونزاهتها في تحري الحق والتماسه، لأن الذي يحكم مجال التوثيق التاريخي عناصر فكرية وحسية مشتركة مشاعة بين مفكري البشر أساسها تحرير نظرية المعرفة البشرية التي تأتي من مصادر متعددة كالحس والخبر، ويحكم فيها العقل بإيجابياته الفكرية.

وأما تحليل النتائج وتفسيرها فالخلاف فيها مضمون، فعلى سبيل المثال يشترك المسلم والملحد في تعليل كوارث طبيعية تحل بالبشر، فيعللانها بأحداث ومظاهر طبيعية.

بيد أن المسلم لا ينتهي عند ذلك، بل يلتمس العلة الكافية من تدبير الله سبحانه وتعالى ومقاصده في خلقه نذارة وتبشيرًا.

إذن يبقى أهل كل ملة ونحلة يملكون رؤيتهم الخاصة في تفسير الأحداث وتعليلها.

وإنما تنتج إعادة قراءة التاريخ، وإعادة تدوين القراءة العلمية نتيجة مرغوبة لدى كل الأطراف، وهي التجرد للحقيقة ليقرأ الناس تاريخًا محايدًا.

فإذا أراد المسلم السلفي المبادرة لهذه الغاية فعليه أولاً التجرد لتدوين حقيقة الواقعة وملابساتها، وذلك بقراءة كل وجهات النظر؛ فيقرأ تواريخ كتاب السلطان، ويقرأ تواريخ الجماعات ذات الميول العرقية أو الإقليمية، ويقرأ تاريخ الطائفيين من ذوي

الملل والنحل والمذاهب، ويحكِّم أصول توثيق الخبر، والمعطيات الاحتمالية أو الرجحانية أو اليقينية بأنواع الخبر من استفاضة وتواتر وشهرة وآحاد وصحة وخطأ سببه الوهم أو نقص العلم أو تعمد الكذب، ويقتضي ذلك خبرة بأحوال الناقلين تدينًا وعدالة وصدقًا وجدًا وعبثًا.

أما تفسير الحدث وتعليله من ناحية بواعثه ونتائجه فلا يستطيع المؤرخ المسلم التجرد من إسلامه وسلفيته، لأن له تصورًا في الكون والحياة.

والمؤرخ المسلم السلفي إذا أخذ هذا الزمام يفرق بين واقع المسلمين - إذا كان التاريخ عنهم - وواقع دينهم، فلا يبرئهم من الضعف البشري الذي يوقعهم في التجاوز والجبن عن عزائم الأمور أحيانًا.

ولكن تبقى له مسلماته وثوابته التاريخية كعلمه شرعًا وسيرةً عمليةً أن مجتمعات المسلمين لا يتفق علنها ولا يحصل تراضيها على أمر منكر.

وكعلمه بأن سلاطين المسلمين بعد الخلافة الراشدة، مهما كان عندهم من سيرة المُلْك، لم يعلنوا للمسلمين أمرًا محرَّمًا، ولم يشرِّعوا له، ولم يفصلوا الدين عن الدولة، ولم يلغوا الجهاد.

ومخالفة الفتوى أحيانًا غير حمل الناس على فتوى غير شرعية.

وسلاطين المسلمين قبل سقوط خلافتهم وحملة نابليون على الشرق وتفتيت الأمة إلى دويلات خيرٌ وأزكى من واقع العالمين بعد ذلك، لأنه لم يحكمهم حق الفيتو، ولأن خلافهم بينهم، ولم يُملَ عليهم القرار العسكري أو الاقتصادي أو الثقافي، ولم يفصلوا دينهم عن دولتهم أو عن حياتهم العامة في المجال العلني.

فالمجتمع الذي تُشرب فيه الخمر سرًا أو بتغافل من ولي الأمر غير المجتمع الذي يشرع فيه بيع الخمرة وتصنيعها وحرية تعاطيها.

ولهذا فأرجو من الدكتور تعديل حكمه القاسي على الحكومات الإسلامية بما ادعاه من بعدها عن مبادئ الإسلام.

إن ما يذكر عن تلك الحكومات التاريخية إذا مُحِّصَ بطرق التوثيق التاريخي وخُلِّص من أهواء المناوئين يكون من باب المخالفات الفردية التي يقع أكثر منها لدى الرعية كتأخير الصلاة عن وقتها أحيانًا أو التشوق بسماع مجون أو غناء.

أما العلن في ميدان الحياة العامة، وأما الدستور المتعلق بصلة الدين بالحكم فمرتبط بأجزاء القضاء والفتوى والحسبة وذوي الحل والعقد.

ولم تنقطع هذه المؤسسات الخيِّرة من تاريخ المسلمين إلا بعد سقوط الخلافة الإسلامية، وقيام حملة نابليون، وإرث الحكومات الإسلامية بحكومات علمانية.

وبفضل الله وشكره بقيت لبلاد الحرمين الشريفين خصوصيتها في إبقاء الدين وأجهزته الإدارية يحكم حياة المسلمين ودولتهم.

وتطرق الدكتور لليسارية فذكر أنه لاصلة لها بأي معتقد ديني، وأنها نشأت لتعبر عن فريق المعارضين للحكومة الذين يجلسون على يسار رئيس مجلس العموم في البرلمان الإنجليزي، وأنها أصبحت تطلق على المعارضة الاشتراكية في وجه النظام الرأسمالي.

وإذن ليس لها بالتالي أي مدلول ديني يُنْفَى عمن يتصف بها اعتناقه لدين.

قال أبوعبدالرحمن: معنى الاصطلاح الراهن غير التأريخ لتدرُّج الاستعمال، فإن المفردة تنشأ بمفهوم لغوي، أو عرف جماعة من أهل اللغة، ثم تنتقل لمعنى اصطلاحي جديد.

واليسارية أصبحت ذات مدلول اصطلاحي راهن لا يراعي أصل النشأة في الاستعمال (وهو أن يكون اليساري من يجلس على يسار رئيس مجلس العموم)، وإنما أصبحت اصطلاحًا على ذي مذهب ينكر الإله، ويغذِّي مقولة المصادفة والمادة الخالقة المتجددة، ويجحد كل يد إلهية، ويلغي الدين ويعتبره خرافة، ويشطب من قائمة الأعلام التاريخيين أسماء الأنبياء والرسل وورثي علمهم عليهم الصلاة والسلام.

ومثل ذلك كلامه عن العلمانية وأنها تعني أن الدين لله والوطن للجميع، وأنها تعني تنزيه الدين عن إدخاله في شؤون الدولة، وإبرائه من المظالم والتجاوزات التي ترتكبها الحكومات في ممارستها لشؤون الحكم.

قال أبوعبدالرحمن: ما أخلق الدكتور بالتراجع عن هذا التعريف.

فأما اشتقاق العلمانية وهل هي من العلم أو العالم فقد تقصيت ذلك في كتابي: ملاعبة الصيد أو العقل اللغوي، وبينت هناك أن المعنى قبل الاشتقاق شيء له مدلوله، وأن المعنى بعد الاشتقاق شيء آخر له مدلوله الخاص.

وهكذا أصبحت العلمانية مدلولاً لأنماط من السلوك والمعتقد، فمن يذهب يوم الأحد للبار ولا يذهب للكنيسة، فهو علماني سلوكًا.

ومن يرى التشريع من نوازع الشهوة ويجعل مقياس الحرية ألا تضر بحرية غيرك، ولا يجعل لله حقًا في التشريع، ولا يؤمن باجتناب حرمات يشتهيها العبد ويأباها الرب، فهو علماني عقيدة وسلوكًا.

ومقولة الدين لله والوطن للجميع ليست نتيجة منطقية مزكَّاة من قيم الحق والخير والجمال، فتكون معطى معياريًا مسوغًا للعلمانية، لأن الدين لله تنزيلاً، والوطن وساكنوه خلق الله وملكه، وخالق الخلق أولى بالتشريع لهم، فالنهاية أن الدين والوطن والخلق لله.

ومقتضى مقولة «الدين لله والوطن للجميع» أحد أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يكون الدين لله وليس لازمًا للخلق، ولهذا فهم أحرارٌ في تجنيب وطنهم من تحكيمه.

وإما أن يكون الدين الذي هو لله لازمٌ للخلق، ولكن العلمانية تعصيه فتجعل الوطن مجردًا منه.

وكلا المعنيين يمنعان من لقاء حميم بين الدين والعلمانية.

والدين الذي يعتقد المسلمون لزومه يحكم في الأرض بيعًا وأجرة وإحياءً وعمرى ومساقاة ومزارعة وتوظيفًا.. إلخ.

ويا ليت الدكتور يبين كيف تكون العلمانية تنزيهًا للدين عن أهواء الحكومات الإسلامية.

والذي لا يُفهم غيره من عبارة الدكتور ومن معنى العلمانية أن المعنى تنزيه الحكومات من الدين لأنه أُلغي فلا يحكم في الوطن والبشر.

ومع التلاعب بالعبارة يكون تنزيه الدين بمعنى إلغائه حتى لا تعبث به أهواء الحكومات.

صداع العقول

إن الأحكام أمانة!

أمـا فهم عباد الله السوي لتنزيه الدين فيكون بتعلمه وفهمه وتطبيقه، وذلك بتغيير المنكر حيثما وجد وفقًا للطرق التي سنّها الدين ذاته لتغيير المنكر لدى الراعي والرعية معًا.

وسبل الدين في ذلك التغيير باليد واللسان والقلب وفق درجات حسب القدرة وتقديم درء المفاسد الكبرى على تحقيق المصالح الصغرى، وتحقيق المصالح الكبرى باجتثاث المفاسد الصغرى.

وفي ميدان الراعي فقد جعل الشرع للحكومة المسلمة حقًا أخص من حقوق الحسبة العامة.

ومما تطرق له الدكتور مسألة إغلاق المحلات التجارية عند النداء للصلوات.

وقد عارض الدكتور ذلك لأن الحكم خاص عنده بصلاة الجمعة، وأن الجماعة في غيرها غير واجبة، وأنه لا يشرع أداؤها فور سماع الأذان في أوقات ثلاثة شرع فيها التأخير وهي العصر والظهر والعشاء.

وكل ما قاله الدكتور خارج محل النزاع، فمسألة تأخير وقت النداء للصلاة شيء، والتأخر عن إجابة النداء إذا وقع شيء آخر.

والجماعة في ذاتها مقصد شرعي حتى على فرض أن النصوص الحاضة على الجماعة محمولة على الندب، لأن ما حضّ عليه الشرع مقصد، ولا يرغب عن ملة إبراهيم عليه السلام - التي هي ملة محمد صلى الله عليه وسلم - إلا من سفه نفسه.

والإبراد بصلاة الظهر وتأخير العشاء مقصدان شرعيان.

وأهل الفتوى راعوا المقصدين في تحديد أوقات الصلوات، ولكن من فاته لعذر المقصد الشرعي الأول (وهو الجماعة) فعليه أن يحقق المقصد الآخر وهو الإبراد والإعتام بصلاة العشاء.

أما العصر فليس وقتها التأخير، وقد رسم وقتها جبريل عليه السلام فصلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وصلى معه المسلمون صفوة الأمة، وما أُثر أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى العصر اختيارًا إلا والشمس بيضاء نقية، وقد دعا على من شغلوه عن الصلاة الوسطى.

وبناء المساجد مقصد في ذاته، وقول المؤذن: «حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح» نداء شرعي بصريح النص يقتضي الإجابة من كل مسلم.

وترك الناس على حريتهم في الأسواق والمتاجر - على فرض أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة - يعني علنًا غير كريم، يقر هجر المساجد وترك الاستجابة لمنادي الفلاح.

والصلاة من الأعمال الظاهرة التي يُطالب بها الفرد، وليست من الاعتقادات القلبية التي تترك لسرائر القلوب.

فكيف تتم المطالبة بركن من أركان الإسلام من أعمالها الظاهرة إذا تُركت المتاجر والأسواق عامرة وقت النداء.

ثم إن العبرة بحجج أهل الاجتهاد عند اختلافهم، وليست العبرة بالاختلاف ذاته بحيث يأخذ المسلم من الخلاف ما وافق هواه، ولهذا اتفقت كلمة المجتهدين ذوي العلم والورع على أن تتبع رخص العلماء فسق.

وهذه المسألة تورع فيها قوم فقالوا: الصلاة جماعة شرط ولا تصح من فرد إلا لعذر.

وتعدد جماعة المسلمين إلى جماعة تصلي العشاء في أول وقتها، وجماعة تؤديها في آخر وقتها شغب على الإسلام والمسلمين، وليس من مقاصد الإسلام التفرق وتعدد الجماعات، وتعدد الأئمة المرتبين في المسجد على أوقات مختلفة للفريضة الواحدة، ولم يوجد بذلك سنة عملية، والعبادات اتباع لا ابتداع.

وتوسط آخرون فقالوا: صلاة الجماعة واجبة يأثم الفرد بتركها جماعة ويرتفع إثمه لعذر، وتصح صلاته لغير عذر ولا ينال إلا جزءًا من سبع وعشرين جزءًا من أجر الصلاة جماعة.

وتساهل آخرون فقالوا: إن صلاة الجماعة سنة مؤكدة.

ومن صدقت نيته في تحري الحق واستقراء النصوص رأى أن بناء المسجد مقصد، وتوظيف المؤذن والإمام مقصد، وعبارات المؤذن ذات مقاصد، ووجود قوم يُسَمَّوْنَ أهل الأعذار يعني أن هناك من لا يُعذر بترك الجماعة إذا ارتفعت عوائقه المعتبرة شرعًا.

ومن النصوص الصريحة الكثيرة همُّ الرسول صلى الله عليه وسلم بإحراق قوم لا يشهدون الجماعة، وإنما ترك إمضاء ذلك لما فيها من النساء والذرية.

وكل هذه الأصول تشهد أن الأصل العزيمة على حضور الجماعة، وأن الاستثناء لمن قام عذره شرعًا.

والسيرة العملية خير شاهد لتحقيق المراد النصي، فلم يؤثر أن صفوة الأمة من الصحابة وتابعيهم تخلفوا عن الجماعة بغير عذر، أو أنهم عمروا متاجرهم وأسواقهم وقت النداء.

بل شهد ابن مسعود رضي الله عنه أن عقيدته وعقيدة زملائه من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أنه لا يتخلف عن هذه الصلاة جماعة سوى منافق معلوم النفاق.. وقد صح قول ابن مسعود رضي الله عنه في صحيح مسلم وغيره.

وإغلاق الأسواق والمتاجر وقت النداء إن صح قول الدكتور أنه لا يوجد في غير السعودية ليس خرقًا للإجماع، وإنما هو خرقٌ لأعراف غير إسلامية.

وإنما الإجماع ما كان عليه مجتمع ابن مسعود رضي الله عنه الذين عايشوا التنزيل، وكانت السيرة العملية مردودة إلى سلوكهم الجماعي.

وإيجاب السعي إلى ذكر الله يوم الجمعة وترك البيع والشراء لا يعني خصوصية الجمعة بالحكم، وإنما يعني خصوصيتها بالتأكيد، لأن هذا الأمر جاء موافقًا للأصل العام الذي شرحته، وأظهر مافيه أن كلمة «حيَّ على الصلاة» و«حيَّ على الفلاح» نداء نصي شرعي.

وصلاة الجمعة ليست آكد من الصلاة جماعة في الوجوب وإنما هي أكثر فضلاً.

والبرهان على ذلك أن صلاة الجمعة تسقط كلها بصلاة غيرها وهي صلاة العيد إذا وافقت جمعة.. تسقط وجوبًا لا استحبابًا.

ولم تسقط أي فريضة من فرائض الجماعة بصلاة أخرى، فلم تسقط مثلاً صلاة الفجر بصلاة العيد أو الاستسقاء، ولم تسقط صلاة العشاء بصلاة الخسوف، والله المستعان.

حوار مع

د. عائض الردادي



القلق من البث المباشر يشمل الدول المتقدمة أيضًا

أجراه: عبدالملك عبدالرحيم

الدكتور عائض بن نبيه بن سالم الردادي فارس من فرسان الكلمة: مطبوعة في كتاب، أو مسافرة عبر الأثير المنساب، أو منشورة في صحيفة أو مجلة، أو ملقاة في مؤتمر أو ندوة.

شغل كثيرا من مواقع العمل والمسؤولية، حتى أصبح المدير العام للإذاعة في المملكة العربية السعودية، والرئيس للّجنة الدائمة للبرامج في اتحاد إذاعات الدول العربية. واستنادا إلى هذه المسؤوليات كان هذا الحوار معه؛ الذي تطرق إلى كثير من القضايا والهموم الإعلامية المعاصرة، محليا وعربيا ودوليا، مع التركيز على العمل الإعلامي الإذاعي.

هل فقدت الإذاعة شيئًا من أهميتها، في ظل تعدد وسائل الاتصال الحديثة، وفي عصر القنوات الفضائية التلفازية؟

يظن بعض الناس أن وجود جهاز إعلامي إنما يكون على حساب جهاز آخر، وهذا غير صحيح؛ فالوسيلة الإعلامية عند ظهورها تكون لها جاذبية، شأن كل جديد، لكنها لاتلبث أن تصبح مألوفة عند الناس، وتعود الأمور إلى سابق عهدها، فعندما جاءت الصحافة المقروءة، قيل إنها سلبت الكتاب مكانته، ولكن ثبت خلاف ذلك، وبقي الكتاب هو الأبقى طويلاً، وتلته في ذلك الصحافة القريبة منه وهي المجلات. أما الصحافة فهي أسرع رواجًا، ولكنها أيضًا الأسرع زوالاً. وعندما ظهر التلفاز قيل ذهبت الإذاعة، ولكن ثبت خلاف ذلك، إذ بقيت الإذاعة أسهل الأجهزة الإعلامية وصولاً للمتلقي، سواء من حيث صغر الأجهزة أو من حيث متابعة المستمع للإذاعة في كل مكان، وقد وظف الإذاعيون هذه الميزة للإذاعة توظيفًا جيدًا في برامج البث المباشر، مستغلين ارتباط المستمع بالإذاعة بأيسر السبل، فهو يحمل المذياع إلى أي مكان حتى في منزله، ويمكنه أن يرفع الهاتف وهو في منزله أيضًا ليشارك في برامج البث المباشر الإذاعية.

وهناك جانب آخر مازال للمذياع فيه الدور الأكبر، وهو التغطية المكثفة للأخبار، ولا أعني بذلك سرعة بث الخبر، فالتلفاز أصبح قادرًا على بث الخبر في حينه ولو من دون صورة، ولكن أعني أن الإذاعة مازالت تتميز بالتوسع في تفصيل الخبر وتحليله والتعليق عليه من مسرح الحدث ومن الخبراء بشؤونه؛ لأنها أدركت أن الصورة ليست عامل الجذب الوحيد في الخبر، وأن المتلقي يتطلع إلى معرفة تفصيلات الخبر وخلفياته، وكل ذلك لايعتمد على الصورة بل على عمق مايقدَّم من تعليقات وتحليلات.

وحتى عند امتلاء الفضاء بالبث التلفزيوني المباشر، وفي قمة تدفقه ـ ولكل جديد لذة ـ لم

يُعرض المستمع عن الإذاعة، بل تجده إذا ماسمع بحدث مهم أخذ المذياع وأصبح يتنقل من إذاعة إلى أخرى طلبًا للتوسع في خلفيات الخبر وتفصيلاته.

وأنا أقول دائمًا لكُل من يرى أن الوسيلة الإعلامية تتفوق على حساب الوسائل الأخرى ماقاله أحمد شوقي «كل مليحة بمذاق»؛ فلكل وسيلة مجالها، والوسائل الإعلامية متكاملة وإن تنافست، والإذاعة - مثلاً - مازالت تحتفل بالكلمة الجميلة الجذابة كالبرامج الشعرية والثقافية.

اتفق خبراء الإعلام على أن للإذاعة ثلاثة أهداف رئيسة هي: الإعلام، والتثقيف والترفيه، فما حظ إذاعة الرياض من هذه الأهداف، وهل يتفوق أحدها على الآخر؟

هي أهداف متداخلة متكاملة؛ فما يكون إعلاميًا عند متلق يكون تثقيفيًا عند آخر لجدّته عليه، ومايكون ثقافة عند مستمع يكون ترفيهًا عند غيره، فقد يستمع مستمعان لبرنامج ثقافي، فيجد فيه أحدهما ثقافة لأنه أضاف إليه جديدًا، ويجد فيه الآخر - وهو المثقف - ترفيهًا، وقد سمعت من أكثر من مثقف إنه يجد الترفيه في سماع البرامج الثقافية وبرامج اللقاءات مع العلماء والأدباء والمثقفين، في حين أن الإذاعيين يعدونها من برامج التثقيف لا الترفيه.

وإذاعة الرياض، مثلها مثل غيرها من الإذاعات، فيها الأهداف الثلاثة، ولكننا لاحظنا إقبالاً جماهيريًا على البرامج الثقافية بمفهومها العام؛ كالتثقيف الديني أو الصحي أو الأدبي أو العلمي أو الوطني أو برامج التوعية أو غير ذلك، وإن كان الشائع لدى بعض الإعلاميين أن الإقبال على البرامج الثقافية ليس كبيرًا بسبب جديتها، والرسائل التي تصل للإذاعة تدل على عكس ذلك، فهناك إقبال على برامج الثقافة وبخاصة في ضوء اتجاه كثير من المحطات الفضائية إلى برامج المنوعات، والزهد في البرامج الثقافية والعلمية، والجهاز الواعي هو الذي يضع خطة برامجية لاتهضم حق جانب على حساب جانب الآخر.

يعد التدريب وسيلة طيبة للارتقاء بمستويات العاملين في الحقل الإذاعي ومهاراتهم، فما مدى حرص إذاعة الرياض على الإفادة من البرامج التدريبية المختلفة؟ وما أهم نوعياتها؟

لدى إذاعة الرياض خطة تدريب سنوية تُعتَمد مع بدء كل سنة مالية، وتشمل جميع الوظائف الإذاعية: من إعداد وتقديم وإخراج وتحرير وتسجيلات وإدارة، ويتم التدريب في مراكز تدريب معتمدة في داخل المملكة وخارجها، وتتم دراسة دقيقة لمركز التدريب قبل الترشيح لدوراته، للتأكد من دقة التدريب فيه، وقد شهدت السنوات الأخيرة كثافة في التدريب وحصل أكثر العاملين في الإذاعة على عدد من الدورات كل في مجال اختصاصه.

تتمتع المملكة العربية السعودية بمكانة خاصة في العالم العربي والإسلامي بوصفها أرض الحرمين الشريفين، ومهبط الرسالة، ومنبثق النور للعالمين، فما مدى انعكاس هذه الحقيقة على الإعلام الإذاعي السعودي؟

المملكة مهوى أفئدة المسلمين، ومنبع العرب، وقد قامت أسسها على الإسلام، وعَلَمها يحمل كلمة التوحيد، وإعلامها يسير على نهجها، وسياستها الإعلامية أكدت حرصها على إسلامها وعلى عروبتها وعلى لغة القرآن في أكثر من مادة، لذا لاغرابة إن رأينا أن الإعلام السعودي ليس إعلامًا محليًا، فهو يهتم بخدمة قضايا العرب والمسلمين بدرجة خدمته للشؤون المحليّة، ولاأظن أنه يوجد في بلد آخر إذاعة كإذاعة نداء الإسلام التي تعنى ببرامج الدعوة الإسلامية، أو كإذاعة القرآن الكريم التي تبث عشرين ساعة يوميًا إلى كل أنحاء العالم، حاملة القرآن الكريم أو بعض علومه، يضاف إلى ذلك أنه يوجد في إذاعة المملكة عشر إذاعات باللغات الإسلامية، موجهة إلى البلدان الناطقة بها، فضلا عن اللغتين: الإنجليزية والفرنسية، وكل ذلك عدا البث العربي العام الذي يهتم بأمور العرب والمسلمين تنفيذًا للسياسة الإعلامية.

هل ثمة تجارب خاصة تفوقت فيها إذاعة المملكة العربية السعودية على غيرها من الإذاعات العربية؟

الذي أعرفه أنّ إذاعة المملكة تعد رائدة في مجال البث الإذاعي المباشر، فقد بدأت هذا اللون من البرامج عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) تحت مسمى البث المباشر،الذي يتلقى اتصالات الجمهور الهاتفية ومشاركاتهم، ويبثها، ومن ذلك برنامج «على الهاتف» الذي كان في ذلك العام أيضا حين كان يحضر أحد الوزراء أو وكلاء الوزارات أو المديرين العامين فيهاتفه الجمهور مباشرة، وقد ظهرت بعد ذلك عدة برامج آخرها برنامج «أهلا بالمستمعين» بدءًا من ١٤١٠/١/١هـ (١٩٨٩/٨/٢م) ومازال مستمرًا. ويعتمد البرنامج على طرح موضوع للنقاش، يشارك فيه المستمعون، وتُجري الإذاعة من جانبها اتصالات بالمختصين في الموضوع المطروح، بهدف الإثراء وتوعية المستمع، وقد شُكّل لذلك فريق عمل، واختطت الإذاعة منهجًا يرتقي بمشاركة المستمع، ويقدّم له المعلومة الصحيحة من جانب آخر، وقد نهجت بعض الإذاعات هذا النهج فيما بعد، نجح بعضها، وتعثرت تجربة بعضها الآخر، لأنهم فهموا أن البث المباشر هو نوع من الانفلات، على أن بعض الإذاعات مازالت لا تعرف هذا النوع من البرامج، وبعضها الآخر توسع فيه كثيرًا.

تعاني برامج الأطفال من قصور واضح في معظم الإذاعات العربية، فما أسباب ذلك، وكيف يمكن معالجة هذا القصور؟

كنت قد قدّمت بحثًا في هذا الموضوع لندوة «وسائل الإعلام والطفل» التي عقدتها جامعة الملك سعود بالرياض عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، وكان من ضمن ما اشتملت عليه، بعض المرئيات والمقترحات لمعالجة القصور في إنتاج برامج الأطفال في الإذاعة والتلفاز، ومن أهم ما احتوى عليه البحث أن التلفاز أنجح من الإذاعة المسموعة في برامج الأطفال؛ لأنه يقدم للطفل صورة لما

يتحدث عنه، أما الإذاعة فتعتمد على التخيل، غير أن ذلك لايعني أن الإذاعة المسموعة غير مطالبة بخدمة هذه الفئة التي تمثل ٤٥٪ من سكان العالم العربي، وأهم المقترحات في هذا المجال بإيجاز:

١- العمل على إيجاد الكاتب المتخصص الذي يستطيع الوصول إلى عقلية الطفل بتيسير المعلومة وانتقائها وحسن صياغتها، والحرص على المعلومة التي تغرس فيه الانتماء لدينه ووطنه وثقافته.

٢- ضرورة توثيق العلاقة بين الإعلاميين والتربويين، بحيث يقدم كل منهم خبرته في مجاله، وبتكامل الدورين يتحقق الهدف الإعلامي والتربوي.

٣- التكامل بين الوسائل الإعلامية كافة؛ بحيث تكون البرامج الإذاعية مكملة للبرامج التلفازية من حيث أداء الرسالة الإعلامية، ومن حيث استفادة كل منهما من النصوص المعدة للآخر بعد تحويرها بما يناسب طبيعة كل جهاز، بل يمكن لهما أن يتكاملا مع مجلات الأطفال بإعداد ما تنشره إذاعيا وتلفازيًا.

٤- الاتجاه للإنتاج المحلي والبعد عن الإنتاج المستورد وبخاصة في التلفاز، لأن معظم برامج الأطفال المستوردة تحمل ثقافات أجنبية، وعقلية الطفل عقلية فطرية صافية، لاتميز بين الأصيل والدخيل.

٥- الابتعاد في برامج الأطفال عن التلقين وحفظ المعلومات والتركيز على وصول المعلومة للطفل وصولاً سليمًا تلقائيًا.

٦- أن يكون الإنتاج بلغة عربية فصيحة، تميل إلى السهولة والتخلص من اللهجات العامية التي تفسد اللسان، وإن قدمت معلومات.

ما أهمية أن يكون المذيع خاصة، والإذاعي عامة، موهوبًا في أكثر من مجال من مجالات الكلمة؟

إذاعي بلا موهبة ليس إذاعيا، وينبغي له أن يبحث عن مجال آخر، فكلٌ مُيسَّر لما خُلِق له، وفي الوقت نفسه الموهبة ليست كافية وحدها لصنع الإذاعي ما لم يدعم ذلك بأمور أخرى من أهمها التثقيف والتدريب؛ فالتثقيف يعني أن تكون ثقافة الإذاعي ثقافة موسوعية بمعنى أن يعرف شيئًا من كل شيء، فلا عذر له بجهل المعلومات اللغوية الضرورية أو الجغرافية أو التاريخية أو الأدبية أو السياسية أو التطورات الإخبارية أو غيرها، فصناعة الإعلام تحتاج إلى ثقافة عامة واسعة لاتقتصر على متابعة الصحف والمجلات، بل تمتد إلى قراءة الكتب، ومعرفة أهم مصادر المعرفة في كل مجال، وغالبًا ماتوفر الإذاعات مراكز معلومات تحتوي على أهم مايحتاج إليه الإذاعي من معلومات قديمة أو حديثة، أما التدريب فهو أيضًا لايعني أن يحصل على دورات في مجال تخصصه، بل يتسع لأكثر من ذلك، وهو أن يطور نفسه بنفسه فإذا ما أحسَّ بقصور في مجال اللغة وسّع اطلاعه على كتب اللغة والنحو، وإذا ما أحسَّ بقصور في مجال الإعداد راجع ماكتبه المختصون في ذلك، وهكذا. على أن مخالطة كبار الإذاعيين يعد من أهم الروافد لدعم خبرة الإذاعي، وكل ذلك لايمكن أن يكون ما لم توجد الموهبة أولاً، فهي التي تساعده على التوسع والتطور، والتذوق الإذاعي للكلمة الإذاعية الراقية التي تجذب الآذان إذا لامستها.

بوصفكم رئيسًا للّجنة الدائمة للبرامج في اتحاد إذاعات الدوَل العربية، هل لكم أن تحدثونا عن أبرز مظاهر التعاون البرامجي على الساحة الإذاعية العربية؟

اللجنة الدائمة للبرامج هي إحدى اللجان الدائمة في اتحاد الإذاعات العربية، وهي مختصة بشؤون البرامج، كما تختص اللجان الأخرى - وهي الهندسية والأخبار والرياضة والتدريب والبحوث - بدراسة تلك الشؤون.

وتعقد اللجنة الدائمة للبرامج اجتماعا سنويًا واحدًا يحضره مديرو البرامج في الإذاعات والتلفازات العربية، يُدرس خلاله التبادل البرامجي، وسير عمليات التبادل، ووضع الحلول للمعوقات إن وجدت، ووضع خطة للتبادل عبر القناة (٢٣) على عرب سات، وهي قناة خاصة باتحاد إذاعات الدول العربية للتبادل البرامجي والإخباري، ونقل المناسبات العربية، وتدرس اللجنة سبل الارتقاء بالبرامج المعروضة للتبادل، وإنتاج السهرات العربية، وإنتاج بعض البرامج النموذجية، وتبادل برامج المناسبات، ورصد جوائز للإنتاج المتميّز، وتحديد مواعيد المهرجان العربي للإذاعة والتلفاز، وإقامة ندوات إذاعية ولقاءات على هامشه، ووضع الأنظمة واللوائح للمهرجانات، ودراسة الدورات التدريبية البرامجية، ودراسة التعاون البرامجي مع الجهات الأخرى خارج الاتحاد، وإقرار برامج عمل الاتحاد في مجال البرامج قبل عرضها على المجلس التنفيذي والجمعية العامة للاتحاد.

ماذا عن التقنية الحديثة ودورها في الارتقاء بالبث الإذاعي، وما تصوركم لمستقبل الإذاعة في ظل التطورات المتسارعة في هذا المجال؟

التقنية تتطور بسرعة هائلة، والشركات تتسابق في إظهار الجديد، ومع أن التقنية أفادت كثيرًا إلا أن تطورها السريع أصبح فيه ضرر؛ ليس من الناحية المادية فحسب، بل من ناحية الإنتاج، فالتطور السريع للأجهزة أصبح يضيع كثيرا من الإنتاج السابق، وبالنسبة للإذاعة، سيشهد البث الإذاعي تطورًا كبيرًا في مجال البث وفي مجال التجهيزات؛ ففي مجال البث سيتحول بث الإذاعة عبر الذبذبات الرقمية، وستحمل البرامج الإذاعية عبر الأقمار الصناعية، مما سيجعل نظام الترددات المعروف الآن نظامًا قديمًا، وقد ينتهي في يوم من الأيام، كما انتهى الأسود والأبيض بالنسبة للتلفاز، وسيترتب على ذلك تغيّر الأجهزة سواء في الاستديوهات الإذاعية أم أجهزة الاستقبال (الراديو) حيث صنعت أجهزة خاصة بالتقاط البث الإذاعي على هذا النمط الجديد من

حوامع

د. عائض الردادي

الترددات، ولاشك أن دول العالم الثالث ستشهد تضررًا كبيرًا في مجال البث الإذاعي، إذ عليها أن تغير كل تجهيزاتها وفق النظام الجديد، وستتكلف في ذلك تكاليف مالية باهظة وإن لم تفعل فستخسر إعلاميًا، ولكن من غير شك فإن هذا التطور سيخدم الإذاعة خدمة كبيرة على المستوى الفني ومستوى وصول البث إلى أماكن بعيدة، ولكنه مكلف أيضًا في استئجار الأقمار إضافة إلى ماسبق أن ذكرناه من التجهيزات.

كثر الحديث عن أضرار البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعية، فهل هذا البث شر كله؟ وكيف يمكن مواجهة مضاره وأخطاره؟

هذا سؤال كبير، وجوابه طويل، ولكنني سأجيب عليه بإيجاز، فالقلق من البث المباشر ليس مقتصرًا على دول العالم الثالث التي تخشى منه على معتقداتها، وعلى هويتها الوطنية، وعلى موروثها الحضاري، بل هو يساور كذلك الدول المتقدّمة أيضًا، ولكن القلق عندها أقل بسبب تفوقها في كثافة البث الصادر عنها، فقد تحركت أوربا لكي تحمي هويتها من هذا البث، وعقدت ندوة لذلك عام ١٩٨٩م لإيجاد مشروع تلفازي أوربي مشترك واعتماد سبل كفيلة بمواجهة فعلية لهذا البث، وتوصلت الندوة إلى ضرورة استعجال أوربا بوضع نظام أوربي لحماية الهوية الثقافية الأوربية، وجهود أوربا تسير في مسارين: أحدهما يُعنى بحماية الهوية الأوربية بصفة عامة، والآخر بحماية الهوية الذاتية لكل دولة، وقد اقترحت لجنة المجموعات الأوربية المنبثقة عن البرلمان الأوربي مشروع توجيه على المجلس المكلف بوضع التشريعات والنصوص، ومن نقاط هذا التوجيه:

١ـ التزام مؤسسات الإنتاج بتخصيص حيز معقول قد يصل إلى ٦٠٪ من زمن البث للإنتاج الأوربي.

٢ـ أن تخصص المؤسسات جزءًا من اعتماداتها للنهوض بالإنتاج الأوربي على ألا يقل عن ٥٪.

وفي مجال القلق الذاتي يشار إلى فرنسا في هذا المجال، فهي تبذل جهودًا كبيرة للحفاظ على كيانها الثقافي؛ وقد طلب رئيس الوزراء الفرنسي عام ١٩٨٥م من الأجهزة الإعلامية الفرنسية دراسة حول النتائج المحتملة التي سيتركها البث المباشر على الثقافة الفرنسية، واقتراح الشروط الفنية والثقافية والمادية والقانونية، التي يمكن اعتمادها للمواجهة، وكان أهم ما احتوى عليه التقرير الذي قُدّم له بإيجاز:

١ـ تجاوز القوانين الجامدة المتعلقة بالصناعة الثقافية واعتماد قوانين مرنة.

٢ـ إعادة النظر في الأوضاع الحالية لأجهزة البث العامة والخاصة، وإيجاد أوضاع جديدة تستطيع منافسة البث الأجنبي.

٣ـ زيادة المؤسسات السمعية والبصرية العامة والخاصة، واقتراح خطة تتكامل فيها أدوارها.

٤ـ تدعيم شبكة الكوابل الفرنسية وتوسيعها.

وقد اشترطت فرنسا على الراغبين في استخدام إحدى قنوات قمرها الصناعي (TDFI) شروطًا منها التزام بث أعمال فرنسية أو أوربية في ساعات الذروة مرتين في الأسبوع على الأقل، وقد عمدت فرنسا إلى إعطاء البرامج التلفازية بلا مقابل للدول التابعة لها وراء البحار، بعد أن تبثها لها عبر الأقمار، لتتولى تلك الدول إعادتها على شبكاتها.

وإذا كان رعب الخوف على الهوية الثقافية والوطنية من جراء البث المباشر قد أرعب الدول المتقدمة فهو أكثر إرعابًا لدول العالم الثالث، التي لاتستطيع أن تعمل ماعملته فرنسا، وتشعر أنه مهدد لها في كل نواحي الحياة وأنه غزو للعقول يفوق غزو الأرض بالجيوش، وبخاصة أن شعوب العالم الثالث عدّت هذا البث فتحًا جديدًا يطلعها على كثير مما تجهله دون أن تقدر أنه يحمل لها السموم، ثم إن أجهزة إعلامها تشكو ضعفًا من قبل، وهي الآن في مهب الرياح.

والبث المباشر فيه حسنات، ولكنها قليلة بالنسبة للسلبيات الكثيرة التي تهدد الهوية الثقافية والوطنية للدول، ويمكن مواجهة أخطاره بعدة أمور منها:

١ـ أن تركز وسائل الإعلام المحلية على غرس الأصالة في النفوس، وزرع الوطنية في النشء ووصله بجذوره وصلاً واعيًا لايقف به عند القديم ولايزهده في الجديد، وأن تعمل على التحصين الذاتي الواعي عن طريق الأسرة والمدرسة والمجتمع ووسائل الإعلام. فلكل عالم خصائصه وثقافته وكيانه وحضارته. وسيطرة جزء من العالم على وسائل الإعلام، لايعني أنه هو الأفضل في الثقافة والسلوك، وإقناع الشباب بخاصة، أن وسائل الأعلام الأجنبية تخدم ثقافتها، وتبالغ أحيانًا فتقدم الرذيلة وتحسّنها، لهدم الأخلاق والمثل العليا، وتصوّر الأخلاق الفاضلة لدى الشعوب الأخرى بأنها مظهر من مظاهر التخلف.

٢ـ التحديث الإعلامي في الأجهزة والإدارة والقوانين المالية في وسائل الإعلام، وتجاوز القوانين الجامدة التي وضعت في زمن سابق كما فعلت فرنسا.

٣ـ المبادرة بتوجيه البث الإذاعي والتلفازي بجميع اللغات إلى جميع أنحاء العالم، وبخاصة المتطور، لمواجهة السلاح بسلاح مثله، فدول العالم الثالث لديها من القيم الدينية والإنسانية مايفوق مالدي العالم المتقدم علميًا، وأن يتم تجاوز مرحلة الكلام عن خطر البث إلى إيجاد الوسائل المواجهة لأخطاره.

٤ـ التعاون الإقليمي في مواجهة البث المباشر من الدول التي تملك ثقافة واحدة كما فعلت أوربا؛ فمواجهة البث ببث مثله مكلف ماديًا، وإذا ماكان هناك تعاون إقليمي فإنه ستقل التكاليف المادية فضلاً عن توحّد الجهود الإنتاجية.

سياسة التخصيص عربيا ودوليا

حسين قطبي

لم تحظ أية سياسة اقتصادية خلال فترة مابعد الحرب العالمية الثانية بمثل ماحظيت به سياسة «تحويل القطاع العام إلى قطاع خاص» أو ما اصطلح على تسميته - مؤخرًا - في الدوائر الصحفية العربية «بالتخصصية» أو «الخصخصة». والصحيح أنه إذا استطاب المتخصصون العرب استخدام مصطلح من كلمة واحدة - تمشيا مع كل اللغات الأوربية التي تستخدم اصطلاحات من كلمة واحدة - كمرادف للفظة PRIVATIZATION، فإنني أتصور أن الصحيح استخدام مصطلح «التخصيص» المشتق على وزن سياسة «التأميم»؛ التي خبرتها معظم الدول الساعية اليوم لتحويل كل وحدات قطاعها العام أو بعضها إلى قطاع خاص، سواء أكان ذلك على مستوى الملكية ذاتها أو الإدارة. ولا أدري سببا لإصرار كل كتاب العربية حاليا على تأنيث المصطلح ليصبح «خصخصة» أو «تخصصية».

وعلى كل فقد أثارت هذه السياسة جدلاً شديدًا - إقليميًا وعالميًا - شارك فيه عدد من المتخصصين المنتمين إلى مجالات علمية وعملية متباينة، حتى بات من الطبيعي أن يتسع النقاش ليضم أفكارًا غير متجانسة يصعب على القارئ - ناهيك عن متخذ القرار - إسنادها إلى أسس نظرية أو اعتبارات تطبيقية قياسية دولية، حتى يتم تبنّي تطبيق هذه السياسة أو رفضها، أو حتى يتم تلافي سلبياتها إذا ما تم الاتفاق على تطبيقها، وخاصة أن هذه السياسة قد شهدت بالفعل تطبيقات متباينة الدوافع والنتائج في عدد من الدول الإسلامية والعربية مثل: أندونيسيا وماليزيا وتركيا والأردن ومصر وتونس والجزائر والمغرب، ومن المتصور أن يلحق بهذه المجموعة من الدول كل من السودان وسورية وموريتانيا.

ومما يؤسف له أنه يصعب على المتابع للجدل الدائر حول هذه السياسة في أوساط المال والأعمال وما يكتب عنها في صفحات الجرائد والمجلات أن يلحظ أي دور مميز للمتخصصين العرب في الاقتصاد أو التمويل في النقاش الدائر، وهو ماقد يكون ناتجا من تقاعس أو تقصير يصعب اغتفاره، أو من عدم إدراك يؤسف له، رغم أهمية القضية المطروحة للبحث والنقاش وتأثيرها المتوقع في الاقتصاد والمجتمع.

نقاط جوهرية

ومساهمة مني في هذا النقاش، أود الإشارة إلى عدد من الاعتبارات المهمة التي ينبغي مراعاتها عند طرح هذه السياسة الاقتصادية المهمة على بساط البحث والحوار. وهي نقاط أراها جوهرية للغاية قد يؤدى إغفالها إلى انحراف النقاش إلى مناح غير عملية وغير مجدية في آن واحد، مما من شأنه تعقيد الأمور محور البحث المتعلقة بالتخصيص وجعلها قضية اقتصادية معقدة، ومصدرًا للمشكلات، أكثر منها مصدرا للحلول. وباختصار فإن هذه النقاط تتمثل فيما يلي:

أولاً: إن التخصيص في إطار النقاش الدائر في مصر - على سبيل المثال - يعني بيع وحدات القطاع العام إلى الأفراد، رغم أن سياسة التخصيص ذاتها لاتقتصر على «بيع» تلك الوحدات، بل تعني في الأساس «تحويل» العام إلى خاص، وهو مالا يعني بالضرورة البيع. وعليه فإن أسلوب البيع هو أحد وسائل التخصيص، لكنه ليس الوسيلة الوحيدة لإتمام ذلك. بل إن هناك أكثر من خمس عشرة وسيلة للتخصيص ليس أهمها بالضرورة البيع. فهناك البيع الجزئي للوحدة الإنتاجية والتعاقد مع القطاع الخاص على الإدارة أو الإنتاج أو كليهما، وهناك الاندماج فيما بين وحدات القطاع العام بعضها مع بعض، أو مع وحدات أخرى خاصة، والتصفية التامة وذلك بتسييل أصول الشركات العامة تماما وعدم نقل ملكيتها للقطاع الخاص لعدم جدوى استمرار بقائها للاقتصاد الكلي MACRO - ECONOMY أو الجزئي MICRO - ECONOMY على السواء، وهناك التقسيم إلى مشروعات مستقلة لتقوية مراكزها الإنتاجية وقدراتها التنافسية وسهولة إدارتها. ويمكن أن نضيف مايلي إلى الأساليب العملية المهمة للتخصيص:

١- البيع للعاملين أو لإدارة المنشأة ذاتها نقدًا أو بالتقسيط أو من خلال صندوق مدخرات العاملين.

٢- نقل ملكية أصول المنشأة للعاملين مجانًا على سبيل الهبة.

٣- التعاقد مع القطاع الخاص على إنتاج الخدمة التي كانت تقوم بها المنشأة العامة أو تقديم تلك الخدمة أو كل من الإنتاج والتقديم.

٤- تصفية جزء فقط من المنشأة العامة كلها كأن يكون هذا الجزء تخصيص خدمات الصيانة التي تتطلبها المنشأة العامة أو تخصيص التوسعات

المستقبلية فقط المطلوبة للمنشأة.

٥- بيع المنشآت العامة للمنتفعين بها، ومثال ذلك بيع الوحدات السكنية الحكومية والمصايف العامة لشاغليها ومرتاديها نقدا أو تقسيطا، وهذه الوسيلة ذات جدوى كبيرة خاصة في تخصيص قطاع الإسكان.

٦- تحميل المنتفعين من الخدمات العامة بالتكلفة الفعلية لأداء تلك الخدمة دون تخصيص الأصول ذاتها، وهي وسيلة نافعة في قطاعات الخدمة الحكومية والبريدية العامة وما شابههما.

٧- التخصيص من خلال تشغيل الأصول العامة بالاعتماد على وحدات القطاع الخاص وتسريح العاملين في المنشآت العامة كلهم أو بعضهم، ومن ثم تخفيض تكلفتهم الثابتة المترتبة على أجورهم والإهلاكات المختلفة وتحمل تكلفة مقطوعة FLAT CHARGE نظير تشغيل المنشأة واستمرار نشاطها.

٨- تشجيع إنشاء وحدات خاصة منافسة للعامة القائمة فعلاً، ونقل بعض العاملين في المنشآت العامة أو كلهم إليها - وفق حاجتها - ثم إيقاف عمل المنشآت العامة تماماً أو قصرها على قطاع معين من الإنتاج أو الخدمات.

٩- تشجيع المنافسة بين القطاعين الخاص والعام وحل الاحتكارات العامة والخاصة.

١٠- اقتراح بديل الاستعاضة عن تقديم الخدمة العامة ذاتها بدفع حوالات مؤرخة - آجلة وعاجلة -، وللمستفيد من الخدمة الخيار بين الحصول على الخدمة ذاتها أو الاستعاضة عنها بمقابل مالي، وهي إحدى وسائل تخصيص الخدمات التعليمية العامة في بعض الدول مثل بريطانيا، حيث يكون للمستفيد (الطالب) حق الحصول على تلك الخدمة في شكل حوالات مؤرخة لعدة فصول أو سنوات دراسية، ويحق له دفعها (تظهيرها) لأية مدرسة أو جامعة يرغب المستفيد في الالتحاق بها، مما يحفز تلك المؤسسات التعليمية إلى تقديم برامج دراسية أكثر جاذبية وعمقا لجذب المزيد من الدارسين، ومساعدتهم في الحصول على مهنة عقب تخرجهم، والحفاظ على سمعتها الأكاديمية للحصول على تمويل أكبر. وهذا بدوره يضمن للحكومة إنفاق الموازنة المخصصة للتعليم بشكل رشيد على منشآت تعليمية جادة تقدم خدمات تعليمية تنافسية. كذلك يبقى للمستفيد من تلك الخدمة (الطالب) أحقية صرف تلك الحوالات في تاريخ محدد دون الاستفادة من الخدمة التعليمية إذا فضل ذلك واختار التوجه للتوظف في عمل ما.

١٢- وتبقى أيضا وسيلة التخصيص المتعلقة بالتصفية أو التسييل الكامل للمنشآت أو الأصول العامة بغية إخراج القطاع العام من مجال الخدمة أو الإنتاج، وتشجيع القطاع الخاص على النهوض بهما أو صرف النظر عن ذلك النشاط كلية.

اقتصاديات الرفاهة

ثانيا: إن النقاش حول التخصيص في مصر - مثلاً - قد تركز في الآونة الأخيرة على عملية تقويم أصول المنشآت العامة، ثم تمخض الحوار مؤخراً عن الاتفاق على تقويم تلك الأصول بالقيمة الحالية لها، وليس بالقيمة الدفترية. ولاشك أن هذه النتيجة غير مجدية أبدا؛ فليس الأمر ببساطة هو إفلاس محل تجاري، ولذا وجب بيعه؛ بل القضية تتعلق بعاملين وتحويل مؤسسات كاملة ذات شبكات من المنتجين والمستهلكين من القطاع العام إلى القطاع الخاص بما يشمله ذلك من علامات تجارية ومدى إمكان التطوير أو التخلص من تقنية الإنتاج والتسويق القائمة، ومن ثم فإن النقاش يجب ألا ينصرف إلى رأي «محاسبي» بالأساس (وهو مايتعلق بتقويم الأصول ماليا سواء بقيمة دفترية/تاريخية أو بديلة/ قيمة السوق الحالية)؛ بل ينبغي أن تناقش عملية تقويم المنشآت بغرض التخصيص على أساس اقتصاديات الرفاهة WELFARE - EC-ONOMICS حتى يمكن اتخاذ قرار التخصيص على أساس «اقتصادي» وليس على أساس «محاسبي». والمنهج الاقتصادي المتمثل في اقتصاديات الرفاهة يتسم بصفة عملية ومعادلات رياضية يمكن من خلالها معرفة مدى أرباح قرار التخصيص - حال اتخاذه - ومدى زيادة رفاهية المجتمع إذا ماتم ذلك، علاوة على قدرة ذلك المنهج الاقتصادي على الإجابة عن عدد من التساؤلات التي عادة ماتعترض التقدم في عملية التخصيص بأسلوب البيع الكلي أو الجزئي للمنشأة العامة، مثل:

- ما السعر الأدنى الذي يجب أن تطالب به الحكومة مقابل نقل ملكية إحدى المنشآت العامة - سواء كانت منتجة أو متوقفة عن النشاط أو تحت الإنشاء - إلى الملكية الخاصة؟ وبالمقابل ما أقصى سعر يمكن أن يدفعه المستثمر المرتقب؟

- لمن يمكن تخصيص المنشأة المعنية سواء أكان المشتري المرتقب مستثمراً محلياً أو أجنبياً؟

ثالثا: بعد مناقشة مختلف أساليب التخصيص أو أدواته، هناك نقطة أخرى مهمة، ألا وهي مدى الاستفادة من التجارب الدولية الخاصة بتطبيق سياسة التخصيص. فقد شاع طرح تجارب كل من بريطانيا وألمانيا وفرنسا للنقاش في صفحات الصحف والدوريات العربية والندوات وحلقات النقاش المختلفة بغية الاعتبار بها في تجارب التخصيص العربية. وقبل البت في إمكان ذلك وجدواه، ينبغي معرفة دوافع كل دولة للإقدام على التخصيص، والخلفية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمثل المعطيات الرئيسة التي انطلق منها برنامج التخصيص في تلك الدول.

اختلاف في المفهوم

فبالنسبة لتجربة التخصيص في الولايات المتحدة، فإن السياسة لاتعني تحويل القطاع العام إلى خاص بالمفهوم السائد في الدول النامية - بما في ذلك بيع وحدات القطاع العام إلى القطاع الخاص -؛ بل تشير سياسة التخصيص إلى إزالة القيود التشريعية على حركة الأسواق؛ أي تحرير الإنتاج والتسويق من القيود القانونية وإلغاء الحواجز غير التجارية على أسواق الإنتاج والتسويق، وهو مااصطلح على تسميته بتعبير LIBER-ALIZATION في بريطانيا وتعبير DER-EGULATION في الولايات المتحدة.

وفي الولايات المتحدة - بوجه خاص - ترمي هذه السياسة إلى تخصيص إنتاج «الخدمات» وتوزيعها، وليس السلع نظراً لأن معظم - إن لم يكن كل - عمليات الإنتاج السلعي يسيطر عليها من الأساس القطاع الخاص. وعلى هذا فإن السياسة تستهدف وحدات الخدمات البريدية وإدارة السجون وخدمات النقل العامة وإدارة الطرق والمستشفيات ... إلخ.

هذا من ناحية مفهوم السياسة ونطاقها، أما من ناحية الدوافع، فإن سياسة التخصيص في بريطانيا واكبت عدة تصورات فكرية وسياسية عجلت بتنفيذ السياسة والالتجاء إليها أيضا.

حرية الاختيار

فمن التطورات المذهبية في مجال الاقتصاد حظيت الأفكار التي نادى بها الاقتصادي ميلتون فريدمان M. FREIDMAN الحاصل على جائزة

نوبل في الاقتصاد، وخاصة آراؤه التي ضمنها كتابه المعروف باسم حرية الاختيار FREE TO CHOOSE الذي عُرض في العديد من دول العالم - من بينها بريطانيا - كبرنامج تلفازي يومي، روَّج فيه فريدمان لأفكاره الخاصة بالمنافسة الحرة والحرية الفردية، وأهمية كبح قدرة الحكومات على إحداث عجز في الموازنة العامة أو الالتجاء للاقتراض من الجهاز المصرفي. والمعروف أن فريدمان هو صاحب النظرية النقدية التي ترى أن التضخم هو نتاج للسياسة النقدية التي تتبعها الحكومات المختلفة، ويشمل ذلك سياسة سعر الفائدة وإصدار النقود.

وكان من آثار ذلك البرنامج المتلفَز الذي شاهدته رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت ثاتشر أن تأثرت ثاتشر بتلك الأفكار التي نادى بها فريدمان، وتواكب ذلك مع رواج الأبحاث الاقتصادية الأمريكية التي عنيت بدراسة اقتصاديات إلزام بعض القطاعات الصناعية والخدمية بمجموعة من التشريعات الخاصة التي رمت إلى التغلب على ماعرف في الاقتصاد بالوفورات السالبة NEGATIVE EX-TERNALITIES والاحتكار المطلق MON-OPOLY. فقد كان من المتصور أن بعض القطاعات تفرز - إلى جانب نشاطها الإنتاجي المعتاد - آثاراً سلبية كالتلوث والضوضاء وغيرهما؛ مما يقلل الرفاهة الاجتماعية لبيئة المستهلكين والمنتجين المحيطة بذلك القطاع الصناعي، الأمر الذي يستوجب معه التشريع وفرض القيود الإدارية للسيطرة على تلك الآثار السلبية الناتجة.

وهذه الموجة الجديدة من البحث الاقتصادي وجدت صداها في الجامعات الاقتصادية ومراكز الأبحاث في بريطانيا.

وقد واكب كل ذلك بروز مدرسة الخيار العام SCHOOL OF PUBLIC CHOICE- ومن روادها الاقتصادي الأمريكي جيمس بوكانان J.BUCHANAN الحاصل أيضا على جائزة نوبل في الاقتصاد -، وتالوك TULLOCK التي ترى أن المسؤولين الحكوميين والقادة البرلمانيين والحزبيين لايعملون وفق الصالح العام - كما هو شائع -؛ بل وفق مصالحهم وأغراضهم الذاتية، وأن المؤسسات السياسية بالنسبة لهم هي سوق تجاري بالمفهوم الاقتصادي، حيث يقوم السياسيون بمبادلة المصالح (ممثلة في التصويت البرلماني مثلاً)، مقابل مصالحهم الخاصة الشخصية أو المحلية في دوائرهم دون أدنى اعتبار يذكر للمصلحة العامة؛ التي يشيع عادة التركيز على تحقيقها والتضحية من أجلها بكل ماهو ذاتي أو شخصي.

ومن أهم ماتنادي به مدرسة الخيار العام أن حكم المكاتب (البيروقراطية) يرمي دائما إلى الضغط من أجل زيادة حجم الموازنات العامة لزيادة قدرتها المالية على تبادل المنافع والمصالح بعضها مع بعض أو مع القطاع الخاص، ومن ثم فإن هناك اتجاها عاما لتضخيم النفقات العامة - والإيرادات العامة ممثلة في الضرائب إن أمكن هذا - لصالح البيروقراطية ذاتها، وليس للصالح العام أو الرفاهية الاجتماعية، مما يسفر في النهاية عن تزايد العجز المالي للحكومات المركزية.

الثاتشرية والعوامل السياسية

كل هذه التطورات المذهبية في علم الاقتصاد شكلت البنية الأساسية لفكر السيدة ثاتشر في أواخر السبعينيات. وقد دفع الالتزام الحزبي الشديد لرئيسة وزراء بريطانيا (الممثلة لحكومة حزب المحافظين) بقهر حزب العمال ذي الأفكار الاجتماعية إلى القيام ببرنامج ضخم لتخصيص الصناعات والخدمات البريطانية، فجاءت السياسة التي عرفت فيما بعد بالثاتشرية THATCH-ERISM مؤيدة للتخصيص حتى يمكن لها إضعاف النقابات العمالية - أهم أدوات حزب العمال في تنفيذ برامجه الحزبية - وإفراغ قدرتها على مقاومة سياسات الحكومة من حيث خفض المكافآت وعدم الموافقة على زيادات الأجور وتحسين أحوال العمل، وزيادة تمويل برامج الرعاية الاجتماعية لعمال المناجم والسكك الحديدية والمصانع، وذلك بصرف النظر عن تحسن مستوى إنتاجية تلك القطاعات، وهو الأمر الذي جعل الحكومات البريطانية المتعاقبة تصبح أداة يسهل الضغط عليها بالإضرابات العمالية المتتالية مع تداعي القدرة التنافسية للمنتجات البريطانية عالميا.

أضف إلى ذلك لجوء بريطانيا للاقتراض من صندوق النقد الدولي في عقد السبعينيات وإلزام بريطانيا - على يد الصندوق - بخفض عجز الموازنة العامة ورفع كفاءة صناعاتها.

كل هذه العوامل مجتمعة دفعت رئيسة الوزراء البريطانية لتبني سياسة التخصيص في قطاعي الصناعة والخدمات، أملاً في إنجاز انتصار حزبي طويل الأمد وبعيد الأثر يؤثر سلبا في أدوات حزب العمال البريطاني لتنفيذ سياساته إذا مانجح في أية انتخابات قادمة، بالإضافة إلى زيادة القدرة التنافسية للمنتجات البريطانية عالميًا وتخفيض عجز الموازنة العامة.

هل نجحت التجربة البريطانية؟

من هذا المنظور تتضح أهمية دراسة تجربة التخصيص البريطانية في ضوء المعطيات الاقتصادية لتلك التجربة، دون إغفال العوامل السياسية التي تقف وراء إسراع بريطانيا نحو تطبيق سياسة التخصيص على قطاعات صناعاتها وقطاعاتها الخدمية التي كان من أهمها شركة الاتصالات الهاتفية (بريتش تليكوم) وشركة البترول البريطانية (بريتش بيتروليَم). وقبل إبراز النجاحات التي حققتها التجربة البريطانية في هذا الصدد ينبغي وعي الأمور التالية:

١- لم يشهد عجز الموازنة العامة في بريطانيا أي انخفاض يذكر بعد تخصيص كل ماتم تخصيصه في بريطانيا عن حجم ذلك العجز قبل البدء في عملية التخصيص.

٢- لم تشهد الصناعات المخصصة تحسنا ملحوظا في الأداء أو زيادة في قدرتها التنافسية عالميا، بل يشهد الاقتصاد البريطاني ظاهرة تاريخية يُقرأ عنها في التاريخ وقلما عاصرها اقتصاديو اليوم، هي تخلف الصناعة تقنيا وتراجع الأداء الاقتصادي الكلي لدولة ما بحيث يندفع المجتمع من مستوى الدول النامية إلى درج الدول النامية، وهو مايذكرنا بما حدث لمصر الفرعونية ومصر محمد علي والدولة الرومانية والفارسية والصين، وهو عكس ماهو جارٍ حاليًا في شرق وجنوب شرق آسيا حيث النمو الاقتصادي والتراكم التقني والمعرفي المتواصل في اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وهونج كونج وتايوان، وبصورة أقل في كل من أندونيسيا وتايلاند وفييتنام.

٣- كثيراً مايذكر أن السوق البريطاني هو أكثر الأسواق التي تشهد حاليا منافسة في مجال الاتصالات، حيث تتنافس شركة بريتش تليكوم العملاقة بعد تخصيصها مع شركة ميركُري، مع انتظار السماح بإنشاء شركات أخرى تنافس

سياسة التخصيص عربيا ودوليا

الشركتين المذكورتين. والجدير بالتنويه أن شركة ميركري المذكورة هي منافس محدود لايستحوذ على أكثر من ٣ إلى ٥ بالمئة من سوق الاتصالات الهاتفية في بريطانيا، كما أن استفادة المستهلكين من خدمات تلك الشركات أو قيام ميركري بتشكيل أي تهديد لمركز بريتش تليكوم التنافسي هو أمر مشكوك فيه.

٤- يجب ألا ينظر إلى الخبرة البريطانية في التخصيص على أنها مرحلة ساكنة (إستاتيكية) بدأتها في نهاية السبعينيات رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت ثاتشر؛ بل إن المنظور الصحيح لتلك التجربة البريطانية هو دراسة تلك الخبرة في منظورها التاريخي حيث بدأت «دورة» التأميم (على يد حزب العمال خلال عقد الأربعينيات تحت دعوى الملكية العامة للصناعات الحيوية لصالح طبقات الشعب البريطاني كافة)، والتخصيص (على يد حزب المحافظين بدءًا من نهاية عقد السبعينيات تحت شعاري حماية ديمقراطية ملكية الأسهم SHARE-HOLDERS' DEMOCRACY وملكية الشعب PEOPLE'S OWNERSHIP) بشكل متلاحق زمنيا، الأمر الذي يشبه النموذج الفرنسي للتخصيص؛ حيث قاد الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران الاشتراكيين نحو تأميم العديد من المصارف والشركات الفرنسية الكبرى تحت دعوى «الملكية العامة للقطاعات التقنية والاستراتيجية»؛ مما أثر سلبا في سوق المال الفرنسي الذي أصبح واحدا من أكثر أسواق المال تخلفا في أوربا - في الوقت الذي كانت سياسة التخصيص تلقى إقبالاً داخل أوربا وخارجها - بينما عاد هو ذاته في ظل حكومة جاك شيراك (مارس/آذار ١٩٨٦م) - ليساند سياسة التخصيص التي شهدتها فرنسا في السنوات الأخيرة تحت شعار «رأسمالية الشعب»، مما يجب ألا يفوت أنظار الاقتصاديين دون بحث وتمحيص خاصة في الدول المقدمة على تطبيق سياسة التخصيص.

خلاصة تجارب الدول ونتائجها

إن الدوافع السياسية إلى جانب الأبعاد الاقتصادية كلٌ لايتجزأ في منظومة دوافع سياسة التخصيص وأهدافها المطبقة في دولة ما، ومن ثم فإنه لمن التبسيط السافر - وأحيانا - المغرض أن تدرس جدوى السياسة في ضوء الاعتبارات الاقتصادية وحدها، والمدخل السليم لدراسة تلك السياسة يعتمد في الأساس على منهج الاقتصاد السياسي الذي لايغفل دراسات الكلاسيكيين الجدد NEO - CLASSICS في مجالات التحليل الاقتصادي الجزئي التي تناولت دراسة سياسة التخصيص من هذا المدخل التحليلي، لكنه يضيف إليها استخداماً سياسيًا واقتصادياً موازنا لتجارب الدول التي طبقت تلك السياسة ومدى نجاح التطبيق في كل منها، فشتان بين ماحققته سياسة التخصيص في كل من روسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا (قبيل انقسامها) وبريطانيا ونيجيريا والفلبين (حيث غمر الجدل السياسي الساحة وبرزت العوامل السياسية الحزبية والرأسمالية كأهم الدوافع وراء التطبيق) مع نجاح التطبيق في كل من ألمانيا (بشقيها) وهولندا والمجر وشيلي وسنغافورة واليابان؛ فقد تميزت سياسة التخصيص في دول المجموعة الأولى بالدافعية السياسية الحزبية والسعي وراء تغيير نمط الدولة من شيوعية أو إشتراكية الحكم والاقتصاد إلى رأسمالية الملكية والتشغيل والاستثمار والإدارة من ناحية، أو مواجهة عجز الموازنة العامة أو المديونية الخارجية (كما هو الحال في بولندا وروسيا مثلا)، بينما تميز التخصيص باستهداف رفع كفاءة القطاعات المخصصة سواء أكانت تلك الكفاءة استاتيكية STATIC EFFICIENCY (وتشمل الكفاءة التقنية - وهي ما يعرف أيضا بأفضل بديل أو ممارسة BEST PRACTICE - والكفاءة الإدارية - وتعرف أيضا بكفاءة العنصر «س» X- EF-FICIENCY أو بكفاءة ليبنشتين LEI-BENSTEIN EFFICIENCY، الباحث الاقتصادي الذي تقف أبحاثه وراء ذيوع هذا المفهوم -، والكفاءة التوزيعية ALLOCATIVE EFFICIENCY) أو كانت تلك الكفاءة ديناميكية DYNAMIC EFFICIENCY في طبيعتها، وهو مايعرف أيضا بالكفاءة الشومبيترية نسبة إلى الاقتصادي الشهير جوزيف شومبيتر التي تتميز - على عكس الكفاءة الاستاتيكية - بأنها تحسينات متوسطة أو طويلة الأجل في المنتج والتكلفة والتقنية مما يسفر نهائيا عن النمو الاقتصادي على مستوى الاقتصادي الكلي MACRO - ECONOMY.

أما فرنسا في هذا المجال فإن التخصيص كان محدود الأثر في أداء صناعاتها؛ نظرًا لأن تلك القطاعات المؤممة ظلت تتمتع بالحرية التامة في وضع سياساتها المالية والإدارية وتنفيذها دون تدخل سياسي أو حكومي - شأنها في ذلك شأن الشركات العامة في كل من هولندا وألمانيا الغربية قبل إعادة توحيدها-، حتى أثناء فترة تأميمها، على عكس ماشهدته الصناعات البريطانية المؤممة التي عانت من استخدامها كأداة سياسية أكثر منها اقتصادية في يد الحزب الحاكم، وكانت سياسات التوظيف المالي والعمالي تخضع لاعتبارات سياسية أكثر منها اقتصادية.

إن هذا التحليل يؤكد أهمية عدم تقويم مدى نجاح سياسة التخصيص اقتصاديا في الوقت الذي قد تكون فيه هذه السياسة نفسها قد طبقت في بعض الدول محل التقويم لدوافع غير اقتصادية بل سياسية في الأساس. بمعنى آخر، إن مابدئ على أسس سياسية أو دوافع اقتصادية كلية تتمثل أساسا في مواجهة المديونية الخارجية والعجز المالي العام في دول التخصيص، يجب ألاَيُنتقد على أساس ضعف ماحققته سياسة التخصيص للمستهلكين أو لكفاءة المنشآت المخصصة نفسها أو حتى بالنسبة لما حققه التخصيص لزيادة القدرة التنافسية الدولية لتلك القطاعات المخصصة.

نقطة أخيرة: إن الاسترشاد في الدول العربية والإسلامية بتجارب بعض الدول ذات السبق في تطبيق سياسة التخصيص يجب ألايُغفل طبيعة دوافع كل تجربة دولية ومنهجها على حدة قبل محاولة انتخاب أي منها وتطبيقه. فالتجارب الأفريقية والأوربية الشرقية في معظمها مشحونة بالاعتبارات السياسية، وتجربتا أندونيسيا وماليزيا صممتا على طراز يضع عدم التوازن العرقي بين المسلمين الصينيين والأقليات الأخرى محل الاعتبار الأول، وهو ما يتضح جليًا في سرعة برنامج التخصيص الماليزي والأندونيسي وضوابطهما، وهو في النهاية مما قد لايفي بما ترمي إلى تحقيقه حكومة المغرب أو مصر أو السودان أو الأردن أو إيران أو الباكستان أو بنجلاديش أو حكومات جمهوريات وسط آسيا الإسلامية - السوفيتية السابقة - من تطبيق سياسة التخصيص.

أصداء ملحمة البوسنة في الشعر المعاصر (٢)



د. حسن فتح الباب حسن

في الحلقة الأولى كتب د. حسن فتح الباب عن الأحرار الذين يتوحدون دفاعا عن شعب البوسنة والهرسك؛ الذي يقبض على عقيدته مثلما يقبض على الجمر، وكيف أن هذه المأساة - التي تستعصي على كل إبداع - قد فجّرت ينابيع الإلهام في نفوس الشعراء العرب والمسلمين. ثم طوّف بنا - شرقا ومغربا - مع شعر الفروسية والفداء عبر العصور الإسلامية الزاهية؛ ليصل إلى ملاحم البطولة والجهاد في الشعر الحديث. ثم قدم لنا الشاعر المغربي د. حسن الأمراني بوصفه نموذجا شعريا رائعا من تلك النماذج التي فجر إبداعها تلك البطولات التي يصنعها شعب البوسنة والهرسك المسلم. وفي هذه الحلقة (الأخيرة) يتابع الكاتب الفاضل تقديم بعض تلك النماذج الإبداعية..

الشاعر المصري عبدالله شرف في قصيدته «أنشودة لسرايیڤو»

على وزن الهزج كتب الشاعر عبدالله السيد شرف قصيدته (أنشودة لسرايیڤو)، ولعل اسم هذه العاصمة ذا الجرس التوقيعي هو الذي أوحى إليه باختيار هذا الوزن لملاءمته لطابع الغنائي الحزين الذي يؤثره ونعرفه في شعره بصفة عامة، وهو يختلف عن الطابع الملحمي الدرامي الذي اتسمت به ملحمة الشاعر المغربي الدكتور حسن الأمراني. فنسيج القصيدة الملحمية مضفور من الشخصيات والأحداث المتصارعة، وهو يتكون من خيوط متشابكة ولكنها متباينة يفضي بعضها إلى بعض، كالموجات المتتابعة التي تبدأ صغيرة ثم تكبر وتتسع دوائرها حتى تبلغ أوجها وترتطم بصخور الشاطئ حيث تكون النهاية العاصفة. أما القصيدة الغنائية فهي تشبه الترنيمة، وقد تكون قريبة من بنية (السوناتا) في تركيبها وإيقاعها الموسيقي الهادئ الهامس الذي يمتاز بالبساطة وعدم التعقيد حتى يسهل حفظه وترديده.

ولهذا أطلق عبدالله شرف على قصيدته اسم (أنشودة)، فهو كثيرًا ما يستلهم رؤيته من قضايا وأحداث واقعية، ولكنه يقطّرها في بوتقة الرومانسية الشفافة كأجنحة الحلم أو الطيف. إنه شاعر غنائي وجداني في المقام الأول، تذوب توقيعاته مثل كل الرومانسيين الأصلاء رقة وشجوا. وعلى الرغم من التقائه مع شعراء الوجدان في صدورهم عن مشاعرهم الذاتية، فإنه يمزج هذه المشاعر بهموم الجموع، فلا يصدمنا في قصائده ما نجده لدى بعض هؤلاء من انعزال وتقوقع في الأبراج العاجية وعبادة للذات كأنها قطب العالم ومحور الكون وما عداها وهم، في حين أن تضخم الفردية هو الوهم والسراب.

ولو لم تكن قصيدة (أنشودة لسرايیڤو) قد نجت من آفة الفردية المغرقة في سماديرها لما بلغت من أنفسنا ما بلغت من وقع عميق دل عليه تجاوبنا مع المشاعر والأفكار التي عبرت عنها. فهي أنفاسنا ترددت في صدر الشاعر ثم تهدجت على شفتيه أنشودة رقيقة حزينة ولكنها ثائرة في الوقت ذاته. ذلك أن شعر الحماسة الجزل المدوي ليس هو وحده المعبر عن الثورة على الظلم واستنفار الهمم للمقاومة والكفاح، فالصدى أيضًا يهز القلب مثل الصوت الجهير، وقد يكون أوقع أثرًا مادام يتشح بالصدق والأصالة. فلنصغ إلى المقطع الأول من هذه القصيدة الشجية:

سرايیڤو
عصافير تخطّ النور مئذنةً

ومحرابا... ومسبحة
تجمّلها الشراشيفُ
وترسم بالهدى دربا
لتُقتلع الأراجيفُ
سرايڤو
جحيم في دمي يغلي
وأطفال تنزّ الحزن في ألمٍ
وأيام تهز صحائف التاريخ
تسألنا: إلام نظل نطويها
وتطوينا التصانيفُ

إن الشاعر يرتفع بنا في لحنه الافتتاحي هذا إلى أفق المئذنة النوراني ويهبط بنا بعده إلى جحيم الواقع، فيتفجر الدم، دم الشاعر، وهو دمنا، في العروق ويغتلي كالحمم، لأن أطفالنا هناك في البوسنة يعانون مأساة القهر والقتل والتشريد. وترتفع النبرة سخطا على موقف المتخاذلين المتفرقين شيعا وأحزابا والمولعين بلعبة التصنيف، على حين يسقط الضحايا أشلاء على الدروب التي كانت تشع منائرها ومنابرها بنور الإسلام، ويكاد أن يتغلب الزيف على الحق، والأساطير على الحقائق. وفي الأبيات الأخيرة من المقطع تختفي الأفعال المعبرة عن الأخيلة الرفّافة (تخطّ - تجمّل - ترسم) لتظهر الأفعال الدالة على الحقائق المفزعة على أرض العاصمة البوسنية (يغلي - تنز - تهز - تسأل - تطوي)، ويتجلى التاريخ في تبدّله القاسي ونحن عن عبرته لاهون سادرون.

لاصخب الخطابة ولا ضجيج الهجاء، وإنما هو الهمس المنساب الذي يخز الضمائر الغافية، ويودع الأسى نفوس الرحماء فيترك في الصدر غُصةً. وقد استعمل الشاعر صيغة السؤال (إلام) دون تقرير الإجابة لأن التقرير هنا لغو وحشو:

سرايڤو
رجال للمدى ارتفعوا
وما خضعوا
ورغم القصف، والأوباش واقفةٌ
سرايڤو
بكف تمسح الأحزان، والأخرى
تصدّ الحقد والنيران ضاحكةً
تؤذّن لانبلاج الصبح في ثقةٍ
وحي على الفلاح الحقّ تسري
في المدي لحنا وملحمةً
فلا تَجفُ الغطاريفُ

ما أكثر البكائيات حزنا على سرايڤو، ولكن ما أقل القصائد التي تضمنت تمجيدا لبطولة شبابها المتدافعين كالصفوف المرصوصة يشد بعضها بعضا - كما جاء في الحديث النبوي تصويرا لتراحم المؤمنين - يسقط فرد فيسد الثغرة أفراد، يهوي صف فتخلفه صفوف لا تخشى الموت؛ بل تطلبه استشهادا إذا عزت الحياة، فالاستشهاد انتصار إذا عز الانتصار. وذلك هو المعنى الذي عبر عنه أبو تمام بقوله في رثاء أحد الأبطال الشهداء:

فتى مات بين الطعن والضرب ميتةً
تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ

لقد مات الأطفال الأبرياء ضحايا الوحشية الصربية وبكاهم الشعراء، ولكن النظرة الواعية للتاريخ تعلمنا أن الشعب المؤمن بقضيته حي لا يموت مهما زاد عدد الشهداء. وتتجلى روعة المقاومة الباسلة لشعب البوسنة حين تتذكر أنهم الأقل عتادا وسلاحا في المعركة، فليست المأساة وحدها هي التي هزت ضمير الشاعر وقلبه ولكنها بطولة هذا الشعب أيضًا.

وبعد أبيات خافتة يبث فيها عبدالله شرف أحزانه وما يشعر به من مرارة لعجزه عن غوث أبناء البوسنة وأسفه لموقف الشعراء الهائمين في وادي الغزل والتشبيب بالمرأة، وانتقاده أولئك الذين حولوا الشعر باسم الحداثة إلى ألغاز، وهؤلاء اللاهثين خلف اللاعبين والمغنين، يرسل نغمة أخيرة متفائلة. ولكن تفاؤله غير مجاني لأن التاريخ شاهد على صحة هذا التفاؤل، كما تشهد عليه وقفة فتيان سرايڤو الصامدة في عصر السفاحين والجبناء، وهي وقفة تدل على قوة الإيمان الذي ليس كمثله طاقة تتضاءل أمامها أعتى القوى:

سرايڤو
ستبقى في المدى نغما
يردد صيحة الإيمان في عصرٍ
به التاريخ تزييف
وسوف نظل ننشدها:
سرايڤو
سرايڤو

الشاعر خالد الحليبي في قصيدته (قطار الحافلات المقلة لأطفال البوسنة إلى أوربا)

ومن الرياض أهلَّ علينا الشاعر خالد الحليبي في مجلة الفيصل (العدد ١٩٥ - رمضان ١٤١٣هـ - مارس ١٩٩٣م)، فأشجانا بقصيدته (بركان.. صرخات في أذني قطار الحافلات التي تقل أطفال البوسنة إلى أنحاء أوربا)، إذ التقط بحاسته الراصدة المرهفة تلك الصورة التي تجسد بشاعة الطغيان الصربي، واستهانته بأدنى حقوق الإنسان، وتشفِّيه ممن لا حول لهم ولا قوة، وهم الأطفال الذين أولتهم الأديان والمواثيق والشرائع الوضعية الدولية والإقليمية رعايتها، فحظرت العدوان عليهم بدنيًا أو نفسيًا، ودعت إلى تأمينهم وعدم تشريدهم أو قطع الصلة بينهم وبين ذويهم.

وقد استخرج الشاعر من مشهد أطفال البوسنة المساقين في الحافلات قسرا إلى بلدان أجنبية بعيدا من وطنهم وأهلهم صورا جزئية منتقاة تعبر عن معاناة هؤلاء الصغار الأبرياء، وتقيم بناء شعريا ذا سمة قصصية؛ إذ يتطور من بيت إلى آخر حتى نبلغ ذروة المأساة في نهاية القصيد. ويرجع الفضل في نجاح الشاعر إلى صدقه النفسي والفني وقدرته بذلك على تفجير أحاسيسنا المكبوتة، تعاطفا مع الضحايا وسخطا على المجرمين وَمَنْ وراءهم سرا أو علانية، وشعورا منا بالذنب لأننا من شهود المأساة العاجزين، ولسنا من المقاومين لها إلا بالقول الذي لا يرد الجاني ولا يقطع يد المغتصب.

وتنقسم القصيدة إلى ثلاثة أجزاء، يخاطب الشاعر في أولها القطار مكررا سؤاله دون أن يلقى منه جوابا. كما يتضمن هذا الجزء نداء خفيا من الأطفال إلى الشاعر فيما يخيل إليه، وهم يستغيثون به بحق ما يجمع بينه وبينهم من آصرة العقيدة الإسلامية، فيعجز عن تلبية النداء، ولا يملك إلا الدموع التي تنزف دما من القلب الطعين بأسنة الفجيعة، وإذا سألهم فإنهم مثله يعجزون عن الإجابة:

قف ياقطار فإنني
منذ انطلقت بهم كئيبُ
ترتادني الغصص الظمـ
ـاء ويرتوي مني اللهيبُ
قف إنني من هؤلا
ء وإن تباعدت الدروب
بيني وبينهمو حبال
لن تقطّعها الخطوب
وبراءة الأطفال تد
عو نخوتي، أفلا أجيب؟
دعني أسائلهم وإن لم
يستطيعوا أن يجيبوا
لغتي الدم المفجوع في
عينيّ والدمع الصبيب
وجراح قلبِ راعف الز
فرات يقدحها الوجيب

وفي الجزء الثاني من القصيدة يتابع الشاعر خطابه للقطار الذي يحمل الأطفال المشردين إلى المجهول، مكرهين على فراق أحضان أمهاتهم وملاعبهم التي كانت مسارح لهوهم ومراح بهجتهم. وهو إذ يصور معاناتهم وبراءتهم يشبههم بالصفحات البيضاء التي لم يغْشَها دنس أو يشُبها سواد، وقد تحولت بعد النكبة إلى عيون جوفاء ذاهلة ووجوه شاحبة من فرط ما أصابها من الذعر والهلع لدى مشاهدة المجازر التي ارتكبها الصربيون، فلم تعد تغمض منهم الجفون إلا على أشباح الدم والدمار. فقد نصب زبانية الجحيم مدافعهم وطائراتهم لتحصد الديار ومن عليها، وتحرق كل غصن نديّ أخضر يرمز للأمن والسلام، وتجعل الديار التي غنيت بالأمس أثرا من بعد عين، فإذا هي قاع صفصف عمرانها خراب وأهلوها جثث تملأ الرحب. وبيوت الله التي كانت مرفوعة يذكر فيها اسم الله تتراءى أطلالا باكية تشكو إلى ربها ما فعل الظالمون، وإذا بهؤلاء الصغار يسقطون هم والشيوخ والنساء صرعى، أما الناجون منهم فيولون الأدبار فرارا من النار التي تحاصرهم من كل مكان:

دعني أحدّقْ في صحائف
لم تلطخها ذنوبُ
أستقرئ العبرات في
أهدابها ومنى تلوب
وأذوب ـ يا للجمر ـ في
أنفاسها لما تذوب
وأغيب في عينين عر
بد في مآقيها الشحوب
يجتاحها ألم الكبا
ر ويصطلي فيها الغروب
جمدت على أجفانها
صور المجازر لا تغيب
وتلفتت فإذا المدى
جثث وآلام تجوب
وملاعب الأمس الجميـ
ـلِ تئن ليس بها دبيب
طوت المدافع حسنهن
وأُحرق الغصن الرطيب
لم يبق إلا مسجد
يبكي وصربيّ غريب
في لحظة حيرى أمرّ
من الردى كان الهروب

إنهم أطفال البوسنة والهرسك المعذبون دون جريرة إلا أن يقول آباؤهم الكبار: ربنا الله، ويرفض الشباب الاستسلام، ويدافعون عن مقدساتهم حتى آخر قطرة من دمائهم. وهؤلاء الأطفال ضحايا ولو ظلوا أحياء، ذلك لأن مصيرهم ـ وقد سيقوا كرْها إلى أرض غريبة ـ لايقل عن الموت سوءا، فكيف إذا كانت هذه الأرض المنفى هي إسرائيل معقل الصهيونية المدجج بسلاح الموت الذري، إذ أذاعت وكالات الأنباء أن مجموعة من أولئك المساكين المقهورين قد دفع بهم إلى وكر الأفعى، ويا للعار الذي يلطخ وجه ذوي القربى.

وينتقل الشاعر في الجزء الأخير من القصيدة من ضمير المتكلم الذي صور عذابات الصغار أبناء البوسنة المشردين في الآفاق إلى ضمير المخاطب وهو طفل منهم يمثل جمعهم. وتتردد هنا المعاني التي تضمنها الجزء الثاني ولكن في صور جديدة، ويفضح الشاعر نفاق الدول الأوربية التي نقلت أو استضافت هذا الطفل وأترابه لتنفي عن نفسها تهمة التواطؤ أو الصمت، ولتبرئ ساحتها من دم

أصداء ملحمة البوسنة في الشعر المعاصر

الضحايا ومن إقصاء بنيهم عن وطنهم، لعل الأحرار في تلك الدول وسائر أنحاء العالم يغفرون لها موقفها المشين. كما يدين الشاعر خالد الحليبي الشعوب التي اتخذت موقف المتفرج لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

وهو ينعي على الأمة الاسلامية قعودها عاجزة عن الفعل، راضية بما يحيق بطائفة من أهلها من هوان. ولكنه يختم قصيدته بنبرة متفائلة؛ إذ وقر في قلبه قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف:٨٧)، ومن ثم يرى بعين الشاعر التي تستشرف الآفاق البعيدة وتعي حركة التاريخ ودلالتها أن نصر شعب البوسنة آت وإن طال المدى ودفع هؤلاء المؤمنون ثمن عقيدتهم وحريتهم دما غاليا ولسان حالهم قول الشاعر:

ولست أبالي حين أقتل مؤمنا
على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وهكذا ينضح النص الشعري بأحاسيس مفعمة بالصدق والحرارة الشديدة التأثير، وبمعان تستوعب أبعاد المأساة والبطولة إنسانيا وسياسيا، مما يستحق به أن يدرج في عداد أدب المقاومة. فلْنُصغِ السمع إلى قول الشاعر مخاطبا الطفل البريء الذي سيأتي لا ريب يوم يتحول فيه إلى بركان مستعر يخترق بحممه أعداء البشرية:

ورحلتَ فارتحل النها
ر ووجهه الضاحي القشيبُ
يا أيها الطفل البريء
دُعيتَ والمضياف ذيب
سلبوك من وطن يحنّ
إليك وهو هنا سليب
مهلا قطارَ الماكريـ
ـن فإنه يوم قريب
قف، هؤلاء الصبية الـ
أغرار بركان رهيب
فترقبَنْ يوم انفجا
رِ فؤادِه إني رقيب

دراسات في أدب الجزيرة العربية (١٤)



من بواكير الشعر السياسي في القرن التاسع الهجري

د. عبدالله أبو داهش

قال الشاعر المؤرخ عبدالملك بن الحسين العصامي المكي (١٠٤٩ - ١١١١هـ) في تاريخه «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي»: «وقد مدحه [أراد الشريف حسن بن عجلان الحسني (٧٧٥ - ٨٢٩هـ)...] كثير من شعراء مكة المعتبرين، منهم: الشيخ شهاب الدين أحمد الفاسي والد تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت:٨٣٢) مؤرخ مكة، ومنهم شيخ الإسلام شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقري (ت:٨٣٧هـ)، وكان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الغساني (ت:٨٢٧هـ) صاحب اليمن تشفع إلى الشريف حسن بن عجلان سنة سبع وثمانمائة في الترك لتشويش على: موسى صاحب حَلْيٍ(*)، وحثّه على الموافقة على ذلك القاضي شرف الدين المذكور بقصيدته النونية»(١)، ومنها قوله:

أحسنت في تدبير مُلْككَ ياحسن
وأجَدْتَ في تحليل أخلاط الفتَنْ
ماكنت بالنَّزقِ العجول إلى الأذى
عند النزاع ولا الضَّعيف أخا الوَهَنْ
تُمسي ورأيُك عن هواكَ مُعَوَّقٌ
والغِرّ مُلْقٍ في يد الأهوا الرَّسَنْ
داءُ الرئاسة في متابعة الهوى
ودَوَاؤها في الدفع بالوجه الحَسَنْ
وإذا الفتى استقصى لنُصْرَة نفسه
قَلَبَ الصديقُ لحربه ظَهْرَ المِجَنْ
لاتُصْغِ إنْ شرٌّ دَعَا فالشرُّ إن
تنهض له ينهض، وإن تَسْكُنْ سَكَنْ
وسَدِيدُ رأيٍ لايُحَرِّكُ فتنةً
سكَنَتْ، وإن حركَتْهُ الفِتنُ اطمأن
ردُّ العدُوِّ إلى الصداقة حكمةٌ
صفَّت منَ الأكدار عيشَ ذَوِي الفطَنْ
أمّا حَليٌ فإنَّ خوفَكَ لَم يَدَعْ
أهلاً بها للزائرين ولاوَطَنْ
خلَّيتهم منها وحشمك وادع
في مكة لم يُحْوِجُوك إلى ظَعَنْ
تركوا لك الأوطان غير مُدافَعٍ
وتعلقوا بِذُرَى الشوامخ والقُنن
موسى هِزَبْرٌ لايطاق نزالُهُ
في الحرب لكن أين موسى من حَسَنْ(٢).

وقال العصامي أيضًا: «ولما وقع بين الشريف حسن بن عجلان، وبين الأمير أحمد بن إسماعيل الغساني صاحب جهات اليمن الحرب، منع مسير الجلاب بالحبوب إلى أهل الحرم الشريف، فأنشأ السيد المرتضى محمد بن إبراهيم (ت:٨٤٠هـ) قصيدة يستشفع عند الأمير أحمد في إطلاق الحبوب إلى أهل مكة، فقبل شفاعته، وأطلقها»(٣)، ومنها:

إني أُشيرُ عليك رأيَ نصيحة
والمستشارُ منَ البريّة مؤْتَمَنْ
أطلقْ له سُفُنَ البحارِ فإنها
تجري إلى البيت العتيق على سنَنْ
بيتٌ له خَضَع الملوكُ جلالةً
وبه تفاضلت الفرائض والسُّنَن
أنت المليك... وليس منْ
شأن الملوك الشُّمِّ إحمالُ الإحَنْ(**)
وترى الطبيب إذا تقادَم جُرْحُ مَنْ
يدويه لاطَفَهُ وغَيّر بالدهنْ
كلٌّ له شَجَنٌ ومالكَ في العُلا
شجنٌ سوى الإصلاح يالك من شَجَنْ
ولأنت في الإسلام رأسٌ واحد
والرأسُ مهما اعتَلَّ يتبعه البَدَنْ
رِفقًا بأهل المكَّتَيْنِ ورحمةً
بِهِمُ وَعَطْفًا شاملاً لبني حَسَن(٤)

وإزاء هذه الأبيات من القصيدتين السابقتين ندرك أهميتها المعنوية والأدبية. أما قيمتها المعنوية فإنها تتحقق في مضامينها المختلفة، إذ عالجت بعض القضايا السياسية والاجتماعية المحلية، وصورت حال العصر السياسي يومئذ وما انطوى عليه حال هذه الجزيرة العربية في مطلع القرن التاسع الهجري من مظاهر الفرقة والخلاف، وما اكتسبته بعض المواطن التجارية والساحلية من أهمية سياسية واقتصادية من مثل بلدان حَلْي، البِرْك، السرَّين، عَثَم، مما جعل بعض القوى السياسية تتجاذب ولاياتها، فتلك

المواطن تمثل نقطة اتصال: «على طريق الحج والتجارة والتحركات العسكرية»(٥) وذلك مازاد في قيمتها المعنوية.

ويلحظ الدارس لقيمتها الأدبية توسطا في مستواها الفني؛ إذ يتحقق فيها الميل نحو العمل البديعي، وأن أسلوبها يصطبغ بشيء من المحسنات البديعية، ولكن هذا الواقع يتلاشى في غضون التفاعل النفسي، والتعاطف الشخصي، مما أفضى إلى سلاسة في النظم، وصدق في الشعور. لقد ابتدر المُقْرِي قصيدته بمخاطبة الشريف حسن بن عجلان فاستحسن واقعه السياسي، ووصفه بالأناة وحسن التدبير، ومضى يبني قصيدته دون الالتفات إلى شيء من أسباب البناء الفني المعهود، وإنما أهمل ذلك ولم يأبه به على الرغم من اهتمامه الظاهر بدواعي البديع، وبخاصة الجناس، إذ أخذ قوله الشعري يتدفق في حسن وانتظام. انظر إليه، وهو لم يبعد، حيث قال:

تمسي ورأيكُ عن هواكَ مُعَوّق

والغِرُ مُلقٍ في يد الأهوا الرَّسن

فالفعل: «تمسي» يبعث على تكوين الصورة، ويؤدي المعنى الذي تعمده الشاعر في شخص الممدوح، ولم يغفل قرينه في حلي حين ابتعث معنى آخر، يمثل التناقض إزاء دهاء الممدوح ومنزلته، وانطلق المقري في مقطعه الأول يذكي الشعور تجاه هذا الممدوح، ويضفي عليه خصال الحكمة والنباهة، ومكارم الأخلاق، يسعفه في ذلك تضمينه لبعض معاني الحكمة، وما اتضح في سلاسة القافية، والجرس المنبعث من حرف الروي.

وحين يستقيم بالشاعر المعنى، وتسمو بعباراته الدلالات اللغوية المناسبة يفصل قوله السابق بهذا البيت:

أما حلي فإن خوفك لم يدع

أهلاً بها للزائرين ولاوطن

فعلى الرغم من حسن الابتداء هنا؛ يظل مستوى هذا المقطع متواضع المكانة الفنية ليس فيه مايلفت النظر سوى مكانة هذا الممدوح التي ظلت تلوح في ثنايا الأبيات اللاحقة على قصور في أداتها اللغوية، حيث نلحظ الكد الذهني في تكوين تلك المعاني. وذلك كله من أجل المقاربة في وجهات النظر، ومايود الشاعر تحقيقه من إصلاح.

ويستأنف الشاعر مقطعه الثالث بذكر أمير حلي، وما حلّ به من كرب، حيث وازن فيه بين أميرين أحدهما في الجنوب، والآخر في الشمال: أمير مكة المكرمة في الحجاز، وأمير حلي ابن يعقوب في تهامة، لم يشأ المقرى أن يحط من مكانة الكنانيين في حلي وأحوازها؛ بل تعرض لهم، ورفع من شأنهم في شخص أميرهم: موسى بن أحمد، ولذلك لم يدع الشريف ابن عجلان وحده في الساحة؛ بل جعل له ندا هو أمير حلي، لايقصر عنه، ولايقل عن منزلته، ولكنه للظروف السياسية الراهنة يستحق الشفقة والعطف؛ فلقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وهو بهذا يأمل في عطف هذا الشريف ورحمته. إنها صور من واقع الجزيرة العربية في أوائل القرن التاسع الهجري، حيث التمزق السياسي والاختلاف المذهبي، والشاعر عندئذ يحاول إقناع ممدوحه في يسر واعتدال، يظهر تارة منزلة ممدوحه، بما يبعث على العفو، وتارة أخرى يستخدم الحكمة في تحقيق هذا الشأن، وكل ذلك من أسباب الإقناع ودواعيه، مما يدعو للقول بأهمية هذا النص، وماحققه من دور فعال يومئذ، إذ أصلح بين فئتين، وحقق السلام في بعض أجزاء ربوع هذه الجزيرة العربية، وما اتصل بمراكزها الروحية والاقتصادية في الحجاز وتهامة، وذلك كله على الرغم من تواضع مستوى الأداء الفني لهذه القصيدة، فهي حقيقة متواضعة في أسلوبها وتكوينها اللفظي بوجه عام.

وإذا كان هذا واقع قصيدة المقري، فإن قصيدة المرتضى أظهر في القيمة الفنية، إذ استهلّها قائلها بذكر الحرمين الشريفين، وما هما عليه من الحرمة والمكانة، وثنّى بعد ذلك مساكينهما من الأهلين والمجاورين، ويبدأ المرتضى مقطعه الثاني معتذراً فيه مما بدر من الشريف حسن بن عجلان، إذ الأمر خارج عن إرادته، وهو بذلك يماثل بني الإنسان في قصوره وأخطائه، ولايهمل هذا الشاعر معارضة قصيدة المقري السابقة، حيث ماثلها، واحتذى بعض أبياتها، يقول:

حسن مليك في الحجاز معظم

فيها، ولكن أين أحمد من حسن؟

ولاشك أن هذا البيت من حيث القيمة الفنية أقل بكثير من سابقه، وإن لم يكن ذلك الحسن، إلاّ في قيمة السبق الذي ناله بيت المقري، ومع ذلك يتفوق المرتضى في بيتيه الآتيين من حيث السلاسة، ووضوح المعنى، إذ قال:

هذا له يمن ، وهذا ماله

إلا فضاضة ماتفيض به عدن

ولك المدائن والسفائن كلها

وله: يلملم، والجنوب إلى قرن

انظر حُسْنَ القول في الشطر الأخير من البيت الأول، حيث استخدم لفظ: «فضاضة» كناية عن تواضع الجباية وقلة موردها، ثم الْحَظْ حسن التذكير بالمنازل والبلدان: عدن، يلملم، الجنوب، قرن، وزد على ذلك ذكر الشاعر لموارد الممدوح:

ولك المدائن والسفائن كلها

وله: يلملم، والجنوب إلى قرن

أتراه اطلع على خيرات البحار، وماتفيض به من خير عن طريق سواحلها، ومايتصل بها من بلدان اليمن وغيرها من بلدان الجزيرة العربية، إنها صور ظاهرة للحياة الاقتصادية يومئذ، وما لبث المرتضى حتى التمس من ممدوحه المبادرة إلى إطلاق السفن، وإغاثة أهل الحجاز، مما قد حلّ بهم من الضيق:

اطلق له سفن البحار فإنها

تجري إلى البيت العتيق على سنن

وهنا تصيَّد الشاعر عطف الممدوح، واستدر شفقته، ولم يطل به هذا الاستجداء حتى أفاض في ذكر منزلة هذا البيت، ومكانته في قلوب المسلمين وولاة أمورهم.

ومهما يكن الأمر فقد تعدى هذا الشعر المعهود من المدائح والقول المكرور إلى حال من إصلاح ذات البين، ومقاربة وجهات النظر، وهو مايحمد لهذا الشاعر، حيث انصرف جزء من اهتمامه نحو هذا المعنى، وهو جدير بذلك قمين به، ولاغرو في ذلك. فالحجاز يحتضن هذين الحرمين الشريفين، وهما رأس لبلدان الجزيرة العربية، وحواضرها. كذلك وفق هذا الشاعر في اختيار هذه القافية النونية المقيدة ذات النسق الفني المتصل، وما أحاط به النص من صدق الشعور المتمثل في انتقاء الألفاظ، والدلالات اللغوية المناسبة ذات الارتباط المباشر بحال هذين الأميرين، وما يتعلق بهما من دواعي: الجوار، وعلاقات الواقع السياسي والمذهبي، ومع ذلك لم تسلم هذه الأبيات من ظواهر العمل البديعي المشهود، وبخاصة الجناس، والطباق، وما اتصل بهما من دواعي الأسلوب الماثل في الاقتباس، ومنه الأمثال. وذلك معهود في أدب تلك الفترة وفكرها.

الحواشي:

(*) حلي بوزن ظبي: مدينةباليمن على ساحل البحر. (معجم البلدان:٢/٢٩٧).

(١) ٤/٢٦٢، المطبعة السلفية، مصر، دون معلومات أخرى.

(٢) «النونيات»٤٣، دراسة وتحقيق عبدالله أبو داهش، مطابع دار العلم، ط١(١٤١٤/١٩٩٤م)

(٣) كتابه السابق ٤/٢٦٣.

(**) هنا سقط في البيت أدى إلى خلل في الوزن.

(٤) «النونيات»٥١.

(٥) حسن بن إبراهيم الفقيه: «مخلاف عشم»ص٥، مطابع الفرزدق، ط١، الرياض (١٤١٣-١٩٩٢م).

الدبلوماسي القاص محمد ويب:
وجد في الإسلام الإجابات لتساؤلاته

وُلد ألكساندر رسل ويب في مدينة هدسون بمقاطعة كولومبيا في ولاية نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٦م، لوالدين ينتميان إلى الكنيسة الأرثوذكسية، حيث لُقِّن تعاليمها وطقوسها في سني عمره الأولى، فشب متدينًا، واتسمت شخصيته بنزعة دينية.

وحين بلغ العشرين من عمره، وبدأت مداركه تتفتح على حقائق الحياة والوجود، وعقله يعمل على استيعاب مايتم تلقينه، بدأ يتمرد على عقيدته، ويلمس بفكر منفتح مدى جمودها وغموض تعاليمها ومجافاتها للمنطق والفطرة السليمة، وكان من نعم الله عليه أن حباه بعقل يبحث ويفكر؛ فأخذ يفتش عن إجابات لأمور كثيرة غامضة وجدها في عقيدة النصرانية، ولم يلبث أن اكتشف أنه ليس وحده الذي لايملك إجابات، فحتى القسيس نفسه لايملك أية إجابات عقلانية لتلك التساؤلات، وكل مايستطيع أن يقدمه ترديد أقوال مكرورة غامضة لآباء الكنيسة، لاتفسر شيئًا، بل على العكس تزيد الأمور غموضًا: «حين بلغت العشرين من العمر، وأصبحت سيد نفسي، وجدتني قد مللت ضغط الكنيسة وتزمتها، إلى حد أني لم ألبث أن هجرتها بعيدا ولم أعد إليها أبدا. ومن حسن الحظ أنني كنت أتمتع بطبيعة عقلية تتطلع - دون هوادة - إلى البحث والتدقيق والنقد والتمحيص.. كنت أريد سببا لكل شيء، ووجدت أنه لارجال الدين ولاسواهم من عامة الناس أو خاصتهم استطاعوا أن يقدموا لي توضيحا جذريا شافيا لهذه العقيدة التي نشأت عليها. وإنما اتفق هؤلاء وهؤلاء جميعا على القول إن هذه أمور غامضة، وإنها تتجاوز مستوى إدراكي»(١).

الاطلاع على ديانات الشرق

كان شك ألكساندر ويب في عقائد النصرانية مدخلاً لاتجاهه إلى الاطلاع عما كتب عن ديانات الشرق، لعله يجد فيها مبتغاه، فقرأ أعمال الكُتَّاب والفلاسفة المهتمين بفلسفة الخلق والحياة والموت وكتاباتهم؛ مثل مِل، ولوك، وكانت، وهيجل، وهكسلي، وغيرهم، بحثًا عن سر الروح، وحقيقة الآخرة، أو حياة مابعد الموت.

إلا أنه لم يجد في كل ما قرأ مايروى ظمأه، فهؤلاء جميعًا - برغم سعة علمهم - لم يكونوا يملكون إجابة عن تساؤلاته، فعلمهم مهما علا يظل محدودًا، وقاصرًا عن استيعاب حقيقة الذات الإلهية وعظمتها: «أنا منذ زهاء أحد عشر عاما معني بالأديان الشرقية المختلفة.. ولم يفتني في غضون ذلك أن أطالع مِل ولوك وكانت وهيجل وهكسلي، وطالعت كذلك عددا من الكتاب على درجات متفاوتة من المعرفة والبصر فيما يتصل بالهيولي والذرة، ولكن أحدا من كل هؤلاء وأولئك لم يستطع أن يخبرني شيئا عن الروح: ماهي؟ ومامآلها بعد الموت؟»(٢).

برغم ذلك لم تكن تلك القراءات جهدًا ضائعًا، إذ أفادت ويب بدرجة كبيرة؛ فمن ناحية، زودته بكَمٍّ من المعارف الفلسفية التي أتاحت له أن يبرز في مجال الفكر والكتابة، كما أنها، من ناحية أخرى، أتاحت له بعض المعلومات عن ديانات الشرق - كما كانوا يسمونها - وفي مقدمتها العقيدة الإسلامية.

الاتجاه للأدب والدبلوماسية

أثمرت قراءات ويب في تحويله اتجاهه إلى العمل الأدبي والفكري، إذ صار قاصًا موهوبًا، وكاتبًا صحافيًا لامعًا، وعمل محررًا في صحيفة «سان جوزيف جازيت» و«الجمهوري ميسوري»، إلى أن كانت النقلة الكبرى في حياته حين عُين عام ١٨٨٧م قنصلاً عامًا للولايات المتحدة الأمريكية في العاصمة الفلبينية «مانيلا».

في مانيلا أتاح له عمله الدبلوماسي

الالتقاء بالعديد من المسلمين، وبمعونتهم درس الإسلام، خاصة بعد ما علم بأن جذور الإسلام في الفلبين قديمة، وساءه أن يرى كيف يُعامل المسلمون في بلادهم كمواطنين من الدرجة الثانية، بعدما كانوا يومًا هم سادة البلاد، ولم يفته أن يدرك أن الاستعمار - الذي أسهمت بلاده في صنعه حين باعت الفلبين إلى البريطانيين مقابل حفنة من الدولارات - هو الذي أشعل نار العنصرية في نصرانيي الفلبين ضد مسلميها.

حين درس ويب الإسلام هاله ما اكتشفه في تلك العقيدة السماوية السمحة من نواحي البساطة والعظمة؛ فالإسلام قريب من الفطرة بوضوحه الشديد، وبعده من الطلاسم الكنسية التي تمتلئ بها عقائد النصارى، وفيما لايتبدى جوهر الإيمان بوضوح في عقيدة التثليث، فإن ويب اكتشف بساطة جوهر الإيمان في الإسلام، ووضوحه، فهو يعني الخضوع لإرادة الله عز وجل، وعماده الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

جوهر الإيمان

ووجد ويب في جوهر الإيمان كما حدده الإسلام ورسمه محققًا للأخوَّة الإنسانية الكبيرة، لأنه يتطلب طهارة الفكر والقول والعمل، ونظافة البدن الكاملة، ويجعل الناس جميعًا سواسية أمام الخالق المتعالي، لايتفاضل بعضهم على بعض إلا بالتقوى؛ فالطريق إلى الله في المفهوم الإسلامي ينبع من علاقة خاصة بين العبد وربه، علاقة لاتحتاج إلى وساطة أو كهانة، بل يتساوى فيها الناس جميعا غنيهم وفقيرهم، أبيض اللون وأسوده.

عند ذلك أدرك ويب بما لايدع مجالاً للشك أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، لأنه أسمى نموذج للأديان عرفه الإنسان منذ خلْقه الأول، ولأنه دين الفطرة والحق، الذي نادَى به المرسلون والأنبياء كافة، ومنهم عيسى عليه السلام.

إشهار إسلامه

وحين وصل ويب إلى هذه القناعة، لم يكن صعبًا عليه أن يتخذ القرار الذي كثيرا ما هفا إلى اتخاذه، وهو نبذ عقيدة التثليث واعتناق عقيدة التوحيد، حقيقة إنه كان مسلمًا بقلبه طوال سنوات ماضية، إلا أنه لم يكن قد اتخذ خطوة عملية ليعرِّف الناس طريقه الجديد، وجاء إشهار إسلامه لينهي رحلة طويلة قضاها ويب في ظلمات عقيدة محرّفة، وليعلن خلاص روحه وعتقها من النار.

تسمى ويب بعد إسلامه باسم «محمد» تيمنا بالرسول صلى الله عليه وسلم، مع احتفاظه بباقي اسمه فصار يعرف باسم محمد ألكساندر رسل ويب، وقام بعد إسلامه بجولة واسعة في بلدان العالم الإسلامي للالتقاء بإخوته في الله، وكَرَّس جُل وقته بعد انتهاء مدة خدمته في العمل من أجل الدعوة الإسلامية، حيث حرص على أن يجذب للإسلام من يتلمس فيهم الخير، والرغبة في تعرف دين الحق، مثبتًا لكل مشكك في اعتناقه الإسلام أنه لم يتخذه دينا نتيجة حس خادع، أو إيمان أعمى، أو اندفاعة عاطفية مفاجئة، لكنه قرار جاء بعد دراسة جادة أمينة لاتنحاز لسوى الحق، ونتيجة تحرٍّ ومثابرة ورغبة شديدة في معرفة الحقيقة: «إن اعتناقي الإسلام لم يكن نتيجة عاطفة منحرفة، أو اعتقاد أعمى، أو حركة انفعالية آنية، ولكنه كان وليد دراسة جادة، أمينة، حثيثة، وبريئة من كل تصور مسبق. كان وليد الاستقراء، والتدبر، والرغبة الملحة في معرفة الحقيقة.

بكلمة أخرى، اعتنقت الإسلام بعد أن تبين لي أن جوهر العقيدة الإسلامية الحقة هو الاستسلام لله، وأن الصلاة حجر الزاوية فيها. إن هذه العقيدة تدعو إلى الأخوة العالمية، والحب العالمي، والتعاطف العالمي. إنها تلح على نقاء العقل، ونقاء الفعل، ونقاء القول، وتلح على النظافة - الطهارة - المادية الكاملة. إنها - فوق كل شك - أبسط وأرقى أشكال الدين التي عرفها الإنسان»(٣).

وفاته

ونتيجة لإخلاص ويب في خدمة الدعوة، كَرَّمته الجالية المسلمة في الولايات المتحدة الأمريكية بتقليده رئاستها، وظل رئيسًا لمسلمي أمريكا، حتى كان اليوم الأول من أكتوبر تشرين الأول عام ١٩١٦م، حيث نعى الناعي الداعية الإسلامي محمد ألكساندر ويب بعد سنوات طويلة قضاها في خدمة دينه وإعلاء كلمة ربه. وشيعته جموع المسلمين إلى مثواه الأخير في موكب مهيب. رحم الله محمد ألكساندر ويب وأحسن مثواه.

الهوامش:

(١، ٢، ٣)- الأقوال المنسوبة لمحمد ويب ترجمها محمد الأرناؤوط عن كتاب: «الإسلام خيارنا»، الذي جمعه إبراهيم أحمد الباواني، وقدم له خورشيد أحمد، وصدرت طبعته الإنجليزية عام ١٩٧٩م على نفقة رابطة علماء العالم الإسلامي، عن دار النشر MUSLIM NEWS INTERNATIONAL في سويسرا.

طريق الهدى

فضيلة الشيخ :
د. صالح بن سعد اللحيدان

صدقة المضطر

ماهي أفضل الصدقات بالنسبة للمضطر؟

س.س.أ، خيطان ـ الكويت.

يبدو أنَّ السائل ـ والله أعلم ـ قد حصل منه ما يوجب سؤاله هذا لتكون الصدقة كفارة له. والذي أعلمه ما يلي:

١ـ إنه في حال الظلم وهضم الحقوق، أو المشاركة فيها برأي أو غمز أو لمز أو رأي على سبيل النصح، فإنه لابد هنا من رد الحقوق حسّها ومعناها، ثم بعد ذلك استباحة المظلوم.

٢ـ إنه في حال موت المظلوم يجب رد الحقوق لورثته من مال ونحوه. وأما الظلم المعنوي مثل حرب للأعصاب والاحتقار ونحوه فهذا خطر جليل، لكن على الظالم الدعاء له والصدقه عنه وبيان حقه أمام من أخطأ عليه عندهم.

٣ـ إنه في حال ارتكاب العبد لمعصية ما كبيرة أو صغيرة فعلية بالتوبة حالاً، والعزم على عدم العودة، والندم على مافات، ورد المظالم، ثم دوام الذكر والاستغفار. ولا بأس بالصدقة تقربًا إلى الله تعالى.

٤ـ إنه في حال بر الوالدين أو أحد الأقارب لا بأس هنا من الصدقة عنهم.

وكذا في حال الدعاء، فإن المسلم يقدم صدقة فيدعو الله تعالى بعد ذلك، وبخاصة حال الضر والكُرُبات وتسلط الظلمة الذين لايردهم إلا الله تعالى بقوته وحده.

وتقديم الصدقة في هذه الحالة ليس واجبًا، لكنه من باب مفاتيح الإجابة. والله أعلم.

سؤال في الميراث

هل يرث الأخ من الرضاع؟ وهل يرث العم الشقيق مع الأب؟ وهل يرث ابن العم القريب جداً مع ابن الابن؟

س.م، الفحيحيل ـ الكويت.

لايرث الأخ من الرضاع شيئًا ما لم يدل بقرابة أخرى كالعصبة إذا ورث بموجبها. ولايرث العم الشقيق ولاغير الشقيق مع وجود الأب، والد المتوفى. ولايرث ابن العم القريب جدًا ـ كما تقول ـ مع ابن ابن المتوفى. والله أعلم.

حلق الحاجب

ماحكم حلق شعر الحاجب إذا كان ضارًا؟

عبدالعزيز م.م.م، المجمعة.

الحلق هكذا لايجوز، ولكن إذا كان بعض شعر الحاجب يؤذي العينين ويؤثر فيهما جدًا، فيُقص المؤذي من الشعر فقط، وماعدا هذا فلايصح فعله.

صحيح البخاري

هل وقعت في «صحيح البخاري» أحاديث ضعيفة؟

بتال بن ناهض الداوودي، قطر.

لم يحصل هذا، ومايظهر أنه حديث ضعيف وقع في الصحيح فإنما في الشواهد والاعتبارات والمتابعات بسبب راوٍ ما، ولكن حتى هذه قد تم تصحيحها من وجوه أخرى بأسانيد ثابتة. والإمام محمد بن إسماعيل لم يدخل في كتابه إلا ماصح عنده بشرطه، وقد تواتر قبوله لدى عامة علماء الأمصار، فهو وصحيح مسلم أصح كتابين جمعًا للسنة الصحيحة.

ولعلك تعود إلى «هدي الساري» لابن حجر العسقلاني، ومقدمة «عمدة القاري» للعيني ج١.

الدَّين والزكاة

لي دَين على شخص، وقد علمتُ أنه فقير وراتبه التعاقدي لايكفيه وأولاده وإيجار بيته مع كبر سنّه، فهل أجعل هذا الدين له بدل الزكاة؟

عبدالرحمن م.ل، الرياض.

هذه حالة تحصل كثيرًا بين الناس، فترى بعضهم يسقط الدَّين ويحسبه من الزكاة، وهذا أمر لايجوز لعدم توافر النية حال الدفع، لكن النية هنا انقلبت ولابد من استقلالها.

والمخرج من هذا أن يأخذ بعض ماله على هذا الشخص، ثم يدفعه إليه بقصد الزكاة. أو يُسقطه نهائيًا من باب كشف الضر وحل الكُرُبات، لا أن يُسقط الدين ويعتبره من الزكاة. واللّه أعلم.

الوقف والزكاة

لدي مال «وقف» هل عليه زكاة؟

سليم بن داود بن مرسال، نعجان.

هذا ينقسم إلى قسمين:

١ـ إن كان هذا الوقف له ريع ينفق منه على أحد، فيفضل منه مايفضل ولايحتاجه الوقف، ففيه الزكاة.

٢ـ إن كان هذا الوقف كله في أوجه الخير فهذا لازكاة عليه، لأنه كله يسير في اتجاه شبيه بالزكاة. والله أعلم.

ردود خاصة

الأخ د. محمد بن علي بن براك ـ مكة:

وصلتني هديتك الكريمة (مكة قبل الإسلام)، وقد تصفحته، وهمشتُ عليه بما يلي:

أولا: من ص١٨ حتى ٢٥، الأرقام: ١، ٢، ٦، ٩، ١٨، أحاديث ضعيفة بسبب علة السند. والرقم ٩ المتن فيه اضطراب.

ثانيا: من ص٢٤ حتى ٣١ لم يرد توثيق لأصل بنيان الكعبة، مع وجوده في «البداية والنهاية» و«تاريخ ابن جرير» ص١٠٠-١٠٤. كما أن في صحيح البخاري ومسلم بيانًا عن بنيان الكعبة.

وأخيرًا، لا أظن أن هناك أصلاً في كون الكعبة كانت تكسى بالبياض، فلم أقف على هذا حسب علمي. نفع الله بعلمك وزادك فضلاً.

الأخ عبدالعزيزم.م.م. ـ المجمعة:

يصلك جواب مفصل حول مسألة الرضاع التي تسأل عنها، ففيه، إن شاء الله، بيان تام حسب فهمي، يفيدك وتسير عليه.

الأخ ن.ن، الزرقاء ـ الأردن:

القسمة كما يلي:

الأب: له السدس

الأم: لها السدس

الإخوة الثلاثة: لايرثون، لأن الأب يحجبهم.

البنات الثلاث: لهنَّ الثلثان

العم: لايرث لأن الأب يحجبه.

فوالد المتوفى ووالدته والبنات (بنات المتوفى) يرثون، ولايرث الباقون شيئًا لوجود من يحجبهم عن الإرث. نفع الله بك.

ألونسو دي الكاستيّو طبيب ومترجم غرناطي

شاهد على الأحداث «١»

د. عدنان محمد آل طعمة

سقطت غرناطة الإسلامية عام ١٤٩٢م على يد الملكَيْن الكاثوليكيَّيْن إيزابيل(١٤٥١-١٥٠٤م) وفرناندو(١٤٥٢-١٥١٦م)، وبذلك طويت صفحة مشرقة من تاريخ العرب والمسلمين في شبه الجزيرة الأيبرية، وارتفع عمود من نور إلى السّماء، وامتد شعاعه إلى الغرب، فأنار أمما كانت تتطلع إليه منذ زمن بعيد، وأطفئت الشموع المتلألئة في الأندلس، وراحت القصور تبكي وتندب حظها ولات حين ندامة.

وراح الناس يُلَملمون شتاتهم وأمتعتهم دون معرفة ماسيصيرون إليه، وتكالبت قوى الطغيان عليهم، ولم ينفع التحدي الذي بذله الأندلسيون؛ فقد كانت يد المنية أقوى من إرادتهم، وكان المسلمون في وضع لايحسدون عليه، وهكذا بقي مسلمو الأندلس ينتظرون مصيرهم: إمّا التنصر القسري، وإما الرحيل عن بلاد آبائهم وأجدادهم إلى الأبد، وقد تنصر من تنصر تحت وطأة التنكيل والقسر والحرق وغير ذلك، وبقي هؤلاء يذوقون العذاب بألوانه وأنواعه جسديا ونفسيا، ولكن كانت تدفعهم إلى الصبر أمنية واحدة هي نصرة الله ومساعدة إخوانهم في المغرب، إلا أن هؤلاء خذلوهم وصدرت فتوى قاسية من قبل أحد أعلام المغرب بعدم مساعدة هؤلاء، فثبّطت عزيمتهم وانهار كلّ شيء.

فلم يبق أمامهم إلاّ رصّ الصفوف والقيام بثورة ضد الاستبداد. وكانت ثورتهم التي قادها محمد بن أمية قد هزّت كل إسبانيا، وألهبت مشاعر أهل الأندلس، وطلبوا النجدة من إخوانهم المسلمين في المشرق والمغرب؛ طلبوا السلاح إلاّ أن هؤلاء، على الرغم من قوتهم الضاربة والفتية، قد أداروا لهم ظهورهم؛ وبطريقة مزيفة وخادعة فشلت الثورة وذهبت ريحها، فتعرض خلالها الأندلسيون لأنواع شتى من البطش، يهون أمامها ماتجرّعوه في السابق.

وماتت الآمال، ولم يبق من أهل الأندلس إلاّ آثارهم وأطلالهم مكتوبة في الأسفار ومنقوشة على الحيطان والقصور والمساجد والمدارس والبيمارستانات والأبنية الأخرى.

وعملت الكنيسة على طمس معالمهم ومحو آثارهم؛ ولكن عزيمة الأندلسيين الذين تنصروا أبقت شيئا من ذلك إلى يومنا هذا، ولم تستطع القوى العابثة محو معالم الإسلام الأندلسي على الرغم من حرق المصاحف والمعاجم اللغوية وكتب التاريخ والأدب والسِّير والأعلام وغيرها.

والأندلسيون الذي تنصروا أُطلق عليهم «الموريسكيون»، وهؤلاء أوجدوا لهم لغتهم الخاصة «الألخميادو» كما أوجدوا لأنفسهم شخصية مميزة استطاعت أن تؤدي دورا بارزا في إسبانيا الجديدة، اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وعمرانيا، وقد برز من بينهم أناس استطاعوا أن ينقلوا لنا صورة المجتمع الموريسكي في زمانهم، ولولاهم لضاع كل شيء، ولانتهت صورة الأندلس منذ سقوط غرناطة.

من هو ألونسو؟

ومن بين هؤلاء، الطبيب المترجم الغرناطي ألونسو دي الكاستيّو ALONSO DEL CASTILLO الذي حفظ لنا أشياء كثيرة من تراث الأندلس بعد سقوطها بأقل من مائة عام.

فمن هو ألونسو دي الكاستيّو؟ إننا لانعرف

الكثير عن هذا الغرناطي المتنصر إلا من خلال ماتركه من مذكرات لولاها لما عرفنا عنه شيئا، إلاّ ما جاء من إشارات في كتب معاصريه أو التابعين لعصره. ونكاد نجهل تماما كل شيء عن السنوات الأولى لنشأته، لكننا نعرف جيدا أنه عاش في مدينة غرناطة أو ضواحيها، وأكمل دراسته في جامعتها، وحصل على الليسانس في الطب، ولكونه موريسكيا، وابنا لمتنصر فقد استخدم من قبل بلدية غرناطة ليكون مترجما لها، وقد أدى وظيفته بأحسن صورة، واستفاد هو من هذه الوظيفة، ليسجل في «كشكوله» - إنْ صَحّ التعبير - كلّ مايطلب منه، يعدُّ ذلك نسخة أولى أو مسوّدة، ومن هذا الكشكول استطعنا معرفة أعماله في غرناطة.

لقد كلفته بلدية غرناطة في سنة ١٥٦٤م، وربما قبل ذلك بقليل، بترجمة ماهو موجود من نقوش آثارية في قصور الحمراء وجنة العريف وخان الفحم -CASA DEL CAR BON، ومدرسة أبي الحجاج يوسف ومشفى المجاذيب ودار السكة وغيرها من البنايات والقصور.

وأُرسلت نُسخة من هذه الترجمة إلى بلاط الملك فيليب الثاني، كما عهد إليه أن يعمل في محاكم التفتيش لترجمة الوثائق سنة ١٥٦٩م، وتحت إشراف دون بدرو كاسترو رئيس المحكمة الملكية في غرناطة.

ثم أصبح فيما بعد سكرتيرا لجبرائيل ثاياس GABBRIEL ZAYAS الذي كانت بينه وبين شريف المغرب مراسلات حول إعادة رفات الملك المنحوس سباستيان، والجنود الأسرى من البرتغاليين والإسبان. وقد دامت هذه المراسلات مدة طويلة.

ونتيجة لخدماته هذه، فقد أُعلن عن اسمه بمرسوم ملكي سنة ١٥٨١م مترجما ملكيا، وعين له مرتب شهري قدره ٢٠٠ دوقية.

تكوين مكتبة الأسكوريال

وفي ١٨ آيار/مايو عام ١٥٨٣ خرج ألونسو دي الكاستيّو من غرناطة للذهاب إلى البلاط مصطحبا الموريسكي المعروف هرنانديث مولاي مع خادم له لاستلام منصبه الجديد بوصفه مترجمًا للملك.

وخلال إقامته في البلاط التي استمرت عدة شهور فقط قام كاستيو بوظيفته خير قيام، وساعد على تكوين مكتبة الأسكوريال الغنية بأمر فيليب الثاني، وجمع الكتب النادرة من أطراف الأندلس وأقاليمها، وعمل فهرسا باللاتينية للكتب العربية المسموح بها في المكتبة، وهي كتب الطب والرياضيات والفلك والنجوم وما شابه ذلك، وعددها ٢٦٧ كتابًا.

أما كتب اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية وغيرها فمصيرها التلف شأنها شأن المصاحف وكتب القراءات والتفسير والكتب الدينية الأخرى.

وخلال وجوده في الأسكوريال قدم لنا ألونسو دي الكاستيّو أسماء العاملين به وبالكنيسة الملكية والديوان الملكي.

اعتمد الباحثون في دراساتهم لنقوش قصر الحمراء على المخطوط الجامع لألونسو دي الكاستيو؛ لأنه يحوي مادة غزيرة فيما يتعلق بكتابات هذا القصر

في مذكراته سنعرف أنه قام بمهمة إلى قرطبة ليلتقي بأمبروسيو مورالس، كما ذهب فيما بعد إلى جيّان حيث وضع يده على كتب عربية كثيرة.

ويبدو أن هذه الكتب كان قد اشتراها المؤرخ المعروف ديجو هورتادو دي مندوثا، والكتب التي أهداها الكونت ميراندا، وتلك الكتب التي جُمعت من أطراف الأندلس كونت النواة الأولى للمكتبة الشهيرة الأسكوريال، غير التي جاءت بعد ذلك التاريخ من قرصنة بحرية على مكتبة مولاي زيدان ملك المغرب.

وقد أدى ألونسو دي الكاستيّو دورا مهما في الضجة التي أحدثتها قضية اكتشاف زيف المخطوطات الرصاصية في قصبة غرناطة، والموجودات الأخرى التي أزعجت روما وكنيستها العظمى. كلّ هذه الأمور وغيرها نجدها في مذكرات هذا الموريسكي الغرناطي.

وقد أتم عمله كمترجم في البلاط موريسكي غرناطي آخر هو ميجيل دي لونا، وكان مؤرخا معروفا وحصل على شهرة مرموقة من خلال تاريخه المعروف، وكان صديقا لكاستيّو.

ويبدو أن ألونسو كانت تربطه صداقة متينة بالمؤرخ المالقي دون لويس مارمول كربخال مؤلف: تاريخ ثورة الموريسكيين وقمعهم في مملكة غرناطة (HISTORIA, REBELION Y CASTIGO DE LOS MORISCOS DEL REINO DE GRANADA) المطبوع في مالقة سنة ١٦٠٠م، الذي استفاد من ترجمات صديقه وذكره كثيرا وأثنى عليه في كتابه هذا وأعماله الأخرى.

مذكرات غزيرة وجامعة

هذا مايتعلق بحياة الموريسكي الغرناطي ألونسو دي الكاستيو. أمّا ماتركه لنا فهو كتابان، أحدهما نشرته الأكاديمية التاريخية الملكية سنة ١٨٥٢م بمدريد ضمن مطبوعاتها «سلسلة المذكرات التاريخية الإسبانية: مجموعة الوثائق، الأبحاث والآثار»، وتحتوي مذكراته على مادة غزيرة وجامعة تتعلق بحياة الموريسكيين وثورتهم ورسائل لابن عبّو، وتضيف هذه المادة معلومات مهمة إلى جانب المدوّنات التي كتبها معاصروه من مؤرخي غرناطة ومالقة في القرن السادس عشر مثل: ديجو هورتادو دي مندوثا السابق الذكر، صاحب كتاب حروب غرناطة GUERRA DE GRANADA؛ ولويس ديل مارمول كربخال LUIS DEL MARMOL CARVAJAL، مؤلف كتاب تاريخ ثورة الموريسكيين السابق الذكر، وخينيس بيرث دي هيتا GINES PEREZ DE HITA مؤلف حروب غرناطة الأهلية GUERRAS CIVILES DE GRANADA الذي يعتقد بعض مؤرخي غرناطة في الوقت الحاضر أنه موريسكي حتى العظم.

وقد وعدت الأكاديمية المذكورة بنشر

ألونسو دي الكاستيّو طبيب ومترجم غرناطي

شاهد على الأحداث «١»

كتاب دي الكاستيّو الآخر الذي سميناه آنفا «الكشكول» بعناية أحد كتاب القرن التاسع عشر وذي الفضل الكبير في جمع المخطوطات العربية وحفظها فيما بعد بالمكتبة الوطنية بمدريد، وهو استيبانيث كالدرون SERAFIN ESTEBANEZ CALDERON، إلا أن الكتاب لم يخرج إلى يومنا هذا.

وتوجد نسخة منه في المكتبة الوطنية برقم (٧٤٥٣)، وفي فهرسة جيلين روبلس للمخطوطات العربية تحت رقم (٥٩٨). يحتوي المخطوط على ٢٩٧ ورقة على الرغم من ضياع بعض أوراقه من أوله ومن آخره، وهي حالة مألوفة بالنسبة للمخطوطات العربية.

ولهذا المخطوط أهمية خاصة؛ فابتداءً من القرن السابع عشر وحتى يومنا هذا نجد أن الباحثين الغربيين قد اعتمدوا عليه في دراساتهم حول نقوش الحمراء؛ لأنه يحتفظ بمادة غزيرة تتعلق بكتاباتها شعرا كان أم نثرا.

لقد أصبحت أعمال ألونسو دي الكاستيّو مصدرا أساسا من مصادر الأب اتشباريا ECHIVARRIA في كتابه جولات في غرناطة PASEOS POR GRANADA، ونشر الكتاب عام ١٧٦٤م. ثم أضحى هذا الكتاب الملهم الأول لكتاب ومؤلفين أوربيين وإسبانيين على حد سواء مثل: لابورد وسوينبورن في رحلاتهما.

دراسة النقوش العربية

وحتى ذلك الزمن كانت دراسة النقوش تأخذ طابعا تاريخيا وأدبيا، إلاّ أننا سنرى بعد ذلك وفي بداية القرن التاسع عشر أن الدراسات ستنحو منحى آخر جديدا، يدخل في إطار علم الآثار العربية. وأول أثر لهذا الحقل هو كتاب: الآثار العربية في إسبانيا ANTIGUIDADES ARABES DE ESPANA لبابلو لوثانو PABLO LOZANO. نشر هذا الكتاب في عام ١٨٠٤م، وطبعته أكاديمية فرناندو الملكية للفنون الجميلة. وقد قام المؤلف فيه بنسخ غير دقيق لكتابات ألونسو دي الكاستيّو، وأضاف إليها أشياء من عنده لم تكن مقبولة في كل الأحوال.

في عام ١٨١٦م، قام شكسبير بترجمة هذه النقوش إلى الإنجليزية، ونشرت ملحقا لكتاب الآثار العربية في إسبانيا ARABIAN ANTIQUITIES OF SPAIN، لمؤلفه جيمس كنفاج مورفي JAMES CANVAGH MURPHY.

كذلك قام جوزيف ديرنبورج JOSEPH DERNBURG بترجمة هذا العمل إلى الفرنسية في سنة ١٨٤١م، ونشره ملحقا لكتاب دراسة عن المعمار العربي الإسلامي ESSAI SUR L'ARCHITECTURE DES ARABES ET DES MORES، لمؤلفه جيرو دو برانجي GIREULT DE PRENGEY.

وقام فرانثيسكو دي جاينجوس FRANCISCO DE GAYANGOS في عام ١٨٤٢م بكتابتها من جديد باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ونشرها ملحقا لكتاب أون جانس OWEN JONS البالغ الروعة تحت عنوان: خطط وشرفات وأقسام وتفصيلات الحمراء PLANS, ELEVATIONS, SECTIONS & DETAILS OF THE ALHAMBRA. وكل المؤلفات الأجنبية قامت دراسة النقوش فيها على الرسوم دون أن تتجه إلى الأصل نفسه مباشرة، وما نشره ديرنبورج تلميذ رينو يفوقها جميعا. لقد استفاد ديرنبورج من رسوم جيرو إضافة إلى خبرته ودراسته التاريخية، لكن زاد في جودة مانشره معرفته الدقيقة بعلم العروض العربي الذي حلّ كثيرا من الغموض والإبهامات.

ثم ظهرت مخطوطة المقّري «أزهار الرياض» التي ضمت قصائد لابن زمرك، أُخذت بعض أشعار النقوش منها، فكان اكتشافا عظيما.

وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر بدأ الغرناطيون والأجانب على حد سواء بالعودة إلى الدراسات التاريخية، وهم يقيمون في غرناطة على الطبيعة في المكان نفسه، ففي عام ١٨٥٩، قام المستشرق الإسباني إميلو لافونت القنطرة EMILIO LAFUENTE ALCANTARA وهو من مدينة شذونة SIDONIA بنشر مؤلفه «النقوش العربية في غرناطة» INSCRIPCIONES ARABES DE GRANADA، وهو مؤلَّف تراثي شهير ورصين للغاية. وقد استفاد هو الآخر من ألونسو دي الكاستيّو وديرنبورج؛ وقد كتب مقدمة تاريخية عن بني نصر، ومازال مؤلَّفه حتى الساعة مفيدا لم يفقد قيمته.

> ساعد المخطوط الجامع الباحثين على معرفة الشعراء الذين دونوا قصائدهم في قصور غرناطة مثل ابن الجياب وابن الخطيب وغيرهما

بعدها نشر أنطونيو ألماجرو كاردَنَس ALMAGRO CARDANAS دراسة عن نقوش غرناطة العربية ESTUDIO SOBRA LAS INSCRIPCIONES ARABES DE GRANADA، وهو كتاب فيه زهو وفيه عُجْب وعَجَلة وسطو على الكتاب السابق، مضيفا إليه بعض الأخطاء المضحكة.

وقد تكفل نيكل بتقويم هذه الدراسة ونقدها في مجلة الأندلس ٤/ص١٧٤-١٧٥، ١٩٣٦-١٩٣٩م.

ومنذ هذا العهد لم تظهر دراسة جادة وشاملة لنقوش الحمراء، وكل ماكتب في هذا الحقل هو استدراك وتصحيح لبعض الجزئيات؛ إلاّ أن هذه الحالة لم تظل هكذا؛ إذ ظهر في عام ١٩١١م على ساحة البحث ماريانو جسبار راميرو MARIANO GASPAR RAMERO الذي نشر سلسلة مهمة من المقالات في مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة وتوابعها بعنوان «نقوش الحمراء».

لقد قام الأب داريو كبانيلاس في جامعة

ألونسو دي الكاستيّو طبيب ومترجم غرناطي
شاهد على الأحداث «١»

غرناطة بدراسة عن الموريسكي الغرناطي ألونسو دي الكاستيّو، ونشرت سنة ١٩٦٥م في غرناطة لكنّها لم تترجم إلى العربية بعد.

وقد اعتمد في دراسته هذه - إضافة إلى كتابيه المذكورين والمعلومات التي فيهما - على الوثائق المتعلقة بالموريسكيين والمخطوطات المحفوظة في أرشيف دير السكرومونته بغرناطة بشكل خاص، كذلك استفاد من مخطوطات مدريد الوطنية، ومعهد دون خوان دي بلنسية في مدريد، ووثائق التعميد والزواج والوفيات في أبرشية سان ميجيل التي تسمى الآن سان خوسيه، ومكتبة الأسكوريال، والمتحفة البريطانية، ووثائق أخرى مختلفة الطابع والمصدر وهي دراسة قيمة وجديرة بالترجمة.

نصوص من كتاب ألونسو

وكتاب ألونسو دي الكاستيو المحفوظ في المكتبة الوطنية بمدريد لم يكن في الأصل مرقما، وبالتالي لم نعرف على وجه الدقة عدد الورقات التي سقطت منه، ولكن يبدو أنها ليست كثيرة، ومع هذا نجد في بدايات الكتاب قائمة بمفردات القاموس المحيط للفيروزابادي مع محاولات لترجمة هذه المفردات للإسبانية. واعتبارا من الورقة (٣) وحتى الورقة (٣٧) كلها دون ترقيم، ويدور موضوعها حول نقوش الحمراء؛ فمن هذه النقوش الشعرية بالطاقة اليمنى من طاقات القبة الغرّاء شعر نصه:

أنا مجلاة عروس
ذات حسن وكمالِ
فانظر الإبريق تَعْرِفْ
فَضْلَ صِدْقي في مقالي
واعتبر تاجي تجده
مُشْبِها تاج الهلال
وابنُ نصر شمسُ ملك
في ضياء وجمال
دام في رفعة شَان
آمنًا وقتَ الزَّوالِ

وبالطاقة التي بقبالة المذكورة شعر نصّه:

أنا فخر لصلاة
سَمتُه سمتُ السَّعادهْ
تحسب الإبريق فيه
قائما يقضي عبادهْ
كلما تفرغ منها
وجبت فيها الإعادهْ
وبمولاي ابن نصر
شرف اللّه عبادهْ
قد نماه سَيِّدُ الخز
رج سعدُ بن عُبَاده

والواقع أن أهم الموضوعات التي سجلها ألونسو دي الكاستيو هي نقوش الحمراء، وبواسطة هذا المخطوط يمكننا ترميم ما أُتلف من نقوش في قصور بني نصر، سواء أكان ذلك متعمدا من قبل ملوك إسبانيا الكاثوليك، أو نتيجة لعوارض الزمن والإهمال. ومن خلال هذه النصوص يمكننا معرفة الشعراء الذين دوّنوا قصائدهم في غرناطة بني الأحمر، في قصورها وجنائنها ومدارسها ومشافيها مثل ابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك.

وقد قامت السيدة ماريا خسوس روبييرا ماتا بدراسة أشعار ابن الجياب المكتوبة على جدران الحمراء وغيرها من الأبنية في غرناطة.

كما نشرت جامعة غرناطة سنة ١٩٨٤م دراسة أدبية معمارية حول الأشعار المنقوشة في طبقان قاعة لاباركا بالحمراء بعناية الأب كبانيلاس وأنطونيو فرناندث بورْتاس. إلاّ أنّها ليست كبيرة فلم تتجاوز هذه النقوش الأدبية ثلاثة أو أربعة شواهد، لكنها حافلة بالصور والتصاميم الهندسية، وأهميتها تأتي من كونها اعتمدت مخطوطة ألونسو دي الكاستيّو.

ومن بين النقوش المكتوبة خارج الحمراء على باب مارستان غرناطة والمعروف على عهد المؤلف بدار السّك تاريخ نصه - بعد الحمد - مايلي: «أمر ببناء هذا المارستان رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة نافعة إن شاء الله لرب العالمين، وخلّد حسنته بالشأن المبين، وأجرى صدقته على مر الأعوام وتوالي السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، المولى الإمام السلطان الهمام الكبير الشاهر الطاهر الظاهر أسعد قومه دولة وأقصاهم في سبيل الله صولة، صاحب الفتوح والصنع الممنوح، والصدر المشروح، المؤيد بالملائكة، ناصر السنّة، كهف الملة، أمير المسلمين الغني بالله أبو عبدالله محمد بن المولى الكبير الشهير السلطان الجليل الدافع المجاهد العادل الحافل الصاعد الظاهر العزيز أمير المسلمين أبي الحجاج ابن المولى السلطان الجليل الشهير المبير المعظم المنصور هازم المشركين وقامع الجفاة المعتدين السعيد الشهير أبي الوليد ابن نصر الأنصاري الخزرجي أنجح الله مرضاته أعماله، وبلّغه فضله العميم وثوابه الجسيم آماله، فاخترع به حسنة لم يُسبق إليها من لدن دخل الإسلام هذه البلاد، واختصر بها طراز فخر على عاتق حلة الجهاد، وقصد وجه الله بابتغاء الأجر والله ذو الفضل العظيم، وقدم نورا يسعى بين يديه ومن خلفه يوم لاينفع مال ولابنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، فكان ابتداء بنائه في العشر الأوسط من شهر المحرم من عام سبعة وستين وسبعمائة، وتمّ ماقصد إليه، ووقف الأوقاف عليه في العشر الأوسط من شهر شوال عام ثمانية وستين وسبعمائة والله لايضيع أجر العاملين».

ومن هنا يتبين لنا أن السلطان الذي قام ببناء هذا المشفى هو أبو عبدالله محمد الغني بالله المتوفى سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م الذي ألف له ابن سماك كتاب «الزهرات المنثورة» وكتاب «الحلل الموْشيَّة في ذكر الأخبار المراكشية».

(للحديث صلة)

مسرح طفل ماقبل المدرسة



عبدالتواب يوسف

المسرحية المكتوبة نص أدبي ... وهي قد تكون شعرية، وقد تتضمن أغنيات أو أناشيد، وهذه أيضا تنتمي إلى الأدب .. لكن المسرح مجمع فنون: فن الإخراج، التمثيل، الحركة، الإطار المسرحي أو الإعداد المكاني (الديكور)، الملابس، التزيين (المكياج)، الإضاءة، الموسيقى، الغناء، الاستعراض.. وصولاً إلى فن المشاهدة الجماعية عند رفع الستار وسقوط الحائط الرابع..

والآن: ماذا عن المسرح لطفل ماقبل المدرسة؟

إن كثيرين يستبعدون المسرح لطفل ماقبل المدرسة لسبب أو لآخر، يرونه فوق طاقة هذا العمر الغض، ويظنون أنه لايجدي معهم كثيرا. فهم قد لايفهمون مايجري أمامهم، ويخلطون خلال ذلك مابين الواقع والخيال.. لذلك يتحدث هذا البعض عن مسرح الطفل اعتبارا من سن السابعة، حين يتعرضون لعلاقة هذا المسرح بأعمار مشاهديه، ويعتقد البعض أن أطفال هذه المرحلة يمكن أن يكتفوا بألعابهم، لأن فيها من التمثيل مايرضيهم، وإذا ما شاركهم فيه الكبار وشجعوا فيهم الدافع (الدرامي)، فسوف يكبرون على فهم للمسرح وتقدير لرسالته، حتى لو لم يشاهدوه ولم تتح لهم الفرصة لمتابعته.

ونحن نختلف مع هؤلاء؛ إذ إن الطفل في هذه السن يحب كثيرا اللعب الإيهامي، ويميل إليه، وهو يفتنٌ بالدمى والعرائس، ويهوى مشاهدتها، بل إذا أتيحت له الفرصة قام بتقليدها، ونرى أن المسرح متعة رائعة، صالح للطفل ومناسب له، فيما بين سن الرابعة والسادسة..

وفي تقدير بيتر سليد أن «الأصوات المختلفة تجتذب الطفل إليها منذ سنواته الأولى، وهو يحب هذه الأصوات، وترنّ في أذنيه إيقاعات ونغمات، من خلالها تتدرب الأذن على سماع الموسيقى، والألحان، والأوزان».

والأداء - أداء الأدوار - والتمثيل نشاط عقلي وجسدي يجلب متعة للمؤدين، والمشاهدين، فلماذا نحرم منه هؤلاء الصغار الذين كثيرا ما يحلو لهم أن يؤدوا أدواراً غير أدوارهم في الحياة، مقلدين أو متقمصين لشخصيات يلتقون بها، أو يشاهدونها؟!

إن بيتر سليد - رائد المسرحية الإبداعية الحديثة - يرى أنه من الضروري أن يشاهد الأطفال المسرح، بل ويمارسوه على أن تترك لهم الحرية في أن يختاروا بأنفسهم لأنفسهم الأعمال الأدبية التي يؤدون أدوارها، ليكونوا مؤدين ومشاهدين في الوقت نفسه، وعلينا أن نكتفي بمساعدتهم بأن نعرض عليهم قصصا تستهويهم لكي يقوموا بها..

ومن هنا لابد لنا أن نناقش موضوع «النص الأدبي» لمسرحية موضوعة لأطفال ماقبل المدرسة، قد تكون لمسرح بشريّ، أو يرتدي ممثلوه أقنعةً وثيابا لحيوانات أو أشياء يؤدون أدوارها، كما أنها قد تكون مسرحية للدمى القفازية أو تحركها الخيوط، وربما تكون مقدمة إليهم من خلال خيال الظل.. وقد يتضمن العرض المسرحي أكثر من لون من هذه الألوان، جذبا للأنظار وإبهاراً للصغير.

صفات مسرح الطفل

ومسرحية طفل ماقبل المدرسة لابد لها بدايةً أن تشد الصغير إليها، وتجتذبه، وتجعله يتابعها في شغف شديد. ولسنا بحاجة إلى أن

نشير إلى ضرورة أن تكون بسيطة غاية في البساطة، وأن تدور حول فكرة واحدة، حتى لايتشتت ذهنه، كما أنه لابد أن تكون عبارات الحوار واضحة، وقصيرة، وأن تكون اللغة المستعملة داخل المفردات المعروفة للطفل، أو تتجاوزها قليلاً من أجل أن نزيد من ثروته اللغوية.. ومن المهم أن يمتلئ العمل بالحركة على ألا تكون عشوائية، بل مرسومة ومحسوبة، ومن الممكن أن تنوب الحركات عن الكلمات، ويجدر بالعمل أن تتنوع أماكن وقوع أحداثه، ليتنقل الممثلون بين هذه الأماكن، وبذلك لايمل الصغير من متابعة مايجري في (ديكور) واحد ثابت، بينما هو في حاجة إلى التبديل والتغيير باستمرار.

لاتصلح خشبة المسرح التقليدي بالستارة المسدلة عليه للأطفال في هذه المرحلة، والأفضل استعمال المسرح الدائري الذي يجلسون فيه من حول مساحة يجري من فوقها التمثيل، وما من ضرورة لأن يسود المكان ظلام كثيف..

ولما كان مسرح الطفل في وطننا العربي يسير بخطى متعثرة إلى حدّ أن ملايين الأطفال يعبرون مرحلة طفولتهم دون أن تتاح لهم مشاهدة ولو مسرحية واحدة، فما بالكم بالصغار قبل المدرسة، لذلك تَطَلَّعنا دائما إلى معرفة مايجري في هذا المجال في البلاد المتقدمة، وكنا نسعى لمشاهدة عمل مسرحي للصغار حتى نقطع برأي في هذه السبيل، إذ لاشك أن هنالك عشرات من التجارب العالمية ترمي إلى تدريب الأطفال على تذوق (الدراما) والاستمتاع بالمسرح في سن مبكرة، وتفتح لهم مشاهدة أعمال تمس وجدانهم، وتفتح عيونهم على هذا المجمع من الفنون التي تجعلهم يتابعونه على مدى العمر، وما من مسوّغ قط لأن تمضي هذه المرحلة السنيّة دون تعرُّف المسرح بكافة ألوانه، ونحن في أمسّ الحاجة إلى تقديم أعمال مسرحية لهم في عمرهم المبكر.

مشاهدة تجربة عملية في مسرح طفل ماقبل المدرسة

أتيحت لي أكثر من فرصة لكي أشاهد هذا المسرح.. وكانت التجربة المثيرة هي مسرح في نيويورك، وهي تستحق أن تسجل وتروى، لأنها نموذج فريد في بابه:

١- المسرح لايدخله الكبار، إلا إذا كانوا بصحبة الأطفال..

- ما العمل وما من أطفال معنا؟



كان لابد من لقاء بالمدير، لنشرح له اهتمامنا بالطفل ومسرحه وأننا من بلد بعيد.. وافق على أن نشهد العرض، دون أن نكون بصحبة الأطفال.

٢- بدأنا بملاحظة أنهم يعطون الكبار تذكرة عادية، بسيطة، وتذكرة الصغار مختلفة، إذ هي تذكرتان ملتصقتان، من خلال ثقوب، ويسهل فصلهما.

سألنا: لماذا؟!

الجواب: حين نأخذ من الكبار تذاكرهم بالباب يعرفون أن ذلك شيء طبيعي، أما الأطفال فإنهم كثيرا مايكون متصورين أننا لن نسمح لهم بالدخول، وبعضهم يرفضون أن يعطوها لنا.. لذلك حللنا المشكلة بالتذكرة (المشرشرة) من الوسط المزدوجة نأخذ منها جانبا ونترك للطفل الجانب الآخر، ليطمئن.. وكثيرون يحتفظون بها لفترات قد تطول، ذكرى، وهؤلاء يبقون هواة للمسرح وأصدقاء له.

٣- وجدنا على الباب الممثلين والممثلات بملابسهم المسرحية.. يستقبلون الأطفال ويلاطفونهم، ويداعبونهم.. قبل أن يدخلوا إلى القاعة، وكان لابدّ أن نسأل: لماذا؟

- بعضهم يخاف عندما نبدأ في الظهور في ثيابنا هذه، ونريد لهم أن يتعودوا علينا وعليها قبل ذلك، ونرغب في أن يألفونا، فلانزعجهم بالظهور فجأة أمامهم في دائرة المسرح بملابسنا الغريبة العجيبة.

٤- ولاحظنا أنهم يفصلون الأبناء عن الآباء، ولايجلس الأطفال قط مع ذويهم.. الكبار في جانب والأطفال في جانب آخر، ذلك من البداية حتى النهاية.

- لماذا؟

- لانريد من الآباء أن يشرحوا، والأبناء يكونون أكثر انضباطا إذا لم يكن آباؤهم بجوارهم، بجانب أنهم يشعرون بالحرية والاستقلالية والقدرة على الاعتماد على النفس.

٥ـ بعـد أن دخل الجمـيع، وأغلقت الأبواب فوجئنا بفتـاة لطيفـة توقف كل الأطفال في سِماط (طابور).. دُهشنا، إلى أين تذهب بهم جميعا قبل العرض؟.. سألنا.. قالوا:

ـ نحن نقودهم إلى (بيت الراحة) (وهي الكلمة العربية التي مازلنا نستعملها في ريف مصر)..

قلنا: هذا تقليد جديد علينا، ماذا وراءه؟

ـ لانريد لهم أن يغادروا أماكنهم أثناء العرض.

وكان العمل الذي شهدناه يدور حول قصة (أليس في بلاد العجائب)، وهي للكاتب لويس كارول، وتعتبر واحدة من أروع كلاسيكيات أدب الأطفال في العالم، وإعدادها للمسرح كان دائما من الصعوبة بمكان، إلى حد أن كثيرين قالوا إنها ليست صالحة لذلك.

وقد اكتفى العرض الذي قُدِّم بشريحة من الرواية، وتضمنت هذه الشريحة (حفل الشاي المجنون)، بجانب بعض الأحداث التي وقعت مع الصغيرة أليس حين اقتفت أثر الأرنب إلى جحر، قامت فيه بمغامرات لطيفة مع شخصيات عديدة، وقد عرضت الرواية كفيلم، ولدى الأطفال المشاهدين فكرة عن العمل من قبل: قصة، وتلوينا.

وكان أن أشركوا الصغار الذين قدموا لمشاهدة المسرحية بأن أجلسوا عددا منهم حول المنضدة التي توضع من فوقها الحلوى وأكواب الشاي، والطريف أنهم اندمجوا تماما في أداء هذا الدور البسيط الذي لايتطلب أكثر من تقليد الذين يشربون الشاي في مثل هذه المناسبة ويأكلون الحلوى، ضاحكين فرحين، وما من حلوى هناك ولا شاي!

وفي تقديرنا أن العمل قد نجح نجاحا كبيرا، وقد تعرفنا إلى بعض الآباء والأمهات خلال العرض، وأتاحوا لنا فرصة إجراء حوار مع أبنائهم، أكد لنا أنهم فهموا الكثير واستمتعوا بما شاهدوه.

تجربة شخصية لمسرح ماقبل المدرسة

وكانت هذه التجربة الموفقة هي التي جعلتني أنحاز بقوة إلى الذين ينادون بضرورة إقامة عروض مسرحية لأطفال ماقبل المدرسة، وبعدها تتابعت مشاهداتي لأعمال مسرحية أخرى، لكن بقيت التجربة الأولى أكبر أثرا وأعمق. وهي التي حفزتني لمحاولة كتابة (نص مسرحي أدبي) يمكن أن يقدم في عرض لهؤلاء الأطفال الصغار، على أن تكون لهم خلفية ولو بسيطة عن العمل المقدم، كأن يكون حول شخصية مشهورة معروفة لهم، أو أن يكون قصة أو حكاية رويت لهم من قبل، وبشكل متواتر، وذلك يتيح لهم فرصة أكبر لفهم مايدور أمامهم، وهناك من قصص الحيوان ماهو ميسور تقديمه للصغار الذين يهوون تقمص شخصية حيوان بذاته..

وأتيحت لي فرصة في واشنطن العاصمة أن أحكي قصة تمثيلية شاركني فيها الأطفال دون أي لون من ألوان التدريب، وكانوا تلقائيين وموفقين كل التوفيق. ورويت حكاية (جمل) يأكل كثيرا، وارتديت جلبابا مغربيا واسعا، وأديت دور الراوي والجمل معًا. قلت إنني جمل يأكل كثيرا ويأكل أي شيء يلقاه في طريقه، وإنني جائع جدًا، لذلك سرت أبحث عما يشبع جوعي، قابلت في الطريق قطة، وسألتهم: ماذا تقول القطة؟! .. وكان لابد أن يبادر بعضهم بالمواء تشبهـًا بالقطة، واستدعيت أعلاهم صوتا وداعبته، وأقنعته بلطف شديد أن آكله، وذلك بأن أضعه تحت جلبابي، وسرت أنا الجمل لألقى كلبا، والسؤال: ماذا يقول الكلب، وبدأت اللعبة تجتذبهم، وأصدر عدد أكبر نباحا، فاخترت واحدا قريبا مني وأدخلته تحت الجلباب مع القطة، والظريف أنهما راحا في مكانهما يداعبان الموجودين بالاستمرار في المواء والنباح. وسرت لألقى بعد ذلك حمارا، وضعته تحت الجلباب، والطريف أن هناك شقيا أصغر، كان برفقة أخيه الذي رفع صوته بالنهيق، وبكى الصغير لكي آكله مع أخيه.



واستمر الجمل في لقاء حيوانات أخرى مثل الخروف ـ بل قابلت طيورا مغردة ـ، وظل يلتهم كل مايلقاه، وكثر لغط الأطفال وعبثهم بعد أن تضخم الجلباب، وكان لابد من أن نكتفي بهذا القدر من اللعب، ويقابل الجمل إنسانا، ويريد أن يأكله، لكن الإنسان يقول له في حسم:

ـ ربما تستطيع أن تأكل غيرك من الحيوانات، لأنها أضعف منك، أما أنا فإنني قوي، لسبب بسيط هو أن عندي (مخ) ولي عقل يفكر، ولي تتمكن أبدا من ابتلاعي.

ويمسك الإنسان بفأس يفتح بها بطن هذا الجمل الشره، وعند ذلك بدأت الحيوانات تخرج منه.. وناديت على القطة أن تخرج، وزحفت من تحت الجلباب، وأنا أقول: إنها خرجت تموء.. وفعلاً خرجت صاحبة دور القطة وهي تموء، وضحكات الأطفال تتعالى، وبعد ذلك خرج صاحب دور الكلب وهو ينبح، وهكذا، والأطفال في قمة السعادة، كما خرج الحماران، والخروف والعصفور، وما إلى ذلك من حيوانات، بعدها أخذ الإنسان الجمل إلى الخياط أو الطبيب، لكي يخيط له بطنه، ثم اقتناه الإنسان، وحوّله إلى سفينة للصحراء تنقله، وتنقل حاجياته.

وأذكر أن الأطفال أبدوا رضاهم عن هذا العمل شبه المسرحي، والذي كان لمشاركتهم فيه أثر كبير في تجاوبهم معه، والاستمتاع به، ويومها تقدمت مني طفلة تحييني وتقول لي:

ـ لقد قدمت عرضا رائعا.

وتقدم شقيقها ليقول لي:

ـ لكنك ياسيدي التهمت حمارين ولم يخرج من بطنك غير حمار واحد، أين ذهب الثاني؟!

وقهقه الأطفال ينتظرون الرد، فقلت لهم:

ـ سوف أصحبه إلى مصر، وسينتظركم هناك لتركبوه حماراً أمريكيا لطيفا، يدور بكم



ويلف حول أهرامات الجيزة، حين تأتون لمشاهدتها.

علي كوجيا أول دراما إبداعية في العالم

نجح المسرح مع أطفال ماقبل المدرسة، وكان لابد من التفكير في استخدام الدراما الإبداعية معهم (GREATIVE DRAMA)

.. كما كان من الضروري الاستفادة من (LET US PRETEND)، وأيضا (MAKE BELIVE) ونود أن نلقي الضوء على كل من هذه الألوان..

هناك من تمادوا، وحاولوا الاستفادة من الدراما الإبداعية.. وفيها يتشكل فريق من الأطفال، مع مربّ أو مخرج، يحكي لهم قصة، ويحدد معهم شخصياتها، وأبطالها، ويسألهم: من منهم يصلح لأداء دور كل شخصية منها؟ ثم يقومون بتمثيل العمل، مختارين لأنفسهم كلمات الحوار الذي يدور، وذلك بطريقة تلقائية، تعينهم على التعبير عن أنفسهم.

ولما كنا نحن العرب أول من ابتكر الدراما الإبداعية من خلال قصتنا الشهيرة (علي كوجيا)، لذلك كان لابد من منح هذا اللون فرصة للذيوع والانتشار من خلال تجربته مع الأطفال.. و(علي كوجيا) عمل مثير، ربما يصعب فهمه على الأعمار الصغيرة، إلا أنه نموذج يمكن أن ننسج على منواله، لذلك نود أن نعرض له في شيء من التفصيل، وخاصة أنه يعتبر أول دراما إبداعية في العالم.

هذه القصة يقال إنها حدثت في أيام هارون الرشيد، وقد تناولها المرحوم كامل الكيلاني بقلمه في عرض جذاب لفت إليها الأنظار وعرفها كثيرون بعنوان (قدرة الزيتون)، وقد قدمت بعده من خلال الإذاعة والتلفاز ، بل المسرح في الكويت وغيرها، إذ هي في الواقع نموذج فريد لأدب الطفل، لأنها أدركت من وقت مبكر أن عالمه يختلف كثيرا عن عالم الكبار، ونحن نركز هنا في عرضنا لها على هذه الخصوصية.

«علي كوجيا» تاجر، فكر في السفر، وأعد له ، وتبقى معه ألف دينار، خشي أن يأخذها معه. ورأى أن يودعها لدى صديق له، فوضعها في جرّة، ومن فوقها كمية من الزيتون.. وسافر ثم عاد بعد سنوات يطلب وديعته، وإذا به يكتشف اختفاء النقود، فرفع أمره للقاضي الذي برأ الرجل، واضطر علي كوجيا أن يلجأ إلى هارون الرشيد نفسه، وفي ذلك الوقت كان الخليفة يطوف بالمدينة والتقى بمجموعة من الأطفال يمثلون حكاية علي كوجيا مع التاجر، وكان أن طلب الطفل الذي يقوم بدور القاضي أن يأتي التاجر بجرّة الزيتون، ويفتحها، ليجد أن الزيتون حديث، وبذلك كشف ألعوبة التاجر، واستدعى الخليفة الطفل القاضي ليحكم في القضية الأصلية فأدان الرجل.

وما من شك في أن هذه - في تقديرنا - دراما إبداعية قام بها الأطفال أمام الخليفة، وأنهم قد أناروا له الطريق بالنسبة للقضية الأصلية، وكان قد شاع أمرها وذاع بين الناس، ليصل إلى الأطفال ليصنعوا منها هذا العمل الإبداعي، أي إن الدراما التلقائية ليست وليدة بيتر سليد، أو بعض أساتذة الإبداع أو التربية، بل هي تراث عربي قديم، يقف رائعا وشامخا، مؤكدا قدرة الإنسان العربي على الإبداع، ثم هي أيضا تثبت أنه كان لديهم مسرح في الشارع، وأنهم - أي الأطفال - كانوا يقومون بالتمثيل والاستمتاع بالإبداع والمشاهدة في الوقت نفسه.. لكن يبرز سؤال:

- لماذا لم يشع مثل هذا العمل الابتكاري؟

نعتقد أن الأمر لابد أن يكون قد انتشر من خلال ما ابتكره العرب من أعمال درامية، من خلال فن «خيال الظل» و «الأراجوز»؛ فقد لوحظ أن حكايات من هذا القبيل تتخلل الأعمال الطويلة التي أداها «المحبظاتية»، وأن عددا منها قد عرض في «السامر»، ومن خلال «الحكواتي» و«الراوي» سواء في المقاهي، أو أثناء جولات في القرى والأرياف.

والموضوع الذي يجدر بنا أن ننشغل به هو:

- هل يمكن استثمار هذا اللون من المسرح مع أطفال ماقبل المدرسة؟

نحن نعترف بأن أطفالنا عاجزون إلى حد كبير عن التعبير عن أنفسهم، فما من أفكار وتجارب لديهم ثرية وغزيرة، وما من ثروة لغوية تساعدهم على التعبير عنها إن هي وجدت، وإذا تحققت هذه وتلك نكتشف أنه ليست لديهم الشجاعة الكافية لذلك.. ونحن بحاجة إلى تنشيط ذهني مستمر لعقولهم الغضة، كما نود أن ندخلهم في تجارب تثري هذه العقول، ولابد أن نزيد من قدراتهم على التعبير وامتلاك ناصية اللغة، بجانب تشجيعهم على أن ينطلقوا. ومانظن أن هناك سبيلاً لكل ذلك أفضل من الدراما التلقائية، التي أبدعناها ونسيناها.

لذلك فنحن في مسيس الحاجة إلى هذه الدراما، بجانب ما يُسمى (MAKE BE-LIVE) التي تعني تحويل المشاهد الخيالية التي يراها الطفل على المسرح إلى واقع معيشي، والعكس صحيح في مدرسة (LET US PRETEND) أي دعنا نتخيل ونتصور أنفسنا في موقف بذاته: كيف نتصور أنفسنا وكيف نتصرف وماذا نقول؟ وما إلى ذلك من تدريب للأطفال على التفكير السريع، والمنطقي، الذي يواجهون به المواقف الصعبة والمشكلات الطارئة، والطفل في هذه الدراما «ممثل» و«متفرج» و«مؤلف» للحوار، بمعنى أنه يؤدي دورا، ويشاهد نفسه، ويختار بنفسه لنفسه الكلمات التي تجري على لسانه، وهو بذلك يكتشف الكثير من نواحي الحياة، وينمو ويتطور أيضا، إذ يعبر عن نفسه وعن الآخر الذي يتقمص دوره، ويمارس لونا من الحرية المنظمة، ويتدرب عليها.

إن النص الأدبي المكتوب هو الأساس الأول الذي تقوم عليه ألوان الفنون المسرحية كافة، وعلى جودته يعتمد النجاح للعرض، لذلك يجب أن تكون العناية به كبيرة وجادة.

من تجاربهم

أوراق من شجرة العمر (١)



محمد العربي الخطابي

ليست هذه شذرات من سيرة ذاتية، بل هي محض انطباعات ارتسمت في النفس وأثقلها تراكم التجارب وتقدم العمر..

في سكون الليل

كان منزلنا، حيث نشأت، قريبًا من سور المدينة، مجاورًا لمسجد "المعمورة"؛ ومازلت أذكر أنني في حداثة سني كنت أستلقي على فراشي لأنام، فيداهمني صوت كئيب متطقع يشبه الولولة، ينفذ من كوة صغيرة في حائط الغرفة، فأرهف سمعي وأحبس أنفاسي ويعتريني إحساسٌ بالوحشة يلازمني إلى أن يغلبني سلطان النوم.

كانت أمي تطمئنني وتقول: إن ما تسمعه في الليل هو صوتُ البوم، وهي طيور ليلية تؤثر الظلام وتسكن الخراب وأعالي الأشجار.

بقيت مدة من الزمن أتصور أن البوم طائر جارح، وثّاب، ضخم الجثة، حادُّ المخالب، أسود الإهاب.

وذاتَ يوم، بينما كنت ألعب في الصباح مع بعض رفاقي خارج سور المدينة تحت أشجار الصفصاف إذ وقع بصرنا على جثة طائر مسجاة فوق الأوراق الساقطة، وما كدنا نقترب من هذه الكومة الهامدة حتى اندس بيننا رجل من أهل الجبال لا نعرفه، وألقى نظرة على جثة الطائر، وقال بكثير من الثقة: هذه بومة ميتة يبدو أنها سقطت في الليل من أعلى الصفصافة، فلا تقربوها فإنها نذير شؤم!

لم أكد أصدق ما رأيت وما سمعت، وقلت في نفسي: أهذه هي البومة التي كثيرًا ما أثارت ولولتها أحاسيس الوحشة في نفسي؟ أيصح أن يقال عن هذا الطائر الصغير المسكين إنه نذير شؤم مع أن منظره يثير الشفقة؟

وفي زمان طفولتي أيضا كثيرًا ما كنت أستيقظ في الفجر على صوت دافئ شجي يتردد في الأعالي كالدعاء المستجاب، يتسرب من كوة غرفتي عذبا، خاشعا، يرتفع وينخفض، أصغي إليه فتسكن نفسي.. إنه صوت المؤذن ينبعث من فوق مئذنة "المعمورة" يُعلن اقتراب الفجر.

لم يكن يخطر ببالي ـ وأنا حَدَثٌ ـ أن صاحب هذا الصوت المتهجد الذي يؤنس السكون رجل يغفو وينام، ويجوع ويأكل، ويسعى في طرق المدينة كسائر الناس، بل كنت أتصوره يُحلِّق في فضاء حارتنا، ويحوم حوالى "المعمورة" كلما حان موعد الفجر، يهلل ثم يختفي في الأفق البعيد.

وهكذا ترسب الليل في أعماق مخيلتي منذ الطفولة، وبقي عندي بمثابة تعبير عن الزمان والمكان، ورمز للوجود والعدم؛ إذ فيه تخمد أنفاس الناس، وتتباين أحلامهم، وتسبح في ظلمته الأشباح والطيوف من كل جنس، وما زال الليل يشدني إليه بحباله، يرهف حواسي، ويشعرني بأن للأشياء كلها نهاية قد نتعامى عنها في ضوء النهار، ولكنها تبقى ماثلة أمامنا لا تُفارقنا حقيقتها طرفة عين.

لم أكن في النهار أجد تفسيرًا لأي شيء يلامس حواسي أو يطرق أبواب مداركي، فإذا ما سجا الليل وتكاثف ظلامه تهيأ لي أن الأشياء الغامضة تخاطبني بألفاظ صامتة يدركها وجداني، وأن الأسرار الكونية تنجلي أمامي مع أن عينيَّ مغمضتان وذهني ساكن.

البراءة والتجربة

تُرى، هل الطفولة تنتهي في مرحلة من العمر معلومة، أم هي تنمو في نفوسنا وتبقى عالقة بأحلامنا مهما تقدمت بنا السن وتقاذفتنا أمواج الحياة؟

والطفولة، هل هي البراءة التي تسكن قلوب الصبيان وتطبع سلوكهم، أم إنها مقادير تخضع لمنطق العدد وأحكام المساحة؟ والتجربة التي ترسخ في النفوس مع تقدم العمر، هل تمحو ألوان البراءة أم تغطيها بقشرة رقيقة من غبار الزمان؟

"شارل بيغي"(١) لا يَرى في التجربة سوى الضياع والضآلة وفقدان الأمل، فالبراءة عنده هي العامرة، والتجربة هي الفارغة.

وأما "وليم بلايك"(٢) فقد طرح شبَّابته المرحة جانبًا، وغنّى بصوته لحن الحُملان استجابة لنداء البراءة، ثم اقتطف قصبة وصنع منها يراعا وقعد يكتب أغانيه السعيدة "كي يبتهج بها كل طفل يسمعها".

وهأنذا أحاول الإصغاء إلى صوت الطفولة من منطلق التجربة التي أثقلتني بها السنون، وأفقدتني كثيرًا من الأشياء الناعمة التي طالما لامست كياني وأرهفت مشاعري في مُقتبل العمر.

الرَّبض الأسفل

كان بيتنا واقعًا في حي "الربض الأسفل"(٣) من المدينة، قريبًا من السور الذي

يحيط بها كالسِّوار، على مقربة من "باب العُقلة"، أحد أبواب المدينة السبعة الكبرى.

ومع أنني لم أهتد قط إلى معرفة المعالم الاصطلاحية التي تفصل بين "الربض الأسفل" وبقية أحياء المدينة الوسطى والعليا؛ إلا أنني تمكنت بمرور الزمن وتكرار الملاحظة وطول السعي في الأزقة والدروب أن أرسم في ذهني صورة تقريبية محسوسة لامتداد حينا ومنتهاه، وذلك بفضل معرفتي بسكانه وأحوالهم ومواقع بيوتهم وجوامعهم وأسواقهم. فسكان "الربض الأسفل" يتميزون من أهل الأحياء الأخرى بسمات لا تخطئها عين البصير، وكنت أعتقد ـ ومازلت ـ أن الناس هم الذين يضفون على كل شيء طابعه المُمَيِّز وشخصيته الخاصة، وأن سكانه هم الذين يرسمون ملامحه، ويقيمون معالمه بطريقتهم في المشي، وأسلوبهم في التخاطب والتعامل، ودأبهم في السعي، وعاداتهم في الذهاب والإياب، ومسلكهم في النظر والالتفات والإشارة، فبهذا المقياس كنت أقدر في نفسي حدود "الربض الأسفل" وأرسم في ذهني معالمه، غير مُبال بالمواضعات الإدارية التي لا تقدم في هذا الشأن ولا تؤخر.

كنتُ، وأنا طفلٌ صغير، أعرف جلَّ أهل حَيِّنا بالاسم والصفة ونبرة الصوت وطريقة المشي ونوع الحرفة، وكان يبدو لي وأنا أشاهدهم في الأزقَّة أن كل واحد منهم يلتزم خطًا للسير ثابتا لا يَحيد عنه في ذهابه وإيابه، وأن لكل فرد إيقاعًا متميزًا في المشي والوقوف والحركة والسكون يتناسب مع سنِّه ومهنته، ومركزه الاجتماعي، فما من أحد منهم إلا وله سمت معين وقصد ثابت لا يكاد يتغير؛ إلا إذا حدثت في الحي وفاة أو فرح أو مطر وابل أو ما شابه ذلك من طوارئ، وأما في أيام الله العادية فالسعي واحدٌ، والحركة إنما تكون بين البيت والمسجد والسوق ومكان العمل، وكأنها محاكاة لحركة الفلك الدائبة، وحتى زيارة الأقارب إنما تكون في مناسبات معينة وأوقات معلومة، والسعي إلى الحَمّامات العمومية له أيضًا ضوابطه وترتيباته ومواعيده.

كان الناس في "الربض الأسفل" كعقارب الساعة تسجل الثواني والدقائق بانتظام ورتابة لا تُبالي بما مَرَّ من الوقت ولا تستعجل ماهو آتٍ منه.

كان هذا الحي الودود في زمان صباي هو عالمي ومرتعي، أعرف دروبه وأزقته ومسالكه ومنازله؛ ومع أنني كنت أفترض وجود "ربض أعلى" في جهة ما من المدينة إلا أنني لم أُبد أي اهتمام بمعرفته واستقصاء أحوال سكانه، هذا إن كان له وجودٌ بالفعل.

نعم، كنت أسمع أن هنالك في أعالي المدينة، في سفح "جبل درسة"(٤) حارة اسمها "الطلعة" يتحاشى الناس ذكرها، ويجدون في أنفسهم حرجا شديدًا لمجرد سماع اسمها، ذلك أن "الطلعة" كانت ـ كما علمت في سن الشباب ـ حارة منعزلة عن المدينة تقيم فيها بائعات الهوى، وكانت هذه المَباءة من مُنشآت "الحماية الإسبانية" التي بسطت سلطانها على شمال المغرب عام ١٩١٢م، وأنشأت في "جبل درسة" معسكرًا لجنودها.

وبين "الطلعة" وأسافل المدينة حَيٌّ كبيرٌ آخر مزدحم بالسكان اسمه "العُيون"، لم يكن أحد من أهل "الربض الأسفل" يغامر بالتوغل في أزقته ودروبه، وكأنه جسمٌ غريب مقطوع الصلة ببقية المدينة، مع أنه جزء منها وامتداد لها من جهة "السوق الفوقي" الذي لا تفتر فيه حركة البيع والشراء، ومن جهة "حارة الحدادين" المؤدية إلى شارع "الاطرنكات"؛ وهو حي تجاري كبير تتفرع منه أزقة سكنية هادئة كزنقة "الزاوية" وزنقة "القائد أحمد" وزنقة "المشور" المؤدية كلها إلى ساحة "الفدان" الشهيرة التي تفصل بين المدينة العتيقة والحي الأوربي الجديد.

وربما يكون السبب في العزلة المضروبة على "حي العيون" راجعًا إلى متاخمته "للطلعة"، واكتظاظه بخلائق من البرّانيين الواردين على المدينة من مختلف الجهات للإقامة فيها وطلب الرزق في أكنافها. ومع ذلك فقد كان من أهل "العيون" صفوة من أفاضل الناس المعروفين بالصلاح والوقار، والمنتسبين إلى بيوتات عريقة. وينتهي هذا الحي الواسع إلى "باب النوادر" الذي تشعر وأنت قريب منه بأنه منفذ جُعل للخروج من المدينة فقط، مع أنه كان أيضًا بابًا لولوج القادمين إليها من مدينة طنجة وأحوازها، أيام كانت الأبواب الكبرى توصد قبل غروب الشمس ولا تُفتح إلا في صباح اليوم التالي، إذ لم يكن يُسْمَح لغريب بالمبيت داخل المدينة ما لم يكن له فيها أقرباء يكفلونه ليأمن الناس منه.

وكان "الربض الأسفل" الذي أتحدث عنه حيًا كبيرًا واسع الأرجاء، أزقته مفتوحة يؤدي بعضها إلى بعض، وتوصل كلها إلى «الجامع الكبير» القائم على ربوة في وسط الحي؛ والأزقة فيه تطول أو تقصر، تتسع أو تضيق، وهي نظيفة هادئة، مرصوفة بالحجارة الصغيرة، والمنازل قائمة مصفوفة في جنبيها متقابلة لا تبدو منها غير أبوابها، ويندر أن يكون لها نوافذ على الخارج لأن الدور مفتوحة على السماء والهواء من داخلها. وفي الحي أسواق ومتاجر وحوانيتُ وحمامات وأفران فضلاً عن عدد من المساجد الصغيرة والمتوسطة. وكانت أسطح المنازل مقصورة على النساء ينشرن فيها الغسيل، ويتخذن منها أمكنة للجلوس والثرثرة في المساء أيام الصيف، ومن أجل ذلك كانت سطوح المنازل مزدانة جلها بالأصص والمحابق(*) المغروس فيها أنواعٌ من الرياحين والأعشاب المزهرة التي تلقى من رباب البيوت عناية حانية. وكانت هذه السطوح بمثابة مراصد ترقب منها النسوة الهلال المبشر بحلول رمضان أو الأعياد، فإذا شاهدنه في اليوم التاسع والعشرين امتلأت سماء المدينة بالزغاريد، وقلوب الناس بالفرحة.

هذا وفي أزقة الحي عدد من السقائف والسوابيط(٥) يَمُرُّ الناس تحتها فتدرأ عنهم المطر في الشتاء، وتقيهم لفحة الشمس في الصيف. وكان "ساباط الرُّكَيْنة" القريب من بيتنا هو مكاني المفضل؛ أجتمع فيه بأصحابي، وأمرح معهم في أوقات معلومة حينما لا يكون لنا ما يشغلنا من أمور الدراسة وغيرها. وكان "الركينة" الذي يُنْسَب إليه الساباط رجلٌ من وجهاء حَيِّنا، وبيته هنالك من أكبر المنازل وأكثرها جَمالاً، يعلوه "منزه" مغطى بالزجاج الملون، وهو يُشرف على الحقول المنتشرة خارج سور المدينة، من جهة "باب العقلة"، وربما

شوهد منه شاطئ البحر في امتداده المعروف بمرتيل(٦)، وهو مصيف أهل تطوان ومرفأ مدينتهم، يقضون فيه شطرًا من فصل الصيف، وأما في الربيع فيكثر ترددهم على الجنان والبساتين المنتشرة في ضواحي المدينة المغروس فيها أشجار الفاكهة من تفاح وإجّاص وبرقوق وتين فضلاً عن الأزهار والرياحين وأصناف من البقول الطيبة. ويندر أن تجد من أهل المدينة أسرة لا تملك بستانًا في الضواحي القريبة، كالطوابل، وبو جراح، والمر، ومجاز الحجر، وكيتان، وغير ذلك من الأماكن الرافلة في الخضرة، المنتعشة بالمياه الجارية.

البياضُ وعبير الزهر

استقر بذهني وأنا طفل صغير أن المدن لا تتميز بعضها من بعض بمبانيها ونظام شوارعها وأسواقها وهيئة سكانها فحسب، بل إن لكل مدينة لونا يغلب عليها، وعبيرًا متميزا ينتشر في فضائها ويمتزج بهوائها.

وقد ارتسم في مخيلتي أن البياض هو اللون الذي اختصت به تطوان، يصفها الواصف فيقول عنها إنها "حمامة بيضاء" لا بسبب ما يكسوها من بياضٍ فحسب، بل لأنها تبدو لمن يشاهدها من بعيدٍ كحمامة باسطة جناحيها تتأهب للطيران.

وملابس الناس في الأعياد والأفراح والمآتم بيضاء، يستوي في ذلك الرجال والنساء.

والياسمين الأبيض هو الزهر المفضَّل عند أهل "تطوان" يغرسون شُجيراته الرقيقة في صحن المنازل وسطوحها، ويصنع النساء من زهره الناعم الغض قلائد تباع في الأسواق ويُتهادى بها، ولا تُزف عروس إلى بيت بعلها إلا وجيدها مُحلى بعقد من الياسمين فضلاً عن عقود الجوهر الأبيض وضروب أخرى من الحُليّ.

ليس هذا فحسب؛ بل إن دعاء النساء لمن يرضون عنه هو "الله يُبيض سعدك"، لاعتقادهن أن "السعد الأبيض" يبعث السكينة في النفس، ويحفظها من كوابيس الحياة ودواهيها.

وكانت النسوة يتلفعن برداء ناصع البياض كالسكر المكرر يعرف بالحايك، لا يغادرن البيت لزيارة الأقارب إلا وهن ملتحفات به لا يُبدي من زينتهن شيئًا، ويغطين وجوههن بحجاب خفيف أبيض مطرز بخيوط رقيقة زرقاء من ثوب يعرف عندهن بالحياتي.

وعمائم الرجال بيضاء لا وَشْيَ فيها ولا تطريز، وأما العمائمُ المطرزة بالحرير الأصفر فكانت من نصيب سكان القرى الجبلية، يلفونها بطريقة خاصة تظهر فيها الصنعة والتأنق، وتسمى "الشرقوية" وكانت تستورد من بلاد الشام، ويتخذ منها أهل تطوان أغلفةً للمراتب في بيوتهم ويضعون فوقها سجادًا منمقًا ذا ألوان وزخارف بديعة.

فإذا كان البياض ـ كما علمنا ـ هو لون تطوان فإن رائحة زهر البرتقال هي عبيرها الممتزج بثراها وهوائها في كل وقت وحين، يفوح في المدينة حتى في غير زمان تفتحه، ويملأ خياشيم الناس حقيقة أو مجازًا.

وكانت أشجارُ البرتقال والنارنج والليمون تملأ الجنان في الضواحي، وتزدان بها الرياض في عدد من دور المدينة. واشتهرت ضاحية "كيتان" بكثرة برتقالها الطيب الحلو ذي القشرة الرقيقة العطرة. وفي وقت تفتح الزهر تقطف القرويات كميات كبيرة منه، ويحملنه إلى المدينة فيشتريه الناس، ويقطرونه ويضعونه في قوارير يحكمون غلقها، ويحفظونه لوقت الحاجة، يتطيب به الرجال والنساء على السواء في أيام الجمعة والأعياد والأفراح، كما يستعمل في صنع بعض أنواع الحلوى، وما من بيت إلا وفيه "مرَشّات" معدنية مبيضة بالفضة تقدم للضيوف مملوءة بماء الزهر، ينضحون به وجوههم ورؤوسهم فينتعشون بذلك وتطيب نفوسهم.

وفضلاً عن رائحة زهر البرتقال التي تختلط بهواء المدينة، فإن خُبز القمح والشعير أيضًا ما يفتأ يفوح في النهار؛ فتنتشر منه رائحةٌ شهية منعشة تنبعث من الأفران العمومية المنبثة في كل مكان، فقد كان من عادة كل بيت أن يصنع خبزه ويبعث به ـ عند الاختمار ـ إلى الفرن للإنضاج، ويُستعمل في حمله من الدار إلى الفرن ومن الفرن إلى الدار صبيانٌ نشطون، يعرفون بالطرّاحين، يتقاضون في مقابل أتعابهم قرصا صغيرًا من الخبز بينما ينوب المعلمَ الفرانَ قرص كبير يتجمع لديه منه قدر معلوم فيبيعه في المساء للقرويين، ويتعيَّش بثمنه، ولا يبقى منه إلا ما يحتاج إليه هو وأهله.

ظلال الماضي

كانت الحياة في تطوان تنساب بهدوء يتمثل في حركة الناس وسعيهم اليومي على ما بينهم من اختلاف في المهنة ونوع النشاط، لا في المقاصد والغايات، فإن منهم الفقيه والمدرس والموظف الحكومي والنجار والحداد والبناء والبقال والبزَّار، ولكنهم جميعًا يحرصون على أن تجري الأمور في مدينتهم على وتيرة لا تقطعها المشكلات الطارئة والعوارض المباغتة، وهم من أجل ذلك مطبوعون على التحلي بالقناعة والصبر والأناة والتوسط في الأمور، وكلٌّ من خرج منهم عن هذه القواعد الصارمة في السلوك عَدُّوه متهورا وتجنبوه، وهم يتسمون ـ عامة ـ بالحذر والحيطة والكتمان؛ بحيث يظن غيرهم من الغرباء الطارئين على مدينتهم أنهم منغلقون على أنفسهم؛ لأنهم لا يتبسطون في الكلام، ولا يسرفون في توزيع المجاملات اللفظية على من لا يعرفونه، والحقيقة إنهم مهذبون بالطبع، فيهم رقة ولباقة، ويغلب عليهم الحياء وقلة الفضول والتبصر في عواقب الأمور، صغيرة كانت أو كبيرة، فهم لا يقدمون على سعي يمكن أن يجرهم إلى ركوب مخاطرة بنفس أو مال، ولذلك قلَّ بينهم طلاب الثراء والجاه والدنيا، وبقي مجتمعهم وسطًا ينعدم فيه التفاوت الاجتماعي والاقتصادي المفرط. وكان يؤخذ عليهم أنهم يعاملون الغرباء بكثير من الحيطة والارتياب ولا يطمئنون إليهم إلا إذا خبروا سريرتهم وتأكدوا أن لهم نصيبا من علم أو صناعة أو غير ذلك مما يعصمهم من السؤال والتسكع وإقلاق راحة الناس.

إن لطباع أهل تطوان تفسيرًا يمكن استنباطه من تاريخ مدينتهم وتقلبات أحوالها، وذلك أن طائفة من سكانها ينحدرون من أصلاب المهاجرين الأندلسيين الذين أُرغموا على مغادرة وطنهم إثر سقوط مملكة غرناطة النصرية في القرن التاسع الهجري (نهاية القرن الخامس عشر الميلادي)، واستقرت طائفة من

مهاجرتهم بالمكان الذي كان معروفًا باسم «تيطاوين»(٧) في الجزء الشمالي الشرقي من بلاد المغرب الأقصى، على بُعد مرحلة من مدينة سبتة المطلة على مضيق جبل طارق. وقد تعرضت «تيطاوين» القديمة للهدم والتخريب والنهب على يد الإسبانيين ولم يبق منها إلا رسوم ومعالم، منها المسجد الذي بناه الشيخ الصالح سيدي عبدالقادر التبين الغرناطي في القرن السادس الهجري، ثم أعاد بناءها وتعميرها القائد الأندلسي أبوالحسن علي المنظري(٨) بمساعدة حامية مؤلفة من محاربي قبائل الريف، وما تزال آثار القائد المنظري قائمة في المدينة، ومنها "جامع القصبة" الشهير وما يحيط به من أبراج محصنة، وضريحه مايزال معروفًا، وهو قريب من «باب المقابر». هذا وقد تواردت على تطوان بعد تعميرها موجات أخرى من الأندلسيين، عُرفوا عند الإسبان باسم "المورسكيين"(٩)، وهم المسلمون الذين فضلوا البقاء في ديارهم الأندلسية تحت حكم النصارى، وأرغموا على التخلي عن لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية، وتظاهروا باعتناق المسيحية، ولكنهم لم يسلموا مع ذلك من الاضطهاد والملاحقة؛ حتى طردوا من بلادهم جملة وبصفة نهائية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي.

وبقيت تطوان معدودةً من ضمن الثغور المهددة باستمرار من الخارج لقربها من البحر ومتاخمتها لمدينة سبتة التي غزاها البرتغاليون في القرن الخامس عشر الميلادي، وطَمسوا معالمها الإسلامية، ثم تنازلوا عنها للإسبانيين الذين اتخذوا منها معتقلا يحبسون فيه المجرمين وقطاع الطرق والثوار من بني جنسهم بعد أن كانت محلة للعلم والحضارة والأمان.

ونتيجة لكل ما ذُكر كان على أهل تطوان أن يبقوا على حذر دائم واستعداد متيقظ تجاه الإسبانيين والبرتغاليين الذين لم تهدأ قط مطامعهم، ولم تنقطع محاولاتهم الرامية إلى مداهمة الثغور البحرية المغربية وغزوها وتفكيك حاميتها. وفي عام ١٨٥٩م تمكن الإسبانيون بالفعل من الإغارة على تطوان واحتلالها وانتهاك حرماتها، ولم يخرجوا منها إلا بعد سنتين مقابل شروط مالية وسياسية قاسية اضطرت الحكومة المغربية إلى قبولها تحت ضغط الظروف المتمثلة في تداعي الأحوال الداخلية وضعف السلطة المركزية، وهو ما أدى بعد ذلك إلى بسط "الحماية" الأجنبية على المغرب وتوزيع أرضه بين الإسبانيين والفرنسيين وإقامة نظام دولي في ثغر طنجة منذ عام ١٩١٢م.

وهكذا، فإن موقع تطوان على ثغر هش تتهدده الغارات الأجنبية باستمرار طبع سلوك أهلها بالحذر والارتياب واليقظة، وجعلهم يبدون في أعين غيرهم منغلقين على أنفسهم، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك مالم تلجئهم الضرورة إلى مضاعفة الحيطة لمواجهة خطر محتمل، يمكن أن يزعزع في نفوسهم الثقة بما يتطلعون إليه على الدوام من أمنٍ وهدوءٍ واستقرار.

واشتُهر أهل تطوان بالاقتصاد في النفقة وكراهية التبذير، يستوي في ذلك غنيهم وفقيرهم، ولذلك تشابهت عاداتهم في الأكل واللباس وإقامة الأفراح والمآتم؛ فإن الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين الناس كانت ضئيلة بحيث لا يتفاضلون إلا في مظاهر يفرضها صنف المهنة التي يتعاطاها كل واحد منهم، أما الثراء الفاحش فلم يكن معروفًا بينهم، وإنما هي أرزاق مقسومة ينال منها كلُّ واحد نصيبه، قليلاً كان أو كثيراً فيقنع به ويرضى عنه، وكان أغنى الناس فيهم أصحاب الأملاك المستثمرة، فضلاً عن بعض أرباب الصنائع المربحة كالدباغة والخرازة والنجارة، وكان المثل يضرب للدلالة على مبلغ الغنى فيقال: فلان عنده مائة مثقال وبغلة، والبغلة كانت من العلامات الدالة على الوجاهة والغنى، يركبها صاحبها حينما يريد الخروج من المدينة إلى الحقول والجنان القريبة منها، بينما يمشي غيره على رجليه أو يمتطي حماراً وديعًا إن كان له.

طباعٌ ونماذج

كانت الأزقة والدروب في مدينتنا تبدو وكأنها تُعْرب عن طباع السكان وما جُبلوا عليه من حرص على الهدوء، ونشدان للأمن، ونفور من التظاهر والمباهاة، وميل إلى احترام الجار، وإيثار للتستر والكتمان. ومع اتفاقهم جميعًا على اتباع هذا النهج من السلوك، فإن كل واحد منهم كان نموذجًا منفردًا ومتميزًا عن النموذج الآخر في الهيئة والسمت والمظهر.

لقد كان لكل فرد من سكان حَيِّنا موقعٌ خاص به، يتحرك في محيطه ولا يكاد يتعداه، وربما تقاطعت المواقع أو تلاقت على نحو ما، إلا أن كل موقع يبقى محفوظا لهذا النموذج أو ذاك، مختصاً به.

وقد انطبعت في ذاكرتي صورٌ ثابتة لأفراد معدودين من سكان حينا، يتميزُ الواحدُ منهم عن الآخرَ بهيئته الظاهرة بحيث يلفت نظرك ويشد انتباهك، ويثيرُ في نفسك ألوانًا من الشعور تتراوح بين الإعجاب والفضول والتهيب، فلا تستطيع تفسير ذلك.

وأذكر من هؤلاء شيخًا غريبَ الهيئة كان يرتدي مرقعة تلف رأسه وسائر جسده إلى ما تحت الركبة، عيناه زرقاوان، ولحيته خفيفة، بيضاء، مهذبة، يتمايل في مشيته، ولا يتغير له سمت، يخرج من مأواه في أوقات معلومة، وينتهي به السير إلى مسجد "المعمورة" حيث اعتاد الصلاة، ثم يقعد على دكانة قريبة من المسجد فيتهافت عليه العوامُّ يُقبِّلون يدَه أو كتفه، ويقعد أمامه على الأرض ثلة من محبيه من أهل المدينة أو من سكان القرى المجاورة يسألهم عن أمور الفلاحة وأحوال الدنيا فيجيبونه على قدر معرفتهم بذلك، فيبتسم ويظهر عليه الارتياح ويتمتم بكلام لا يفهمه إلا المعتادون سماعه، فقد كان في لسانه لثغةٌ غير معتادة في كلام أهل تطوان.

كانت غرابة هذا الشيخ المهيب موضوعا لأقوال متواترة تثار حول منشئه وموطنه الأصلي الذي جاء منه؛ ومع أن الناس كانوا مجمعين على صلاحه ونقاء سيرته ولطف معشره، فإن بعضهم كان ينسب إليه أموراً من خوارق العادات لا يصدقها العقل، فقد كانوا يقولون - مثلاً - إنه يُصلي الجمعة في المسجد الحرام

بمكة، ينتقل إليها ثم يعود في اليوم نفسه إلى تطوان؛ ومما زاد في رواج هذا القول ورسوخه أن الشيخ لم يكن يظهر للناس في أيام الجمعة خلافًا لعادته في الأيام الأخرى. وأما عن موطنه الأصلي فقد كان يقال إنه قدم من أحد أقطار آسيا، ربما من إحدى الجمهوريات الإسلامية الواقعة آنذاك تحت النفوذ السوفييتي، وهذا ربما يفسر ما يظهر في كلامه من رطانة. ولجهل الناس بحقيقة الرجل كانوا ينسبونه إلى البحر، فيقولون: "سيدي عبدالسلام البحر" ولم أعرف قط أي البحور كانوا يعنون.

ومن غرائب هذا الشيخ الوقور أنه لم يكن يتصرف في مال ولا في عرضٍ من أعراض الدنيا، وكان كل ما يملكه منها مُرقَّعته ونعليه، لا يأخذ من أحد شيئا ولا يجرؤ أحد على أن يمد إليه يدًا بإحسان. وكان قد تكفل بإيوائه وإطعامه رجلٌ من فضلاء المدينة وأعيانها المرموقين هو الحاج أحمد مدينة. عَلقت صورة هذا الشيخ الزاهد الوقور بذهني ولم يستطع الزمان محوها. وكنت وأنا صغيرٌ أستشفُ في ملامحه أمارات الخير والوداعة والسعادة، وأنظرُ إليه بإعجاب ممزوج بالهيبة، فلما كَبرتُ أخذت أتساءل فيما بيني وبين نفسي: هل كان سيدي عبدالسلام المنسوب إلى البحر سعيدًا حقًا، تغمره الطمأنينة والرضا، أم إنه كان منطويًا على سر لا يقدر على البوح به، ولربما كشف عنه للرجل الفاضل الذي آواه ويسر الله له أمر إطعامه، ولكن الحاج أحمد مدينة كان كتومًا ضنينًا بالكلام تنطق الصخور ولا يتكلم هو، لاسيما إذا كان الأمر سرا ينبغي كتمانه. وقد عرفت هذا المُحسن الفاضل الذي تكفل بإيواء "شيخ البحر" وإطعامه، فقد كان يتحرك في حارتنا بخطوات متئدة وإيقاع موزون، وكأنه يسير على لفائفَ الحرير بجلبابه الأبيض الناصع وسمته الوقور، يمشي على جانب الطريق، يقصد المسجد ويتفقد من حين لآخر مآزيب المياه الجارية إلى البيوت، يُعالجها بالنُجارة لتَسْلَسَ وتَسيل فلا تنسد مجاريها، تطوعا منه وإحسانًا. وكان من عادة السيد "مدينة" أن يسير ورأسه منحدر وعيناه ناظرتان إلى الطريق، يميط عنها الأذى بعصاه. ولم يكن يمتهن صناعة ولا تجارة لكبر سنه، بل كانت له أملاكٌ يتعيش منها، ودارٌ أنيقة يقطنها، تحيط بها حديقة وارفة؛ عرفته وهو شيخٌ أشيب، بهيّ الصورة، عميق النظرة، قليل الكلام، نقي السيرة. وقد علمت في السنين الأخيرة أن داره قد أصابتها تصاريف الأيام، وتحولت من مسكن آمن يغمره الهدوء إلى مطعم عمومي يرتاده السياح والطاعمون من كل صنف.

ومن النماذج الأخرى التي علقت بذهني واستقرت بذاكرتي منذ عهد الصِّبَا صورة الوجيه الصَّدر السيد أحمد الغنيمة الذي كان يحظى باحترامٍ كبير في المدينة، وتوقير خاص في حَينا، لسمو أخلاقه، ونقاوة سيرته، وتواضعه الجم، وسمته المهيب، يغلب عليه وقار السنين وحنكة التجارب. كان ينزل من سيارته عند "ساباط الركينة" ثم يقطع على رجليه مسافة قصيرة في طريقه إلى بيته، فتحس وأنت تراه أنه يحمل فوق ظهره أسرارًا ثقيلة ينوء تحتها ولا يقدر على البوح بها. وربما كان يعي أن بلاده قد فقدت استقلالها وانشطرت إلى مناطق نفوذ تقاسمتها كل من فرنسا وإسبانيا، وأنه - وهو «الصدر الأعظم» في المنطقة الشمالية الواقعة تحت النفوذ الإسباني - لا يملك من أمر الحكم سوى رسوم شكلية ومظاهر صورية، وأن سلطة القرار إنما هي في يد إدارة "الحماية الإسبانية"؛ فهي التي "تقترح" المراسيم والقوانين، وتَسْهر على تطبيقها بعد أن يختمها خليفة سلطان المغرب بخاتمه، ويوقع عليها "الصدر الأعظم" بالعطف.

لقد كان أحمد الغنيمة واعيًا ولا شك بهذا الواقع المرير مقتنعًا بأن استمرار مظاهر سيادة السلطان على مجموع بلاد المغرب - ولو بصورة اسمية - كفيلٌ في حد ذاته بالإبقاء على بصيصٍ من الأمل في مستقبل أفضل، تستعيد فيه البلاد استقلالها بعزم أبنائها ويقظتهم، واكتشافهم مواطنَ الخلل التي أدت إلى سقوط الدولة وانهيارها أمام المد الاستعماري الأوروبي.

كان أحمد الغنيمة كثيرَ الصمت، عميقَ النظرة، موسومًا بالحكمة والتبصُّر، يتمايل في مشيته ولا يلتفت إلى الوراء قط، يقضي الصباح كله في مكتبه بالصدارة العظمى، ويعود مع أذان الظهر إلى بيته فلا يخرج منه إلا في اليوم التالي باستثناء أيام الجمعة والأعياد، وكان له خادمٌ متقدمٌ في السن يسير وراءه ويتبع خطواته، لا ليحرسه من أذى محتمل يصيبه - فهذا مما لم يكن يخطر على بال أحد -، بل ليدفع عنه أصحاب الحاجات الذين يقتنصون الفرص للاقتراب منه وإزعاجه في الشارع بمطالب كان يُفَضِّلُ أن يتلقاها في مقر عمله، لأن الوقوف في الشوارع والأزقة، واللغط فيها كانا من الأمور المستقبَحة عند ذوي الحرمة من خاصة أهل تطوان لمنافاتهما في نظرهم لما ينبغي أن يتحلوا به من وقار.

(للحديث بقية)

الهوامش:

١- Charles Péguy، أديب فرنسي (١٨٧٣-١٩١٤م)، اهتم بالنظم الخلقية، وله شعر غنائي بديع.

٢- Wiliam Blak، شاعر ورسام إنجليزي (١٧٥٧-١٨٢٧) يحتل مكانة مرموقة في الأدب العالمي، أشهر أعماله: "أغاني البراءة" و"أغاني التجربة".

٣- الرَّبَض (والجمع أرباض) معناه في اللغة: ماحول المدينة، وما يأوي إليه الناسُ من بيت وأهل ومال. وفي اصطلاح الأندلسيين: حَي يمتد في أطراف المدينة، وقد يطلق على الضاحية منها.

٤- درسة: اسم جبل يشرف على مدينة تطوان في الشمال الشرقي منها.

(*) ما يغرس فيه الحبق وهو نبات طيِّب الرائحة.

٥- الساباط (والجمع سوابيط): سقيفة بين حائطين تحتها ممرٌّ نافذ.

٦- مرتيل: مصيف أهل تطوان على ساحل البحر الأبيض على بعد مرحلة من مدينة سبتة.

٧- تيطاوين: كلمة أمازيغية معناها العيون، وهو الاسم الذي يُطلقه عامة أهل تطوان على مدينتهم.

٨- أبوالحسن علي المنظري، قائد أندلسي غرناطي، وَرَد إلى المغرب على رأس عدد من الفرسان بعد سقوط مملكة غرناطة، وهو مجدد بناء مدينة تطوان عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م وبها كان مدفنه.

٩- المورسكيون، لفظ إسباني Moriscos مشتق من كلمة مورو Moro، التي يطلقها الإسبانيون على مسلمي الغرب الإسلامي، وأما المورسكيون فتطلق على المسلمين الذين بقوا تحت حُكم النصارى في الأندلس بعد سقوط غرناطة وما إليها إلى أن تم طردهم منها جملة.

العنوان: النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة.
المؤلف: خالد بن عبدالكريم بن حمود البكر.
الناشر: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م(٣٤٢ص).



قام بحث «النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة: ١٣٨ - ٣١٦هـ» على فصول أربعة، الفصل الأول منها يتحدث عن أساس العملية الاقتصادية، الذي به يزدهر هذا النشاط الاقتصادي، ألا وهو: سكان الأندلس في عصر الإمارة الذي دام نحو مائة وثمانين عامًا. وقد أفاض المؤلف في الحديث عن بنية التركيب السكاني في الأندلس، المكون من: عناصر إسلامية من العرب، والبربر، والمسالمة أو المولدين، والموالي، والصقالبة، ومن عناصر غير إسلامية من النصارى واليهود. ويبدو أن هذه العناصر قد عاشت حياة الوفاق والرضا في ظل الحكم العربي الإسلامي في الأندلس.

أما الفصول الثلاثة الأخرى التي تضمنها الكتاب فهي: الجانب أو النشاط الزراعي والحيواني، والنشاط الصناعي، والنشاط التجاري. وسنقف مع الباحث عند هذه الفصول الثلاثة بشيء من التفصيل؛ لما فيها من معلومات وحقائق تعتبر جديدة، للوهلة الأولى على الأقل، وإن كان أغلبها له اتصال بما هو عليه الحال في المشرق العربي إبان الخلافة الإسلامية في عصريها الأموي والعباسي. وإن تلك الإفاضة ضرورية، ولاسيما أن المصادر، والكتب والبحوث التي تطرقت لهذه الجوانب الاقتصادية كانت ضئيلة، بل تكاد تكون نادرة. ومن هنا تأتي قيمة هذا البحث في الدراسات العربية والإسلامية التراثية والتاريخية.

من المعلومات الي أثبتها الباحث وحققها في مجال النشاط الزراعي والثروة الحيوانية: التركيز على العوامل المؤثرة في الزراعة، إذ وجدها متوافرة في بلاد الأندلس من: المياه، وخصب التربة، وتنوع المناخ. فضلاً عما بذله السكان من فكر وإبداع وتخطيط لنجاح الأعمال الزراعية. ولهذا وجدنا: الحدائق، وماحفّ بها من صنوف الأغراس والأشجار بتوجيهات من الأمير عبدالرحمن بن معاوية؛ ولاسيما النخيل، والرمان. ثم إدخال أو جلب محاصيل زراعية من المشرق كالأرز، والقطن، وقصب السكر، والبرتقال، والموز.. «وقد سار أمراء بني أمية على خطى عبدالرحمن بن معاوية في إنشاء الحدائق والجنان، فأكثروا منها، وتوسعوا في استصلاح الأراضي الزراعية، وشق الأنهر، وحفر الآبار، واستخدام (السواني)، فضلاً عن غزارة مياه الأمطار التي هي من أهم مصادر الري».

وكانت الأدوات المستخدمة لدى المزارعين أو الفلاحين هي (السكة)، لفلاحة الأرض، والمنجل في حصاد الزرع». ومن الشؤون الزراعية الأخرى التي وقف عندها المؤلف (نظام الأراضي)، ومايتعلق بأراضي الدولة وتوزيعها، وتقسيمها الإداري، وإن كانت الأحداث السياسية والعسكرية قد انعكست على قضية الأرض في تلك المرحلة.

على أن الإقطاع كان معروفًا وسائدًا في «الأندلس منذ استقرار المسلمين فيها، واستمر حتى أواخر عهد المنصور بن أبي عامر: ت - ٣٩٢هـ»؛ ولاسيما إقطاع «الهبة» وهو مايهبه الأمير من إقطاع لأحد أفراد البيت الأموي، وإقطاع (التأليف)، وهو مايمنحونه من أراض لرجال بارزين في المجتمع من قضاة وعلماء، أو لاستمالة قلوب الأعداء لتسكين أو امتصاص أي استياء يحول دون حدوث الفتن أو الثورات. هذا بالإضافة للملكيات الخاصة الأخرى التي كثرت في المجتمع الأندلسي.

ومن الأمور الزراعية التي وجدها المؤلف في الأندلس (المحاصيل الزراعية)، ومنها: ثروة الغابات التي استفاد الأندلسيون من أخشابها، والتمور، والحبوب من: قمح وشعير، وفول، وحمص، وذرة، والفواكه من: تين، وموز، وعنب، وتفاح، ورمان، وإجاص، وزراعة الزيتون، وقصب السكر، والقطن، والكتان، والزعفران، والتوت الذي تقوم عليه صناعة الحرير. كما ركز المؤلف على أماكن وجود تلك المحاصيل.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال: نظام العمل بالأجرة، حيث كان يُعمل به في الأندلس؛ وذلك بأن يستأجر أصحاب المزارع أو الأراضي الفلاحين للقيام بأمور الزراعة من حرث وزرع ، وسقاية، وحصاد، وحماية.. وغيرها. وكذلك فيما يتعلق بالثيران، باعتبارها وسيلة من وسائل الأعمال الزراعية، ومصدرًا من مصادر الثروة الحيوانية كالماشية، والأبقار والأغنام، والبغال، وكذلك الخيول وتربيتها. ومما قاله عنها: «ولعل أهم مظهر من مظاهر هذا الاهتمام الرسمي بتربية الخيل، ماروي من أن الأمير الحكم بن هشام، اتخذ له ألفي فرس، بجوار قصره، واعتنى بها عناية فائقة، فخصص لها دارين، وعلى كل دار عشرة عرفاء، وتحت يد كل عريف مائة فرس، فالعرفاء يشرفون عليها وعلى تعليفها. وكان هدف الأمير الحكم من ذلك هو وأد الثورات في مهدها، ومباغته الثوار والخارجين على سلطانه قبل أن يستفحل خطرهم». وكذلك استغل بعضها في نقل البضائع، ولاسيما في الطرق الوعرة.

ويبدو أن الأندلسيين اهتموا بالحفاظ على العرق العربي من الخيل أو «الخيل العراب». وأدرج المؤلف مع الثروة الحيوانية اهتمام الأندلسيين بالصيد من طيور وأيايل بطرقها المعهودة بالصقور وغيرها.. من أجل اللهو وتزجية الوقت. وكذلك صيد السمك.

أما الجانب الصناعي الأندلسي، فقد منحنا المؤلف الكثير من أبعاده الصناعية منها: (العوامل المؤثرة) في الصناعة الأندلسية، وعزاها إلى وفرة اليد العاملة، والمواد الخام، أو المعادن من: ذهب، وفضة، ونحاس، وحديد، ورصاص، وزئبق، وتوتياء، وغيرها. ثم الرخام الذي يستفيد منه الأندلسيون في المنشآت العمرانية. ويبدو أن تلك المواد الخام لم يستفد منها الاستفادة المثلى، وقد أرجع المؤلف ذلك إلى وجود العديد من العوائق منها: عدم الاستقرار السياسي، واضطراب الأمن الداخلي، كما كان للحروب والثورات الأثر الكبير في إلحاق الضرر بالصناعة.

على أن ثمة صناعات معدنية في الأندلس كالحدادة؛ إذ كان للحدادين سوق خاص بهم. وهم يستخدمون بعض الآلات في صناعاتهم، مثل: حجر المسن، والكلاليب، والكير.. لما يصنعونه من الأسلحة كالسيوف، والتروس، والرماح، والسكاكين، والفؤوس، والمسامير، ومراسي السفن، والصناعات النحاسية من تحف كالثريات.. وغيرها.

وكذلك الصياغة، كصياغة الحلي المتنوعة، وحياكة المنسوجات التي كان لها مصانعها الخاصة. ثم حياكة البسط الصوفية، والثياب الحريرية، والصوفية والكتانية والقطنية. إلى جانب الثياب الشتوية والصيفية الخفيفة، هذا فضلاً عن الصناعات الجلدية وما يلحقها من صناعة النعال أو الأحذية الخاصة بالرجال والنساء وصناعات أخرى متعددة.

وكذلك الصناعات الخشبية، وما يلحقها من آلات موسيقية، وأهمها: العود، والبوق، والزلامي (المزمار). كما استفاد أمراء بني أمية من أخشاب الصنوبر المتوافرة في (طرطوشة) في بناء المسجد الجامع بقرطبة وتجميله، إذ كانت جميع أخشابه من عيدان الصنوبر الطرطوشي.. «وتفنن النجارون في إتقان صناعة الخشب في هذا المسجد، فأكثروا من النقوش البديعة على الأخشاب المحيطة بالمحراب».

ومما استفاد منه الأندلسيون: وفرة المحاصيل الزراعية التي نتج منها بعض الصناعات الزراعية، وبخاصة مايتعلق بصناعة الأطعمة وما إليها، مثل: قلي الفول، والتفايا (طعام يصنع بماء الكزبرة الرطبة، ويحلى بالسنبوسك والكباب)، والجبن، واستخراج الزيت من الزيتون. ومن الصناعات الزراعية : صناعة الحبال، والحصر والشمع (الذي يعد وسيلة جيدة للإضاءة).

ثم صناعة الورق، والزجاج، والأواني الزجاجية، والقوارير، والفخار، وصناعة مواد البناء.. «وقد اكتسب البناؤون أهمية خاصة من حيث إشرافهم على بناء القناطر والطرق والمباني العامة والمدن». وصناعة القلانس، والديباج.

ولقد اهتم الأندلسيون بتنظيم الحرف المختلفة تنظيما إداريا، يسهل معه مهمة الإشراف على حركة الأسواق، وعلى حركة النشاط الاقتصادي فيها؛ فكان لكل حرفة أمين لها يسمى أحيانًا (العريف)، ويبدو أنه يتولى تمثيلها أمام صاحب السوق، كما أنه يعد مسؤولاً عن كل مايقع داخل نطاق طائفته التي ينتمي إليها، من إخلال بالقواعد المتفق عليها، فيما يتعلق بالأمانه التجارية، وكأن لكل حرفة نقابة تمثل مصالح أفرادها أمام الدولة والرعية.

أما النشاط التجاري، فقد ذكر المؤلف العوامل التي خضعت لها التجارة في الأندلس، من جميع نواحيها المؤثرة إيجابًا وسلبًا، منها: مادأب عليه أمراء بني أمية في كثير من المناسبات من التخفيف من الضرائب المفروضة على الناس، واستتباب الأمن داخل المدن وخارجها، ونظام صرف رواتب الموظفين وما له من أثر في تنشيط حركة البيع والشراء، وإشاعة العدل بين التجار الوافدين والمقيمين في الأندلس وضمان حقوقهم، وفتح أبواب الأندلس للتجار المشرقيين، والاستكثار من استيراد البضائع العراقية، واشتغال العلماء بالتجارة، وإنشاء الفنادق. كل هذه المظاهر كانت سببًا، وعاملاً منشطًا لازدهار التجارة الأندلسية. أما المؤثرات السلبية في ركود التجارة، فقد وجدها المؤلف في: الفتن والثورات، وقطع الطرق، والكوارث الطبيعية، وسوء المعاملات التجارية.

ومن الموضوعات التي كان لها أثر في التجارة: الطرق الداخلية، والسلع المتبادلة، وأسلوب التعامل في الأسواق، والعملة المعدنية المتبادلة، وإن كان المؤلف يرى أنه لم يعثر على أي مصدر يؤكد «استحداث دار لسك النقود في عصر الإمارة»، ثم المراقبة على الأسواق، والأسعار.

ومما تناوله المؤلف في شأن النشاط التجاري: التجارة الخارجية، وما يتبعها من صادرات وواردات؛ ولاسيما أن العلاقات التجارية بين المشرق والأندلس كانت وثيقة، وإن كانت السلطات الفاطمية «قد فرضت حظراً عامًا، أو مايشابه ذلك، على استيراد أو تصدير بعض المواد التجارية».

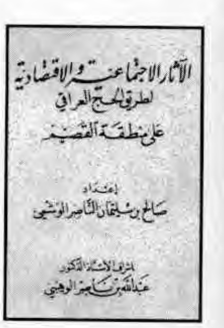
ومما يلفت الانتباه في بحث المؤلف، الاعتراف من حين لآخر بعدم عثوره على مرجع لمادة معلومة أو فكرة من معلومات بحثه أو أفكاره، ولاسيما في إسقاط الموضوعات المعاصرة على مادته الأندلسية.

ويبدو أن المؤلف يحسن توظيف الأمثال الأندلسية في استنباط ظاهرة من الظواهر الاقتصادية؛ كقوله عن أحد الأمثال الأندلسية الذي نصه (مطر فبريل خير من فيض النيل): «نستبين في هذا المثل اعتماد الزراعة على الأمطار ومواسم نزول المطر»، وكذلك المثل (كثرة الكفوف وقلة الدفوف)، الذي فسره بـ «مايشير إلى وفرة الأيدي العاملة».

وإذا كانت دراسة الأدب العربي تستوجب إلماما بآداب الأمم الأجنبية المصاقبة للأمة العربية في عصر من العصور، ومن ثم إجراء الموازنة - في عملية التأثر والتأثير - بينهما، لمعرفة خصائصهما فقد كان على المؤلف أن يفعل الشيء نفسه مع النشاط الاقتصادي بين العرب الأندلسيين والفرنجة، لنعرف إلى أي مدى بدت ظاهرة التأثر والتأثير بينهما. فأين هو الاقتصاد الغربي في هذا البحث أيام حكم العرب للأندلس؟ هذا مالم نجده في البحث.

العنوان: الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم.
المؤلف: صالح بن سليمان الناصر الوشمي.
الناشر: نادي القصيم الأدبي، طباعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م (٤٢٣ص).


د. صالح الوشمي



هذا البحث مؤشر جيد على التصاق الدارسين والباحثين بوطنهم، واهتمامهم بكل ما له صلة به؛ ولاسيما إن كان يبحث في الأرضية الجغرافية لبيئة من بيئات الوطن، أو منطقة من مناطقه في فترة زمنية موغلة في تاريخ تلك المنطقة، وأثرها في سكانها سواءفي نمط معيشتهم، أو اتصالهم بمن يمر بهم أو بمن حولهم؛ مثلما صنع الوشمي في هذه الرسالة التي كان قد قدمها «استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في قسم التاريخ، كلية الآداب - جامعة الملك سعود، عام ١٤٠٢-١٤٠٣هـ». وكانت بعنوان «الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم». والبحوث الأكاديمية مازالت تخضع لمنهجية موضوعية - من خلال المشرفين على إعدادها أو تأليفها - أصبحت مألوفة لدى طلبة العلم في جامعاتهم، وذلك في التركيز على محاور أساسية ترفد الفكرة العامة للبحث، بمختلف القضايا والجوانب. واستكمال موادها أو تجميعها من منابعها الثرة القديمة والمعاصرة، وبمنأى عن الحس الوجداني.

ومن هنا جاء هذا البحث بأبواب ثلاثة، وتحت كل باب نقع على فصلين.

حمل الباب الأول عنوان: «الأرضية الجغرافية والتاريخية لمنطقة القصيم». وهذا مايُسهِّل قسمته على جانبي: الجغرافية والتاريخ. فكان الفصل الأول بعنوان: (الأرضية الجغرافية) وبحث فيه الدارس: تعريف القصيم وموقعه وحدوده، ومعالمه في المصادر الشعرية القديمة، ومظاهره الطبيعية والنباتية. أما القسم التاريخي فقد حمل عنوان: (الأرضية التاريخية)، واشتمل على: القصيم في أيام العرب، وحيويته و،مكانته، ودوره في صدر الإسلام، ووضعه الإداري في العصور الإسلامية الأولى.

وحمل الباب الثاني عنوان: «طرق الحج العراقي عبر منطقة القصيم»، وقد أدرج الباحث تحت فصله الأول - طرق الحج - الموضوعات التالية: بدء العناية بطرق الحج، وأمن طرق الحج وأهميته للدولة العباسية، وتأسيس طريق حاج البصرة، وهل اقتصر هذا الطريق على حاج البصرة؟. كما أدرج تحت فصله الثاني - طرق الحج عبر منطقة القصيم -: مراحل الطريق وفروعه في نصوص البلدانيين، وأبعاد المنازل على طريق حاج البصرة عبر المنطقة، ومسارات الطرق واتجاهاتها في منطقة القصيم، والملامح الطبيعية لطرق الحج عبر القصيم، وأوهام في تحقيق بعض منازل الطريق في المنطقة.

أما الباب الثالث فحمل جوانب: «الآثار الاجتماعية والاقتصادية»، وذلك من خلال فصليه: الاستقرار في المنطقة من حيث التجمع السكاني، والآثار العمرانية، ونتائج الطريق وإيجابياته على المنطقة من جانبيه: الاقتصادي (تأثير تجاري، وتأثير زراعي)، والاجتماعي (من عادات وتقاليد، وأمثال شعبية، وتشابه في المسميات والتعبير).

وقد أنهى الباحث رسالته بملخص عن أبعاد التأثير الاجتماعي والاقتصادي لطرق الحج العراقي على المنطقة.

وإن هذا البحث ليستدرج الأدباء والشعراء والعلماء، كي يجد كل منهم بغيته في هذه الدراسة التراثية، ويستمتع بأطايبها، ولاسيما أن البحث غاص بالنصوص الشعرية والنثرية، ذات الدلالات الجغرافية والتاريخية والدينية والوجدانية.. وغيرها.

ولهذا وجدنا مقدم البحث الدكتور الأديب حسن الهويمل يشير في مقدمته إلى «أن هذا الطريق يتدفق رجالا وركبانًا يحملون الزاد والعتاد والكتب، وفيهم العلماء والأدباء والشعراء والروائيون، وهم في غدوهم ورواحهم يحتكون بمن يمرون بهم، تاركين بصماتهم على حياة الجزيرة، مضيفين إليها شيئا من معارفهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم..».

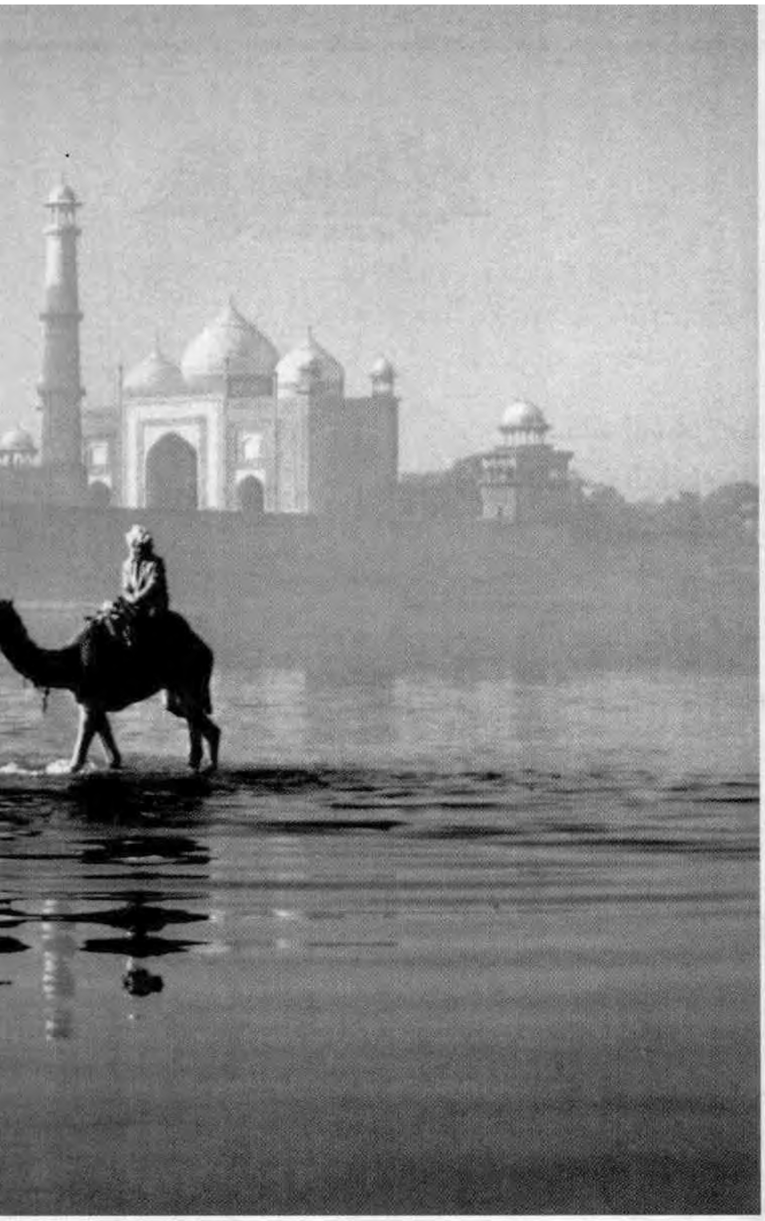
لقد اتسم البحث بالواقعية والموضوعية، وذلك في تبصّره بالحقائق والمعلومات، والتأكد منها مشافهة وملاصقة في الموقع من المكان، والتحقق منه في الميدان رأي العين، وترجمة اللسان. ثم موازنتها بما احتوته بطون الكتب وكنوز التراث والبلدان.

وإذا كان الباحث قد أدرج لنا نصوصًا وأقوالاً وجيزة عن موضوعه من مختلف المؤرخين والمؤلفين القدامى والمعاصرين - من عرب وأجانب -، فإنه يعير تلك النصوص كل أهمية إن كانت من باحثي بلده ووطنه، فيستشهد منها بالوافر والغزير، أمثال (محمد بن بليهد، ومحمد بن ناصر العبودي)، وغيرهما. وذلك منذ بداية بحثه وحتى خاتمته.

ولهذا فهو يتحفظ ويتحرّى نصوصَ غيرهما بشيء من الحرص والدقة والنقد أحيانًا؛ بينما يطمئن حين يورد نصوص أبناء منطقته؛ لأنهم أدرى بها من الآخرين [وأهل مكة أدرى بشعابها].

ورغم الحشد الوافي للمعلومات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية لمنطقة القصيم، عبر طريق الحجيج إلى الديار المقدسة، ورغم الحشد الشعري المواكب والدال على تلك المعلومات، فإن الباحث ظل محافظًا على الرؤية العلمية، والمنهجية الموضوعية التي تنأى عن الجوانب الذاتية والوجدانية، علمًا بأن البحث يمكن أن يوظف لمثل تلك الجوانب.


المنهل
ALMANHAL
ثقافة .. فكر .. معارف
علوم .. طب .. فنون
صفحات المنهل منابر كبار
الأدباء والعلماء والمفكرين
«السائح» و «هن»
عطاء متميز
منهجية جديدة في
الموضوعية والأداء
الأعداد
السنوية
الخاصة
اضافات
جديدة
في عالم
الصحافة
المنهل
ALMANHAL
مجلة العرب الأدبية
تصدر عن دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة
المركز الرئيسي/ جدة ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٩٢٥ ت/ ٦٤٣٢١٢٤ - فاكس / ٦٤٢٨٨٥٣



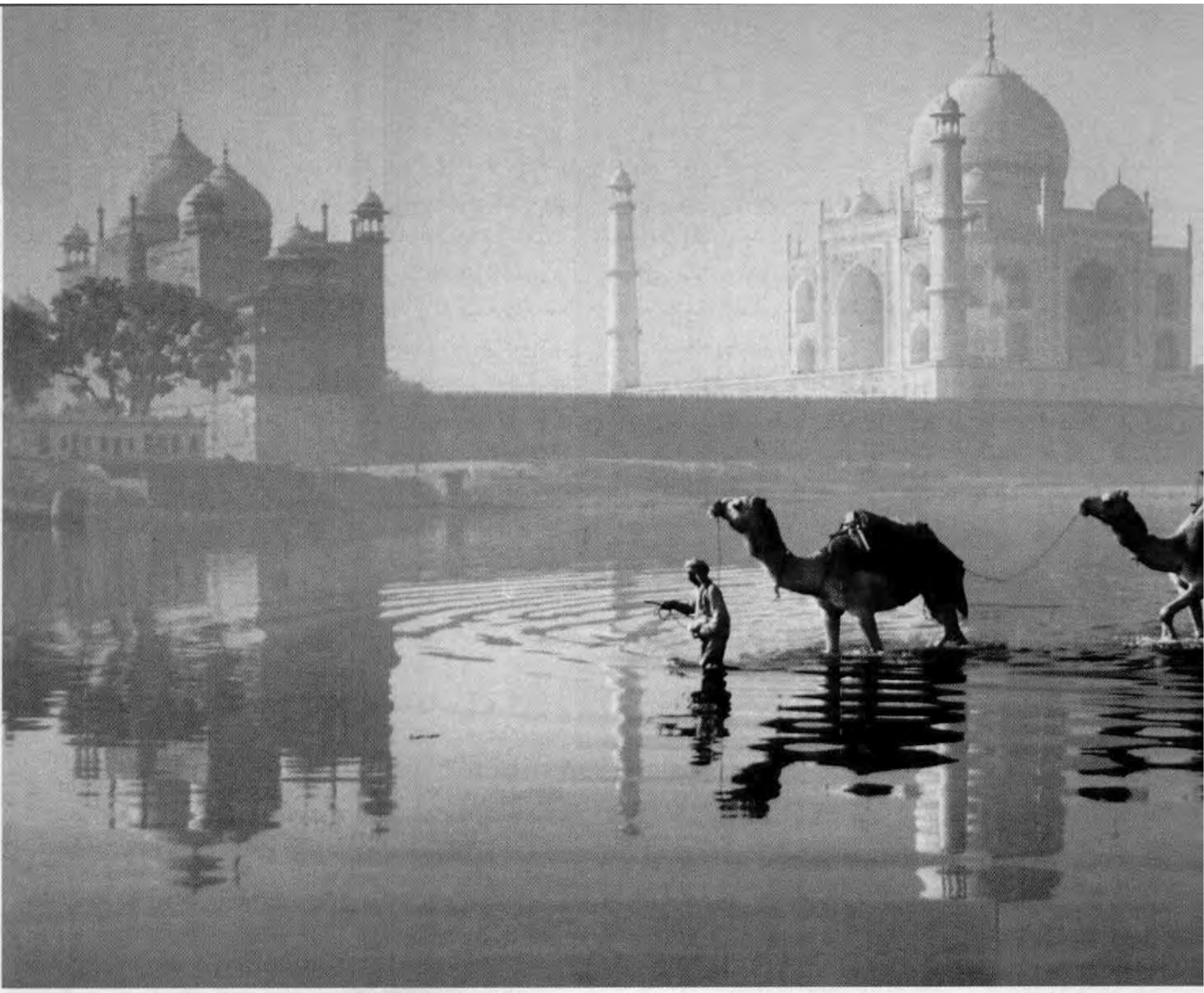
أجرا مدينة تبني صرحاً للوفاء

عواطف شلبي

كان القطار الفاخر ينطلق بنا من محطة القطارات في نيودلهي متجهاً إلى مدينة «أجرا» في وقت مبكر من الصباح..

الركاب كثيرون .. والجنسيات متعددة.. والنعاس لايزال يداعب الجفون.. والضباب كثيف إلى الحد الذي لاتكاد تميز معه شيئاً مما تراه من النوافذ، الأمر الذي جعل القطار ينطلق بسرعة متوسطة، أغرت الناس بالإخلاد إلى السكون الذي يجلب النعاس إلى العيون.

كنا نعرف أن أجرا تعاني من اضطرابات أمنية دفعت المسؤولين فيها إلى إخضاعها لفترات من حظر التجول، قد تطول، وقد تقصر.. لكن ذلك لم يثننا عن شد الرحال إليها، ومحاولة تعرف ملامحها من قريب.. ذلك أن أجرا كانت - إلى يوم غير بعيد - واحدة من حواضر الإسلام في تلك البقعة العجيبة النائية من العالم: الهند.



بعد حوالي نصف ساعة بدأ توزيع وجبة الإفطار على الركاب، وهي مكونة من شطائر ملفوفة على هيئة أصابع محشوة بالخضروات، وفطيرة بداخلها قطع صغيرة من اللحم أضيفت إليها البهارات ذات الطعم الحار جدا، وأظن أنها كانت محشوة بكميات كبيرة من (الشطة) جعلت من الصعب علينا أن نأكلها فتركناها جانبا، واكتفينا بشرب الشاي مع الشطائر التي قدمت أولاً. بعد ذلك وزعت علينا الصحف الصباحية بعضها باللغات المحلية وبعضها باللغة الإنجليزية، واستغرقنا في قراءة الصحف لمعرفة الموقف الداخلي وفترات حظر التجول، وقد سعدنا حين عرفنا أن حظر التجول قد تم رفعه عن مدينة أجرا حتى الساعة السادسة مساء، فمعنى هذا أننا نستطيع أن نقضي يوما كاملاً في التجول بالمدينة قبل أن يحين موعد حظر التجول في المساء.

قطع القطار المسافة من نيودلهي إلى أجرا في ثلاث ساعات ونصف تقريبا، ومحطة القطار في أجرا متواضعة، ومزدحمة وغير نظيفة، والحمالون يندفعون بشدة وبلا نظام نحو القطار ليحملوا أمتعة الركاب.

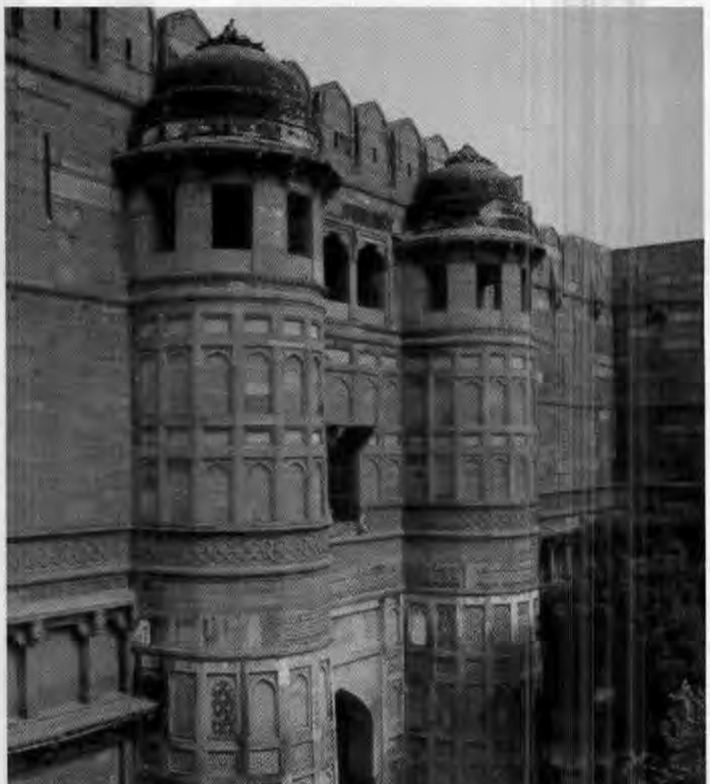
كان في انتظارنا بالمحطة مندوب الشركة السياحية الذي رحب بنا، وحيّانا بطريقتهم المعتادة وهي ضم اليدين أمام الصدر مع انحناءة خفيفة، وقال إنه اختار لنا مرشداً سياحياً ملما أحسن إلمام بتاريخ مدينة أجرا، والحضارات التي تزخر بها وآثارها التاريخية المتميزة، والأسر الحاكمة التي حكمت فيها.

اصطحبنا المندوب إلى حيث كانت السيارة التي ستقلنا في الجولة تنتظر وفيها المرشد والسائق، نزل المرشد من السيارة عندما أقبلنا عليها، كان رجلا قصير القامة ممتلئ الجسم عَرَّفنا بنفسه ذاكرًا أنه حاصل على درجة الليسانس في التاريخ مع التخصص في تاريخ الهند في العصور القديمة والعصور الوسطى، وقد تيقنت فيما بعد أنه على درجة عالية من الكفاءة، ومادته العلمية ممتازة، وقد أوضحت هذا في الاستبيان الذي تطلبه مني الشركة بعد كل جولة، وهو إجراء يهدفون منه إلى معرفة نقاط الضعف في خدماتهم لتلافيها مستقبلاً.

القلعة الحمراء.. وذكريات المجد

بدأنا جولتنا في مدينة أجرا بزيارة القلعة: قلعة أجرا أو القلعة الحمراء كما يسمونها نسبة إلى لون الطوب الذي بنيت منه، جدران القلعة مازالت صلبة قوية عالية تعيد للأذهان ذكريات المجد العسكري للحكام المغول المسلمين بناة هذه القلعة الحصينة، لون الجدران الأحمر أصبح باهتا نتيجة للعوامل الجوية ومرور زمن طويل، وعندما تدخل من البوابة الرئيسة الشامخة تجد في استقبالك بعض الجنود بالثياب العسكرية تبعث هيئتهم وهم يقفون في مدخل هذا الحصن المهيب صورة الماضي العسكري حيا، فيصور لك الخيال أنك تشهد موقعة حربية، فتكاد ترى الرماة والمحاربين،

وتسمع صليل السيوف وصهيل الخيل. وتستيقظ من هذه التخيلات على صوت جندي يسألك إذا كنت تحمل كاميرا تصوير أو كاميرا فيديو؛ ليُحَصِّل منك الرسوم المقرر دفعها مقابل استخدام هذه الآلات. وعندما دلفنا إلى الداخل، وجدناه عكس الخارج تماما، فإذا كان الخارج قد أوحى لنا بالمعركة العسكرية، فإن الداخل جنة من جنات الله في الأرض: جنات مترامية من الحدائق والأزهار يجري من تحتها الماء رقراقا ينساب من نافورات بديعة تزين المكان الرائع؛ الذي بدأ تشييده في عصر السلطان جلال الدين أكبر(١٥٤٢-١٦٠٥م)؛ ثالث سلطان مغولي بمنطقة شمال الهند بعد جده السلطان بابر(١٤٨٣-١٥٣٠م)؛ الذي حكم خلال الفترة من ١٥٢٢م إلى ١٥٢٧م. وكان حاكما قويا ذا صولة، وهو الذي بنى مسجد بابري الشهير في منطقة أيوديا، الذي أثار ضجة عالمية عندما هدمه المتطرفون الهندوس في أوائل شهر ديسمبر ١٩٩٢م؛ بدعوى أنه مبني على أنقاض معبد للإله راما. وقد عاش السلطان بابر فترة في مدينة أجرا، ثم جاء بعده ابنه همايون(١٥٠٨-١٥٥٦م)؛ الذي عاش في مدينة دلهي، ولم يترك أثرا ذا قيمة، ثم خلفه السلطان جلال الدين أكبر؛ وهو أعظم السلاطين المغول الذين حكموا في الهند، تزوج من ثلاث سيدات؛ إحداهن مسيحية والثانية تركية مسلمة اسمها السلطانة رقية والثالثة هندوسية.



قلعة أجرا، أو القلعة الحمراء، تحكي ذكريات مجد المسلمين المغول

تجولنا داخل القلعة الحمراء ونحن نستمع لسرد تاريخ الحكام المسلمين الذين شيدوا ذلك الحصن المهيب فأثار الحديث حنيننا إلى تلك الأيام الخوالي.

يجمع بناء القلعة بين خصائص الطراز الإسلامي والطراز الهندوسي في العمارة، ويكشف التداخل العجيب للطرازين معا عما كانت تنعم به البلاد في تلك العصور الذهبية من تعايش بين أتباع الديانتين الإسلام والهندوسية، وتسامح وتآخ بثه في نفوس الناس هؤلاء الحكام العظام، وفي مقدمتهم السلطان أكبر، وقد كان طبيعيا أن يؤدي شغف سلاطين الدولة المغولية الإسلامية بالعمارة إلى شغفهم بفن النقش والعناية به.

في قلعة أجرا التي بدأ بناؤها في عصر السلطان أكبر وأتمها ابنه جاهنجير (١٥٦٩-١٦٢٧م) وأحفاده، يتجلى شغف السلاطين بفنون النقش، ويبرز فيها الطراز المعماري المغولي الذي يتميز بالقباب البصلية الشكل والأقواس والأبواب والنوافذ الفخمة والزخرفة والترصيع بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة والخزف، والجمع بين الفنون الفارسية والعربية والهندوسية.

من أكثر الأشياء التي تسترعي الانتباه في قلعة أجرا: قاعة الاجتماعات أو الديوان الخاص؛ وهو عبارة عن بهو فسيح متعدد الفتحات المتوسطة من أعلاها وتزينها الزخرفات وتقسمها الأعمدة الرخامية وتطل على حديقة غناء، وبالقاعة مكان الجلوس الخاص بالسلطان وخلفه الأماكن المخصصة لأفراد أسرته من الرجال، وأماكن منفصلة خاصة بنساء السلطان، ومن خلفهم أماكن الوزراء ورجال الدولة، وفي مواجهتهم توجد أماكن جلوس أصحاب الحاجات والمظالم لكي يكونوا أمام السلطان يستمع إلى شكاياتهم ويشونه همومهم. كانت قلعة أجرا تفتح بواباتها في الأيام المحددة لاجتماع السلطان مع أفراد الشعب، ويسمح لكل متظلم أن يعرض مظلمته على السلطان وجها لوجه، صورة رائعة للتواصل المباشر بين الحاكم والمحكوم أرسى أسسها في الهند الحكام المغول المسلمون.

قصر الشكر..
إبداع معماري

عاش السلطان أكبر فترة طويلة مع زوجاته الثلاث: المسلمة والمسيحية والهندوسية دون أن ينجب، وكان معتادا على التردد إلى منطقة زراعية تبعد من مدينة أجرا نحو ٤٠ كيلو مترا، كان يعتبرها منتجعًا يخلد إليه طلبا للهدوء والراحة. وفي هذه المنطقة كان يعيش رجل صالح يدعى الشيخ سليم شيستي، ويشاع أن السلطان أكبر قصده في إحدى زياراته لتلك المنطقة طالبا منه أن يدعو له ويسأل الله أن يرزقه بغلام، ولم يمض عام على هذا حتى كانت زوجة السلطان الهندوسية قد حملت وأنجبت له طفلا أسماه سليم تبركا باسم الشيخ الصالح كما أطلق على الطفل اسما آخر هو جاهنجير. بعد مولد الطفل وتعبيراً عن شكره لله وتفاؤلاً بتلك البقعة المباركة التي كان يعيش فيها الشيخ سليم؛ بنى السلطان أكبر هناك في عام ١٥٦٢م قصرًا كبيرًا أسماه فتح بور سيكري، ومعنى الاسم: تعبير عن شكري أو قصر الشكر FATEH PUR SIKRI، ويجمع القصر بين الطرازين الإسلامي والهندوسي في تآلف مدهش متميز، شأنه في ذلك شأن قلعة أجرا وغيرها من المباني التي تجمع بين الطرازين الإسلامي والهندوسي بكثرة الفتحات والنوافذ المرتفعة المقوسة من أعلى، أما الحوائط السميكة فهي مزخرفة من الداخل والخارج برسوم دقيقة بارزة ومنحوتة بأشكال هندسية بديعة، واللون الغالب هو اللون الأحمر المائل إلى البني، وتتعدد في

أجرا: مدينة تبني صرحاً للوفاء

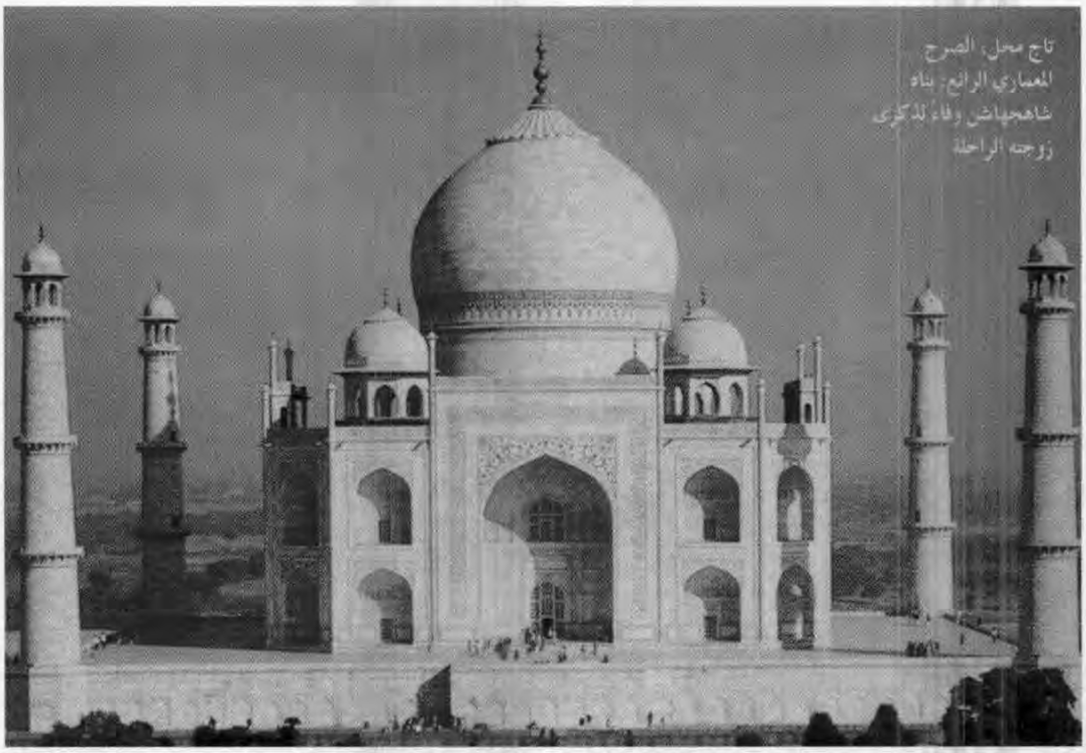


منمنمة محفوظة بالمتحف الوطني في نيودلهي تصور الحرب التي وقعت عام ١٥٢٦م بين سلطان دلهي، والجيش المغولي بقيادة السلطان بابر

هذه المباني الأعمدة الرخامية المزدانة بالرسومات الهندسية الدقيقة وتغطيها من أعلاها القباب. وفي قصر فتح بور سيكري أو قصر الشكر أقام السلطان أكبر ثلاثة أجنحة كل جناح منها مخصص لإحدى زوجاته، ولم ينس السلطان العظيم الشيخ سليم شيستي الذي دعا الله ليرزقه بالغلام فشيد له قبراً في هذا المجمع الضخم الذي تحيط به من كل الجهات وعلى مدِّ البصر الأراضي الزراعية.

بعد زيارة قصر الشكر توجهنا إلى السيكدرا مقبرة السلطان أكبر، وهي إحدى الصروح التذكارية المهمة، ولايختلف طراز العمارة فيها عما رأيناه في القلعة وفي قصر الشكر، فهي محاطة بالحدائق الغناء الفسيحة التي تستقبلك عند دخولك من البوابة الرئيسة ممتدة على مساحة شاسعة من الأرض تزينها نافورات المياه والأحواض العميقة، وتمرح فيها القردة ذات الشعر الفضي والأذيال الطويلة التي تقفز أمام الزوار، الذين يلقون إليها بحبات الفول السوداني فتلقفها في نشوة وتجري بعيداً.

الضريح مبني من الطوب الأحمر نفسه الذي بُنيت منه معظم الآثار الموجودة في مدينة أجرا وهو مكون من عدة طوابق، وندخل إليه عبر ممر يؤدي إلى مقبرة السلطان أكبر. المدخل مزخرف بزينات، والأسقف والحوائط مزينة بزخارف على الطراز الإسلامي كتلك التي تشاهد على حوائط المساجد الكبيرة في أنحاء العالم الإسلامي، ومكتوب عليها بالخط الفارسي آيات من القرآن الكريم، بعد ذلك ندلف من ممر صغير خافت الضوء لنجد أنفسنا أمام قبر السلطان، القبر مبني من الرخام الأبيض تغطيه ملاءة من القطيفة الخضراء، وتوجد بعض الأزهار مبعثرة فوق الملاءة، ومن السقف تتدلى ثُريًا من المعدن ينبعث منها ضوء خافت يزيد من رومانسية المكان



تاج محل، الصرح المعماري الرائع: بناه شاهجهان وفاء لذكرى زوجته الراحلة

ويضفي عليه مزيدا من الغموض، دعونا الله أن يسكن السلطان أكبر فسيح جناته جزاء له على ماقام به من أعمال طيبة باسم الإسلام. بعد هذه الجرعة الدسمة من حكايات التاريخ وقصص الوفاء والعرفان بالجميل، وبعد مشاهدة كل هذه الآثار التي يحكي كل منها رواية لها عبرة ودلالة؛ كان التعب قد أخذ منا كل مأخذ، وكان من الضروري تناول وجبة غداء ساخنة تعيد إلينا نشاطنا وحيويتنا. أوصلتنا السيارة إلى فندق شيراتون أجرا أو موجول شيراتون كما يسمونه.

الماضي والحاضر في مكان واحد

يجمع فندق شيراتون بين القديم والحديث كما يدل على ذلك اسمه، فكلمة «موجول» أي مغول ترمز إلى القديم، أما شيراتون فهي تدل على الحداثة. أول القديم حديقة الفندق التي تستقبلنا لحظة الدخول من الباب الخارجي فهي حديقة كلاسيكية على الطراز المغولي، أشجار السرو وجداول المياه المتدفقة والممرات المنسقة بشكل هندسي فريد وملابس الحارس ذلك الرجل الضخم الجثة الذي يرتدي فوق رأسه قلنسوة مرتفعة وفي أعلاها ريشة كتلك التي كانوا يلبسونها فيما مضى من الزمان، وتنم وقفته العسكرية وقامته على أنه جندي مغولي مازال يقف هنا منذ تلك الأزمان الغابرة.

دلفنا إلى الداخل حيث وجدنا في بهو الفندق أماكن للجلوس على شكل كنبات عربية مكسوة بالقطيفة الحمراء، وأشياء صغيرة متناثرة هنا وهناك تحمل بصمات الماضي البعيد الذي لازال يحيا هنا.

أما مكان تناول الطعام فهو على الطراز الحديث مع بعض أشياء صغيرة تذكرنا بعصور مضت مثل القناديل الجانبية وبعض الصور والمعلقات الأثرية القديمة.

تاج محل.. رمز رائع للوفاء

بعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء واحتساء كوب الشاي، خرجنا إلى بهو الفندق فوجدنا في انتظارنا المرشد السياحي الذي هب واقفًا وهو يقول: هيا بنا الآن لنرى أروع مافي مدينة أجرا: تاج محل نصب الحب التذكاري.

توجهنا إلى تاج محل، ذلك القبر الفخم الذي أقامه الامبراطور المغولي شاهجهان لزوجته الحبيبة ممتاز محل، واستغرق بناؤه خمسة عشر عاما، واشتغل فيه عشرون ألف عامل.

شَدَّنا حديث المرشد السياحي فأحطنا به وهو يحكي لنا: بعد وفاة الإمبراطور جاهنجير ابن السلطان أكبر، خلفه ابنه السلطان شاهجهان(١٥٩٢-١٦٦٦م)؛ الذي تزوج ثلاث زوجات مسلمات؛ إحداهن هندية والثانية تركية والثالثة فارسية واسمها ممتاز محل، وقد أحبها حبا شديدا فأنجب منها خمسة عشر طفلا ولم ينجب من زوجتيه الأخريين، وأثناء وضعها للمولود الخامس عشر ماتت ممتاز محل، فحزن عليها حزنا شديدا واعتكف في المنزل لايغادره. عاش السلطان على هذا الحال ٣٥ عاما هي بقية عمره الذي عاشه بعد موتها. وتقول الروايات التاريخية إنه اعتكف عن زوجتيه الأخريين؛ فلم يكن يراهما أو يتحدث إليهما وقضى سنوات عمره الباقية بعد وفاة ممتاز محل متبتلاً لايقرب النساء، ولا يشارك في أي نشاطات ترفيهية أو احتفالات. وقد أراد أن يخلد ذكرى المرأة الوحيدة التي أحبها فبنى لها قبرًا عظيما وأحاطه بذلك المبنى الضخم «تاج محل» المقام وسط حدائق مترامية وزهور وتصدح فيه الطيور فوق الشجرات الباسقات.

الطريق المؤدي إلى المبنى الأسطوري يتوسطه حوض مرمري تنساب فيه المياه الزرقاء رقراقة، وعلى جانبي الحوض سُوِّيت الأرض على شكل مستطيلات تكسوها الحشائش الخضراء والشجيرات المنتظمة في خط مستقيم، تتلوها ممرات جميلة نظيفة مبلطة يسير عليها الزوار في اتجاه المبنى. وعلى جانبي تلك الممرات تنبسط الحدائق الغناء وترفرف أجنحة الطيور سعيدة نشوى تشدو بألحان عذبة.

هذا اليوم من أيام شهر ديسمبر، كانت الشمس ساطعة يضفي نورها الباهر مزيدا من الصفاء والروعة على المكان، وتبعث أشعتها دفئًا محببا إلى الأبدان، فنشعر جميعا برغبة في التحرر من الملابس الصوفية التي أضفناها إلى ثيابنا، تحسبًا لبرودة الجو التي حذرنا منها كل من زار هذه المنطقة في شهور الشتاء، وإيمانًا بأن الوقاية خير من العلاج والاحتماء من البرد المحتمل خير من التعرض لنزلة برد تحرمنا من الاستمتاع برحلتنا. السحب البيضاء تتناثر هنا وهناك وسط السماء الزرقاء، فتشكل مع لون المبنى الأبيض المرمري لوحة لونية رائعة تحمل كل معاني الجمال.

نهاية السلطان العاشق

أمام بناء تاج محل لن تستطيع أن تتمالك نفسك من الانبهار بروعة المبنى ذي الحوائط المرمرية المصنوعة من الرخام الأبيض المطعم بقطع من الأحجار الكريمة، تتوسط المبنى قبة كبيرة جدا تحيط بها قباب صغيرة، الأعمدة الرخامية العالية

أجرا: مدينة تبني صرحاً للوفاء

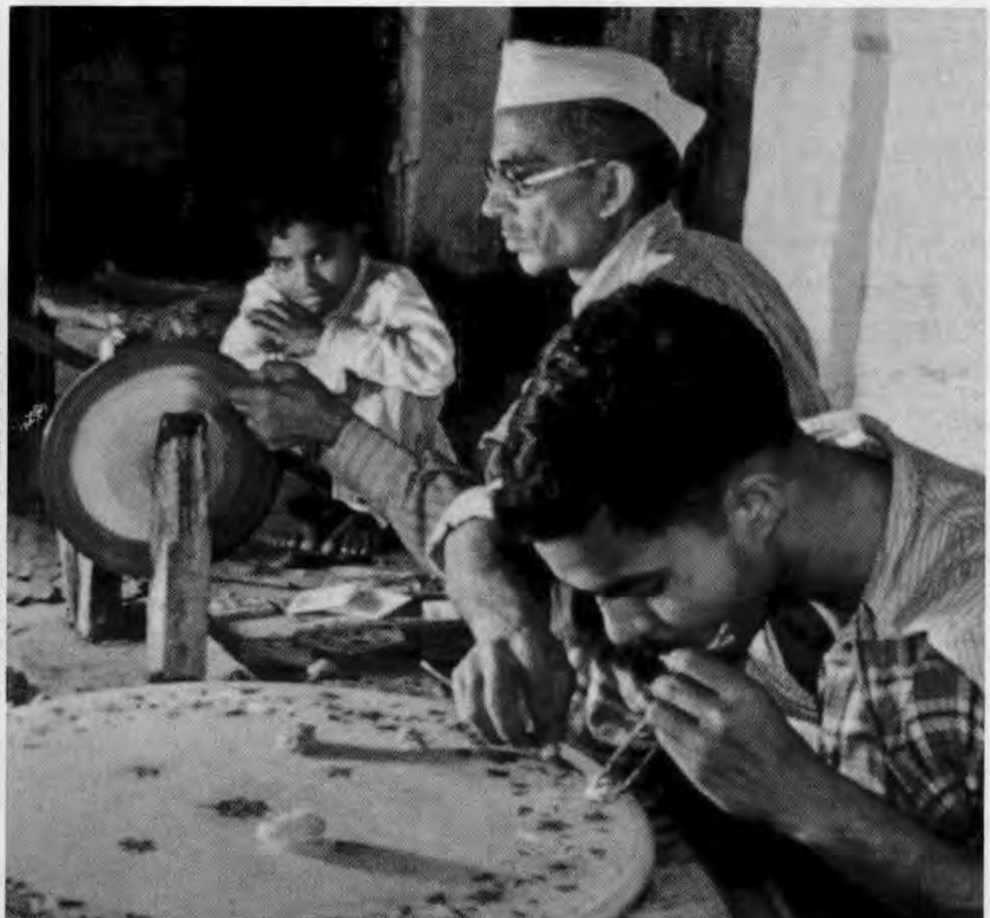
تحيط بالمبنى الضخم وتعلوها المنارات، وعلى مرمى البصر تحيط بالقصر الأراضي الزراعية الخضراء، وينساب من شرقها إلى غربها نهر صغير يجري فيه الماء، وعن كثب نلمح القلعة الحمراء. قلت لأبنائي وأنا أرى الانبهار والدهشة في وجوههم: ما رأيكم في هذا المبنى؟ قالوا: نعتقد أن هذا أروع بناء في الوجود، سمع المرشد حديثي معهم فسألني أن أترجم له ماقالوا وبادرهم قائلا: هل تعلمون ماذا حدث للسلطان العاشق بعد أن أتم هذا البناء الضخم في السنوات الأخيرة من عمره؟ شرع شاهجهان في بناء قبر له على غرار تاج محل، لكن أحد أبنائه وهو أورانجزيب AURANGZEB(١٦١٨-١٧٠٧م) ؛ الذي تولى الحكم من بعده نهاه عن ذلك وطلب منه ألا يُحَمِّل ميزانية البلاد التي كانت تعاني من أعباء تكاليف تاج محل مزيدا من العبء، ولما لم يستجب السلطان شاهجهان لطلب ابنه، قام الابن باعتقال أبيه وسجنه لمدة سبع سنوات في القلعة الحمراء، وكانت إحدى بنات السلطان شديدة الإخلاص له، فأصرت على أن تدخل السجن معه بكامل إرادتها، وأقسمت ألا تترك السجن إلا بعد أن يتركه والدها، وظلت مسجونة معه تؤنس وحدته وترعاه طيلة سبع سنوات حتى وافته المنية. ولما مات الأب قامت الابنة الوفية ببناء قبر له بجوار قبر والدتها، وكان عمر السلطان وقت وفاته نحو ٧٥عامًا قضى منها ٣٥ عامًا وحيداً معتكفا عن الناس، لايؤنس وحشته إلا ذكرى زوجته التي سطر قصة حبه لها ووفائه لذكراها في ذلك الأثر البديع.

الإسلام يفتح مغاليق القلوب

بعد مشاهدة تاج محل كنا قد وصلنا إلى قمة الإشباع الجمالي؛ إذ لم نكن نتوقع أن نرى شيئا أروع من هذا أبدًا، ركبنا السيارة وفي طريق العودة أغمضت عيني حتى أحتفظ بعض الوقت بتلك الصورة الرائعة التي انطبعت في مخيلتي، جال في ذهني وأنا في هذه الإغماضة خاطر استبد بي وظل يلح على ذهني: كيف حدث هذا؟ كيف أبدع الحكام المغول كل هذا؟ وكيف أنشؤوا كل هذه الآثار؟ وكيف أحب حاكم مغولي وتفانى في حبه لهذه الدرجة؟ وكَمٌّ كبيرٌ من الأسئلة الأخرى: كيف؟ ولماذا؟ ومتى حدث هذا التغيير من النقيض إلى النقيض؟ لقد عرفنا تاريخ المغول وعلمنا أنهم كانوا قبائل همجية بربرية بلا دين ولا خلق، ليس لها دراية بحضارة أو فن، ولا تجيد أي شيء في الدنيا إلا استخدام السيوف والرماح، جاؤوا من شرق آسيا في اتجاه الغرب يهلكون الحرث والنسل، ويسقطون الممالك التي تقاومهم، ويدمرون الحضارات، بل يدوسون بأقدامهم كل مظهر من مظاهر الرقي الفكري والحضاري، وليس إغراق كل ما كان في مكتبة بغداد من الكتب النادرة النفيسة إلا دليل جهلهم وهمجيتهم. ونعرف من التاريخ كذلك أنهم كانوا رجالاً غلاظ القلوب متجهمي الوجوه لا مكان عندهم للحب، ولا تفكير لديهم في علم ولا فن ولا حضارة، كل مايشغل عقولهم هو السلب والنهب والعدوان والقسوة، إن ماعلمناه عن تيمورلنك وجنكيز خان وهولاكو يختلف تماما عما نعرفه الآن عن أحفادهم: السلطان بابر والسلطان أكبر والسلطان جاهنجير والسلطان شاهجهان صاحب قصة الحب الخالدة التي يجسدها تاج محل.. أليس هذا بالشيء الغريب؟!!

لم تدم دهشتي طويلا، وتوصل عقلي بسرعة إلى الإجابة التي أراحتني كثيراً وملأت قلبي بالإيمان وروحي بالنشوة والسكينة، جاء حل تلك المعادلة الصعبة على هذا النحو:

إن جحافل المغول استمرت في غيِّها وبغيها وعدوانها بعد أن أسقطت عاصمة العالم الإسلامي آنذاك «مدينة بغداد»، وظلت قواتهم الغاشمة تزحف في طريقها صوب الغرب، ووصلت أنباؤها لمصر التي كتب عليها أن تكون دائما صدر العروبة الواقي وقلب الإسلام النابض، فهب أبناؤها يستعدون لملاقاة العدو الغادر ليحموا أرض الكنانة وحضارتها العريقة من بطش قوم لايقيمون وزنًا لتاريخ ولا يعرفون قيمة لحضارة. وعندما وصلت جحافل المغول الغاشمة كان الفرسان المسلمون البواسل على أهبة



صناعة التحف الفنية من أهم الحرف في «أجرا»، حيث يتم تطعيم الرخام بأنواع من الجوهرات.

آجرا: مدينة تبني صرحًا للوفاء

لمواجهتهم بقيادة بطل مسلم من المماليك صمم على أن يخوض بهم معركة حياة أو موت ليحمي حمى الإسلام الذي يجري في عروقه. خرج ذلك القائد المظفر قطز في مقدمة رجاله الأبطال إلى موقعة عين جالوت على حدود مصر مع فلسطين وهم يرددون جميعا صيحة مدوية: وا إسلاماه، وانتصرت إرادة الله؛ إذ حققت القوة الصادقة القليلة العدد والعدة القوية بإيمانها وإسلامها النصر على الجحافل الكبيرة المتمرسة في فنون القتال، وانهارت عصابات المغول، وعادوا إلى الخلف يجرون أذيال الخيبة والهزيمة، وهم يسألون أنفسهم: كيف استطاعت قوة صغيرة أن تهزم قواتهم التي ظنوا أن أعتى الجيوش لن تصمد أمامها؟ كيف استطاع رجال بعتاد قليل أن يقفوا للجبابرة ويُنزلوا بهم أفدح الهزائم وهم يهتفون من قلوبهم: وا إسلاماه. ويتساءل المغول: هل السر كامن في هذه الكلمة؟

وفي طريق عودتهم من حيث أتوا كانو يمرون على بلاد طالما ذاقت الهوان على أيديهم خائفين أن ينتقم منهم أهل تلك البلاد، فإذا بهم لايجدون منهم إلا تسامحا ورحمة؛ فيدهشهم ذلك ويسألونهم: لماذا لاتأخذون ثأركم منا؟ فيجيبهم أهل البلاد: إننا مسلمون. فأنتم الآن مهزومون ضعفاء تطلبون السلام، وديننا يأمرنا إذا طلبتم السلام أن نمنحه لكم: ﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ (الأنفال: ٦١) .

هكذا أراد الله أن يفتح قلوب هؤلاء الهمج المشركين ويشرح صدورهم للإسلام، فأنار بصيرتهم وصاروا بنعمة الله وفضله مسلمين، وبدأوا ينهلون من نهر الإيمان، ويتخلقون بأخلاق الإسلام. كانت رحلة الانسحاب عبر فلسطين والعراق وبلاد فارس فرصة مواتية لهم ليختلطوا بالعرب والمسلمين ليستفيدوا من علومهم ومعارفهم ويتأثروا بها، وفي طريق عودتهم من حيث أتوا مروا ببلاد الهند فطاب لهم المقام بها، وواجهوا بعض المقاومة في بادئ الأمر، لكن الأمور سرعان ما استتبت لهم نتيجة لروح التسامح والرحمة التي اكتسبوها من الإسلام بعد اعتناقهم هذا الدين الحنيف، وصاروا حكاما لمعظم بلاد الهند ونشروا الإسلام في ربوعها، والحمد لله الذي عضد الإسلام بهم وبقوتهم التي أصبحت بعد اعتناقهم الإسلام قوة موجهة للخير والتعمير والتشييد وإقامة الحضارة. هكذا تغيرت طبائع الجهلاء الذين كانوا فيما مضى لا يحترمون فنا ولا دينا ولا حضارة؛ فأضاء نور الإسلام بصائرهم ومسح غشاوة الجهل والبربرية عن عيونهم ليحل محلها التسامح والرحمة وتتفتح قلوبهم على نور الحب الذي يبني ويشيد.

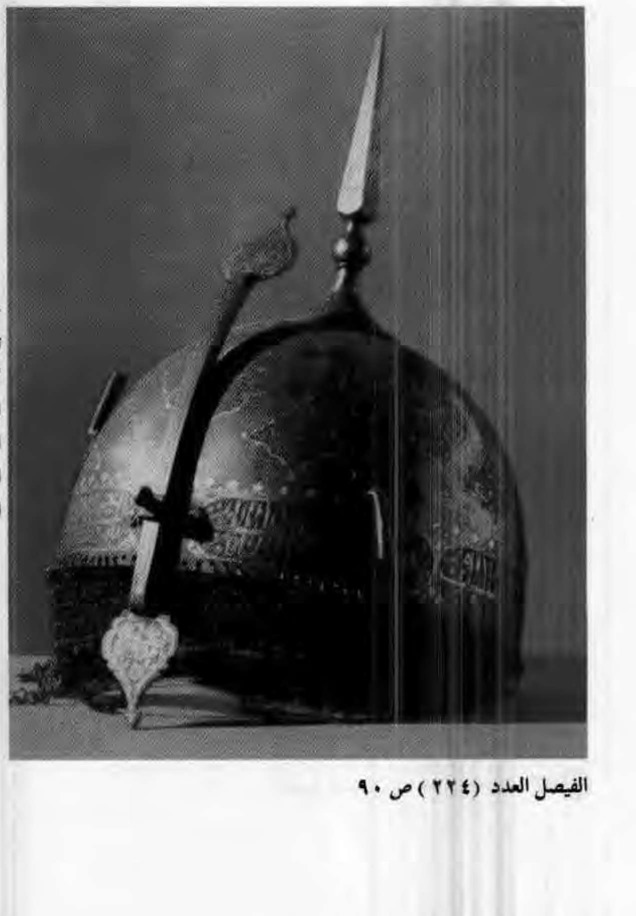
عودة إلى الصخب من جديد

وأفقت من هذه الإغفاءة الفكرية الإيمانية على صوت المرشد وهو ينادي: الآن وصلنا إلى مركز من مراكز الصناعات الكوخية SOTTAGE INDUSTRIES، وفي الداخل قابلونا بترحاب شديد وقدموا لنا الشاي الأخضر، ثم عرضوا علينا قطعًا من السجاد اليدوي الحريري والصوفي، بعض القطع مرسوم عليها طيور، والبعض الآخر يصور أغنيات هندية، أو قصصًا وحكايات من التراث. علمت مما سمعت أن هذه المراكز الصناعية لعمل السجاد الكشميري أقامتها مؤسسات تستفيد من الأيدي العاملة الرخيصة، وتلك الأيدي مدربة تدريبا جيدا على عمل ذلك النوع من السجاد. سألت عن الأسعار فوجدتها تتراوح مابين ألف وخمسة آلاف دولار أمريكي للسجادة الصغيرة الحجم، ويتوقف السعر على عدد العقد والرسومات والتصميم ونوع الحرير وغير ذلك من الأمور، أما السجاد الصوفي فإن أسعاره أقل من هذا.

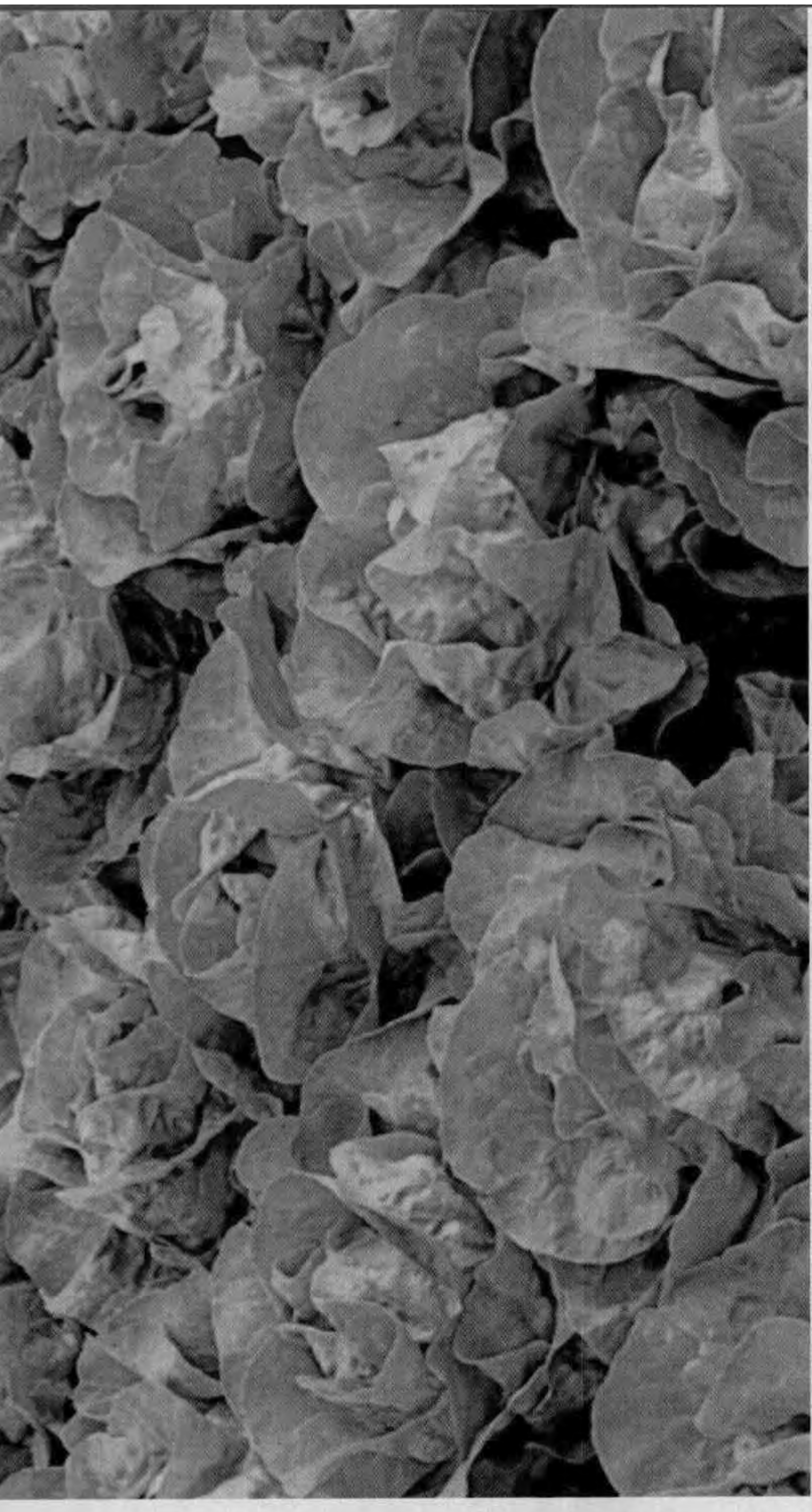
غادرنا ركن السجاد إلى باقي أركان المجمع الصناعي، واستمتعنا برؤية البضائع الثمينة الجذابة الدقيقة الصنع، وفي مقدمتها المجوهرات من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة، مرصعة في أساور وحلقان وقلادات من الفضة والذهب، وقد راقت لنا كثيرًا علب المجوهرات وعلب الشيكولاته، والمعلقات الجدارية المصنوعة من الرخام الأبيض المطعم بالأحجار، والتماثيل والبيلوهات الخشبية والمعدنية والحجرية والرفوف النحاسية، والعطور الغنية بشذاها الفواح.. فأقبلنا على الشراء منها، كذلك أعجبتنا جدا المصنوعات الجلدية والأقمشة المطبوعة والحلي المقلدة كالمجوهرات تماما، تشكيلة رائعة من المنتجات اليدوية التي تأخذ بشغاف القلوب، وفيض هائل ومثير من المعروضات الجميلة المعتدلة الأسعار.

بعد انتهاء جولتنا بالمركز الصناعي كان موعد القطار قد أزف، وكان محتما علينا أن نسرع إلى محطة القطار لنعود إلى مدينة نيودلهي، وعندما وصلنا سمعنا «الميكروفونات» بالمحطة تعلن أن قطار نيودلهي قد تأجل موعده إلى الساعة الثامنة نظرًا لبعض الظروف الأمنية، وانتابتنا حالة من الذعر ولكني تماسكت وتظاهرت بالهدوء، لأهدئ من روع أبنائي، ورحت أحكي لهم بعض النوادر المضحكة التي حدثت عند عودتي من ثاني رحلاتي للهند، عندما عادت الطائرة إلى بومباي بعد أن قطعت أكثر من نصف رحلتها في طريق العودة إلى كولومبو، لأن أحد الأشخاص زعم أن هناك قنبلة زمنية موضوعة بالطائرة، وكيف سيطر الذعر على بعض الركاب، والمواقف الكوميدية التي وقعت منهم.

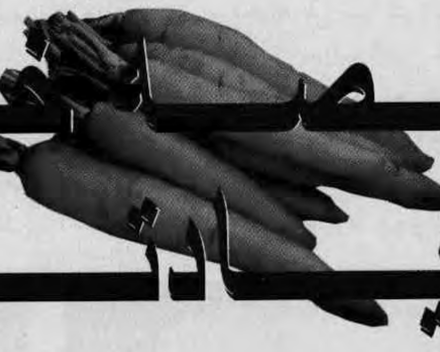
وفي تمام الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة أعلن الميكروفون أن القطار المغادر إلى نيودلهي قد وصل إلى المحطة وعلى المسافرين التوجه إليه فورا، واندفعنا إلى القطار وأخذنا مجلسنا به، وانطلق بنا في تمام الساعة الثامنة عائداً إلى نيودلهي التي وصلناها في ساعة متأخرة من الليل.



خوذة تعود لأحد السلاطين المسلمين المغول في الهند



المغنيزيوم نقصانه خطر وزيادته مرض



درويش مصطفى الشافعي

من الملامح البارزة في ثقافة البلدان المتقدمة العناية بالبحث العلمي وإيصال الثقافة والمعرفة لأكبر قطاع من الناس. فالمعرفة تكشف لهم حقيقة الأمور وخلفياتها وأبعادها مما يجعلهم قادرين على تمييز الغث من السمين، أما العلم فإنه يحل لهم العديد من المشكلات الصحية والاجتماعية والبيئية. ومع أن العلم قد خطا خطوات واسعة، وحقق نتائج مبهرة في العديد من المجالات، ومنها حقل الصحة البشرية والتغذية الصحيحة؛ إلا أن هناك زيادة في انتشار بعض الأمراض؛ كأمراض الروماتزم، والحساسية، والكلى، والقلب والأعصاب وغيرها. ولسنا نغالي إذا قلنا أن مايقرب من نصف سكان العالم المتحضر هم دون المستوى في الخلو من الأمراض□

وفي ظل الظروف البيئية الحالية والعادات الغذائية السائدة لابد أن تحتل الثقافة الغذائية والوعي الصحي مكانة مرموقة في قائمة اهتمامات الدول والجهات العلمية ذات العلاقة، ومما لاشك فيه أن معرفة الإنسان وظائف جسمه الفسيولوجية واحتياجاته من الغذاء والرعاية الصحية هي الأكثر جدوى والأكثر تشويقًا وإثارة.

وعنصر المغنيزيوم (Mg)، موضوع هذا المقال، أحد العناصر المعدنية المهمة لسلامة العقل والبدن، وقد حظي بلقب إكسير العافية، واعتبره آخرون ترياقًا للأمراض، في حين أهمله البعض وقلل من دوره وتأثيره. ومع ذلك يبدو أن للمغنيزيوم دورًا وتأثيرًا بالغ الأهمية في صحة الإنسان. فقد بينت الأبحاث أن نقصه في الجسم يسبب كثيرا من الأمراض والاضطرابات، كما أن زيادته على المستوى الطبيعي تهدد الصحة

والحياة. ونظرا لأهمية المغنيزيوم فقد سعى للكشف عن دوره وتأثيره عشرات العلماء، وتعهدت مصانع دوائية بتقديم الدعم المادي للباحثين الذين يدرسونه. وفي عام ١٩٦٠م انعقد في فرنسا مؤتمر علمي عالج فيه المؤتمرون، وهم من الأطباء وأخصائيي التغذية، موضوع المغنيزيوم، وهذا المؤتمر هو العاشر من نوعه.

دور المغنيزيوم وتأثيره

يستدل من كمية المغنيزيوم الكبيرة المتواجدة في جسم الإنسان على أهمية دوره ووظائفه، حيث تبلغ كميته (٢٥) جراما عند الشخص البالغ الذي يزن (٧٠) كيلو جرامًا. ويتوزع المغنيزيوم على العظام بنسبة ٦٥٪ مشكلاً بذلك مخزونًا احتياطيًا لاستعماله في الحالات الضرورية، ويوجد في الكتلة العضلية بنسبة ١٧٪، كما يوجد في القلب والبنكرياس، والكلى والكبد، والجهاز العصبي بنسبة ١٧٪ أيضًا.

أما في بلازما الدم فيصل معدله إلى ٢٫٥ ملجرام لكل ١٠٠ مللتر. وعندما تقل نسبته عن ١٫٨ ملجرام لكل ١٠٠ مللتر تظهر أمراض واضطرابات صحية كثيرة، بينما تسبب زيادته عن ٥ ملجرام لكل ١٠٠ مللتر التوتر والقلق وعدم القدرة على النوم، وإذا تراوحت نسبته ما بين ١٥ - ٢٠٪ ملجرام لكل ١٠٠ مللتر فإن الإنسان يقع في غيبوبة. ويعالج الشخص المصاب بزيادة المغنيزيوم بإعطائه محلول الكالسيوم، وذلك لأن الكالسيوم يرسب المغنيزيوم ويُحيِّد دوره وتأثيره. وهنا لابد من التذكير بأن تناول أقراص الكالسيوم المحتوية على فيتامين ج/C بشكل عشوائي ودون استشارة الإخصائيين يؤدي إلى ظهور أعراض مرضية عديدة (ترسبات كلسية في الكلى، اضطرابات قلبية...الخ) ويؤدي كذلك إلى نقص المغنيزيوم والحديد في الجسم.

وللمغنيزيوم وظائف وأدوار عديدة في الجسم؛ منها ماهو معروف ومنها ما زال قيد البحث. ومن وظائف المغنيزيوم التوسط كعامل محفز في عمليات الاستقلاب الخلوي، وتمثيل المواد الكربوهيدراتية وإنتاج الطاقة. ويؤدي دورًا رئيسًا في ظاهرة النمو وبناء العظام خصوصًا عند الأطفال واليافعين حيث يدخل في تركيب العظام مع الكالسيوم والبوتاسيوم والفوسفور. وفي تجربة أجريت عام ١٩٦٢م على فئران المختبر بهدف معرفة دور المغنيزيوم في النمو بيّنت أن إخضاع الفئران لنظام غذائي يخلو من المغنيزيوم أدى إلى إيقاف نمو الفئران وسبب تهيجًا شديدًا لأعصابها وتقلصات في عضلاتها، أي إنها أصيبت بفرط الاستثارة العصبية العضلية، وقد بيّنت الفحوصات المخبرية زيادة في الكولسترول وتصلب الشرايين عند نقص المغنيزيوم في الدم، إضافة إلى زيادة فرص تشكل التخثرات الدموية التي تسبب الجلطات القلبية والدماغية وغيرها. وقد اكتشف الباحثون وجود علاقة بين نقص المغنيزيوم والإصابة بمرض السرطان وضعف مناعة الجسم ضد الأمراض المعدية وضعف قدرة الرجل على الإنجاب، كما وجد الباحثون أن أحد أسباب تآكل العظام وضعفها مع بداية مرحلة الشيخوخة أو بعد الحمل والولادة يعود إلى نقص المغنيزيوم المزمن في الجسم. وبالإضافة إلى هذه الأمراض والاضطرابات الجسدية تظهر نتيجة نقص المغنيزيوم أعراض مرضية نفسية، إذ يعاني المريض من القلق والتوتر والكآبة، وقد تدفعه هذه الأعراض للانتحار، ولايستطيع الطبيب في كثير من الأوقات تشخيص المرض، فيلجأ إلى إعطاء المريض خليطًا من الفيتامينات والعناصر المعدنية وينصحه بالراحة.

ولعل من أبرز أعراض نقص المغنيزيوم ما يلي:

ـ الشعور بالتعب والإجهاد عند بذل أي مجهود عضلي. ـ الشعور بخدر في الساقين واليدين والإحساس بوخز كوخز الإبر في أطراف أصابع اليدين والقدمين. ـ ارتخاء المفاصل وهبوط عام في الجسم مع ألم في العمود الفقري. ـ الشعور بالهبوط في الفراغ في اللحظة الأولى للنوم. ـ نوم مضطرب واستيقاظ متكرر أثناء الليل، وشعور بالصداع (الشقيقة) والدوار في الصباح. ـ تسارع في ضربات القلب وظهور نوبات من الخفقان غير المنتظم من وقت إلى آخر، والشعور (بنخزة) موجعة في الصدر مما يعطي انطباعًا بوجود خلل في القلب. ـ ظهور أعراض سوء الهضم خصوصًا عند الأطفال واليافعين؛ حيث يشعر الطفل بانتفاخ البطن وبتشنج المعدة والأمعاء، كما يعاني من الإمساك وكثرة التجشؤ. ـ زيادة الحركات الانعكاسية والتكزز وهو عبارة عن تصلب شديد في عضلات الأطراف والوجه.

ويلاحظ أن الأطفال هم الأكثر تعرضًا لنقص المغنيزيوم بسبب تغذيتهم بشكل رئيس على الحليب الصناعي الفقير من عنصر المغنيزيوم، ولهذا ينصح بإعطاء الأطفال (ابتداءً من الشهر الخامس أو السادس من عمرهم) الخضار والفاكهة المطبوخة بعد هرسها، وذلك لتزويدهم بالعناصر المعدنية المختلفة، وقد لوحظ أيضًا أن حليب الأبقار يسبب أحيانًا سوء امتصاص وعدم تمثيل المغنيزيوم بسبب احتوائه على كمية كبيرة من الفوسفات.

أسباب نقص المغنيزيوم

يتواجد المغنيزيوم بكميات كافية في الأغذية النباتية جميعها خصوصًا النباتات الورقية مثل السبانخ، البقدونس، الملفوف، والخس وغيرها. فهو العنصر الأساس والمهم في تكوين مادة الكلوروفيل، كما يتواجد في الحبوب مثل العدس، القمح، والفاصوليا، ويوجد أيضًا بكميات كبيرة في المكسرات وبعض الحيوانات البحرية كالأسماك والقشريات. أما الأغذية الفقيرة بالمغنيزيوم فهي الحليب ومشتقاته، اللحوم الحمراء والبيض. ويحتاج الإنسان البالغ إلى عشرة ملليجرامات يوميًا لكل كيلو جرام واحد من وزنه وهذا يعني أن الشخص البالغ الذي يزن سبعين كيلو جرامًا يحتاج إلى (٧٠٠) مللجرام يوميًا، في حين لا يقدم الطعام الذي يتناوله الإنسان في اليوم أكثر من (٤٠٠) مللجرام من المغنيزيوم. وقد يتساءل المرء: لماذا يحدث نقص في المغنيزيوم مع أنه





الخس والفلفل الحلو والفاصوليا والملفوف (الكرنب) والقرع والمقدونس والجزر والذرة الصفراء والطماطم وغيرها، كلها



متوافر في معظم الأغذية؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إن كمية المغنيزيوم في الغذاء ليست المشكلة الوحيدة، فهناك أسباب وعوامل كثيرة تحول دون استفادة الجسم من المغنيزيوم وغيره من العناصر؛ فالطهي الخاطئ للطعام، والتصنيع الغذائي الذي يضيف المواد الحافظة والملونة، ويحذف قشور الحبوب والخضروات الغنية بالعناصر المعدنية والفيتامينات من أسباب نقص المعادن في الطعام، وبالإضافة إلى ذلك توجد عادات وطرق خاطئة في تناول الغذاء؛ فبعض الناس يكثر من تناول الأغذية التي يحبها وآخرون لا يأكلون كثيراً من الأغذية، وفي الحالتين فإنهم يحرمون أنفسهم من العناصر والفيتامينات الضرورية والمهمة، وهناك أشخاص يتناولون أطعمة منوعة بشكل عشوائي قد لا تتوافق مع بعضها؛ فتناول السبانخ وغيره من الأغذية الورقية مع الحليب ومشتقاته غير مناسب، لأن الكالسيوم الموجود بكثرة في الحليب واللبن يعوق امتصاص المغنيزيوم والحديد، كما أن شرب القهوة والشاي والمشروبات الغازية بعد الطعام لا يسمح بامتصاص عدد كبير من المعادن ولا يوافق هضم البروتينات. وبالإضافة إلى هذه الأسباب وغيرها كثير؛ توجد أسباب أهم وأخطر تؤدي إلى عوز الجسم للمغنيزيوم، وغيره من المعادن، من أهمها ما يلي:

- أمراض الجهاز الهضمي، مثل الإسهالات المتكررة والتقيؤ، وهذا من شأنه عدم إعطاء فرصة كافية للأمعاء لامتصاص المعادن والمواد الأخرى الموجودة في الطعام. وتعمل أمراض أخرى كالأكزيما وأمراض المفاصل على استنزاف المغنيزيوم أو طرحه من الجسم.
- اضطراب إفراز الغدد جنب الدرقية (جارات الغدة الدرقية)، وسوء تمثيل البروتينات وزيادة الدهون والفوسفات والكالسيوم في الأغذية كلها أسباب تعوق امتصاص المغنيزيوم.
- ارتفاع سكر الدم (مرض السكري).
- الإدمان على الكحول.
- أمراض الكلى: من المعروف أن الكلى تطرح المغنيزيوم مع البول بصورة طبيعية بمعدل (٥٠ - ١٥٠) مللجراما لكل لتر خلال (٢٤) ساعة، وكثيراً ما تصاب الكلى بقصور، مما يجعلها تطرح كمية أكبر من المغنيزيوم فيحدث العوز. بينما قد ترتفع نسبة المغنيزيوم في الدم بسبب عدم قدرة الكلية على طرحه، ويحدث ذلك في حالة الهبوط الكلوي الحاد والمزمن.
- الحروق الواسعة تستنزف أيضاً قدراً كبيراً من المغنيزيوم والمعادن الأخرى.
- الأعمال الشاقة في الأجواء الحارة التي ينتج منها إفراز غزير للعرق، مما يسبب في طرح عدة عناصر وأملاح من بينها المغنيزيوم.





أغذية غنية بالمغنزيوم تساعد على النمو وبناء العظام وتقوية جهاز المناعة في الجسم

توصيات

قد يتبادر إلى الأذهان أن التمتع بالصحة والمحافظة على توازن المعادن في الجسم غاية لا تدرك؛ فأمور الصحة والتغذية بلغت حداً من التعقيد والتشابك بحيث لا يفهمها سوى المتخصصين في الطب والتغذية، وحتى لو استطاع الإنسان العادي فهمها فقد لا يستطيع الأخذ بتوصيات الخبراء والأطباء الذين وضعوها بسبب الانشغال، أو لأنها تستدعي نفقات مادية إضافية. ولكن الحقيقة أبسط من ذلك بكثير حيث تكفي نظرة سريعة إلى الوراء لنكتشف لغز الصحة والعافية التي تمتع بها أجدادنا ومن سبقوهم. فلقد كان غذاء الأجداد ينمو وينضج في أحضان الطبيعة العذراء دون أن تمسه السموم أو تعبث به آلات المصانع أو يتلاعب فيه التجار الجشعون. وبالإضافة إلى ذلك اتصف غذاؤهم بالبساطة والتواضع دون تقتير أو إسراف، فكان طعامهم طبقاً أو طبقين من الطعام، وشرابهم الماء النظيف أو عصير الليمون الطبيعي، وكانت حلواهم التمر والزبيب الغنية بالمعادن والفيتامينات أو فاكهة الموسم. أما غذاء أهل هذا العصر فمعظمه مكون من الأطعمة السريعة التي تباع في الطرقات وفي المدارس والمصانع وكلها لا تخلو من الغش، كما لا تحتوي على مايحتاجه الجسم من فيتامينات ومعادن وبروتينات بسبب سوء التحضير ورداءة المواد المستعملة. وفي ظل هذه الظروف لابد من أخذ الأمور التالية في الاعتبار لصون ما تبقى لدينا من صحة وعافية:

- تناول كمية كافية من الخضار والفاكهة الطازجة؛ فقد بينت الدراسات أهميتها وفوائدها، لا على صعيد التغذية الصحيحة فحسب؛ بل على صعيد معالجة كثير من الأمراض أو الوقاية منها، ففي فرنسا ارتفع معدل استهلاك الفرد من الخضار إلى حوالي (٧٠) كيلو جراما ومن الفاكهة إلى (٦٥) كيلو جراماً في السنة.
- اختيار الأطعمة الطازجة البسيطة وتحضيرها في مطبخ المنزل؛ فأبسط طبق يجهز في المنزل يحتوي على أربعة أنواع من المواد النباتية المختلفة.
- تجنُّب الأغذية التي تتعارض مع بعضها، وجعل طبق السلطة سيد الموقف على مائدة الطعام.
- تناول الأغذية الحيوانية بكميات قليلة، ولكن بشكل دوري؛ فكمية من اللحم بوزن بيضة على المائدة تسد حاجة الجسم اليومية من البروتين والحديد.
- تعوُّد تناول مرقة الخضار بشكل يومي، فهي غنية بالفيتامينات والمعادن الضرورية للجسم.
- تناول عصير الفاكهة؛ مثل عصير البرتقال أو الليمون بعد تناول اللحوم أو الخضار الورقية، فالأحماض العضوية تبطل مفعول الأكسيلات الموجودة في الخضار، التي تعوق امتصاص المغنيزيوم والحديد كما تساعد على هضم البروتين الحيواني وتمثيله.
- تنويع الغذاء خلال اليوم الواحد بحيث يشتمل على أنواع مختلفة من الأغذية، فالمعادن والفيتامينات والبروتينات لا توجد مجتمعة في غذاء واحد.
- الإقلال من تناول الثلاثة البيض (السكر، الدهن، والخبز الأبيض).
- تعوُّد تناول مستحلب الأعشاب الطبية مثل الزعتر، البابونج، الحلبة، الينسون، والميرامية؛ فهي دواء لعدد من الأمراض وغنية بالعناصر المعدنية والفيتامينات.

وفي الختام لابد من التذكير بأن الجسم هو من صنع الله سبحانه وتعالى الذي اتقن صنعه، وسيره في نظام بديع دقيق، وهو وحده الذي يملك زمام حياته ومماته، وعلى الإنسان تقع مسؤولية المحافظة عليه من كل ما يضر به. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «إن لبدنك عليك حقا».

نافذة على ثقافة العالم

الكيمياء في الإسلام

TOWARD MODERN SCIENCE
VOLUME 1
STUDIES IN ANCENT
&
MEDIEVAL SCIENCE
EDITED BY:
ROBERT M. PALTER

بقلم:
ي.ج. هولميارد
ترجمة:
إبراهيم عبدالله العلو

عن كتاب:
TOWARD MODERN SCIENCE
VOLUME 1
STUDIES IN ANCENT & MEDIEVAL SCIENCE
EDITED BY: ROBERT M. PALTER

تخصص الكتب الأساسية لتاريخ الكيمياء حيزا «محدودا» للغاية لظهور علم الكيمياء في الإسلام وتطوره. وغالبا ماتكون المعلومات المتناثرة التي توفرها تلك الكتب خاطئة أو مضللة إلى حد كبير، ولايعتبر ذلك خطأ المؤلفين الذين بذلوا أفضل الجهود في حدود المواد المتوافرة، التي هي بحد ذاتها غير مكتملة. ولحسن الحظ بدأت الكيمياء العربية تلقى المزيد من الاهتمام مع أن عدد العلماء الذين ينذرون أنفسهم لهذا الفرع من فروع العلم لايتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. ويفصلنا فاصل زمني شاسع عن التقويم الحقيقي لخدمات العلماء المسلمين لهذا العلم بشكل منصف، ومع ذلك فإنه ليس من المستحيل حتى الآن الحصول على فكرة عامة عن هذه الخدمات وتوجيه الاهتمام إلى بعض الأخطاء الجدية التي وجدت طريقها إلى الانتشار العام.

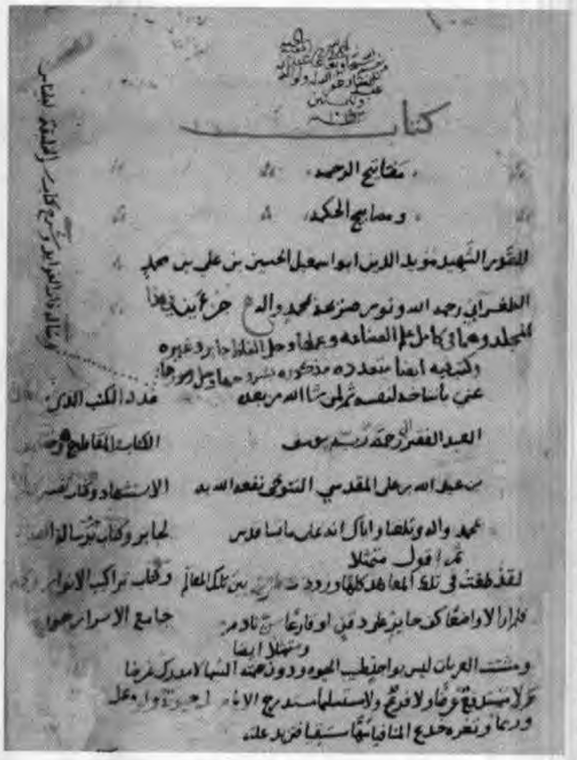
وتشدد النزعة الأساسية لبحث الحديث على أن السمعة التي اكتسبها المسلمون الأوائل بوصفهم كيميائيين في العصور الوسطى كان لها مايسوّغها إلى حد بعيد. ويعزى الخسوف المؤقت الذي عانت منه هذه السمعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بشكل جزئي إلى آراء كوب KOPP السلبية، وإلى الاستنتاجات المتهورة التي استخلصها بيرثوليت BERTHELOT إثر دراسة سطحية لجزء محدود من المواد المعروضة للبحث.

ومن بين الأخطاء الأكثر جدية التي وقع فيها هذان المؤرخان وغيرهما الرفض التام للمؤلفات الكيماوية اللاتينية في العصور الوسطى التي يُدَّعى أنها ترجمة عن اللغة العربية. وقد استندت النقاشات الرافضة بشكل تام تقريبًا إلى اعتبارات الأسلوب. ومن المهم أن نبين أن استنتاج خلاصات بعيدة المدى من هذا المصدر هي طريقة غير ملائمة إطلاقًا نظرًا لوجود فروق شاسعة بين كل من اللغتين، الأمر الذي تضخم في هذه الحادثة من خلال النغمة التقنية العالية في التعبير. والطريقة الأكثر دقة التي يمكن اعتمادها بدلاً من الأسلوب هي طريقة المحتوى.

إن التحري الدقيق للكتب موضع السؤال سوف يفصح غالبًا عن جمل ومصطلحات هي بطبيعة الحال عربية. ويجب أن نعترف أنه لايمكن الإشارة في هذه اللحظة وفي حالة معينة إلى الأصل العربي لكتاب كيماوي لاتيني محدد، ولكن الفكر العربي وطريقة التعامل التي تتخلله ليست غريبة.

الظن ليس كافيا للرفض

من الضروري بمكان التذكر أن الكتاب الكيماوي العربي تعرض للتصحيف في معظم الأحيان بشكل أو بآخر إلى درجة كبيرة من قبل مترجمه. ولانستطيع أن ننكر أن التزوير، ونسبة



طرة كتاب «مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة»، لمؤيد الدين أبي إسماعيل الحسين بن علي الطغرائي، وهو من المؤلفات النفيسة في علم الكيمياء (المخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية)

الكتب إلى أسماء لامعة كان شائعًا إلى حدٍّ ما في العصور الوسطى، ومع ذلك يجب أن نتوخّى الحذر قبل رفض أي كتاب لاتظهر بشكل جلي طبيعته المزيفة.

ويجب أن نثمن أهمية هذا المبدأ في الموضوع المدروس، ويجب ألا يستنتج المرء أن كتابا ما مزيَّفٌ لمجرد الظن أن مؤلفه لم يملك ظاهريًا أيَّ اهتمام بالكيمياء. فالكيمياء تزدهر في شتى الأماكن، وفي حالات الشك فمن الأفضل اتباع العرف الساري بدلاً من رفض الكتاب على أسس غير كافية؛ وبما أن هذا المنحى هو الذي سلكته في الموضوع الحالي؛ فإنني رأيت من الأهمية بمكان شرح الأسباب التي دفعتني إلى ذلك مع بعض الإسهاب.

إن إحدى الصعوبات الغريبة المميزة التي يجب أن يعتادها طلاب الكيمياء هي اللغة التقنية المستخدمة من قبل معظم الخبراء. فهي غالبًا ماتكون غامضة وأحيانًا مبهمة وغير مفهومة. وهذه الصفة تشيع في الأعمال الكيماوية في اللغات كافة، واللغة العربية ليست استثناءً من هذه القاعدة.

ولكن العلماء الذين يعرفون إلى أي مدى كانت أبحاث كيميائيي العصور الوسطى الأوربيين مصبوغة بهذه الطريقة سوف يسرون لدى قراءتهم للكتب الإسلامية الأولى.

وهنا يمكننا التمييز بشكل واضح بين قسمين رئيسين: فمن ناحية نجد سلسلة من الأبحاث التي تُرى بدائية عندما تخضع للحكم عليها بالمعايير الحديثة ومع ذلك نجدها مشبعة بالروح العلمية الحقيقية، ويمكن أن يتفهمها بسهولة نسبية أي كيميائي معاصر، وإلى هذه السلسلة تعود معظم كتب جابر بن حيان والرازي، والأجزاء المتعلقة بالكيمياء في مفاتيح العلوم ورسائل إخوان الصفا وبعض الموسوعات الأخرى والعديد من كتب الوصفات وغيرها. ومن ناحية أخرى هنالك المؤلفات التي تتبع التقليد الإسكندري فتصطنع اللغة الكيمياوية، وهي إلى حد كبير غامضة، يستخدم مؤلفوها تعابير الكيمياء التقنية ليعبروا عن أفكار دينية أو سرية. وتدخل ضمن تلك المجموعة الكتب الوفيرة عن السحر.

علماء من الطراز الأول

قد لانجد الفرق دقيقا بين السلسلتين المذكورتين سابقًا عند عدد من المؤلفين. على أننا سنجد صعوبة أقل في تقرير ما إذا كان عملٌ عربيٌ عن الخيمياء(١) AL-CHEMY مثلا يجب أن يفسر بشكل علمي أم لا، بموازنته بالمؤلفات الأوربية في العصور الوسطى ذات الطبيعة المماثلة. ولكن هناك حقيقة واحدة تظهر بجلاء، هي أن الكيميائيين المسلمين - وأحدهم فارسي - كانوا علماء من الطراز الأول، ولايقلون في الأهمية عن بويل ولافوازيه وبريستلي، وأهمهم على الإطلاق جابر بن حيان والرازي.

عالم لايضاهى

إن الدراسة المعمقة والمخصصة لكتابات العالمين السابقين أدت إلى تعميق قناعتي بأن المؤسس الحقيقي للكيمياء بوصفها علما كان جابر بن حيان؛ فقد كان مؤلفًا غزير الإنتاج ولاتزال أعداد كبيرة من كتبه موجودة بيننا، ولكن لسوء الحظ لم ينشر منها إلا القليل. ولايمكن بالطبع إصدار أي تقويم نهائي لإنجازات جابر في الكيمياء قبل الانتهاء من دراسة كتبه الموجودة كافة دراسة متأنية فاحصة. لقد كان جابر يمتلك مقدرة عقلية هائلة، وكان رائدًا «تجريبيًا» ناجحا، وربما كانت أكثر مساهماته أهمية لتطور العلم نظريته القائلة: «إن كافة المعادن مكونة من الزئبق والكبريت». وهذه النظرية التي تعتبر خطيرة بالنسبة لفترة مبكرة كتلك الفترة، يمكن إرجاعها عبر قرون متتابعة إلى شكلها النهائي في نظرية اللاهوب(٢) PHLOGISTON لبيشر و ستال BECHER AND STAHL. لقد فقدت النظرية اللاحقة مصداقيتها منذ زمن طويل، وأضحت عقبة كأداء في طريق التقدم، ولكن تصورها آنذاك كان يحقق الاختبارات كافة لنظرية علمية ناجحة. ومن المثير للاهتمام كونها تعود إلى أيام هارون الرشيد. وفي الجانب العملي يعطي جابر تعليمات صحيحة لتحضير العديد من المعادن والمركبات المعدنية، وبناء الأدوات.

إضافة إلى ذلك يعطي جابر للمرة الأولى نصا لجدول إيمرالد EMERALD لهرميز HERMES الذي يدّعي الحصول عليه من عمل أبولونوس APOLLONIUS وقد تكون ذات أساس إغريقي.

من جانب التقويم المعاكس، من الضروري أن نذكر أن جابرًا كان يميل قليلا إلى التصوف، ولم ينجح دائما في منع مفاهيم خفية وغامضة من مخالطة علمه، وهذا ليس بالأمر المفاجئ في ضوء المواد التي تتلمذ عليها بالمعنى الكيماوي، ولكننا نفاجأ بالمدى الذي تمكن فيه من تحرير نفسه من تلك العوائق، ومقدرته الفذة على إرساء صرح الكيمياء على أسس متينة. كان اعتقاده بإمكان التحويل TRANS-MUTATION (تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة) موافقًا

الجوّ الفلسفي السائد في ذلك العصر، وفي ضوء غياب الطرق الموثوقة للتحليل الكيماوي، فإن الكيميائيين الأوائل كانوا يعتقدون بأنهم قد أنجزوا عملية التحويل.

تأثير عربي واضح

قد لانستطيع أن نناقش بثقة الفكرة التي تنسب الأعمال اللاتينية إلى جابر، ولكن الاهتمام قد ينصرف إلى حقيقة تقرر أن الدكتور أرنست دارمستادر ERNST DARMSTAEDTER في ميونخ اكتشف اكتشافًا ذا أهمية كبيرة في هذا الخصوص. إذ اكتشف النص اللاتيني لكتاب جابر «كتاب الرحمة» في مخطوط يحتوي أيضا على بعض الأعمال اللاتينية الأخرى موضع السؤال. ويُظهرُ لنا ذلك، من جانب واحد، أن أعمال جابر العربية قد ترجمت فعليا إلى اللاتينية في العصور الوسطى، أما ظهور البحث الكامل SUMMA PERFECTIONIS في المجلد نفسه وفي الوقت نفسه فهو على الأقل دليل افتراضي قوي على أصل مشترك لهما. ومع أن البحث الكامل والكتب المماثلة لاتعطي المرء الانطباع بأنها كانت ترجمة حرفية ومباشرة عن العربية، فيجب ألاننسى أن المناقشة على أساس الأسلوب هي مناقشة غير كافية. وتترك موازنة محتويات البحث الكامل مع بعض أعمال جابر العربية المحددة انطباعًا مختلفًا تمامًا، وحتى في النصوص اللاتينية تجد العين الخبيرة إشارات واضحة للأصل العربي لها.

يجب ألاّ نتصور أن نظرية التحويل كانت مقبولة بشكل عالمي بين العلماء المسلمين، لقد كان المشككون فيها ينشطون في مناهضتها منذ شيوعها، ولكن النظرية اكتسبت فيما بعد دعما قويا من ابن سينا. لقد نفى العلماء الأوربيون أن ابن سينا كان مهتما «بالخيمياء». وقد رُفضت جميع النصوص اللاتينية بهذا الخصوص والمنسوبة إليه واعتبرت نصوصا مزورة. وفي هذا الصدد عانى ابن سينا من المعاملة نفسها التي قوبل بها جابر، ولذلك يجب أن نلاحظ أن موثوقية الكتب التي يدعي الأوربيون أنها مزورة هي ثابتة بشكل قاطع.

يشرح ابن سينا ببعض الإسهاب في الكتاب المعنون:
DE CONGELATIONE ET CONGLUTIN AFIONS LAPIDUM المطبوع ضمن بعض الكتب الجامعة عن الخيمياء ويوجد مخطوطًا في كلية ترينتي، أسباب عدم اعتقاده بإمكان التحويل، ويدلي برأيه في تشكيل المعادن. ولقد دفعتني الدراسة الدقيقة لهذا الكتاب إلى الاستنتاج بأنه كان كتابًا حقيقيًا وليس مزيفًا لأن أسلوبه كان عربيًا بشكل لايدعو للشك، ولأن النزعة التي اعتنقها الكاتب حول إمكان التحويل هي النزعة نفسها المنسوبة إلى ابن سينا من قِبَل الجلدكي.

يقول الجلدكي في وصف تاريخ الخيمياء في الإسلام: «لقد رأيت كتابا للرئيس (ابن سينا) يبحث فيه أهداف الحكماء وإشاراتهم عن الخيمياء ويرفض حقيقتها، يقول إنه ليس بالإمكان تغيير طبائع الأشياء الأساسية، وإنه لايمكن تحويل الفضة إلى ذهب، وكذلك المعادن الأخرى، ولكنه اعتقد إمكان إدخال صبغة بيضاء على النحاس وإعطائه مظهر الفضة ولونها، ولكنه يبقى نحاسا «مصبوغا» وليس فضة». وفي موضع آخر يذكر الجلدكي أن ابن سينا يحارب آراء الخيميائيين في كتابه المسمى «الشفاء».

ويثبت تفحص كتاب الشفاء أن الجلدكي كان، كعادته في مثل هذه الأمور، مصيبًا. وفي الحقيقة قد توجد موضوعات مماثلة في ذلك الجزء من كتاب الشفاء الذي يتحدث عن العلوم الطبيعية (فن الطبيعة)، والكراسة اللاتينية هي ترجمة قريبة لهذه الفقرات. وسوف ترى أن الحذر الصريح في هذه المقالة من قبول الرفض السريع للأبحاث الكيماوية اللاتينية في العصور الوسطى كان مُسَوَّغًا. والمثال الذي ذكرناه سابقًا ليس وحيدًا على أية حال. ولسوء الحظ لم تنجح محاولة العثور على النصوص العربية للبحث الكامل وغيرها، ولكنني أعتقد أنه سوف يتم الاعتراف بها في ضوء الحقائق المشروحة آنفًا، وأن العلماء الذين يصرون على أن هذه الأعمال مزيفة يجب أن يقدموا أدلة مقنعة إذا تابعوا إصرارهم على نظرتهم وصواب رأيهم.

مزاوجة بين الطب والكيمياء

أما الرازي (أبو بكر محمد بن زكريا) العالم الكيماوي والفيزيائي الجليل، فإننا ننتظر بفارغ الصبر ما سيأتي عن قيمته العلمية في كتاب الأستاذ جوليوس روسكا من هايدلبيرج لملاحظاته القيمة وأبحاثه العلمية المضيئة حول الكيمياء الإسلامية. لقد كان الرازي مفكرًا «عظيما» ولقد أبدى الأستاذ براون إعجابًا عميقًا بإنجازاته في الطب يوازي الإعجاب الذي أبداه كل من درس سر الأسرار وبعض الأعمال الكيماوية الأخرى. فمن هذه



صفحتان من أول مخطوطة كتاب «المصباح في أسرار المفتاح» لأيدمر بن عبدالله الجلدكي (من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية)

الكيمياء في الإسلام

الكتب يتضح لنا أن الرازي كان يعتقد بإمكان التحويل، وكان مهتمًا إلى درجة أكبر بإمكان الاستفادة من الكيمياء في خدمة الطب. إن تصنيفه للعناصر الكيماوية وتعليماته لتحضيرها وتنقيتها تشير إلى عقل تركيبي وخبرة علمية تثير الاهتمام. كان الرازي في الحقيقة أول الكيميائيين الطبيين IATRO-CHEMISTS ويمكن موازنة خدماته للكيمياء مع خدمات باراسيلسوس PARACELSUS رغم التفاوت الكبير بين شخصية كل منهما، فالرازي كان متواضعًا ومهذبًا وسخيًا، وكان يمتلك كل الصفات التي تجعل منه رجلاً نبيلاً، بينما كان باراسيلسوس رجلاً غريب الأطوار.

لايتسع المقام للاستفاضة أكثر حول الكيميائيين المتأخرين في الإسلام، لكننا نشير إلى أحد الأمثلة المحيرة، وأعني كاتب العمل المعروف برتبة الحكيم الذي اعتقد لفترة طويلة أنه العالم الفلكي والرياضي المشهور في إسبانيا المسلمة أبو القاسم مَسْلَمةُ المَجْريطي (المتوفى عام ٣٩٨هـ). ومن المؤكد أن كتاب «رتبة الحكيم» ظهر بعد موت مسلمة في عام ١٠٠٧م، ولم يُحَلّ غموض كاتبه بعد، ولكنه ينسب عالميًا إلى مسلمة من قِبَل المسلمين أنفسهم، وتتفق بعض خصائصه بشكل جيد مع هذه النسبة، ولكن هناك صعوبات جمة تحول دون قبوله. وكتاب الرتبة قيم من عدة نواح؛ لأنه يلقي المزيد من الضوء على التفكير العلمي في إسبانيا في القرن الحادي عشر قبل بداية الموجة العملاقة لانتقال العلم من المسلمين إلى أوربا، ويظهر الكتاب أن الأسماء الكبرى لم تزل تحتل مكانتها بعد فترة قرنين من الزمن، ويوضح لنا أهمية الرجلين بين كيميائيي أوربا العصور الوسطى، ويثبت أيضا حقيقة تتعلق بالنظرات النظرية؛ إذ لم يحدث تقدم كبير في هذه الفترة الانتقالية، مع ملاحظة ازدياد تأثير الممارسات السحرية.

عالمان لايمكن إغفالهما

بدأت ترجمة المؤلفات الكيماوية العربية إلى اللاتينية حسب ماهو معروف في القرن الثاني عشر من قبل الإنجليزي روبرت تشيستر ROBERT CHESTER واستمرت عبر أعمال جيرارد الكريموني وبعض العلماء الآخرين المعروفين في القرون الوسطى، وكان المركز الرئيس للنشاط بالطبع إسبانيا، وكان البديل الآخر صقلية وجنوب إيطاليا. ولم يحن الوقت بعد لبحث القصة الكاملة لهذا الانتقال؛ إذ يتوجب علينا أولاً دراسة تطور الكيمياء في الإسلام، عندئذ سوف تسنح فرصة أفضل بكثير لحل المسائل العديدة بشكل صحيح، والتي تطرح من خلال تطور الكيمياء في أوربا اللاتينية .

وأخيرا، فإن أي دراسة للكيمياء في الإسلام لن تكون متكاملة إذا أغفلت أبا القاسم العراقي وأيدمر بن علي الجلدكي(٣). عاش العراقي في القرن الثالث عشر وربما في القاهرة، وخلّف وراءه العديد من الكتب التي تساعد على تحديد نزعة الفكر والممارسة الكيماوية في الإسلام بعد اكتمال عملية الانتقال إلى أوربا لبعض الوقت. ومن الواضح أن تأثير التفكير العلمي الأوربي في الإسلام في وقت العراقي لم يكن قد بدأ بعد. يمكن تمثيل الموازنة بين العالَمَيْنِ الفِكْرِيّين في شخص العراقي ومعاصره روجر بيكون ROGER BACON. كانت قوة دفع الإسلام قد بدأت في الضعف، بينما أنتج المحرض الجديد الذي منحته المعرفة العربية لأوربا نهضة علمية كانت ستصل إلى تطورها الكامل في سنوات قليلة لاحقة. إن نظرة العراقي هي نظرة عرفها من سبقه قبل ثلاثة أو أربعة قرون رغم التقدم الحاصل في الكيمياء العملية التجريبية، كما أن الأفكار النظرية المطروحة كذلك كانت مدعمة بأقوال جابر وخيميائيين مبكرين من المدرسة الاسكندرانية. ويبدو أن أبا القاسم نفسه كان تجريبيًا جيدًا ومفكرًا منطقيًا ولكن نظراته العامة لم ترقَ إلى مستوى أفكار جابر.

الجلدكي والنقل من دون تجريب

يكتسب الجلدكي الذي عاش طرفًا من حياته في القاهرة أهمية خاصة فيما يتعلق بمعرفته الكثيفة والعميقة بالمؤلفات الكيماوية الإسلامية. ومن الواضح أنه قضى الشطر الأعظم من حياته في جمع وشرح جميع الكتب التي استطاع اكتشافها عن الخيمياء، وقد بدأت أعماله الآن تجني ماتستحقه من تقدير، لأن كتاباته تشكل مصدرا لايمكن الاستغناء عنه لجزء كبير من معرفتنا بالكيمياء والكيماويين في الإسلام. ونلاحظ في أحيان قليلة أنه قام بالأعمال المخبرية بنفسه، ولكنها تبقى في غالبيتها عبارة عن شروح لأعمال الكُتّاب الأوائل. فالكتاب العظيم، نهاية الطلب هو عبارة عن تفسير وشرح لكتاب أبي القاسم «كتاب المكتسب»، وكانت كتبه مصدراً غنيًا بالمعلومات عن الكيمياء الإسلامية؛ لذا فإنه من الضروري بمكان أن نبحث فيما إذا كانت استعاراته وحقائقه التاريخية صحيحة، وما إذا كانت مصداقيته موثوقة أو مشكوكًا بها.

ولحسن الحظ فإن الكتاب الذي ينقل عنه غالبا مايكون موجوداً بحيث يمكن في تلك الحالات التأكد من النقل والاستعارة. لقد أثبتت الاختبارات التي أجريت على هذه الأسس أن الجلدكي كان صادقًا حيَّ الضمير، ولكنه لم يكن دقيقًا على الدوام. ومع ذلك تبقى أعماله موثوقة إلى حد كبير؛ ولذلك يستحق الجلدكي الشكر العميق من قبل المهتمين بتاريخ الكيمياء كافة.

إن هذه النظرة الوجيزة للكيمياء الإسلامية تنبّه إلى بعض الثغرات الأساسية في معرفتنا، وإلى بعض المشكلات الرئيسة التي تنتظر الحل.

ونحن بحاجة ماسة إلى متطوعين آخرين في حقل التحري المثمر هذا؛ فضخامة المواد البحثية المتوافرة تفوق مقدرة العاملين القلائل على دراستها بتفصيل واف، ومع ذلك فإن دراسة العلوم العربية من أكثر الأمور أهمية أمام المؤرخ الحديث لتنامي الحضارة.

الهوامش:

١- الخيمياء أو الكيمياء القديمة، فن قديم ارتبط بالسحر والتنجيم، وترجع إليه جذور الكيمياء الحديثة. يقال إنه نشأ في مصر القديمة أو في الصين في القرن ٥ أو ٣ ق.م. كان هدفه الأساس تحويل المواد، وخاصة الفلزات، إلى ذهب. وتعد الإسكندرية المركز الأول للكيمياء القديمة، وينسب إليها أنها موطن البحث عن حجر الفلاسفة الذي زعموا إنه يحيل الفلزات إلى ذهب. وصلت الخيمياء إلى العرب في القرن ٨ الميلادي وبقيت معهم حتى القرن ١٢، حينما انتقلت إلى أوربا في ترجمات لأعمالهم التي اشتهرت منها كتابات جابر بن حيان. ويعد روجر بيكون من أشهر من اهتموا بهذا الفن في القرن ١٣.

٢- اللاهوب: مادة كيماوية وهمية كان يعتقد قبل اكتشاف الأوكسجين أنها مقوم أساس من مقومات الأجسام الملتهبة.

٣- اختلف في اسمه فقيل: علي بن محمد بن أيدمر، وقيل: أيدمر بن علي، وقيل: علي بن أيدمر بن علي، وقيل: أيدمر بن عبدالله الجلدكي المتوفى بعد عام ٧٤٢هـ. ذكر له بروكلمان عدة مؤلفات، منها: المصباح في أسرار علم المفتاح، ونتائج الفكر في أحوال الحجر، وغيرها.

من نوادر التصنيف

حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألّفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام

هذا الكتاب يحمل في باطنه ثلاثة كتب، اختص كل منها بموضوع معين، أما الأول فهو ذو شقين: أحدهما «أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام»، والآخر «أسماء من قُتل من الشعراء»، والكتاب الثاني «كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه»، والثالث: كتاب «ألقاب الشعراء».

ومؤلف هذه الكتب محمد بن حبيب البغدادي، العلامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، توفي سنة ٢٤٥هـ، من كتبه المشهورة: المحبَّر، والمنمّق، وأمهات النبي صلى الله عليه وسلم، ومختلف القبائل ومختلفها، وغير ذلك.

أما الكتاب الأول وهو «أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام» فيضم قصصًا عن أشهر المغتالين نحو جذيمة الأبرش، وحسان بن تبع، وعمليق ملك طسم، والأسود بن عفار، وعامر الضحيان، وعبدة بن مرارة، وزهير بن عبد شمس، والحارث بن كعب، وداود بن هبالة، وهمام بن مرة، وجساس بن مرة، وخالد بن جعفر بن كلاب، والصمة الأكبر، وعدي بن زيد العبادي، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن بن علي رضى الله عنهما، وسالم بن دارة، والزبير بن العوام رضي الله عنه، وغيرهم.

والمغتالون تعني الذين اغتيلوا؛ أي لقوا مصارعهم بأيدي غيرهم على صور شتى من الطعن والضرب والخنق ودس السموم وغير ذلك من أسباب الغيلة.

ومن هذه القصص:

١ـ حسان بن تبَّع: وكان خرج من اليمن سائرًا حتى وطئ أرض العجم، وقال: لأبلغن من البلاد مالم يبلغه أحد من التبابعة. فأوغل بهم في أرض خراسان، ثم مضى إلى المغرب فبلغ رومة، وأقبل إلى العراق حتى إذا صار إلى فرضة نُعم بشاطئ الفرات قالت وجوه حميَر: مافني أعمارنا إلا مع هذا، يطوف في الأرض كلها، نغيب عن أولادنا وعيالنا وبلادنا وأموالنا، ومامدري مايخلّف عليهم بعدنا، فكلموا أخاه عَمْرًا وقالوا: كلّم أخاك في الرجوع إلى بلده، فقال: هو أعسر من ذلك وأنكد، فقالوا: فاقتله وتملّك علينا فأنت أحقّ وأعقل وأحسن نظرًا لقومك، فقال: أخاف ألا تفعلوا، وأكون قد قتلت أخي وخرج الأمر من يدي، فوافقوه حتى اطمأن إلى قولهم، واجتمع الرؤساء كلهم معه على قتل أخيه إلا ذا رعين، فإنه خالفهم وقال: ليس هذا برأي، يذهب الملك من حمير، فشجعه الباقون على قتل أخيه، فقال ذو رعين: إن قتلته باد ملكك. فلما رأى ذو رعين ما اجتمع عليه القوم أتاه بصحيفة مختومة فقال: ياعمرو إني مستودعك هذا الكتاب، فضعه عندك في مكان حريز، وكتب فيه:

ألا من يشتري سهرًا بنومٍ
سعيدٌ من يبيتُ قريرَ عَيْنِ
فإن تك حميرٌ غدرت وخانت
فمعذرة الإله لذي رُعَين

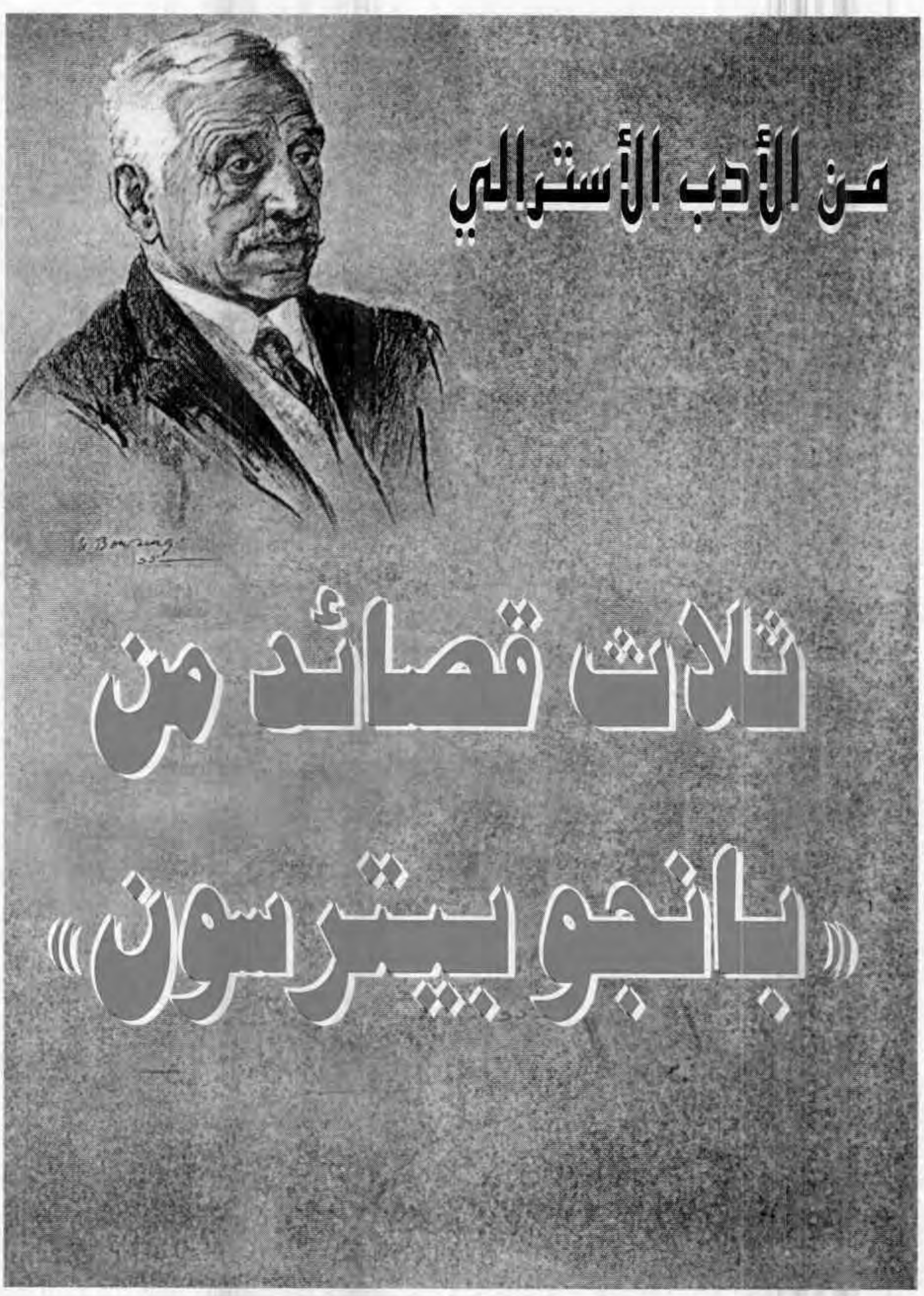
وإنَّ عَمْرًا أتى حسان أخاه وهو نائم على فراشه فقتله، واستولى على ملكه، فلم يُبارك له فيه، وسُلِّط عليه السهر، وامتنع منه النوم، فسأل الكهان والحكماء فقال له كاهن منهم: إنه ماقتل رجل أخاه قط بغيانًا عليه، إلا امتنع نومه، فقال: هذا عمل رؤساء حمير، هم حملوني على قتله ليرجعوا إلى بلادهم، لم ينظروا لي ولا لأخي، فجعل يقتل من أشار بقتله رجلاً رجلاً، حتى خلص الأمر إلى ذي رعين، وأيقن بالشر، فقال له ذو رعين: أما تعلم أني أعلمتك مافي قتله ونهيتك؟ قال: ما أذكر هذا، ولئن كان ليس عندك إلا ماتدعي لقد طُلَّ دمك، فقال: إن عندك لي براءة وشاهداً، قال: وماهو؟ قال: الكتاب الذي استودعتك، فدعا بالكتاب فلم يجده، فقال ذو رعين: ذهب دمي على أخذي بالحزم فصرت كمن أشار بالخطأ. ثم سأل الملك أن ينعم في طلبه، فأُتي به فقرأه، فإذا فيه البيتان اللذان كتبهما، فلما قرأهما قال: لقد أخذت بالحزم، فقال: إني حسبتُ مارأيتك صنعت بأصحابي. وتشعّث أمر حمير حين قُتل أشرافها واختلفوا عليه، حتى وثب على عمرو لخنيعة ينوف، ولم يكن من أهل المملكة فقتله.

٢ـ خارجة بن حذافة العدوي: كان قاضي مصر، وكان له صلاح وصحبة، فخرج عمرو بن بكير التميمي الذي أراد قتل عمرو بن العاص، فوجد خارجة في مجلس عمرو يعشّي الناس، وقد كان عمرو شُغل تلك الليلة، فدنا منه وهو يظنه عَمْرًا، وهو على سرير عمرو جالسًا، فضربه من ورائه بالسيف على عاتقه، فأُخذ الرجل، وخرج عمرو، وحُمل خارجة إلى منزله مثخنًا، فأتاه عمرو، فقال له خارجة: والله ماأراد غيرك، فقال عمرو بن العاص: ولكن الله أراد خارجة.

٣ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما: قال عمير بن إسحاق: دخلت على الحسن بن علي رضي الله عنهما أنا ورجل، فقال لصاحبي: أيّ فلان، سلني، قال: ما أنا بسائلك شيئًا، ثم قام من عندنا فدخل كنيفًا له ثم خرج فقال: أي فلان، سلني قبل أن لاتسألني، فإني والله قد لفظت طائفة من كبدي، قلّبتها بعود كان معي، وإني قد سُقيت السم مرارًا فلم أُسْقَ مثل هذا قط، فسلني، قال: ما أنا بسائلك شيئًا، يعافيك الله إن شاء الله.

ثم خرجنا فأتيته الغَدَ وهو يسوق، وجاء الحسين فقعد عند رأسه، فقال: أيْ أخي، نبّئني من سقاك؟ فقال: لمَ؟ لتقتله؟ قال: نعم، قال ما أنا بمحدّثك شيئًا، إن يكن صاحبي الذي أظنّ، فالله أشد نقمة، وإلا فو الله لايُقتل بي بريء.

وقد حقق الكتاب بما يحمله في باطنه من كتب وعناوين الأستاذ عبدالسلام هارون ـ يرحمه الله ـ، ونشره ضمن نوادر المخطوطات.



من الأدب الأسترالي

ثلاث قصائد من «بانجو بيترسون»

ترجمة وتقديم: **يوسف عبدالعزيز علي**

في تاريخ الأدب الأسترالي أسماء مهمة، منها الشاعر «بانجو بيترسون»؛ الذي ازدهر على يديه هو والشاعر «جون فارل» (١٨٥١ - ١٩٠٤م) شعر الطبيعة الذي بدأه «آدم لندسي جوردون» (١٨٣٣ - ١٨٧٠م)(١). ولقد حقق «بيترسون» شهرة واسعة نظرًا لارتباط أشعاره بحياة مواطنيه الأستراليين وواقعهم، وقد أحبّ الغابة وكتب عنها وعن شجاعة فرسانها ومهارتهم، وقيم الرعاة في هذه الغابة وأخلاقهم، كما أن لشعره سلاسة وسهولة جعلته متداولاً في كل بيت أسترالي(٢).

ولد «أندرو بارتون بيترسون» في ١٧ شباط/فبراير ١٨٦٤م بالقرب من مدينة «أورنج»، وأتم تعليمه بمدينة «سيدني»، ثم عمل بأحد المكاتب القانونية بعد أن فشل في الحصول على منحة دراسية بجامعة «سيدني»، وأصبح بعد ذلك مؤهلاً للعمل بالمحاماة، ومن سنة ١٨٨٥م وحتى ١٨٨٨م ظهرت له ثلاثٌ من أشهر قصائده، وهي: "CLANCY OF THE OVER FLOW" و"THE MAN FROM SNOWY RIVER" و"WALTZING MALTIDA". ومرجع شهرة هذه القصائد كما يقول ستون(٣) إلى أنها صورت واقع رجل الأدغال وحياته في حلّه وترحاله في الغابات الذي يستمر شهورًا أو سنوات، وأحيانًا بلا عودة، من أجل كسب الرزق عن طريق الرعى. وكان بيترسون قد اتخذ له في هذه الفترة اسمًا مستعارًا ينشر به قصائده، واستمر على ذلك مدة عشر سنين، هو «بانجو» «BANJO» (وهو اسم لآلة موسيقية وترية).

وفي سنة ١٨٩٥م أصدر «بيترسون» ديوانه الأول: "THE MAN FROM SNOWY RIVER AND OTHER VERSES" الذي حقق نجاحًا عظيمًا؛ إذ بلغت مبيعاته سبعة آلاف نسخة، وهو رقم خيالي في ذلك الوقت. وبنجاح هذا الديوان عرف الناس الاسم الحقيقي لصاحبه، ذلك المحامي بمدينة «سيدني» ولاعب البولو الشهير: «أ.ب. بيترسون».

يقول «بيترسون» في إحدى مقابلاته الصحفية: «في سنة١٨٨٨م كتبت

قصيدة: "CLANCY OF THE OVER-FLOW" وقصيدة "PARDON, THE SON OF REPRIEVE"، وصحوت على حقيقة أنني أصبحت مشهوراً ككاتب للشعر، ومنذ ذلك الحين يبدو أنني جذبت القراء الأستراليين في كل مكان، فكثيراً ماتلقيت برقيات تهنئة من أناس في مجاهل أستراليا قرؤوا أعمالي، وأنت ترى أنني أفهمهم وأعرف حياتهم، وهم يعرفون ذلك»(٤).

وفي سنة ١٨٩٨م عمل «بيترسون» مراسلاً حربيًا لعدد من الصحف الحربية أثناء حرب «البوير» "BOER WAR" في جنوب أفريقيا، ثم مراسلاً خاصًا لصحيفة "SYDNEY MORNING HERALD" في الصين سنة ١٩٠١م، وسافر في العام نفسه إلى لندن بحثًا عن عمل في إحدى صحفها، إلا أنه أخفق في ذلك وعاد إلى أستراليا في سنة ١٩٠٢م، وفي أواخر هذه السنة ظهر ديوانه الثاني: "RIO GRANDE,S LAST RACE AND OTHER VERSES"، ثم تزوج سنة ١٩٠٣م واستقر في «سيدني»، وأصدر ديوانًا ثالثًا سنة ١٩٠٥م بعنوان "OLD BUSH SONG" الذي لاقى الترحيب والاستحسان من قبل القراء والنقاد كسابقه. وبعد اندلاع الحرب العالمية بقليل سافر «بيترسون» مرة أخرى إلى لندن ليعمل مراسلاً حربيًا من هناك، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على هذا العمل مما اضطره للعمل كسائق عربة إسعاف في أحد المستشفيات بفرنسا، ثم عاد إلى أستراليا ليتجه بعد ذلك إلى مصر ويعمل ضمن فرقة خيالة بريطانية سنة ١٩١٥م.

وبعد عودته إلى وطنه عمل «بيترسون» في عدد من الصحف وأصدر مجموعة من الكتب، كما كتب للإذاعة الأسترالية في سنة ١٩٣٥م.

تُوفِّيَ «بانجو بيترسون» في الخامس من شباط فبراير سنة ١٩٤١م.

ولقد اشتهر «بيترسون» بكتابة «الموّال» "BALLAD:"، وكان ـ كما يقول «ستون» ـ الوحيد من شعراء أستراليا الذي استحق صفة أحسن شاعر أسترالي يكتب الموال»(٥). وأبسط تعريف لكلمة «بالاد» BALLAD هو أنها «أغنية خفيفة أو قصة قصيرة في شكل قصيدة»(٦). لكن هناك اختلافا بين كلمتي «موال» العربية و«بالاد» BALLAD، كما يؤكد الدكتور محمد عناني؛ فالبالاد موّال غربي أو أوربي، لأنه يشترك مع موّالنا العربي في أنه شعر شعبي، وأنه مكتوب باللهجات المحلية، وأنه يغلب عليه طابع الحزن، ولكنه يختلف عنه في نشأته وتقاليده، فالبالاد شعرٌ قصصي في المقام الأول، وإن لم يكن يمثل قصة بالمعنى الحديث»(٧).

وأولى القصائد الثلاث التي اخترناها للشاعر «بانجو بيترسون» هي قصيدة «باقة ورد» "A BUNCH OF ROSES" التي يتحدث فيها عن ذكرى محبوبته التي اختطفها الموت. والقصيدة الثانية هي قصيدة «شروق الشمس على شاطئ البحر» "SUNRISE ON THE COAST" وفيها يتأمل لحظة طلوع النهار. أما القصيدة الأخيرة فهي قصيدة «الرواد» "PIONEERS" التي يمكن اعتبارها مثالاً من أشعار «بيترسون» التي جمعت قلوب الناس حول أشعاره؛ فهي تحكي عن الأسلاف الذين جابهوا المخاطر المختلفة من أجل حياتهم وحياة أسرهم..

باقة ورد..

ورود حمراء، وورود بيضاء
تُرى، ماهي المسرات التي يمكن أن يبتهج بها قلبي؟
عندما أجلس وحدي في الضوء الخافتِ
في ليلتي هذه، تأتي إليَّ الذكرياتُ
مع الرائحة الرائعة للورود الحمراء الكبيرة.

* * *

تأتي الذكريات عندما يذبل ضوء النهار،
وحيث يغفو ضوء النار في المدفأة،
وعندما تتمايل المصابيح، وتتأرجح الظلال،
أرى وجه مليكة العذارى
التى تأتي ذكراها مع عبير الورود.

* * *

وعندما تنبع الرؤى من منظر الفرح،
وتتصنع حَسْناءُ قاعة الرقص وقفةً رشيقة،
أرى امرأة ملكيةً ذات جلالٍ ملكيٍّ،

وأكون أسعد إنسان على الأرضِ
بزهرةٍ وحيدة من باقة ورد.

* * *

ذكراها هي وحدها التي تأتي الليلة،
وإذا كان اللّهُ بحكمته قد أنهى حياتها القصيرة،
فإنني أتمنى أن يزدهر العشبُ فوق قبرها
ويغطي مثواها بالورود البيضاء،
فقد كانت دائما مُغرمةً بالورود البيضاء الكبيرة.

* * *

إن هذه الرؤى التي تختفي الآن
كثيرًا ما يتمناها المرء ويحققها له اللّه.
عندما أنظر اليوم في المرآة لا أرى
سوى شيخ مُرْهَقٍ أشْيَبَ الرأسِ
يُحْنِي هامته لِبَاقَةٍ من الورود.

شروق الشمس على الشاطئ

الفجر الأشهب منبسطٌ على تلال الرمال، والرياح الليلية تجرفُ طوال الليل رائحة البحر،
والضباب الرماديّ يُجْلي عند الفجر كتائبهُ
التي تتفرّق وتتبدد بانطلاق نداء الصباح.

* * *

كالبحارة عندما يُنادون قائمة أرقامهم،
تنطلق طيورُ البحر إلى المدى اللانهائي،
وعلى البعد تغرق في النوم شيئًا فشيئًا،
بعدما تكون قد أُجْهِدَتْ بالتطلع إلى النجوم التي غلبها النُعاس.

* * *

في ناحية الشرق، حيث تستريح القُبَّةُ السماوية الواسعةُ على حدِّ البحر، تخفق ستارةُ الليل برِقَّة،
وبعيدًا خلف الأفق المحجوب
يأتي صوت الإله قائلاً: لِيُبْعَثَ هناك الضياء!

* * *

انظروا! إنه الضياء.. خفيفٌ ورقيقٌ،
يتلألأ أحمرَ ياقوتيًا، بعد أن كان أشهبَ رماديًا،
ويستحيل أُرْجُوَانِيًا، فَقُرْمُزِيًا، ثم ذَهَبِيَّ الرَّوْنَقْ
انظروا! إنها المعجزة.. معجزة ميلاد النهار.

الرواد

من سلالة شجاعة جوّالة لاتعرف الاستقرار في مكان جاؤوا وأصبحوا أبناء الحقل والرعي منذ أن تعلموا كيف يمتطون ظهور الخيل.
ربما لانتمنى - حبًا فيهم - أن نرى هؤلاء الناس في هذه السنين السيئة، لأن مرتادي الغابة هؤلاء، هم الروّاد الشجعان القدامى.

* * *

هم الذين سلكوا مجاهل الغابة التي هي بلاطريق في الحرّ اللاهب والعواصف والجفاف،
وهم الذين استجابوا للنداء الأول الذي ساقهم إلى أعماقها
ليتعقبوا آثار الماشية الجبليّة
مندفعين عبر المراعي الشاسعة حيث تستقر الآن رفاتُهم.

* * *

ولكن الزمن الآن كئيب ومُملّ، فقد أفَلَتْ الأيامُ النبيلة القديمة
التي انطلق فيها رجالُ الأدغال شاقين طريقهم قُدُمًا
ناحية الغرب المجهول بين الشجيرات المتشابكة والأحراش المتجهّمة لِيَسْتَشْرِفوا في النهاية الأرض الموعودة من على قمم الجبال.

* * *

أيها الراقدون في المقابر المنعزلة عند الربوة والسهل البعيدين،
نحن نشرب نخبكم الآن في صمت حيث تعود أعياد الميلاد مرة أخرى.
نشرب نخبكم يامن صارعتم الموات في السنين القاسية الحائرة،
يَامُوجدي حياة أمتنا، أيها الروّاد الأوائل الشجعان.

الهوامش:

١ـ مجموعة مؤلفين (بإشراف: محمد شفيق غربال): الموسوعة العربية الميسّرة، القاهرة، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥م، ص٦٩.
٢- WALTER STONE: THE BEST OF BONJO PATERSON, WILLOUGBY (AUSTRALIA) URE SMITH PRESS,1992.
٣ـ السابق.
(٤) السابق، نقلا عن الصحفي BERNARD ESPINASSE، في لقاء نشره في صحيفة TABLE TALK في كانون الثاني/يناير ١٨٩٦م في «ملبورن».
(٥) السابق.
٦- GROUP OF AUTHORS,ACTIVE STUDY DICTIONARY, ENGLAND, LONGMAN1987.
(٧) د. محمد عناني: الأدب وفنونه، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م، ص٥٠.

آفاق اجتماعية

دور الأسرة في وقاية أبنائها من تعاطي المخدرات (الأخيرة)

أهداف الأبوين ووظائفهما لحماية أطفالهما من الانحرافات السلوكية

د. تماضر حسون

إن أهداف الأبوين - بوصفهما زوجين و والدين - تشكل القاعدة الأساسية والصلبة للنظام في الأسرة، لأنهما وجدا قبل ولادة الأطفال، وسيبقيا فيها عندما يكبر الأطفال ويتركون الأسرة. لذا يحتاج الوالدان إلى رؤية واضحة لأهدافهما كأزواج، وهي أهداف تتمثل في إيجاد علاقات جيدة طيبة قائمة على التفاهم والتكامل، والحفاظ عليها وعلى وحدة الرؤية لحياتهما المشتركة. وتلك العلاقات التي يجب أن تكون أهدافها أبعد من تلبية احتياجات أطفالهما،إذ للوالدين خارج نطاق الأسرة أهداف تؤثر بشكل مباشر في مسيرة تنشئة الأطفال، ومن ثم المراهقين. ولعل أفضل هدف يجب على الأسرة أن تتبناه هو مسؤولية المحافظة على نموذج وظيفي مقبول لأطفالها، وهذا ليس بالأمر اليسير إلا إذا كان الزوجان على درجة كبيرة من الوعي والتفاهم.

وللأبوين أيضا طموحاتهما الخاصة كزوجين، وتقع بينهما خلافات، وتوجد فيهما عيوب، ولكن كيف يتم التعامل مع تلك الخلافات والعيوب، وكيف تتم السيطرة عليها؟ وكيف يتم الاتصال والتواصل بين الزوجين رغم الخلافات والعيوب؟ إن لذلك كله أثره العميق في عملية تعلم الأطفال والمراهقين.

قد نكون بعيدين من الحقيقة عندما نقول بإزالة جميع الخلافات والقضاء على العيوب، فلاتوجد أسرة ليس لديها مشاكل أو إعاقات أو تمر بأزمات. ولكن المهم في الأمر مامقدار تحمل الزوجين أو فشلهما في مواجهة مشاكلهما وتحمل عيوبهما وأزماتهما، وما تأثير ذلك في المراهقين. ذلك أنه عندما تغيب الرؤية الواضحة لأهداف الأبوين يستطيع المراهق أن يستغل سريعًا الخلاف بين الأبوين في تأليب أحدهما ضد الآخر، وبذلك يخلق مناخًا يغوص فيه الأبوان ويدوران في حلقة مشاكلهما وخلافاتهما، وتنام بالتالي عين الرقابة الساهرة عن المراهق، وربما أدى الأمر لوجود مراهقة متمردة صعبة تغوص في الانحرافات السلوكية وعلى رأسها تعاطي المخدرات.

نقطة في غاية الأهمية، نرى ضرورة تأكيدها لما لها من أثر سلبي قوي في المراهقين خاصة، وتعاني منها الكثير من الأسر اليوم في مجتمعنا العربي، وتتمثل تلك النقطة فيما يسمى «بأزمة منتصف العمر» أو كما يسميها الأمريكيون «مصيبة منتصف العمر»؛ إذ تظهر عند البالغين، ويعاني منها الأزواج والزوجات والآباء والأمهات، وتظهر غالبا في المرحلة العمرية بين ٤٥ ـ ٥٥ سنة، حيث يواجهون أزمات كبرى في حياتهم مشابهة تمامًا للأزمات التي يمر بها المراهقون الصغار، حتى ليطلق عليها في علم النفس «المراهقة المرتدة». وفي حقيقة الأمر إن المشكلة التي يواجهها بعض البالغين في منتصف أعمارهم هي أزمة الثقة بالنفس، إذ يواجه بعض الآباء والأمهات أزمة منتصف العمر باتخاذ قرارات مُتعجِّلة تحدث تغيرات كبيرة وصغيرة في حياتهم وحياة أسرهم وأطفالهم، فهم يثيرون أسئلة صعبة تتعلق بحياتهم الزوجية، وكثير منهم ينتهي إلى طلب الطلاق، كذلك يثيرون مسائل الهوية، والعلاقات العاطفية والأحاسيس والمشاعر التي تلهب سنوات المراهقة، إنها مراهقة منتصف العمر. والنتائج اللاحقة لمرحلة المتعة في منتصف العمر هي أكثر حسرة وألًما مما هو متوقع، وانعكاساتها على الأسرة والأبناء تكون في غاية الخطورة والدمار، باعتبار أن الوالدين قدوة ومثال يحتذى، كما أنهما العين الساهرة على عملية التنشئة والضبط الاجتماعي، ونقل القيم والأخلاق والمعايير التي تسود المجتمع لأبنائهما.

إن الأبناء بشكل عام - الأطفال منهم والمراهقين وحتى البالغين - بحاجة إلى والدين واعيين قويين متفاهمين يعملا معًا؛ بحيث إذا غفل أحدهما أو شُغِلَ استطاع الآخر المساعدة في إيجاد طريق للخروج من المأزق والمحن والوصول إلى حل عملي وواقعي.

وفي نهاية الحلقات الست التي تعرضنا لها خلال الأعداد السابقة، نختتم حديثنا عن (دور الأسرة في وقاية أبنائها من تعاطي المخدرات) بالقول: إنه من السهل الحصول على الأطفال، لأنها عملية بيولوجية لاتحتاج لمهارة أو ذكاء أو تدريب، ولكن التحدي هو تنشئتهم. إن الهدف البعيد لكل الآباء والأمهات هو تنشئة الأطفال تنشئة سليمة معافاة. لذا لابد أن تكون تلك العملية موجهة بالأهداف التي يرسمها الآباء والأمهات معًا، تلك الأهداف التي تبدأ منذ أو حتى قبل ولادة الطفل، وتنتهي عندما يترك الطفل منزل الأسرة كبالغ مكتف بذاته قادر على الاعتماد على نفسه. ولانقول بحالٍ إن تلك العلاقة تنتهي تمامًا بين الطرفين، ولكن نقول: إن التركيز على مرحلة المسؤوليات الأبوية الأساسية ينتهي عندما يصبح الطفل بالغًا.

باحثة كويتية حديثة وشاعر قديم

عبدالرزاق البصير

دعتني الدكتوره نسيمة الغيث إلى أن ألقاها في كتابها (الحركة البينية في البائية الكبرى) المطبوع في القاهرة، وهو كتاب قيم تناولت فيه البائية الكبرى لأحد رواد شعرنا القديم وهو: غيلان بن عقبة العدوي المعروف بذي الرمة (٧٧ - ١١٧هـ). وقد رحبت بهذه الدعوة التي صادفت هوىً في نفسي لأن ميلي عظيم إلى جميع رواد شعرنا القديم والحديث.

وتفرض عليّ الأمانة أن أقول: إنني قلما ألقى هذا الشاعر على الرغم من إكباري له وإعجابي به. ذلك أن شاعرنا ليس من السهل أن تفهم حديثه، لأنه يستخدم في شعره مفردات شديدة الوعورة؛ حتى إن شُرّاحَ ديوانه يجدون أشد الصعوبة فيما يقومون به. أما الذين عاصروه من العلماء فإنهم استقبلوا شعره استقبالاً لايخلو من عبوس؛ فقد قال جملة من النقاد كالأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وجرير بن عطية الخطفى عن شعره بأنه: «مثل بعر الصيران، إن شممت شممت رائحة طيبة، وإن فُتّت فتت عن نتن»، وقالوا أيضا: «إنما شعره نقط عروس يضمحل عن قليل، وأبعار ظباءلها مشم في أول شمها ثم تعود إلى أرواح البعر».

على أني أرى أن هؤلاء النقاد الأقدمين لم يكونوا منصفين في هذا الوصف لشعر ذي الرمة؛ لأن وصف الشعر بالأبعار وصف غير لائق، ولكنهم - رحمهم الله - بادروا إلى هذا الوصف؛ لأن حياة ذي الرمّة كان أكثرها مع الإبل في السفر والحضر.

و«نقط العروس» هي التي ندعوها بأدوات الزينة في هذا العصر. وهم مجمعون على أن شاعرنا كان يعيش في الصحراء أكثر أيامه؛ لهذا كان تذوق شعره مقصوراً على الذين عشقوا اللغة العربية عشقًا جعلهم يستسيغون المفردات الصعبة.

وحين أخذت أقرأ بحث الدكتوره نسيمة الغيث وجدت فيها صبر الباحثين وجلدهم. وأول ما يلقاك في بحثها هذا روايتها القصيدة البائية بطولها، والتي يستهلها الشاعر بقوله:

ما بال عينك منها الدمع ينسكب
كأنه من كلى مفريَّة سرب

وقد بلغت أبياتها مائة وستة وعشرين بيتًا. وليت الدكتوره صاحبة البحث شفعت القصيدة بشرح لأبياتها لتيسر للقارئ تذوقها. ولكن الباحثة أخذت في دراسة القصيدة دراسة فنية؛ فهي توضح لك أبيات القصيدة التي استعمل الشاعر فيها التشبيه، وبعد أن تنتهي الباحثة من ذلك تأخذ في التعقيب قائلة: «إن هذا السيل الوافر من التشبيهات - وإن تكن في جملتها تقليدية - صرف اهتمام الشاعر عن الاستعارات والكنايات، التي نرى أنها أقرب إلى لغة الشعر ومطالبه الرمزية».

على أن الباحثة تورد بعد تحليلها الفني للقصيدة آراء بعض المعاصرين في هذه القصيدة منهم: الدكتور شوقي ضيف، والدكتور إحسان عباس، والدكتور يوسف خليف، والدكتور حسن عباس نصر الله، والدكتوره سناء أنس الوجود، والدكتوره حسنة عبدالسميع محمود.

وليس هؤلاء الأدباء وحدهم الذين أبدوا رأيهم في هذه القصيدة، فهناك آخرون، لكن الباحثة تقول: «لانستطيع وليس مطلوبًا أن نعرض كل ماقيل حول ذي الرمة في هذا العصر الحديث». وهذه الآراء ترينا، ما لهذه القصيدة من مكانة خاصة عند الأدباء، فقد تعددت شروحها وترادفت علامات الإعجاب بها.

ومما تميزت به الباحثة أنها لاتقبل كل مايروى عن ذي الرمة من أخبار، وإن كانت مشهورة بين الناس، ورواتها من الأدباء المعروفين كابن رشيق في كتاب «العمدة»، وهو كتاب له مكانته عند الأدباء؛ فقد روى صاحب كتاب العمدة أن «ذا الرمة دخل على عبدالملك بن مروان فاستنشده شيئًا من شعره، فأنشده قصيدته:

«ما بال عينيك منها الماء ينسكب»

وكان بعين عبدالملك ريشة، وهي تدمع أبدًا، فتوهم أنه خاطبه أو عَرَّض به، فقال: وما سؤالك عن هذا ياجاهل؟ فمقته وأمر بإخراجه».

فتعقب الباحثة على هذا الخبر بقولها: «ونريد أن نستبعد هذه المواجهة بين الشاعر

والخليفة عبدالملك، إذ توفي هذا الخليفة عام ست وثمانين للهجرة، وقد كان ذو الرمة طفلاً لايتصور أن يقول شعرًا، فضلاً عن أن يمثل بين يدي خليفة زمانه وأن يستنشده أيضا».

وقد استقصت الباحثة آراء جمع من الباحثين، على أنها لم تكتف بهذا الاستقصاء وإنما أخذت تنتقد آراءهم.

وكتوضيح لذلك أشير إلى موقف الباحثة من جملة أقوال لباحثين معاصرين تقول إن سبب ضعف الإشادة بذي الرمة في القديم أن شعره خال من المدح والهجاء، فتتساءل: «هل الشعر مدح وهجاء؟ أم إن الزمان (العصر) كان زمان العصبية السياسية والقبلية الحادة، التي إن لم يرتكز إليها شعر الشاعر، يتغنى بها ويمجدها، ويساندها، فتسانده وتمجده. إن لم يفعل فلا مكان له في المنتديات، ولا اهتمام بما يقول لدى الرواة».

ومن البديهي أن تكون له مكانة عند اللغويين لما يحتويه شعره من غريب اللغة، وهذا الصنف من الشعراء يعتبرون غرباء إلى حد كبير إذ لا يأنس بلقائهم في آثارهم إلا المغرمون باللغة. ويبدو أن الباحثة ترى بأنه لايجوز أن نطلب من شعر ذي الرمة ماتوصل إليه النقاد المعاصرون من آراء ونظريات نفسية واجتماعية، فإن عصرنا يختلف عن عصر الشاعر كل الاختلاف.

وهذا رأي يؤيده العقل والمنطق، وإن كان كثير من الباحثين يتعسفون فيما يصدرون، وذلك بأن يصوروا لقرائهم أمورًا لا وجود لها في الشعر القديم.

لم تقتصر الباحثة على بائية ذي الرمة، ولكنها كما يبدو قرأت ديوان شعر ذي الرمة كله قراءة متأنية لتتأكد من طبيعة الشاعر ودقته في تصويره للأشياء التي يشاهدها في الصحراء، ولا سيما ما يحدث لثيران الوحش وحُمُره من صراع ومن إرهاق يظهر في عيونها، لأن العين هي المرآة التي تصور إرهاق الكائن وراحته.

وقد استنتجت الباحثة «أن القصيدة لم تنظم كلها دفعة واحدة، وإنما كان الشاعر يضيف إليها كلما تغنى بها»، فتوضح تنقل الشاعر من موضوع إلى موضوع آخر في قصيدته، معددة أبيات كل نقطة ينتقل إليها الشاعر.

ويبدو أن الباحثة انسجمت مع هذه القصيدة انسجامًا جعلها لاتهتم بتفسير ما ينبغي أن يفسَّر في بعض تحليلاتها.. فقد تحدثت عن الثور الوحشي ذاكرة بعض صفاته كتسميته بـ «الثور المسْحَج» دون أن تفسر هذه الكلمة التي تعني: (العضَّاض). وقد سُمي الثور الوحشي بهذا الاسم لأنه كان يدافع عن نفسه حين تطلق عليه كلاب الصيد.

ويقال مثل ذلك في استعمال الباحثة لفظة (معمعان الصيف) دون تفسير لها وتعني هذه اللفظة: شدة الحرّ.

كذلك كان من الأفضل أن تشرح ماتعنيه لفظة (عين آثال) وهو اسم يطلق على ماء في عدة مواضع.. في كلام طويل ذكره الفيروزابادي وغيره من أصحاب المعاجم.

ولعلها ظنت أن المشغوفين باللغة وبالتراث القديم هم الذين سيقبلون على هذا البحث، وقد تكون على حق في ذلك؛ لأن هذا البحث لايأنس به إلا من ترتاح نفسه إلى التراث العربي الخالد.

وعلى كل فقد تحدثت الباحثة عن مكانة التشبيه، وما يشير إليه من معان، كما وقفت على البينية وقفات ممتازة. فكان مما قالته: «كل ماهو «بيني» إنما يقع بين قطبين ثابتين محدودين».

أما عن التشبيه فمما جاء فيه قولها: «إننانعرف أن أهداف التشبيه أو وظائفه تكاد تنحصر في التوضيح والبرهنة والإقناع من خلال وسائط أو وسائل مثل: (إدراك التشابه في التباين)، (إخراج ما لا تدركه الحاسة بالقياس إلى ماتدركه الحاسة)، (إدعاء الناقص في الصفة أنه من جنس الكامل في هذه الصفة)».

وقد استعملت الباحثة الأسلوب الإحصائي فذكرت أن القصيدة تخلو من فعل الأمر، أما الأفعال الماضية فإنها بلغت تسعة وثمانين فعلا، والأفعال المضارعة بلغت ستة وثمانين فعلاً. وفي هذا دليل على أن ذا الرمة كان متوازنًا في استخدامه للأفعال، وأنه دقيق في هذا الاستخدام.

غير أني لاحظت في هذا البحث أن صاحبته قد عدت «الضفادع والحيتان» من جملة حيوانات الصحراء عند تحديدها للملامح المكانية. ص١٥٤، والمعروف أن الحيتان تعيش في البحار والضفادع تعيش في الأنهار.على أن الأمر بالنسبة إلى الحيتان قد يكون خطأ مطبعيا، فلعلها «الحيات».

وفي تصوري أن خاتمة هذا الحديث ستكون أتم حين أورد من هذه القصيدة أبياتا لا أرتاب في أنها ستطرب من يقرؤها:

ديار مَيَّةَ إذ ميٌّ تُساعفُنا
ولايَرَى مثلَها عُجمٌ ولاعَرَبُ
برّاقةُ الجيد واللبَّاتُ واضحةٌ
كأنها ظبية أفضى بها لَبَبُ
عجزاءُ مَمْكُورَةٌ خَمْصَانَةٌ قَلَق
عنها الوشاحُ وتمّ الجِسمُ والقَصَبُ
زين الثياب وإن أثوابها استُلِبَتْ
فوق الحشيّة يومًا زانَهَا السَّلَبُ
تريك سُنَّةَ وجه غير مُقْرِفَة
ملساء ليس بها خال ولا نَدَبُ
تزدادُ للعين إبهاجًا إذا سَفَرَتْ
وتُحْرَجُ العَيْنُ فيها حين تنتقب
لَمْيَاء في شفتيها حُوّة لَعَس
وفي اللثَات وفي أنيابها شَنَبُ
كحلاء في بَرَج صفراءُ في نَعَج
كأنها فضّةٌ قد مَسَّهَا ذَهَبُ

اتجاهات تعليم القراءة

د. علي بن صالح الخبتي

ضمن سلسلة المقالات الخاصة بالقراءة وتعليمها بهدف إلصاق المتعلم بالكتاب منذ الصغر كان الحديث في مقالة شهر «ذي القعدة» وتحت عنوان «قاعدة القراءة وقمتها» عن معنى القراءة، وفي مقالة الشهر الماضي تحدثنا عن كيفية إتمام العمليات الإدراكية التي تتطلبها القراءة بغية الوصول إلى قراءة فاعلة، كما تحدثنا عن مصطلحين رئيسين هما «لعبة التخمين» و«المراقبة الذاتية». وفي هذه المقالة سيكون الحديث عن اتجاهات تعليم القراءة. ولمعرفة هذه الاتجاهات يجب أن نعرف أن هناك أشكالاً متعددة من القراءة لأربعة أنواع من النصوص: «النص الأدبي، والنص الجدلي، والنص الوصفي، والنص التفسيري».

ولنجرب معًا صدق الفرضيات الآتية المتعلقة بأشكال القراءة التي أوردها كل من لينير وماركر في كتابهما COLLEGE READER عام ١٩٨٤م:

- للوصول إلى معنى متكامل يجب على القارئ أن يقرأ النص كلمة.. كلمة.
- القراءة الجيدة تتطلب معرفة كل الكلمات الصعبة في النص.
- القارئ الجيد يقرأ دائمًا بسرعة ثابتة.
- لقراءة فصل من الكتاب المدرسي يجب البدء بالصفحة الأولى والاستمرار في القراءة حتى الصفحة الأخيرة.
- القارئ الجيد يستطيع أن يتذكر كل الحقائق بعد قراءة أي نص لمرة واحدة.

إذا اعتقدت أن كل هذه الفرضيات خاطئة فأنت على صواب.. وتصحيحًا لهذه الفرضيات يمكننا قول مايلي:

- القراءة الفاعلة تتطلب أن نقوم أثناء القراءة بتقسيم الجملة إلى أجزاء جمل، وأن نقرأ كل جزء بنظرة واحدة بدلاً من القراءة كلمة.. كلمة، وأن ننتقل في القراءة من جزء إلى آخر بدلاً من الانتقال من كلمة إلى أخرى..
- القراءة الجيدة تتطلب معرفة معاني الكلمات الصعبة من السياق؛ لأن الاضطرار للتوقف والنظر إلى جدول تعريف الكلمات الصعبة الموجود عادة في آخر النص.. أو فتح القاموس يؤثر سلبًا في تسلسل الأفكار ومتابعتها، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الوصول إلى المعنى بسهولة. كما أن تخمين الكلمات الصعبة من السياق يؤدي إلى إذكاء ملكة التفكير عند القارئ، الأمر الذي يحقق واحدا من أهداف القراءة الأساسية..
- القارئ الجيد هو الذي يغير من سرعة القراءة وفقًا لدرجة صعوبة النص، ووفقًا لهدف القراءة؛ فالقراءة بهدف اجتياز الامتحان تتطلب أن تكون بطء، وتكون القراءة سريعة إذا كنا نقرأ صحيفة بهدف الحصول على معلومات عامة.
- قراءة فصل من كتاب مدرسي من أوله إلى آخره يعتبر خطأ. فهناك طريقة محددة لقراءة الكتاب المدرسي، عُرِفَتْ بـ «SQ3Rå» وتعني المسح، توجيه الأسئلة، القراءة، وإعادة القراءة والمراجعة. وتقضي هذه الطريقة بأن يقوم القارئ قبل القراءة بعملية مسح شامل لبداية الكتاب: العنوان، والمؤلف وتاريخ طباعته، وفهرس المحتويات، والمقدمة. ثم عمل مسح شامل لمؤخرة الكتاب: الملاحق الموجودة في نهاية الكتاب، بعد ذلك يقوم بالاطلاع على ترتيب فصول الكتاب وخلاصات الفصول، وأسئلة المراجعة والصور والجداول ونماذج الإحصاءات.

هذا المسح الشامل يعطي القارئ فكرة عامة عن موضوع الكتاب، ويثير في ذهنه العديد من الأسئلة التي تثير فضوله، وتدفعه لقراءة الكتاب للإجابة عنها.. كما تطلعه على الوسائل المعينة التي تتوافر في الكتاب، والتي تساعده على استيعاب مادته، كما يعطي هذا المسح لمحة سريعة عن الأفكار الرئيسة في الكتاب التي تسهل قراءته واستيعابه. كما تتطلب طريقة «SQ3Rå» بعد المسح وتوجيه الأسئلة، قراءة النص بعد أن تشكلت لدى القارئ صورة واضحة عن النص. وفي هذه المرحلة تكون القراءة سهلة، ويستطيع القارئ أن يصل إلى المعنى بشكل فعال. والقراءة التي تعقب عمليتي المسح وتوجيه الأسئلة يجب ألا تتضمن حفظ أجزاء من النص أو وضع خطوط تحت عبارات من ذلك النص، بل ترمي القراءة في هذه المرحلة إلى الإجابة عن الأسئلة التي قفزت إلى ذهن القارئ أثناء المسح، وإعادة ماتكون حول أهم الأفكار التي يتضمنها النص. وأثناء القراءة قد تبرز بعض النقاط التي يصعب على القارئ استيعابها، وهنا يتوقف ليدون في مذكرة ملاحظاته بعض الأسئلة حول هذه النقاط ليقوم بتوجيهها إلى معلمه. بعد ذلك نصل إلى مرحلة الحفظ، والهدف من تأخير مرحلة الحفظ إلى هذا الوقت هو تعرف أهم الأفكار التي يتضمنها النص بشكل عام. فالمحاذير تكمن في لجوء القارئ منذ البداية إلى بذل جهد كبير في حفظ بعض أجزاء النص ليكتشف في مرحلة متأخرة أن ماقام بحفظه ليس مهمًا ولايفيد، ليعود من جديد إلى بذل جهد كبير في حفظ أجزاء أخرى من النص.

وأخيرا تأتي مرحلة المراجعة، وتعني اختبار القارئ لنفسه بتوجيه أسئلة إلى نفسه والإجابة عنها، وليتذكر القارئ أن هذه أفضل طريقة للاستيعاب، والنظر إلى النص لإكمال مايشعر بعدم اكتماله من الإجابات، ولايمكن له أن يتأكد من استيعابه للمادة التي قرأها دون أن يوجه لنفسه أسئلة ويجيب عنها.

- ليس صحيحًا أن القارئ الجيد يستطيع أن يتذكر كل الحقائق بعد قراءة أي نص لمرة واحدة..

فيما رأينا في شرح قراءة الكتاب المدرسي من أن هناك خطوات عديدة تتطلب قراءة النص أكثر من مرة، وكل قراءة لها أهداف محددة، ولهذا لايمكن تحقيق كل الأهداف من القراءة الأولى. وكما رأينا فإن استيعاب كل الحقائق الموجودة في النص تتطلب:

١- المسح. ٢- توجيه الأسئلة. ٣- القراءة. ٤- إعادة القراءة مع توجيه الأسئلة. ٥- المراجعة.

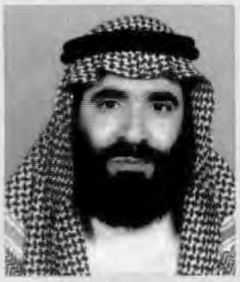
وهذه تعتبر خمس قراءات مختلفة في سرعتها وفي المركبات النصية التي تركز عليها. ففي كل نوع من هذه الأنواع مركب واحد يتم التركيز عليه، حتى إذا ما انتهينا من هذه القراءات الخمس أصبحنا قادرين، وبدرجة عالية، على معرفة كل الحقائق التي أوردها النص. ويجب أن نتذكر أن قراءة النص كما ورد في مقال سابق يجب أن تُسبق بخلفية عالية عن هذا النص، كما يجب أن نتذكر أن من الضروري أن نقوم خلال هذه المراحل الخمس من إتمام عمليات إدراكية محددة وبنجاح.. مثل لعبة التخمين والمراقبة اللتين ورد شرحهما في المقال السابق.

فالخلفية تفيدنا في عملية التمازج بين قمة النص التي تمثل معلومات القارئ السابقة عن الموضوع، وقاعدته التي تمثل كلمات النص وحروفه وجمله، والتي تعتبر رموزًا لغوية عديمة المعنى حتى تقوم الخلفية بترجمة هذه الرموز، هذه الترجمة التي تعتبر نتاج التمازج بين قاعدة النص وقمته. وبعبارة أخرى التي تعتبر نتاج التمازج بين خلفية القارئ عن النص الذي يقرؤه ورموز النص اللغوية. هذا التمازج هو الذي يقوم بإيصالنا إلى المعنى، وبقدر نجاح هذا التمازج يكون وصولنا إلى المعنى.

وتكمن أهمية المراحل الخمس التي تم شرحها في هذا المقال في أن كل مرحلة ننهيها بنجاح يتم إنجاز نسبة معينة من هذا التمازج. فالمسح ينتج من استثارة معلوماتنا السابقة عن النص الذي نقرؤه، وتوجيه الأسئلة يؤدي إلى بروز الفراغات المعرفية التي يقوم النص بتعبئتها، والقراءة تقوم بتعبئة هذه الفراغات، وإعادة توجيه الأسئلة للتثبت من أن جميع الفراغات قد تم ملؤها فعلاً.. ويجب أن نلاحظ أن القارئ قد لايستطيع إتمام كل هذه المراحل دون مساعدة. ومبدئيًا نقوم بتحديد المشكلة للقارئ ثم نساعد على حلها، ثم نعّوده على اكتشاف المشكلة بنفسه ليقوم هو بحلها، وبهذا نُعوّده على الاعتماد على نفسه لحل مشكلاته عندما يقوم بالقراءة الحرة. فنحن هنا لانرمي إلى حل المشكلة التي يواجهها فقط، ولكننا نرمي إلى تعويده القراءة وإلصاقه بالكتاب، ولايمكن لهذا الهدف أن يتحقق إلا إذا وصل القارئ إلى مرحلة تمكنه من اختيار النص الذي يقرؤه، وحل المشكلات التي تعترضه أثناء القراءة.

آفاق لغوية

من مسائل الإضافة



د. صالح بن سليمان الوهيبي

١ـ شاع بين الكتاب والمتحدثين من أساليب الإضافة ماهو خطأ أو مرجوح. وقبل أن أشرع في بيان ذلك أحب أن أبيّن أن الإضافة تتألف من مضاف ومضاف إليه كما في الأعلام الآتية: عبدالله وصلاح الدين وأبي القاسم وأم سليم. ويشترط في المضاف إضافة حقيقية أن يكون اسما غير معرّف بـ (ال). أما ما كانت إضافته غير حقيقية (أو لفظية، كما تسمى أحيانا) فلا بأس بتعريفه لأن تعريفه لايخرجه عن كونه نكرة كقوله تعالى: ﴿والمُقيمي الصلاة﴾ (الحج٣٥). وشرط ذا أن يكون المضاف اسم فاعل (نحو: المؤتي الزكاة)، أو اسم مفعول (نحو: المعروف الفضل)، أو صفة مشبهة (نحو: الكريم الخلق، والأصفر اللون). وللعلماء في ذلك تفصيل يجده الراغب في كتب النحو (في باب الإضافة).

٢ـ فمما يخطئ فيه المتكلمون كثيرا والكاتبون تعريفُ «غير» بـ (ال) إذا وقعت مضافا كقولهم «الغير مسلم» و«الغير محسوس»، والصواب تعريف الثاني فنقول: غير المسلم وغير المحسوس، لأن «غير» ليست باسم فاعل ولا اسم مفعول ولاصفة مشبهة، فلايجوز فيها التعريف بـ (ال) لأنها تكتسب التعريف مما بعدها إن كان معرفة كقوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم﴾، و﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه﴾ (آل عمران:٨٥)، و﴿أفغير الله أبتغي حكما﴾ (الأنعام:١١٤).

٣ـ ومما يخطئ فيه الناس ونراه ماثلا للعيان في لوحات ويتردد في كتابات إضافةُ الصفة والموصوف معا إلى المضاف إليه، كقولهم: مدير عام الإدارة. وينبغي لنا أن نبين أن كلمة عام هنا صفة (أو نعت) وكلمة مدير موصوف (أو منعوت). ومن ثَم صرنا نسمع ونرى أمثال: «مفتي عامّ البلاد» و«مركز صحيّ الحيّ» و«أمين عامّ المجلس»... إلى ما أشبه ذلك من تراكيب لم تعهدها العربية ولاتتسق وبناؤها النحوي.

والصواب فيما سبق وأمثاله أن نقول: «المفتي العامُّ للبلاد» أو «مفتي البلاد العامُّ»، أو«المركزُ الصحي للحيّ». و«الأمينُ العامُّ للمجلس» أو «أمينُ المجلسِ العامُّ». وقد يؤدي التركيب الأخير الذي تتأخر فيه الصفة إلى مابعد المضاف إليه إلى الإلباس أحياناً؛ فلا يُعلم مثلا أكلمةُ «العامّ» للمجلس أم للأمين. وهذا أمر لا مفرّ منه، وعادة ماتتغلب اللغة عليه وعلى أمثاله من مواطن الإلباس بالقرائن اللفظية أو المعنوية.

٤ـ ومما شاع أيضا ما أسمّيه بـ (الإضافة المركبة) التي يضاف فيها اسمان فصاعدا إلى مضاف إليه واحد كقولنا: «أبُ وأمُّ الطفلِ» و«وورقُ أو طبعُ أو جلْدُ الكتابِ» وما أشبه ذاك. وهذا الأسلوب مرجوح في العربية؛ إذ قد عرفته العربية على نُدرة لاتتسق وشيوعه على ألسنة المتحدثين وأقلام الكتاب في وقتنا الحاضر. وتورد كتب النحو شواهدَ على ذلك كقول بعض العرب: «قطع الله الغداة يدَ ورِجْلَ مَنْ قالها»، وقول الشاعر:

سقى الأرضينَ الغيثُ سهلَ وحَزْنها
فنيطت عُرى الآمال بالزرع والضرع

وقول الأعشى:

ولانقاتلُ بالعِصِـ ـيِّ ولانرامي بالحجاره
إلا عُلالةَ أو بُداهـ ـة قارحِ نَهْدِ الجُزاره

وقول الفرزدق:

يامَنْ رأى عارضا أُسَرُّ به
بينَ ذراعيْ وجبْهةِ الأسَدِ

وقد قال الفراء (المتوفى عام ٢٠٧هـ) بعد سوْق الشواهد: «وإنما يجوز هذا في الشيئين يصطحبان مثل اليد والرجل، ومثل قوله: عندي نصفُ أو ربعُ درْهَم، وجئتك قبلَ وبعدَ العصر. ولايجوز في الشيئين يتباعدان مثل الدار والغلام؛ فلاتجيزَنّ: اشتريتُ دارَ وغلامَ زَيد، ولكن عبدَ أو أمةَ زيد، وعينَ أو أذنَ، ويدَ أو رجلَ، وما أشبهه.» (معاني القرآن للفراء، ٣٢٢/٢).

وسواء أخذنا بقول الفراء ـ رحمه الله ـ أم لم نأخذ، فإن ذلكم الأسلوب لم يشع في العربية كما شاع في الوقت الحاضر. ولعله من الأساليب العربية النادرة في الفصحى قياسا على البديل الآخر المتبع؛ وهو إضافة الاسم الأول إلى المضاف إليه ثم الإتيان بالأسماء الأخرى مضافة إلى ضميره، كأن نقول: أبُ الطفلِ وأمُّه، وورقُ الكتاب أو طبعهُ أو جلْدُه... إلخ.

وأختم بأن أشير إلى أنه يستوي في هذه المسألة العطف بالواو أو بغيرها كما مثّل لذلك الفراء في الفقرة السابقة، وكما مثلنا نحن أيضا.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

فُصَحَاءُ الأَعْرَاب

د. عبدالفتاح محمد

كان الفصحاء من الأعراب يحظون بعناية أهل اللغة والنحو وتقديرهم، وينالون أعطياتهم، يدل على ذلك قول أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت٢٩١هـ): مارأيتُ أعطى للأعراب الفصحاء من ثلاثة: إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت٢٣٥هـ)، وأحمدَ بن إبراهيم بن داود الكاتب (ت٢٨٢هـ)، وابن الأعرابيِّ (ت٢٣١هـ)(١).

وكان فصحاء الأعراب يفضون بما في كنائنهم من أخبار، وطرف، ونوادر، وينطقون بلغة تؤخذ، وعلم يُدَوَّن، وأشعار تحفظ.

ومايعنينا الحديث عنه هو أن فصاحة هؤلاء طَبْعٌ، وأن أعدادهم كثيرة وقبائلهم شتى، وأنهم المنهل الذي استقى منه أهل اللغة وغيرهم، وماكان ليؤخذ عن هؤلاء إلا بشروط، وربما حكموا فيما شَجَرَ بين أهل اللغة والنحو من خلاف.. وفيما يلي تفصيل القول في هذا كله.

لامراء في أن فصاحة الأعراب هي فصاحة الطبع والسليقة، فهم كانوا يتكلمون بمقتضى لغاتهم التي فطروا عليها، والحديث عن فصاحة الطبع ليس بدعاً، فثمة إشارات تدل على ذلك، منها قول المبرّد: « وكان الصدر الأول من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعربون طبعاً، حتى خالطهم العجم ففسدت ألسنتهم، وتغيرت لغاتهم»(٢)، وورد نص للزجاجي جاءت فيه عبارة: «فصحاء العرب المطبوعون»(٣)، وذكر أنه سمع من مشايخ بغداد قولهم: «مارأينا أفصح من ابن داود (ت٢٨٢هـ) مطبوعاً، ولاأفصح من نفطوية (ت٣٢٣هـ) متكلِّفاً»(٤).

..ونساء فصيحات

وأعداد فصحاء الأعراب المشهورين كثيرة، فقد ذكر ابن النديم مايزيد على الستين منهم(٥)، يضاف إلى هذا ماهو مبثوث منهم في كتب اللغة وغيرها(٦)، وليست الفصاحة وقفاً على الرجال دون النساء، ففيهم أعرابيات فصيحات من مثل غُنية امِّ الحُمارس، وقُرَيْبَةَ أمِّ البهلول(٧)، وأم الهيثم التي وصفها المبّرد بقوله: «وكانت أم الهيثم من أفصح من رأيت، وسمعتها تقول: من كلامنا لاترضى الشانئة إلاّ بجَزْرَة. والشانئة المبغضة، وهي التي لاترضى ممن أبغضته إلا باستئصال»(٨).

والقبائل التي ينتمي إليها هؤلاء شتى، منها غَنيّ(٩)، وتميم(١٠)، وعُكل(١١)، وكلاب(١٢)، وعجل(١٣)، وغيرها(١٤).

الأعراب مصدر للغة والنحو

وفصحاء الأعراب كانوا المنهل الصافي الذي استقى منه كثير من أهل اللغة والنحو، فالفراء يوضح آراءه بسماعه ممن وثق بهم كأبي ثروان العُكلي(١٥)، رُوي عنه قوله: «.. أنشدني أبو ثروان، وكان فصيحاً..»(١٦)، وذكر السيوطي أن أبا زيد الأنصاري كان من أكثر العلماء أخذاً عن الأعراب(١٧)، وكان ابن الأعرابي يعطي الفصحاء ليستفيد منهم(١٨)، ويذكر ابن النديم أن اللحياني كان يكثر من اللقاء بهم(١٩)، وكذلك كان يفعل السكري(٢٠)، ويروي ابن السكِّيت عن كثير منهم؛ كأبي ثروان العكلي، وأبي حزام العكلي، وأبي الجراح العُقيلي، وأبي صاعد الكلابي(٢١).. ولم يكن الأخذ عن هؤلاء مقتصراً على أهل اللغة والنحو، فقد كان الأخذ عنهم بغية الشعراء أيضاً، يستدل على هذا بما رواه الجاحظ عن أبي نواس من أنه قال: «بكرتُ إلى (المربد) ومعي ألواحي أطلب أعرابياً فصيحاً، فإذا في ظلّ دار أبي جعفر(٢٢) أعرابي لم أسمع بشيطان أقبح منه وجهاً، ولا بإنسان أحسن منه عقلاً..»(٢٣)

وثمة خبر ذُكر فيه أن الفرزدق دعي إلى سماع أعرابي فصيح ينشدُ شعراً رقيقاً(٢٤)، واللقاء بهم يحقق المتعة والفائدة على مايرى الجاحظ، يقول: «إنه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتعُ، ولاآنقُ، ولاألذُّ في الأسماع، ولاأشدُّ اتصالاً بالعقول السليمةِ، ولاأفتقُ لساناً، ولاأجودُ

تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء»(٢٥).

شروط الأخذ عن الأعراب

وماكان ليؤخذ عن الأعراب الفصحاء إلا بشروط، ومعرفة تلك الشروط كاملة أمر لاسبيل إليه، لأنَّ منها ماهو قائم على عوامل ذاتية قائمة في نفوس أهل اللغة والنحو، ومنها ماهو قائم على عوامل موضوعية، ومهما يكن من أمر فإنَّ للقبيلة والزمان والمكان حيزاً كبيراً من شروط الأخذ، ومثل هذا يستخلص من خبر رواه الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء من أنه قال: «لقيت أعرابياً بمكةَ، فقلت: ممَّنْ أنت؟ قال: أَسدي(٢٦)، قلت: من أَيِّهم؟ قال: نمريّ. قلت: من أيِّ البلاد؟ قال: من عُمَان. قلت: فأنى لك هذه الفصاحة؟ فقال: إنّا سكنّا أرضًا لانسمع فيها ناجخة التيار»(٢٧)، فإذا علمنا أن أبا نصر الفارابي يقرر أن اللغة لم تؤخذ من: «أزْد عمانَ لمخالطتهم للهند والفرس»(٢٨)، أدركنا السبب الذي دعا أبا عمرو إلى القول «فأنى لك هذه الفصاحة؟». وعلى هذا فعمان وقتها ليست أرض فصاحة لذلك استغرب أبو عمرو أن يجد فصيحاً في غير أرض الفصاحة.

وفضلاً عمّا ذكر، فإنَّ الأهمية الكبرى في شروط الأخذ تنصب على الأعرابي نفسه، فلم يكن ليقبل منه، من غير الكشف عما يمتلك من مواهب وقدرات، من خلال إجراء هو أشبه بالامتحان، فكذلك فعل أبو العباس ثعلب حين قدم إلى حلقته أبو الذوّاد محمد بن ناهض، وبعد طول محاورة، كان قرار ثعلب: «.. قد جمع أبو الذوّاد علماً وفصاحة، فاكتبوا عنه، واحفظوا قوله..»(٢٩). ومما يُرغبُ بوجوده في الأعرابي أن يكون بدوياً جعلته عزلته مستوحشاً، فهذا مايلاحظ فيما ذكره الزجاجي عن أبي حاتم، قال: «.. فجاءنا أعرابي من أبي بكر بن كلاب من أفصح الناس، كأنه مستوحش من الناس، بدوي ..»(٣٠).

أماكن وجود الأعراب الفصحاء

أما أماكن وجود الأعراب الفصحاء، فأبرزها حيث قبائلهم، وأماكن العبادة كمكة، وأماكن التجارة كالأسواق، والأمصار كالبصرة والكوفة وغيرها، وأعداد هؤلاء كانت تكثر في سنيِّ القحط والجوع(٣١)، وربما انتقلوا إلى البلاد المفتوحة، ذكر ياقوت أن طاهر بن عبدالله بن طاهر أقدم حين تولى حكم خراسان سنة ٢١٧هـ جماعة من فصحاء الأعراب(٣٢)، وربما هيّأ الانتقال مورد رزق يجعلهم يطيلون الإقامة، كأن يكونوا معلمين للصبيان(٣٣).

وإذا ماطالت مخالطة الأعرابي الفصيح لأهل الحضر، خُشي عليه من الزلل، فالإقامة في الحضر مفسدة للسان قلما ينجو منها مقيم، وهذا ماأشار إليه أبو عمرو بن العلاء، رُوي عنه قوله: «لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانُه غير رؤبة والفرزدق»(٣٤). ويروى أن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أبي خَيْرَة(٣٥)، فسأله فأخطأ، فما كان من أبي عمرو إلا أن قال: «هيهات أبا خيرة، لانَ جلْدُك»(٣٦).

يحتكم إليهم أهل اللغة

وفصحاء الأعراب كانوا يحكمون فيما شجر بين أهل اللغة والنحو من خلاف، ذكر الزجاجي أن الكسائي واليزيدي استفتيا الأعراب بعد امتحانهم في اسم، أمقصور هو أم ممدود(٣٧)، وذكر صاحب الفهرست أن الكسائي والأخفش حاكما سيبويه إلى الأعراب الفصحاء وفيهم أبو فَقعس، وأبو دثار، وأبو الجرَّاح، وأبو ثروان(٣٨)، واختَلف أبو زيد ويونس في (يتعاهد)، مَنَعها أبو زيد وأجازها يونس، ولما احتكما إلى ستة من الأعراب الفصحاء امتنع هؤلاء من (يتعاهد) (٣٩). وإذا ماتفقت كثرة فصحاء الأعراب على أمر، كان ذلك مدعاة لقبوله، أما إنْ حُكيت الظاهرة عن واحد منهم، فلايصح أن تتخذ أصلاً يقاس عليه، على مذهب سيبويه، فالكلمة عنده: «إذا حكاها أعرابي واحد لم يجب أن نجعلها أصلاً»(٤٠).

الحواشي:

١- أمالي اليزيدي ١٤٢-١٤٣، ط. القاهرة.
٢- الفاضل للمبرد ٤-٥، ط.القاهرة ١٩٥٠م.
٣- أمالي الزجاجي ٤١، ط.القاهرة ١٣٨٢هـ.
٤- البصائر والذخائر ٣١١/٣، ط. دمشق.
٥- الفهرست ٦٥-٧٣، ط.القاهرة ١٩٤٨م.
٦- انظر: الحيوان ٣٤١/٢، والفاضل ١١٤، وجمهرة اللغة لابن دريد ٢٠٣/٣-٢٠٤، ومجالس العلماء للزجاجي ٣٠٣.
٧- الفهرست ٧٠ .
٨- الفاضل ٣٢-٣٣.
٩- نوادر أبي مسحل ١١٣/١-١١٤، والإبدال لأبي الطيب ٧٣/١.
١٠- الفاضل ١١٤، ومعجم الأدباء لياقوت ١٠٥/١٢، ٢٣٧/١٩.
١١- معجم الأدباء ١٤٨/٧-١٥٠، ط.القاهرة ١٩٣٦م.
١٢- تهذيب اللغة للأزهري ٤٤٠/٤، ط.القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٧م.
١٣- الفهرست ٦٦.
١٤- الفهرست ٦٥-٧٣.
١٥- انظر: البحر ٤٢٣/٦، والتاج ٣٩٤/١٢ (ضرر).
١٦- البحر ٤٢٣/٦، ط.الرياض .
١٧- المزهر للسيوطي ٤٠٢/٢.
١٨- أمالي اليزيدي ١٤٢-١٤٣.
١٩- الفهرست ٥٤.
٢٠- معجم الأدباء ١٤١/٧.
٢١- إصلاح المنطق ١٩١.
٢٢- هو أيوب بن جعفر بن سليمان العباسي، ذكره الجاحظ في جماعة خطباء الهاشميين. الحيوان ٧٨/٦.
٢٣- الحيوان ٢٣٩/٦-٢٤٠، ط. بيروت ١٩٦٩م.
٢٤- انظر: الخزانة للبغدادي ٣٧٧/٦-٣٧٨، ط.١٩٧٩م.
٢٥- البيان والتبيين ١٤٥/١، ط.القاهرة ١٩٤٨م .
٢٦- أَسَديّ: لغة فصيحة في أزدي.
٢٧- المزهر: ١٥٣/١-١٥٤. ناجخة التيار: صوت الموج، وكنى بهذا أنهم بعيدون عما يضعف اللغة ويفسدها.
٢٨- المزهر ٢١١/١-٢١٢، ط.القاهرة.
٢٩- المزهر ٣٧٧/٢.
٣٠- مجالس العلماء ١٤١-١٤٢.
٣١- انظر: مجالس العلماء ١٦٩.
٣٢- معجم الأدباء ١٥/٣-١٦.
٣٣- الفهرست ٦٦.
٣٤- الخزانة ٢٢٠/١.
٣٥- هو نهشل بن زيد، أعرابي من بني عدي دخل الحيرة، له كتاب الحشرات. الفهرست ٦٨.
٣٦- الخصائص لابن جني ١٣٢/٢، ط٢ بيروت.
٣٧- مجالس العلماء ١٦٩-١٧٠.
٣٨- الفهرست ٧٦.
٣٩- مغني اللبيب لابن هشام ٦٧٧، بيروت ١٩٧٩م.
٤٠- المخصص لابن سيده ٧٩/١٦، ط.بيروت.

قصيدة

حُبٌ ووفاءٌ

شعر:
د. عدنان علي رضا النحوي

حَنَانَيْك! ما أحْلى الوَفاءَ وعِطْرَهُ ... إذا نَشَرَتْهُ مُهْجَةٌ وسَرَائرُ
وما أجْمَلَ الأيّامَ زَهْوُ عَطائِها ... حَنانٌ وأشْواقٌ زَهَتْ وبَوادرُ
وما أحْسَنَ الدُّنْيا إذَا الحُبُّ نَفْحَةٌ ... يَمُوجُ بِهَا بِرٌّ غَنِيٌّ وطاهِرُ
وما أعظَمَ الحبَّ الغَنيَّ ونَبْعُهُ ... يَقينٌ وإيمانٌ جَلَتْهُ المآثِرُ
هو الحُبُّ نَبعٌ لايَغيضُ فَتَرْتَوي ... نُفُوسٌ وتُروى لَهْفَةٌ ومَشاعِرُ
هو النَّبْعُ: حُبُّ الله، حُبُّ رَسُولِه ... إذا صَحَّ روَّى الكونَ والنَّبْعُ زَاخِرُ
فَتُرْوَى بِهِ خُضْرُ الرِّياضِ ووَرْدُهُ ... وتُروى بأجْواءِ الفَضَاءِ العَشائِرُ
وتَمْضِي بِهِ حُلْوُ النَّسائم والنَّدى ... ويَنْشُرُه في سَاحِرِ اللَّحْنِ طائرُ

* * *

حَنَانَيْك! هذا الحبُّ بِرٌّ ورَحْمَةٌ ... ولُحْمَةُ أرْحَام نَمَتْ وأواصِرُ
وصُحْبَةُ إخْوانٍ تَدُومُ مَعَ التُّقى ... وعَدْلٌ مَعَ الإنْسَانِ مَاضٍ وقَادِرُ
وأجْمَلُهُ بَيْتٌ عُرَاهُ مَوَدَّةٌ ... لَهَا سَكَنٌ حانٍ عَلَيْهِ ونَاشِرُ
تُظَلِّلُهُ الأنْداءُ رَيًّا ورَحْمَةً ... ويَحْفَظُهُ خَيْرٌ مِنَ اللهِ عَامِرُ
تَمُوجُ به الأنْوارُ بَيْنَ رِحَابِه ... فَتنشأُ فِتْيَانٌ به وحَرائرُ
شَبابٌ أشِدّاءٌ كأنَّ وجُوهَهم ... من النُّور صُبْحٌ مَشْرِقُ الأُفْقِ ظاهِرُ
وتُتْلَى به الآياتُ نُورًا وحِكْمَةً ... فَتنشأُ فِيهِ حَانِياتٌ نَوَاضِرُ

* * *

هي الأمُّ يَرْعَى لَهْفَةُ الشَّوقِ بَعْلَها ... وبيتًا وأجيالاً رَعَتْها المَفاخِرُ
هو الأبُ قَوّامٌ مَعَ الرُّشْدِ بذلُهُ ... وللأب حَقٌّ بالقِوامَةِ ظاهِرُ
ويَجْمَعُهُمْ في البَيْتِ حُبٌّ كأنَّهُ ... رَفيفُ النَّدَى ظِلٌّ هنيءٌ ووافِرُ
هو الحُبُّ أشْواقٌ هُناك ولَهْفَةٌ ... بموجٍ بِهَا قَلْبٌ وفيٌّ وخَاطِرُ
نَقيٌّ كأنْفاسِ الصَّباحِ رَفيفُهُ ... غَنِيٌّ كَدَفْقِ النُّور، في القَلْبِ عامِرُ
كأنَّ فَتيتَ المسك منْه، أو انَّهُ ... من العَبِقِ الفَوّاحِ وردٌ وزَاهِرُ
كأنَّ النَّسيمَ الحُلوَ خَفْقُ حَنينِه ... ورفُّ النَّدى منْهُ غَنيٌّ وناضِرُ
هو البَيْتُ! إن أعْدَدتَه كان أُمَّةً ... لها في مَيَادين الحَيَاةِ البَشائِرُ

دائرة المعارف

قال تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت: ٥٣)

الإلكترونيات الأحيائية(*) دروس من الطبيعة

إعداد:
م. درويش إبراهيم يوسف

(ب)

البوصلة

في حوالي القرن الثالث عشر الميلادي بدأ الانسان في استعمال إبرة مغناطيسية عائمة في قدر ماء وذلك لتحديد الاتجاهات. وتعتبر هذه البوصلة الآن مجرد أداة أولية بسيطة. ولكن العديد من الكائنات الحية لديها بوصلاتها الخاصة بها. حيث تحتوي البكتريا على سلاسل من جزيئات المغنيتيت بالحجم اللازم تماما لصنع بوصلة. وهي تستعملها في إيجاد الأوساط المفضلة لديها. كما وجد المغنيتيت في الطيور، والنحل، والفراشات، والدلافين، والرخويات. ومن المعروف الآن أن إحدى الطرائق التي تحدد الطيور بواسطتها طريقها هي البوصلات المغناطيسية الموجودة في رؤوسها. وقد دلت التجارب أن حمام الزاجل يمكنه أن يعود إلى موطنه بتحسس الحقل المغناطيسي للأرض. فمع أنه جري نقله في صندوق مظلم عبر طريق غير مباشر، وإطلاقه على بعد ألف كيلو متر من موطنه، إلا أنه رجع إلى مكانه في يوم واحد. وقد صح ذلك حتى في الأيام الملبدة بالغيوم، حيث لايستطيع الطائر الاهتداء بالشمس والنجوم. وفي إحدى التجارب، جرى إطلاق سرب من حمام الزاجل كان لنصفه حجر مغناطيسي مربوط على ظهره . وهذا الحجر يشوه الحقل المغناطيسي للأرض ويجعله عديم الفائدة. ففي اليوم المشمس رجع السرب كله بأمان، وفي اليوم الملبد بالغيوم رجعت الطيور التي كانت بلا حجر مغناطيسي، أما التي كان لها حجر مغناطيسي فدارت بشكل عشوائي. وقد شكل هذا دليلاً إضافيًا على أن حمام الزاجل يشعر بالحقل المغناطيسي الأرضي الضعيف جداً.

(ت)

تحلية الماء

شيّد الإنسان المصانع الضخمة لإزالة الأملاح من مياه البحار والمحيطات، وقد اتّبع في ذلك تقنيات عديدة كالتبخير، والتجميد، والتحليل الكهربائي، والمعالجة بالأغشية، وغيرها. وهي تقنيات تتطلب منشآت ضخمة وتكاليف باهظة. أما العديد من الكائنات التي تعتمد على مياه البحار فتفعل ذلك منذ آلاف السنين بطرائق فعالة في أصغر فسحة من الفراغ. فأشجار المانجروف المدارية التي تنبت على شواطئ البحار تنشر كتلة كثيفة من الجذور التي تمتص مياه البحر وترشحها عبر مجموعة من الأغشية التي تزيل الملح. وأحد أنواع المانجروف، يدعى AVICENNIA يتخلص من الأملاح الزائدة عن طريق غدد متوضعة على الوجه السفلي لأوراقه. كذلك فإن طيور البحر كالنورس، والبجع، والقطرس، تشرب ماء البحر مزيلة الأملاح الزائدة من الدم عن طريق مجموعة من الغدد الموجودة في الرأس.

(ح)

الحاضنة

صنع الإنسان الحاضنات لتفقيس البيض، ولكنه كان متأخرًا في اختراعه. فالسلاحف البحرية وبعض الطيور تضع بيضها في الرمل الدافئ من أجل الحضانة. فيما تضع طيور أخرى بيضها في رماد البراكين الدافئ كي يفقس. وفي بعض الأحيان، يغطي تمساح القاطور بيضه بالنباتات المتفسخة لانتاج الحرارة. ولكن ذكر طير المالي MALLEE خبير في هذا المجال؛ فهو يحفر حفرة كبيرة

يملؤها بالنباتات ثم يغطيها بالرمل، وهكذا تسخن النباتات المتخمرة الكومة، فيما تضع الأنثى بيضة كل أسبوع لمدة ستة أشهر، وخلال كل ذلك الوقت يفحص الذكر درجة الحرارة بإقحام منقاره في الكومة. وبإضافة أو إزالة الرمل يحفظ حاضنته بدرجة حرارة مقدارها ٣٤ درجة مئوية، حتى في مناخ شديد البرودة أو الحرارة.

(خ)

الخياطة

«أستاذ في فن الخياطة»، هذا هو اللقب الذي منحه العلماء ليسروع الفراشة الأمريكية المدعوة ظهر السلحفاة. فهو يخيط معطفا خاصا به ببطانة حريرية، والمعطف الناتج هو طراز جدير بالملاحظة من حيث الدفء والأناقة. وما يدهش حقا هو أنه لايستعمل نموذجًا للقياس عليه، ولامقصات أو إبرًا، كما يفعل البشر. فلديه نوع خاص من أجهزة الخياطة؛ فهو يستعمل فكيه القويين كمقص يقص بهما الورقة الخضراء وفق شكل معين كما لو أنه يتبع خطا مرسوما مسبقا، ثم ومن دون استعمال مسطرة، يقص الورقة المقطوعة إلى قسمين متماثلين تماما من حيث المساحة والشكل. وإذ يستعمل أسنانه الحادة الدقيقة مثل إبر يخيط القطعتين معا عند الأطراف بحيث إن المعطف الناتج يبدو في النهاية كأسطوانة صغيرة. وفي الحقيقة تُخاط هاتان القطعتان معا بدرز دقيق جدا بحيث إن المرء يحتاج إلى مِجهر كي يكتشفه. ومن أين يحصل على الخيط؟ من فمه. نعم، يوجد خلف فك اليسروع قناة تؤمن له الحرير، وبما أن اليسروع يريد أن يبقيه المعطف دافئا، يبطنه بطبقة سميكة من الحرير الناعم جدا بشكل لايصدق. وهكذا حتى في الليالي الباردة، ينعم اليسروع بالدفء في معطفه الجميل هذا.

(د)

الدفع النفاث

في العام ١٩١٤م بدأ الإنسان في إنتاج الطائرات النفاثة. ولكن عددًا من الحيوانات البحرية تعتمد على الدفع النفاث في حركتها منذ آلاف السنين، والأخطبوط بطل بارز في هذا المجال. إنه يملأ عباءته العضلية السميكة بالماء، ثم ينفث الماء خارجا عبر قمع متحرك يمكن أن يدار في أي اتجاه. وبهذه الطريقة يمكن للأخطبوط أن يدفع نفسه من ١٥ إلى ٣٠ مترًا بأسرع مما يمكن للعين أن تتبعه تقريبا. ويستعمل الدفع النفاث أيضا الأسقلوب، وقنديل البحر، وحتى بعض أنواع عوالق المحيطات.

(ز)

الزراعة

منذ أقدم العصور حرث الإنسان التربة واعتنى بالمواشي. ولكن النملات القاطعة للأوراق التي تعتني بحدائقها الخاصة، هي التي افتتحت العمل في المجال الزراعي. ويوجد أكثر من ١٩٠نوعا من النملات القاطعة، يعيش معظمها في أمريكا اللاتينية. وهي تقضي يومها في إنجاز مهمات غير عادية. إنها تمضي في أعداد هائلة نحو شجيرة خضراء فتقطع الأوراق بواسطة فكّيها الحادين.

وفي بيليز ـ دولة في أمريكا الوسطى ـ، يعرف سكان الريف أنه يمكن لمستعمرة من هذه النملات أن تغير على حديقة خضر بكاملها وتنتزعها خلال ليلة واحدة. وهي تحمل الأوراق إلى العش، وهناك تمضغها وتشكل منها عجينة طرية على شكل كرة، ثم تقتلع النملات خصلة من الفطور من جزء آخر من مزرعتها وتزرعه في العجينة الجديدة كما تُوضع الخميرة في العجين. وهكذا تتخمّر هذه العجينة فتنمو عليها شبكة من الفطر على شكل خيوط بيضاء ناعمة. وتتغذى النملات بالبراعم التي تنتجها مزرعة الفطر. ومن المحتمل أن النملات الأولى القاطعة للأوراق أخذت فطرها لأول مرة من البرية. ولكن اليوم، عندما تغادر الملكات العش إلى مستعمرة جديدة، تأخذ معها كرات مختمرة كي تبدأ بها من جديد. وفي بحث نشر حديثا في مجلة NEWS WEEK، تبين أن مزارع الفطور في أعشاش النمل المتطورة جدا في عدد من بلدان أمريكا اللاتينية، متطابقة وراثيا، أي إنها كلها أتت من مزرعة واحدة. وفي الحقيقة ثمة نوع آخر من النمل يحتفظ بالمن كماشية، تعتني بها وتبني لها الحظائر وتحلب منها سائلا حلوا تتغذى عليه. والنملات الحصادة تخزن البذور في أهراءات تحت الأرض، وهي بارعة في ذلك؛ إذ تخرج هذه البذور في الأيام المشمسة، وتقطع رؤوسها كي لاتفرخ بسبب الرطوبة. وليس النمل وحده هو الذي يمارس الزراعة، بل ثمة كائنات أخرى أيضا. أحد أنواع الخنافس يقلم أشجار السنط، كما أن البيكة والمرموط، من القوارض، تقطع التبن، وتعالجه، وتخزنه.

(س)

الساعة

قبل أن يستعمل الناس المزاول الشمسية، كانت ساعات الكائنات الحية تحفظ الوقت بدقة. فالسرطان اللاهي لديه برنامج يومي دقيق؛ حيث يخرج من جحره ويصبح لونه داكنا خلال المد المنخفض، بينما يتراجع إلى جحره ويصبح لونه باهتا خلال انحسار المد. وعندما يؤخذ إلى المختبر، بعيدا عن المحيط، تتابع ساعة السرطان الداخلية دقاتها وفق هذا البرنامج المحدد، متحولاً إلى اللون الداكن أو الباهت فيما يقترب المد أو

ينحسر. وبالطبع، ليس السرطان اللاهي المخلوق الوحيد الذي منح ساعات داخلية؛ فطائر التنام من باناما يغرد كل ثلاث ساعات نهارا وليلا، ويمكنكم أن تضبطوا ساعاتكم وفقا له. ولوحظ أن أحد أنواع نقّار الخشب في كندا والولايات المتحدة يتوقف عن نشاطاته في الموعد المعين عندالساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر كل يوم دون إخفاق.

(ص)

صناعة الزجاج

يصنع الإنسان الزجاج عن طريق إذابة مزيج مكون من رمل خاص (السيليكا) مع آثار بعض العناصر الأخرى كالفوسفور والرصاص. وللطحالب البحرية الدقيقة DI - ATOMS طريقتها الخاصة في إنتاج الزجاج. إنها تأخذ السيليكون والأكسجين من ماء البحر لتصنيع علب زجاجية تضع فيها مادة اليخضور. يقول العالم رذرفورد بلات: إن لهذه الأغلفة الزجاجية تنوعًا مدهشًا من الأشكال الدائرية، المربعة، المثلثية، البيضية، والمستطيلة المزينة بإتقان بالرسوم الهندسية»

والرسومات عبارة عن تخريمات في الزجاج الصافي مصنوعة بمهارة دقيقة لدرجة أنه يلزم أن تُقطع شعرة الإنسان بالطول إلى أربعمائة شريحة كي يصبح بالإمكان إقحامها في أحد ثقوب التخريمات.

وبعض حيوانات المحيط المجهرية، التي تدعى الشعوعيات RADIOLARIANS، تصنع الزجاج وتشكل منه قطعا هندسية رائعة على شكل شمس مشعة. وتستخدم هذه الأشكال لإنشاء قباب زجاجية إهليليجية بديعة التصميم.

(ض)

الضوء

اخترع توماس إديسون المصباح الكهربائي، وهو يعتبر من الابتكارات الرائعة في العصر الحديث؛ لكنه ليس فعالا جدا، لأنه يخسر الطاقة على شكل حرارة. أما الحُباحب فتتفوق عليه فيما تومض أنوارها ليلا. فهي تنتج ضوءا باردًا عن طريق الأكسدة دون أية خسارة في الطاقة على شكل حرارة. والعديد من أنواع الإسفنج، والطحالب، والبكتريا، وحتى الديدان تتوهج متألقة، وإحداها التي تدعى دودة سمكة الحديد، تشبه قطارا مصغرا يتحرك مع مصباح أمامي أحمر وأحد عشر زوجا من النوافذ الخضراء الباهتة. وقد نجح عالمان من هولندا في تطوير مركب كيماوي ينتج الضوء عند حلّه في سائل معين. ويمكن أن يستعمل هذا المركب كضوء للطوارئ. ولكن يعترف هذا العالمان بتواضع: «رغم أنها خطوة جيدة إلى الأمام، يبقى تحديا بالنسبة للعلماء أن يطوروا أجهزة فعالة كالحباحب المتواضعة. وهنالك دليل دامغ على أن تلك ليست مهمة سهلة».

(غ)

الغوّاصات

نشطت الغواصات الحية في مياه المحيطات لآلاف لاتحصى من السنين حتى قبل أن يحلم الإنسان بذلك. والحبّار ذو الحجر بارع في هذا المجال، وهو يمتلك صدفة جميلة حلزونية الشكل يصل قطرها إلى ٢٥ سنتيمترا، والصدفة مقسمة إلى عدد من الحجرات المملوءة بالغاز التي يسكن الحبّار في آخر واحدة منها. ويمتد عبر الحجرات أنبوب يمكن أن يضاف بواسطته الماء إليها أو يزال منها. وبتغيير النسبة بين الماء والغاز يمكن أن تتغير قابلية الحبّار للطفو. وهكذا يمكن لهذا الحيوان أن يكون قرب السطح أو على عمق خمسمائة متر، أو في أي موقع بينهما. والحبار، الذي يعيش في مياه المتوسط أو الأطلنطي الشرقي، يمتلك آلية مماثلة للطفو، ولكنه يعتمد على غرف عديدة موجودة في عظمه المتوضع تحت الجلد مباشرة، وهي تشبه أحواض الماء في الغواصة من حيث عملها، مُمكِّنة الحبار من الانتقال بين سطح الماء وعمق يصل إلى مئتي متر.

(ك)

الكهرباء

يعيش في بحار العالم ومحيطاته نحو ٥٠٠ نوع من السمك الكهربائي، وهي تمتلك بطاريات داخلية تمكنها من إنتاج صدمات كهربائية قوية جدا يمكن أن تبعد الأعداء والمتطفلين. فسمك السلور الأفريقي يمكن أن يولد جهدا كهربائيًا قدره ٣٥٠ فولتا، وسمك الشفنين العملاق الكهربائي الذي يعيش في شمال المحيط الأطلنطي، يصدر تيارا كهربائيا شدته ١٥٠ أمبيرا وقدرته ٦٠ فولتًا. أما الصدمات الكهربائية التي ينتجها الأنكليس الكهربائي، الذي يعيش في مياه جنوب أفريقيا، فهي مرتفعة جدا حتى إنها تصل إلى ٨٩٠ فولتا. يقول العالم ريتشارد لونتين: «من المعروف أنّ ثمة إحدى عشرة فصيلة مختلفة من الأسماك تتضمن أنواعا لها أعضاء كهربائية».

(ل)

اللاسلكي

منذ سنة ١٩٤٥م بدأ الانسان باستعمال السونار SONAR، الجهاز الذي يستخدم

لتحديدمواقع الأجسام الغاطسة تحت الماء. ولكنه يعتبر جهازا بدائيا بالنسبة لأجهزة السونار التي وضعها الخالق في الدلافين؛ ففي إحدى التجارب استطاعت هذه الحيوانات المائية أن تميز بين قضيبين زجاجيين موضوعين في الحوض الذي تربت فيه، يبلغ الفرق بين قطريهما مجرد ميليمترين. كما يتفوق الخفاش أيضا على الأجهزة البشرية الصنع في هذا المجال؛ ففي غرفة مظلمة ثُبِّتت فيها شبكة من الأسلاك الدقيقة الموصولة من جدار إلى آخر، استطاعت هذه الثدييات المجنحة أن تطير خلالها دون أن تلمسها قط. إنها تطلق أمواجًا فوق صوتية ترتطم بالأهداف ثم تعود إلى الخفاش الذي يحلل الصدى لتحديد مواقع تلك الأهداف، وهي الطريقة نفسها التي تستخدمها الدلافين. كما يستخدم طائر الزيت OILBIRD تحليل الصدى لتحديد طريقه عندما يدخل ويخرج من الكهوف المظلمة التي يبيت فيها؛ إذ يطلق أصوات قرقعة حادة من أجل اجتياز هذا الكهف.

(م)

ميزان الحرارة

من القرن التاسع عشر فصاعدا طَوَّرَ الإنسان أنواعًا متعددة من موازين الحرارة، والبعض منها بمواصفات خاصة للاستفادة منها في بعض المجالات المتعددة. ولكن حتى أكثرها حساسية ودقة يعتبر بسيطا بالنسبة إلى الموازين الموجودة في الطبيعة. فقرنا الاستشعار في البعوضة يمكن أن يشعرا بتبدل في درجة الحرارة قدره جزء من خمسمائة جزء من الدرجة المئوية. والحية المجلجة لها تجويفان على جانبي رأسها، بوساطتهما يمكن أن تشعر بتبدل في درجة الحرارة قدره جزء من ألف جزء من الدرجة المئوية. وحيّة البوا العاصرة يمكن أن تستجيب لتبدل في درجة الحرارة قدره جزء من أربعة آلاف جزء من الدرجة.

(هـ)

الهندسة

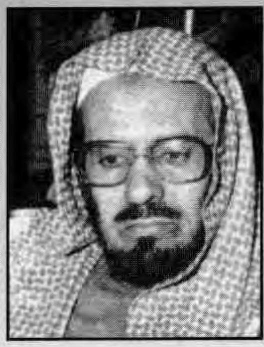
تمتلك العديد من الحيوانات مهارات هندسية فائقة تمكنها من تشييد مشاريع مدنية تذهل العلماء. فكلب المروج PRAIRIE DOG والخلد مهندسا أنفاق بارعان؛ حيث يبني الأول جحره على شكل شبكة من الأنفاق. وهو يشيد متراسًا من التراب حول مدخل الجحر بحيث يحول دون دخول مياه الفيضان الذي يحدث مرارا في المروج التي يسكنها هذا المخلوق. كما أن تصميم النفق يُزَوَّد بعامل أمان إضافي ضد الفيضان؛ حيث ينحدر النفق من المدخل نحو الأسفل مسافة تقارب الخمسة أمتار، ثم يمتد مسافة أفقية قدرها عشرة أمتار، وفي النهاية يرتفع النفق نحو الأعلى حوالى أربعة أمتار. وهكذا عندما تدخل المياه النفق فإنها تغور في الأرض قبل أن تصل إليه. فيما يبني الخلد أنفاقا شاقولية وأفقية تؤمن له الحماية اللازمة من الأعداء، وتمكنه من الحصول على طعامه من جذور النباتات والحشرات التي تعيش تحت الأرض. أما القندس فيعتبر مهندس سدود من الطراز الأول، حيث يقطع الأشجار بأسنانه الحادة، وينقلها على شكل قطع صغيرة كي يُنشئ منها سدودا عديدة على مجرى المياه، وتفيد هذه السدود في المحافظة على رفع مستوى الماء في المجرى. نعم من دون حفارات، أو جرافات، أو شاحنات، تُشيِّد هذه الحيوانات الصغيرة مشروعات كبيرة ومتقنة. وحتى الأَرَضَة TERMITE العمياء المتواضعة مهندسة بارعة أيضا، حيث تُوحِّد ملايين العاملات جهودها لبناء عشها بحيث يحافظ على درجة حرارة معتدلة البرودة خلال أشهر الصيف الشديدة الحرارة. إنها تحفر العش حتى الوصول إلى عرق للمياه، ثم توجه الهواء الساخن من الخارج نحو هذا العرق عبر ممر في العش. وهذا الهواء الساخن يجعل المياه تتبخر، فتمتص الحرارة من العش مبقية إياه باردا بشكل لطيف. وهذه مجرد واحدة من التقنيات العديدة للعش.

(*)الإلكترونيات الأحيائية BIONICS:

علم حديث العهد ظهر إلى الوجود في عام ١٩٦٠م، واسمه باللاتينية يتشكل من اجتماع BIO (من علم الأحياء BIOLOGY) و NICS (من الإلكترونيات ELECTRON-ICS). ويُعنى هذا العلم بتطبيق المعطيات عن وظائف الأجهزة الحية لكل المشكلات الهندسية.

فقد وجد العلماء الذين درسوا المخلوقات الحية أن مشكلات التعقيد المنظم في الطبيعة قد حلت بنجاح، مما أثار دهشتهم واهتمامهم. وهكذا يتطلعون إلى تلك الابتكارات الناجحة الطبيعية من أجل تصميم آلات بشرية الصنع ذات إمكانات موسعة. يقول العالم لارسيون كودمور: «لسنا المخترعين الذين نظن، نحن مجرد مقلدين، وعمليا، كل الحقول الأساسية للتقنية البشرية قد افتتحتها الكائنات الحية، واستخدمتها لمنفعتها قبل أن يتعلم العقل البشري كيف يفهمها ويقلد عملها، ويمكننا القول، باستقامة، إنه في العديد من المجالات، ماتزال التقنية البشرية تحبو ببطء خلف تقنيات الطبيعة».

السمع والطاعة



د. محمد بن سعد الشويعر

مبدأ الإسلام الإلزام بأن يكون للمسلمين ولي أمر ينقادون له، فالصلاة لابد لها من إمام يقتدي الناس به، والمسافرون مهما كان عددهم يأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يؤمّروا عليهم واحداً منهم، ليسمعوا له ويطيعوا، والأسرة لابد أن تنقاد للرجل لأنه وليّ الأمر، والمرأة لايصح زواجها دون موافقة ولي الأمر، الذي بعصمته الأمر.

والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن على المسلم السمع والطاعة لولي الأمر في العسر واليسر، المنشط والمكره، وعلى الأثرة.

كما أخبر صلى الله عليه وسلم بأمر إلزامي بقوله ـ كما رواه مسلم ـ: «من أتاكم وأمْرُكُم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه».

فولي الأمر مهما كان، يجب السمع والطاعه له، مالم يكن أمره فيه معصيةٌ للّه ظاهرة، فحينئذ لاسمع ولا طاعة.

أما إذا كان ولي الأمر الذي يدخل فيه رئيس العمل والوالدان، أو أحدهما والمدرس لتلاميذه، والحاكم الشرعي والإداري، ومن كان له على الإنسان سلطة، لم يأمر بكفر صريح، ولامعصية ظاهرة، عند الإنسان فيه برهان على هذا الأمر، فإن عليه السمع والطاعة، وأن يأتمر بالأمر أخذاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يجب امتثاله، كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يارسول الله، إن هذه موعظة مودّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لايزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين، وعليكم بالسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، عَضّوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد» رواه الإمام أحمد في مسنده.

ولكي يدرك شباب الإسلام، وأبناء المسلمين: ذكوراً وإناثاً مفهوم الطاعة في الإسلام، فإنهم مأمورون بسؤال أهل العلم المعتدّ برأيهم، كما قال الله سبحانه: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾(النحل:٤٣)، والرجوع لكتب التفسير والحديث، وشروحها المعتبرة، وتملّي سير الصحابة، والتابعين، الذين مرّت بهم فتن، وعاصروا محناً، وقفوا أمامها صامدين ثابتين متمسكين بهدي دين الإسلام، كما أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق ذكره، وفي غيره من الأحاديث التي فيها، وفي القرآن الكريم الخروج من الفتن التي هي كقطع الليل المظلم.

فسلفنا الصالح اجتاحتهم فتن ابتدأت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم ماتلاها من أمور نشأ منها عقائد ومذاهب متباينة.

ولكن سلفنا الصالح الذين صمدوا لتلك التيارات، بتوفيق من الله، ثم تمسكهم بدينهم عقيدة وعملاً، وعرض كل مايمرّ بهم على تعاليم هذا الدين بمصدريه: كتاب الله وسنة رسوله، وفهم العلماء السليم لموطن الدلالة، وكيفية العلاج، ولذا سمعوا وأطاعوا لمن ولاّه الله أمرهم، ولم ينازعوا الأمر أهله، ولم يبدر منهم تبرم؛ بل إن عامر بن عبد قيس التابعيّ الذي أوذيَ ووُشي به، كان يقول: اللهم من وشى بي، وكذب عليّ، وأخرجني من مصري ـ أي بلدي ـ وفرّق بيني وبين إخواني، فأكثر ماله، وأصح جسمه وأطل عمره.

والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ـ وهو الذي سجن وضرب، في محاولة لإجباره على مذهب الاعتزال، والقول بخلق القرآن ـ كان يقول: «لو أن لي دعوة مستجابة لصرفتها لولي الأمر»، كل ذلك خوفاً من إيقاع المجتمع في الفتنة، أو دفع الأمة في المجتمع الإسلامي إلى الفوضى.

وسعيد بن المسيِّب، وسعيد بن جبير رحمهما الله وغيرهما من علماء السلف في العصر الأموي، ثم من جاء بعدهم لم يخرجوا على ولاة الأمور، ولم يحرّضوا العامة عليهم؛ بل سمعوا وأطاعوا ودعوا لهم بالصلاح، حتى إن سعيد بن جبير عندما هَمَّ الحجاج بقتله دعا ربه: «اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي».

فقد حرص على عدم نزع يد الطاعة، أو التحريض على الخروج على ولي الأمر، وصبر واحتسب ولجأ إلى ربه بالدعاء، كل هذا مراعاة لمصلحة الأمة، وحرصاً على عدم التسبب في بث الفرقة والفوضى بين المسلمين، لأن السمع والطاعة واجبان على كل مسلم، ولأن نزع البيعة من يد ولي الأمر يدفع للكفر كما جاء في الحديث: «..ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

قصة قصيرة

الصبي والصندوق

محمد خليل

ضرب كفا بكف وخطا ببطء (لا إله إلا الله، لا إله إلا الله) «آخر مايخطر على البال، وعلى وجه الخصوص ـ البال المشغول ـ مثلي..» كان الرجل بالأمس يمشي مختالاً كالطاووس.. يضحك، يكاد يطير من فرط السعادة بعد أن تسلم عقد شقته الجديدة الفاخرة.. لم يتوقف طول المسافة إلى بيته وبيتي عن إلقاء النكات والقهقهة والحلم.. الحلم!! آه.. «ما أقصر الزمن لا.. ما أضيقه.. لا.. ما أسرعه.. أواه.. دماغي لم يعد يحتمل.. إذن إلى المقهى.. فهنالك يفقد الزمن معناه.. وحول مناضدها يطيب طعم الحياة»..

في الطريق قفزت إلى شفتي الجملة المألوفة للعم عبده.. (أنشده).. وهذا العم الطويل النحيف (ياسادة) يأكل عيشه من (تلميع) أحذية الآخرين.. (دنيا يابيه على كف عفريت).. (جملته) يطلقها ترديداً كلما حزبه أو اشتد على غيره أمر من الأمور.. رجل ودود لاتفارق الابتسامة وجهه إلا قليلاً.. أسرعتُ إليه أنشد الحكمة من كلماته القليلة الموحية بصدقه الذي يرطب النفوس الملتهبة.. جلست في ركني الأثير، جالت عيناي تتفحصان المكان، لعله يجلس خلف منضدة أو في ركن أو بين ساقي زبون.. لم أجده.. لكنني لمحت صندوقه في أحد الأركان فهدأ القلب قليلا.. «ربما أرسله صاحب المقهى لقضاء بعض حاجات المقهى».. فالعم عبده بسبب (فلفسته) كما يحلو له نطقها لم يستطع طوال سنوات عمره التي أشرفت على السبعين أن يستقر في محل يملكه.. وعندما سألته ذات يوم عن السبب قرر أنه عشق التجول بحثا عن الحقيقة في (كلاحة أحذية الزبائن)، ولما تورمت قدماه وخارت قواه قنع بالمقهى مقراً له.. شريطة أن لايدخله أحد سواه.. مقابل تنظيفه مما يعلق بأحذية الزبائن.. «أين أنت يارجل؟.. إني في مسيس الحاجة إليك الآن.. أم جرفك الحنين والعشق للبحث عن ضالتك في مكان جديد؟».. كنت قد انقطعت عن المقهى عدة أيام.. وعندما تلقيت نبأ رحيل الذي لم يكن يكف عن إلقاء النكات والضحك والحلم.. أحسست بشدة حاجتي لقراءة سطور في كتاب الحياة على صفحة وجه متغضن لإنسان ما.. فكان السعي إلى (العم عبده).. «أين أنت يارجل؟».. استحضرت ابتسامته التي تشبه الشمس حين تطلع في أعقاب زوال سحابة أفرغت ماءها على طرق وبيوت حارات ريفية.. ابتسامة تصدمك الحيرة في تفسيرها وفك طلاسمها.. فأحيانًا تعكس البراءة.. وأخرى توحي بالشجن.. أهم من ذلك يمكن أن تحسب عليها الزمن في حركة عينية مع التجاعيد المنتشرة حول الأنف والوجنتين.

وثبت في الأذن مداعباته التي لم تكف شفتاه يوما عن ترديدها في كل حالاته (المزاجية).

شعرت برجفة خفيفة لخاطر أزعجني لثوان. في آخر مرة رأيته فيها كان يتحدث كثيرًا عن الأولاد والرزق والحياة والموت.. في هذه اللحظة بدا وكأن (القتب) الذي حمله فوق ظهره لسنوات الانحناء قد انفجر ليلقي مخزونه من هموم وأتراح العمر.. «أين أنت يارجل؟». وفي محاولة للقضاء على ملل ورتابة الانتظار تشاغلت بإعداد المبلغ الذي اعتدت أن أعطيه له قبل أن يضع الفرشاة فوق الحذاء. بللت لساني برشفة بطيئة من فنجان القهوة التي تسربت سخونتها، ففككت رباط العنق ثم رباط الحذاء، وبينما الملل يتسلل إلى نفسي أبصرت صبيًا نظيف الثياب رقيق الملامح يتجه نحو الصندوق يلتقطه ويتأبط مقعده.. ببطء وتثاقل وحياء راح يتحرك بين المقاعد والمناضد وأصوات خبطات الطاولة والدومينو وتعليقات الزبائن دون أن ينبس. تلبستني دهشة أرعشت شفتي.. «ترى هل باع فيلسوفي عالمه واستبدله بآخر جديد؟»..

غير معقول!!.. لقد كان معتزا بذلك الصندوق الصغير(الحقير) إلى درجة ترديده أنه سيكون سببا في «بناء دماغ عالم كبير» وعندما انتهت جولة الصبي دون دعوة من أحد الزبائن اتجه نحو مكان (العم عبده).. جلس وحبس وجهه بين قبضتيه الرقيقتين.

التقت عيوننا لحظات كانت كافية لتوجيه دعوتي إليه.. هرول نحوي وانحنى يلتقط الحذاء.. رفعت رأسه وأطلت القراءة في عينيه والدهشة تفترش محياه الصغير.. طلبت منه

إحضـار الصندوق حيث أجلس.. عاد به وحول عينيه علامات ألم مرير فشل في إخفائه أو مداراته.. ناولته الحذاء.. كان واضحا أن يديه كانتا تفتقدان دربة العمل وتوحي بحداثته في المهنة..

سألته في حذر:

- هل اشتريت الصندوق من عم عبده؟..

ذاب العذاب في ماء عينيه وهو يقول:

- لا ياسعادة البيه.. أنا ورثته..

صدمتني إجابته، لم أستطع التعليق.. «ماذا أقول؟.. وماذا يعني بوراثته للصندوق؟.. هل رحل الفيلسوف؟..» خنقت هذا الخاطر بسرعة.. إذن لابد أن وعكة قد داهمته! فلأسأله..» دهمتني خاطرة الرحيل مرة أخرى..

شعور غريب غمرني وجعلني أرى علاقة قوية بين الصبي وبينه.. سألته محاولا ألا يبدو سؤالي حاملا لمزيد من الألم:

- أنت إبراهيم؟..

التقط السؤال وبدا كافيًا لإزالة قدر كبير من القلق والخوف الذي اعتراه.. فها هو شخص ما يعرف اسمه.. وهذا يعني له الكثير.. ابتسم وهو يجيب :

- خدامك ياسعادة البيه..

غُصْتُ في صمتي لحظات ثقيلة.. (لم يخطئ إحساسي إذن.. العلاقة واضحة جلية.. رُحْت أتفرس في وجهه.. في أنفه المدبب قد تكون.. في لحظات الشرود جائز.. في الشفتين الغليظتين ممكن).. تملكتني الحيرة في انتقاء صيغة مناسبة أنتزع بها الحقيقة من جوفه دون أن أنكأ جرحه.

- مريض؟..

نكّس رأسه.. ارتعشت الفرشاة في يده.. ارتعدت مفاصلي وتأوهت آهة هزت الصبي.. وعندما فرغ من تلميع الحذاء حاول أن يدس قدمي فيه..

تناولته منه.. رمقنى متسائلا فقلت:

- حاول أن لاتخلع الحذاء من قدميْ أحد أو تضعهما فيه..

رد هامسًا:

- أكل العيش ياسعادة البيه.

هززت رأسي علامة عدم الرضا.. مددت يدي في جيبي وقدمت إليه كل مامعي وأفهمته أنني كنت «زبونًا» عند المرحوم بالشهر، وأضفت أنه كان يتمنى أن يراه رجلاً نافعًا.. ابتسم ومضى إلى ذات المكان.. قعد والصندوق بين قدميه وراح يقلب صفحات كتاب في يديه..

قصيدة:

هل ضاع الأقصى ؟!

شعر: **محمد التهامي سيد أحمد**

قضت المحكمة الاسرائيلية بإخضاع أرض المسجد الأقصى لقوانينها

أيّها المسلمُ ماذا تقصدُ ؟ — لم يَعدْ في ذا المكان المسجدُ
أنت يامسلمُ أبطأت الخُطى ! — وتوانيتَ ففات الموعدُ
لم تَقُم للفرض في ميقاته — بل تركتَ العمر منّا ينفدُ
فَسَهَوْتُم عن صلاة حرَّةٍ — لو أقيمتْ مادهانا (المعبدُ)
كم عَلا الأذانُ في أوقاته — وتوالى صارخاً يستنجدُ
كان يعلو كي تذوبوا لهفةً — لم يكنْ في ظنّه أنْ تبعُدوا
فنكصتم في ضياع مطبق — لم يَقُمْ سيف ولم تُرفع يدُ
وتركتموهم صغارًا وحدهمْ — سدّدوا أحجارهم واستشهدوا
أشعلوا النيران في أجسادهمْ — ثم ظنّوا أنها لاتخمدُ
وترامَوا في غيابات اللظى — عن يقين أنكم لن ترقُدوا
فاتهم أن الدجى أغرقكم — لم يَعدْ فيكم سراجٌ يوقدُ
قامت الدنيا قياماً حولكمْ — وارتضيتم وحدكم أن تقعدوا
قد غفوتم فهوت دنياكمُ — صوَّحَ المجدُ وضاع السؤدُدُ
فغدوتم قشَّة في لجَّةٍ — ردّها الطوفان عما تقصدُ
وحصاد الكون في أوطانكم — مستباح داسه من يحصد
فاسألوا أسلافكم في مجدهم — هل سوى الرحمن ربٌّ يُعبدُ ؟
لو صحوتم لسمعتم قولهم: — صادق الإيمان لايُستعبدُ
اسألوا الأعماق عن إيمانكم — هل بها شيءٌ عليه يشهدُ ؟
إن خبا الإيمان في أعماقكم — فضياع الكّل لايستبعدُ
فاتركوا الإسلامَ في عليائه — قد عجزتم – ويلكم – أن تصعدوا
قد حواكم في سنى أنواره — فأبيتم في السّنىَ أن تهتدوا
إنني أخشى إذا أصبحتم — أن يقولوا : إنهم قد هُوِّدُوا

الحركة الثقافية في شهر

صدور توصيات مهمة حول المخطوطات العربية

التوصية بتدريس الإسلام في المدارس الألمانية

العاصمة البريطانية تشهد تظاهرة ثقافية وفكرية سعودية

اليونسكو تعتمد «إعلان فاس» للحفاظ على المدن التاريخية

صدور مجلات جديدة واحتجاب أخرى، والموسوعة البريطانية تعاني من متاعب

السعودية

الأمير سلمان افتتح متحف المصمك

أول متحف يحكي تاريخ التوحيد والتأسيس



الأمير سلمان بن عبد العزيز

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض، في منتصف الشهر الماضي متحف قصر المصمك في وسط مدينة الرياض. وتحدث سموه للصحافيين، بعد جولة قام بها في أرجاء المتحف الجديد عن الدلالة التاريخيه والرمزية للمصمك، قائلاً: «لاتأتي أهمية المصمك من كونه حصنا أو قصرا قديما فحسب، بل لأنه منطلق لتوحيد معظم أجزاء الجزيرة العربية في ملحمة عظيمة كان قائدها عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله»، مشيرا بذلك إلى فتح مدينة الرياض على يد الملك عبدالعزيز في فجر الخامس من شوال ١٣١٩هـ (أول يناير ١٩٠٢م) مستعيدا بذلك ملك آبائه وأجداده.

وقال الأمير سلمان: إن ماتعيشه المملكة اليوم من تحكيم كتاب الله وسنة رسوله وأمن واستقرار ورخاء جاء نتيجة لذلك اليوم التاريخي. وأوضح أن الهدف من تلك الانطلاقة هو تكوين دولة قوية متماسكة ومتحابة يتعاون أبناؤها على البر والتقوى.

يضم متحف قصر المصمك ـ الذي فتح أبوابه للزوار بعد افتتاحه رسميا ـ جناحا خاصا بفتح الرياض، وآخر يبين التصميم المعماري لحصن المصمك واستخداماته منذ إنشائه حتى اليوم، وهناك جناح ثالث يوضح خطوات الملك عبدالعزيز لتوحيد المملكة وتأسيسها منذ فتح الرياض وحتى الإعلان عن قيام المملكة العربية السعودية باسمها الذي تعرف به هذه البلاد اليوم، كما يضم المتحف جناحا عن «الرياض الماضي والحاضر» يحوي لوحات وصورًا عن الرياض القديمة والحديثة، وجناحا عن الزراعة والمياه يبيّن التطور الزراعي في المملكة، وإلى جانب هذا كله هناك جناح خاص بالملك عبدالعزيز عُرضت فيه صور نادرة لجلالته وبعض مقتنياته الشخصية مع تعريف بمآثره في مختلف المجالات.

بُني قصر المصمك عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) على يد الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي، أحد القادة التاريخيين لهذه البلاد، وكان مقرا للسكن والحكم وبيت المال، وسمي بالمصمك أو المسمك ـ أي القصر السميك المرتفع الجدران ـ لقوته. ويقع في قلب مدينة الرياض على بعد خطوات من قصر الحكم وجامع

معرض ثقافي في بريدة

أقامت الرئاسة العامة لرعاية الشباب الشهر الماضي المعرض الثقافي السابع في بريدة، وافتتحه صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن بندر بن عبدالعزيز أمير منطقة القصيم.

شملت أجنحة المعرض الفنون التشكيلية ورسوم الأطفال والكاريكاتير والمستنسخات الفنية والطوابع البريدية والكتب والمطبوعات والخط العربي والأزياء الشعبية والمبتكرات العلمية.

منتدى للصحافة

يعد حاليًا لإنشاء منتدى للصحافة في المركز الإعلامي التابع لجمعية الثقافة والفنون في الرياض. يضم المنتدى العاملين في الصحافة السعودية، ويرمي إلى رعاية شؤون الصحافيين، وأن يكون منبرًا لطرح قضاياهم، وحل ماقد يواجههم من مشكلات في مجال عملهم.

كما سيكون المنتدى بمثابة صالون مفتوح لضيوف الصحافة السعودية وضيوف الجمعية ووزارة الإعلام والرئاسة العامة لرعاية الشباب، وأية جهة ثقافية أخرى.

الإمام تركي بن عبدالله، وهما - إلى جانب قصر المصمك - أهم المعالم التاريخية لمدينة الرياض، التي تُعنى الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض بالعناية بها في إطار اهتمامها بإحياء دور وسط مدينة الرياض الذي يُعرف باسم «منطقة قصر الحكم»، واستمرار دورها الأساسي بوصفها مركزا سياسيا وإداريا وثقافيا وتجاريا. وباكتمال ترميم قصر المصمك وتحويله إلى متحف تاريخي متخصص ومخصص لمراحل توحيد المملكة وتأسيسها، بجهود مشتركة بين الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض ووزارة المعارف التي تشرف على المتاحف الحكومية، تكون منطقة قصر الحكم قد أضافت إلى النشاط العام فيها بعدا ثقافيا نؤمل ألا يقتصر مستقبلاً على المتحف نفسه، بل يتطور النشاط الثقافي ليكون في المستوى الذي يتناسب مع القيمة التاريخية للمنطقة بكل دلالاتها الرمزية.

الأمير خالد الفيصل يفتتح ندوة علمية

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير في أبها مطلع الشهر الماضي ندوة «الجامعة وتنمية المجتمع» التي نظمتها كلية العلوم الاجتماعية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أبها، بحضور مدير الجامعة د. محمد العجلان وعدد من المسؤولين وأساتذة الجامعات والباحثين. كما افتتح سموه معرض الكتاب الأول للكلية الذي شارك فيه أكثر من خمسين دارًا للنشر.


الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز

تناولت موضوعات الندوة دور كليات العلوم الإدارية في إدارة التنمية وتحديات المستقبل، والتطوير الإداري، والأساليب الحديثة في الإدارة، وإدارة الوقت، وقضايا الخريج الجامعي، وشارك فيها باحثون من جامعات المملكة.

فيصل بن فهد: الثقافة تحافظ على التوازن الاجتماعي

أكد صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب أن الثقافة - فضلاً عن مشاركتها في التوعية والإبداع - تسهم إسهامًا فاعلاً في التنمية، والمحافظة على التوازن الاجتماعي.

وأوضح سموه في كلمة ألقاها في افتتاح الاجتماع الحادي عشر لرؤساء الأندية الأدبية في مطلع شهر محرم الماضي أن تراثنا يحتوي على كم


الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز

تراكمي متنوع من المعرفة، مجال الانتقاء فيه واسع، ورحابته لاتضيق مهما بلغ كم الإضافات.

وأشار إلى أن تجربة الأندية الأدبية في المملكة تكاد تكون فريدة لشمولية فائدتها، وعدم اقتصارها على مكان معين دون غيره، حيث غطت حاليا معظم مناطق المملكة، ويجرى العمل لأن تغطي المناطق كافة مستقبلاً.

وقد أقر المؤتمرون - عبر خمس جلسات - عدة موضوعات، يأتي في مقدمتها مشروع موسوعة الأديب السعودي، وصرف الإعانة المقررة للأندية الأدبية دفعة واحدة بدلاً من دفعتين لتيسير قيامها بأعمالها. وكان الطفل المحور الرئيس للمناقشات، حيث تقرر تخصيص جناح بكل ناد أدبي لكتاب الطفل، وإقامة مسابقات لأدب الأطفال، ودعوة الكُتّاب السعوديين والعرب لإعداد دراسات عن ثقافة الطفل وإلقاء محاضرات حول الموضوع نفسه.

الفائزون بجائزة أبها الثقافية

أُعلنت - مؤخرًا - أسماءُ الفائزين بجائزة أبها الثقافية في دورتها الخامسة، لمجالات: البحث الأدبي والبحث العلمي والشعر الفصيح والقصة القصيرة والرواية والمسرح والشعر الشعبي والفن التشكيلي والتصوير الضوئي.

فاز بالمركز الثاني في جائزة البحث الأدبي حول «الأدب السعودي وتحولاته في العشرين سنة الماضية» د. مسعد عيد العطوي عن بحثه «الفكر والشكل في الشعر السعودي المعاصر» وحجبت الجائزتان الأولى والثالثة.

وتقاسم الجائزة الأولى في مجال البحث العلمي وموضوعها «الزراعة التقليدية في عسير وإمكانات تطويرها» كل من مسفر حسين القحطاني وأحمد حمدي رياض، وجاء في المركز الثاني م. جمال عثمان، وحجبت الجائزة الثالثة. كما حجبت الجائزة الأولى في مجال الشعر الفصيح وموضوعه «مجموعة شعرية»، وجاء في المركز الثاني عبدالرحمن آل عبدالكريم، والثاني مكرر د. محمد بن سعد الدبل، والثالث حمد العسعوس، والثالث مكرر د. شريفة أبو مريفة. أما القصة القصيرة وموضوعها «مجموعة قصصية»؛ فقد حل سعيد بكر في المركز الأول تلته

شريفة الشملان، ثم أحمد المهندس ثالثا. وحجب المركزان الأول والثالث في مجال الرواية، ونالت المركز الثاني ليلى سعيد الجهني عن روايتها «دائما سيبقى الحب». وفي مجال المسرح كان الفائزون على التوالي: أحمد إبراهيم أحمد، وملحة عبدالله، وغازي مختار طليمات.

وجاء في المركز الأول في مجال الشعر الشعبي عبدالرحمن العطاوي، تلاه أحمد سعد شامي وعبدالمجيد البيز في المركز الثاني، ثم مدني محمد خنبشي في المركز الثالث.

ونال الجائزة الأولى للفن التشكيلي فايع يحيى

الألمي، وجاء محمد فارع علي ثانيا، ومفرح علي العسيري ثالثًا.

وحصل على المركز الأول في مجال التصوير الضوئي حسن محمد عسيري، تلاه عبدالله محمد الوليدي، ثم جميلة الهاجري.

معرض لرسوم الأطفال المعاقين

نظم مركز العون للأطفال في جدة بالتعاون مع المركز السعودي للفنون التشكيلية المعرض السنوي الأول لرسوم الأطفال المعاقين، في النصف الأول من شهر محرم المنصرم.

ضم المعرض أعمالاً فنية متنوعة، نفذها الأطفال المعاقون من مختلف المراكز والجمعيات المهتمة برعاية المعاقين.

كتب جديدة

- مداخل المؤلفين والأعلام العرب حتى عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م جـ٤، تأليف فكري زكي الجزار، صدر ضمن مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

- البث المباشر: الآثار والمواجهة تربويًا وإعلاميًا، تأليف د. إبراهيم بن عبدالعزيز الدعيلج، صدر ضمن سلسلة «بحوث الإعلام التربوي» عن دار القبلة للنشر والتوزيع بمكة المكرمة.

- أيورق الندم؟ مجموعة شعرية جديدة لسعد الحميدين، صدرت عن نادي الطائف الأدبي.

- ديوان البوسنة والهرسك ط٢، مجموعة قصائد لشعراء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، صدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية - مكتب البلاد العربية بالرياض، ودار البشير في عمان.

الإمارات

أسبوع القدس

تستضيف أبو ظبي أسبوعا خاصا بالقدس، يقام تحت شعار «من أجلك ياقدس» خلال الفترة من ٦ إلى ١٢ جمادى الآخرة المقبل (٣٠ أكتوبر - ٥ نوفمبر ١٩٩٥م).

تنظم الأسبوع مؤسسة التعاون في جنيف، والمجمع الثقافي بأبو ظبي، بهدف دعم مشروعات إعادة بناء القدس وأحيائها القديمة وإنقاذ المسجد الأقصى، ومواجهة حملات الاستيطان اليهودية، والحفاظ على الطابع الإسلامي للمدينة المقدسة.

يتضمن الأسبوع عروضًا فنية وأمسيات شعرية وقصصية وندوات، ومعارض للفنون التشكيلية وبرامج تلفازية وإذاعية ونشرات صحفية، ومسابقات خاصة عن القدس.

ندوة للحفاظ على التراث العمراني

استضافت دبي - مؤخرا - أعمال ندوة الحفاظ على التراث العمراني في دولة الإمارات. ناقشت الندوة مختلف الجوانب المتعلقة بالتراث العمراني في الإمارات وكيفية المحافظة عليه وضمان استمراريته، إضافة إلى ورش عمل متعددة.

البحرين

الملتقى الأول للشعر الشعبي

أقيم الملتقى الأول للشعر الشعبي في المنامة في النصف الثاني من شهر ذي الحجة الماضي.

شهد الملتقى عددًا من الأمسيات الشعرية، وأقيم معرض خاص لدواوين الشعراء الشعبيين وإصداراتهم، وكرّم الملتقى عددًا من الشعراء البارزين من بينهم الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة، والشعراء حسن الرويعي ومبارك العماري وبنت القبيلة.

أسبوع ثقافي إيراني

استضافت مسقط - مؤخرا - أسبوعًا ثقافيا إيرانيًا، تضمن عددًا من الفعاليات الفنية والثقافية، شملت إقامة معارض للفن التشكيلي الإيراني من منمنمات وجرافيك وفن حديث، فضلا عن معارض للكتب والصناعات اليدوية والخط الإيراني والموسيقى التقليدية والسينما الإيرانية

الكويت

دورة جديدة لجائزة البابطين

أعلنت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري عن فتح باب استقبال نتاج الشعراء والمبدعين لدورتها الخامسة المقرر عقدها في إحدى عواصم دول الخليج العربية في أكتوبر ١٩٩٦م.



أحمد مشاري العدواني

تحمل الدورة اسم الشاعر الكويتي الراحل «أحمد مشاري العدواني»، وتمنح أربع جوائز: جائزة الإبداع في مجال الشعر، جائزة الإبداع في مجال النقد عن مجمل الأعمال، جائزة أفضل ديوان شعر، وجائزة أفضل قصيدة.

وتحدد يوم ٣١ أكتوبر ١٩٩٥م موعدًا نهائيًا لاستقبال المشاركات.

كتب جديدة

- اليهود في البلدان الإسلامية، تأليف صموئيل انتينجر، صدر ضمن سلسلة «عالم المعرفة» عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.

- دراما الحواس، مجموعة قصصية لمنى الشافعي، توزيع دار الربيعان للنشر والتوزيع.

مصر

توصيات مهمة حول المخطوطات العربية

حث المجلس القومي للثقافة والإعلام الجامعات والمكتبات ودور حفظ المخطوطات على إنشاء مراكز لتحقيق المخطوطات، ودعا إلى تطبيق قانون حماية الآثار رقم ١٧ لسنة ١٩٨٣م على التراث الثقافي تطبيقًا حازمًا وتامًا أسوة بما يُتّبع في التراث المادي.

وأوصى المجلس في اجتماع عقده - مؤخرًا - بصيانة المخطوطات العربية والإسلامية وحفظها وتيسير تحقيقها، وتوفير أجهزة الوقاية من الحرارة والسرقة، وغيرها من الأضرار التي تصيب المخطوطات، والعمل على ترميم مايحتاج منها إلى ترميم، وفهرسة ماهو موجود في مصر من مخطوطات، وصولاً إلى إيجاد فهرس جامع شامل لها، وتصوير المخطوطات بالمصغرات الفلمية، والعمل الجاد للحصول على صور

الحركة الثقافية في شهر

المخطوطات العربية والإسلامية في الخارج من طريق الإهداء أو الشراء، وإعداد أُطُر متمرسة في مجالي تحقيق المخطوطات وترميمها، مع دعوة الجامعات لتشجيع الرسائل العلمية التي تهتم بالمخطوطات وترمي إلى تحقيق بعضها.

الحرب المقبلة مع إسرائيل حرب ثقافية

أكد وزير الثقافة المصري فاروق حسني أن الحرب المقبلة بيننا وبين إسرائيل ستكون حربًا ثقافية، مشيرًا إلى ضرورة تعرف الأعمال الفكرية والأدبية الإسرائيلية حتى يتسنى لنا معرفة طرائق تفكيرهم.

وأشار الوزير الذي كان يتحدث في نقابة الصحافيين المصريين إلى أن مصر لاتخاف من التطبيع الثقافي مع إسرائيل، مستدركًا بالقول: هذا لو كان هناك بالفعل تطبيع ثقافي، وهو غير موجود حتى الآن إطلاقًا.

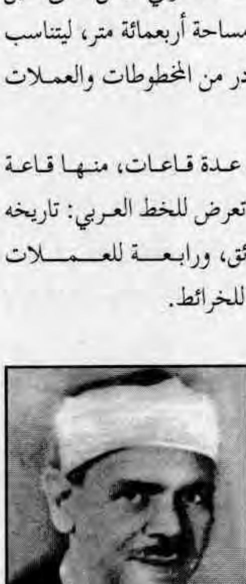
وأكد أن الوزارة لاتصدر تعليمات أو أوامر بالتطبيع الثقافي؛ لأن الإبداع الثقافي ملك للأفراد، وليس ملكا للدولة.

متحف للخط العربي

تعد دار الكتب والوثائق القومية حاليًا لإنشاء أول متحف في مصر للخط العربي، يطل على النيل بارتفاع خمسة طوابق ومساحة أربعمائة متر، ليتناسب مع المخزون الكبير والنادر من المخطوطات والعملات التي تقتنيها الدار.

يتضمن المتحف عدة قاعات، منها قاعة للمخطوطات، وأخرى تعرض للخط العربي: تاريخه وتطوره، وثالثة للوثائق، ورابعة للعملات والمسكوكات، وخامسة للخرائط.

الاحتفال بالخولي والنديم


أمين الخولي

احتفلت القاهرة بتكريم علمين من أعلامها الراحلين، أولهما المفكر والأديب الإسلامي المجدد أمين الخولي، والثاني شاعر الثورة العرابية وخطيبها المفوه عبدالله النديم.

قامت بتنظيم حفل مئوية ميلاد أمين الخولي (١٨٩٥-١٩٦٦) مكتبة القاهرة الكبرى، حيث نظمت أمسيتين، شاركت في أولاهما رفيقة دربه وأرملته الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) وابنه د. مهندس أسامة الخولي، وتلميذه د. مصطفى الشكعة. وفي الأمسيةالثانية شارك د. شكري عياد، د. محمود علي مكي، د. يُمنى طريف الخولي. وكان أهم مادار في الأمسيتين عناية الراحل بأصول العقيدة، ورفضه للحداثة التي تهدم التراث، وخلافه مع د. طه حسين، وتفسيره الموضوعي للقرآن الكريم، ودوره في رسم المستقبل الثقافي لأمته.

وناقشت مئوية وفاة عبدالله النديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦م) التي نظمتها لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة مختلف الجوانب المتعلقة بشخصية النديم من حيث كونه خطيبًا وشاعرًا وزجالاً وكاتبًا وسياسيًا ومناضلاً وعالمًا إسلاميا وصحافيا، والآثار التي خلفها مثل صحفه ومجلاته: «التنكيت والتبكيت» و«الأستاذ» وغيرهما، ودوره في صنع النهضة المعاصرة وغير ذلك من الجوانب.

كشوف فرعونية مهمة

اكتشفت في منطقة سقارة ثلاث مقصورات فرعونية، يرجع تاريخها إلى الأسرة الثامنة عشرة من الدولة الحديثة.

ويظهر في المقصورة الوسطى رئيس الوزراء عبريا يجاوره اسمه كاملاً وجميع ألقابه، وهو يستقبل الزهور والقرابين المقدمة له من ولديه اللذين أمكن - للمرة الأولى - تعرف اسميهما وهما: «سني» موظف و«هاتياي» كاهن، ووجدت على الحائط الخلفي مناظر ملونة بالرسوم لعبريا وأشخاص من عائلته، يقدمون القرابين لأوزوريس.

وتكمن أهمية الكشف في أن عهد الأسرة التاسعة عشرة قد شهد محو ماسبقها من رسوم ووضع رسوم جديدة.

من ناحية أخرى كشفت السيول التي حدثت في شهر ذي الحجة الماضي في صعيد مصر عن مقبرة تضم ٦٧ حجرة، بنيت لأولاد الفرعون رمسيس الثاني في منطقة وادي الملوك بالبر الغربي لمدينة الأقصر.

مجلة «عيون جديدة»

صدر في القاهرة العدد الأول من مجلة «عيون جديدة» التي تصدر عن دار نشر تحمل الاسم نفسه، ترأس مجلس إدارتها سلمى شلاش، وترأس التحرير فوزية مهران، فيما تتولى عائشة أبو النور منصب نائب رئيس التحرير.

تتميز المجلة الجديدة من مثيلاتها من المجلات النسائية بأنها ذات طابع ثقافي نقدي، وتتسم بالشمولية في موضوعاتها المتنوعة التي تتناول السياسة والثقافة والمرأة والأزياء.

الفائزون بجوائز تيمور المسرحية

تم - مؤخرًا - تسليم الفائزين بجوائز «مسابقة محمد تيمور للإبداع المسرحي» لعام ١٩٩٤/١٩٩٥م جوائزهم في حفل أقيم بمركز الهناجر للفنون بالقاهرة.

نالت الجائزة الأولى صفاء البيلي عن مسرحية «نوبة رجوع لجليلة بنت مرة»، وتقاسم الجائزة الثانية وليد يوسف عن مسرحية «الحالة ٩٤» وأمير صالح جبريل عن مسرحيته «يوم مليء بالأحزان»، كما تقاسم الجائزة الثالثة كل من محمد صلاح صقر عن مسرحيته «سوق الكلمات» وممدوح نصر عن مسرحيته «التشابه».

الملتقى القومي للفنون والثقافة

أقيم في مكتبة القاهرة الكبرى - مؤخرا - الملتقى القومي للفنون والثقافة، وتم خلاله تكريم عدد من رموز الفن التشكيلي.

ناقش المؤتمر على مدار ثلاثة أيام أربعة محاور رئيسة هي: «حوار الفن التشكيلي مع العمارة والسينما والمسرح» و«حوار الفن التشكيلي والعمارة والفنون» و«حوار الفن التشكيلي والتاريخ والآثار والقصة والترجمة والدراسات الأدبية والفنون الشعبية» و«حوار الفن التشكيلي والفلسفة وثقافة الطفل».

كتب جديدة

ـ جملة اعتراضية، مجموعة قصصية لنورا أمين.

ـ الأدب الفرعوني، تأليف د. عطية ثامر.

ـ الضغوط النفسية: تغلب عليها وابدأ الحياة، تأليف د. حمدي علي الفرماوي ود. رضا أبو سريع.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن مكتبة الأنجلو المصرية في القاهرة.

ـ المواجهة والسلام في الشرق الأوسط: الطريق إلى غزة وأريحا، تأليف طاهر شاش، صدر عن دار الشروق.

ـ الانتخاب الطبيعي (في الكتاب موضوعات تتبع علم البيولوجيا)، تأليف ريتشارد دوكنز، ترجمه إلى العربية د. مصطفى إبراهيم فهمي، وصدر عن المكتبة الأكاديمية.

ـ الحرب وانهيار الدولة في رواندا، تأليف سيد محمود حسني، صدر عن دار المحروسة للنشر والمعلومات.

ـ السادة الجدد: عملاء النفوذ وكيف سيطرت اليابان على النظام السياسي والاقتصادي الأمريكي، تأليف بات شوت، تعريب د. أحمد عبدالله كسَّاب وطلعت غنيم حسن، صدر عن مكتبة مدبولي.

ـ موسوعة غرائب المعتقدات والعادات، في جزءين، إعداد محمد كامل عبدالصمد، صدرت عن الدار العربية للنشر.

ـ لحن الصباح، رواية لمحمد ناجي، صدرت عن دار مصر العربية للنشر.

سورية

مدافن أثرية باللاذقية

اكتشف اثنان وعشرون مدفنًا أثريا جماعيًا على امتداد خط الصرف الصحي الجديد لمدينة اللاذقية، بها مجموعة قليلة من اللقى الأثرية، مما يعني أنها تعرضت للنهب في العصور القديمة.

تعود خمسة عشر من المدافن المكتشفة للعصرين اليوناني والروماني، بينما تعود السبعة الأخرى إلى العصر البيزنطي.

معرض للصناعات التقليدية

احتضن المتحف الأثري لمدينة تدمر ـ عاصمة البادية السورية ـ مؤخرًا فعاليات مهرجان البادية الثالث الذي ضم معرضًا للحرف اليدوية وآخر للصناعات اليدوية والتقليدية وثالث للنباتات الطبية والصحراوية ورابع للوحات التشكيلية. واختتم المهرجان بسباقات الهجن والخيول الأصيلة. فعاليات المهرجان انتقلت فيما بعد إلى مدينة حمص.

معرض للكتب الكورية

أقيم في المركز الثقافي العربي في دمشق مؤخرًا معرض للكتب للكورية ضم عددًا كبيرًا من العناوين التي تصدرها دور النشر الكورية بعدة لغات. ونظم على هامش المعرض معرض آخر للصور الفوتوغرافية والأشغال الفنية اليدوية.

معرض فن الحفر

شهدت صالة تشرين للفنون الجميلة في مدينة حلب احتضان معرض لفن الحفر عرضت فيه خمسون لوحة محفورة على الخشب لأبرز الفنانين السوريين، جسدت الطبيعة والقصص التاريخية والفولكلور الشعبي وموضوعات جمالية مختلفة.

أحدث الكتب

ـ سلسلة دراسات ووثائق حول المجازر الأرمنية، مجموعة مقالات تاريخية، صدر عن دار الحوار للنشر والتوزيع ونادي الشبيبة السورية في حلب.

ـ في البدء كانت الحرية، رواية من تأليف عبدالكريم ناصيف، صدرت عن دار علاء الدين في دمشق.

ـ القضية الكردية من الضحاك إلى الملاذ، دراسة تاريخية موثقة من تأليف زبير سلطان، صدرت في دمشق.

محاضرات وندوات

«الثقافة العربية والإسلامية في غرب أفريقيا: إسهام سجَّله التاريخ ونسيته الأجيال»، عنوان محاضرة نظَّمها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، وألقاها د. عزالدين موسى.

«موجبات الخيرية لهذه الأمة»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الحميضي بمدينة الدوادمي، الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله العضياني.

«إدارة الوقت»، عنوان محاضرة ألقاها في عمادة شؤون الطلاب بجامعة الكويت، د. محمد المسيليم.

«أمسية شعرية» نظمها نادي جيزان الأدبي للشاعرين حبيب معلا اللويحق المطيري وعلي يحيى بهكلي.

«الحضارة الأندلسية تَمَيُّزٌ في إطار وحدة الحضارة العربية الإسلامية»، عنوان محاضرة ألقاها في كلية الآداب بجامعة الكويت، د. رضوان البارودي.

«التعليم وآفاق المستقبل»، عنوان محاضرة ألقاها د. سعيد عطية أبو عالي.

«بلاغة أهل السنة»، عنوان محاضرة ألقاها د. محمد بن علي الصامل.

ألقيت المحاضرتان السابقتان في نادي القصيم الأدبي ببريدة.

«تاريخ مدينة الحيرة والحياة فيها»، موضوع محاضرة ألقاها في ديوان الكوفة في لندن، د. عبدالرحيم حسن.

«الأمن الإقليمي والعلاقات الاقتصادية العربية ـ اليابانية والوضع الراهن للقضية الفلسطينية»، موضوع ندوة نظمها في الرباط ملتقى الفكر العربي بالتعاون مع المعهد الوطني لتقدم العلوم في اليابان، تحدث فيها المفكر المغربي علي أومليل وآخرون.

«كيف ترفع كفاءتك في اللغة العربية؟»، عنوان محاضرة ألقاها في معهد العلوم الإسلامية والعربية بجاكرتا التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د. عبدالرحمن موسى أبكر.

«كفاءة الخرائط التنظيمية»، موضوع محاضرة ألقاها في مركز خدمة

ـ السماء كانت سوداء فوق الفرات، رواية من تأليف جاك دير الكسانيان، ترجمة سيلفا عربش، صدر عن مؤسسة سندباد في دمشق.

ـ هواجس في أعماق شاعر، مجموعة شعرية حول مجزرة الحرم الإبراهيمي الشريف وقضايا أخرى للشاعر جاك صبري شماس، صدرت في مدينة الحسكة.

ـ النظام الإقليمي العربي في ظل المتغيرات الدولية والإقليمية، تأليف د. منير الحمش، صدر في دمشق.

ـ زليخة، مجموعة قصصية للقاص معن علي، صدرت في دمشق.

ـ برزخ الخديعة، مجموعة قصصية للقاص صادق أبو حامد، صدرت عن دار كنعان بدمشق.

ـ زهرة اللوتس، رواية من تأليف أميمة الخش، صدرت في دمشق.

ـ مختارات من القصص الهندية، ترجمها إلى اللغة العربية رعد عبدالجليل، وصدرت عن دار الحوار باللاذقية.

ـ التراب والرحيل، رواية لإبراهيم بشير إبراهيم، صدرت عن دار الأهالي في دمشق.

ـ الاعتراف الأول، مجموعة قصصية لكوليت نعيم، صدرت عن دار كنعان.

لبنان

مؤتمر حول عجائب الرقائق الإلكترونية

احتضنت الجامعة اللبنانية ـ الأمريكية في بيروت ـ مؤخرًا ـ مؤتمرًا متخصصا بعنوان «عجائب الرقائق» ناقش المشاركون فيه على مدى ستة أيام قضايا الحاسوب والتطورات التي تطرأ عليه وتطبيقاته في قطاعات المصارف والتربية والإعلام والطب وتنظيم أعمال المكاتب والدعاية والإعلان، وألقيت على هامش المؤتمر محاضرات وقدمت عروض حول الموضوع باستخدام الشرائح الملونة (السلايدات).

صدور «الجدار»

«الجدار»، هو عنوان لمجلة شهرية فكرية ثقافية جامعة صدر عددها الأول في بيروت. تضمن العدد مجموعة مقالات لمجموعة من الكتاب والشعراء العرب كأسامة بيرقدار وممدوح عدوان وشوقي خيرالله ومها بيرقدار وفؤاد رفقة.

كتب جديدة

ـ نازك الملائكة ومختارات، تأليف عبد الرضا علي، صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ـ أنت شيء من النشر، للأديبة سكينة إبراهيم، صدر عن دار بيسان للنشر والتوزيع.

الأردن

مهرجان جرش

يبدأ مهرجان جرش السنوي أعماله في ٢١ صفر الجاري (١٩ يوليو ١٩٩٥م) لمدة أسبوعين.

يتضمن المهرجان ـ كعادته ـ عروضاً موسيقية ومسرحية وحلقات نقدية، وأمسيات شعرية وقصصية، وندوات متخصصة بمشاركة أدباء ومفكرين وفنانين من مختلف الأقطار العربية، ويتم في المهرجان تنظيم أمسية خاصة عن الشاعر الراحل بدر شاكر السياب، وحلقات نقدية عن الراحلين: أمل دنقل، وخليل حاوي، وجبرا إبراهيم جبرا.

شارع مُعبَّد بالبلاط في البتراء

اكتشف في مدينة البتراء الأثرية شارع معبد بالبلاط، قد يكون مكملاً للشارع المعبد بالبلاط الموجود في وسط المدينة.

وقال آثاريون إن بعض أجزاء الشارع المكتشف

المجتمع والتعليم المستمر بالكويت، جراهام سنيب.

«مقومة الطفل المصري الثقافية»، عنوان ندوة نظمتها لجنة ثقافة الطفل بالقاهرة التابعة للمجلس الأعلى للثقافة، تحدث فيها د. حامد زهران وسعد الدين وهبه، أدار النقاش علاء حمروش.

«التأثيرات الإيطالية على الهندسة المعمارية والتخطيط المدني لمدينة الإسكندرية»، عنوان محاضرة ألقاها في قاعة المعهد الثقافي الإيطالي بالقاهرة، المهندس محمد عوض.

«القاهرة في العصر العثماني»، عنوان محاضرة ألقاها في مكتبة القاهرة الكبرى، المستعرب أندريه ريمون.

«الحياة النيابية في لبنان بين مجلسي ١٩٧٢و ١٩٩٢م»، عنوان محاضرة ألقتها في دار الندوة بحي الحمراء في بيروت، د. سونيا الدبس ضاهر.

«النمل الأبيض»، رواية الأديب عبد الوهاب الأسواني، كانت موضوعًا لندوة في نادي القصة في القاهرة، شارك فيها النقاد: د. عبدالمنعم تليمة، د. يسري العزب، محمد محمود عبدالرزاق، ومحمد قطب.

«اقتصاديات التبغ» عنوان ندوة نظمتها مديرية الشؤون الصحية بالطائف بمناسبة اليوم العالمي للامتناع عن التدخين شارك فيها عدد من المتخصصين.

«المذهب الوسطي: حوار مع الفكر العالمي»، محاضرة ألقاها د. عبدالحميد إبراهيم في نادي أبها الأدبي.

«المرأة والقيادة في الإسلام»، محاضرة ألقتها ألفة عمر باشا الإدلبي في دمشق.

«آثار محافظة اللاذقية»، موضوع محاضرة ألقتها نجوى خاسكية في مدينة جبلة السورية.

«دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية وشخصيات في التاريخ العربي»، موضوع ندوة عقدت في نقابة المعلمين في دمشق.

تعرضت للانجراف بسبب السيول، واستخدمت أجزاء من أرصفته لترميم بعض المباني وبنائها في الفترة البيزنطية.

كتب جديدة

- أضداد، مجموعة شعرية لحمدة خميس.

- ماء الياقوت، مجموعة شعرية لعبد القادر الحمصي.

- مراثي يازوليني، أناشيد وميلودراما شعبية - شعرية لإلياس لحود.

- ياءات الحلم الهارب، ديوان للشاعر محمد بلقاسم خمّار.

- مناديل، مجموعة قصصية لعبد المجيد زراقط.

- الثقافة المصرية في زمن التطبيع، تأليف أحمد أبو مطر.

- أدب الطفل العربي، مجموعة وثائق قدمها عدد من الباحثين والأدباء العرب في ندوة «أدب الخيال العلمي».

صدرت الكتب السابقة ضمن منشورات فرع الاتحاد العام للأدباء والكُتّاب العرب في عمان.

الجزائر

معرض للكتاب المغاربي

احتضنت مدينة الجزائر مؤخرا فعاليات المعرض المغاربي الرابع للكتاب بمشاركة دور نشر خاصة وحكومية من الجزائر وتونس وليبيا والمغرب. وسجل غياب دور النشر الموريتانية والمصرية (علما بأن مصر انضمت مؤخرا إلى الاتحاد). وكان المعرض مناسبة لتقديم الجوائز التي تمنحها وزارة الثقافة سنويا للمبدعين في مناحي الأدب والفكر بمناسبة يوم العلم الذي يصادف ذكرى وفاة رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر الشيخ عبدالحميد بن باديس. حيث فاز الشاعر الأخضر قلوس بالجائزة الثانية للشعر عن قصيدته «تجيء واثقة الخطى» بعد حجب الجائزة الأولى، وفاز الروائي لزهر عطية بالجائزة الأولى للرواية عن روايته «المملكة الرابعة»، وفاز القاص جيلالي خلاص بالجائزة الأولى للقصة القصيرة عن قصته «فرسان الفجر الأخير».

معرض للخزف

نظم في قصر الثقافة في مدينة الجزائر مؤخرا المعرض الأول للخزف الجزائري، شارك فيه عدد من الفنانين التشكيليين وأساتذة المدرسة العليا للفنون الجميلة وعُرضت مجموعات من التحف الخزفية والفخارية. وتدارس الاختصاصيون على هامش المعرض قضية الحفاظ على التراث الجزائري المتميز في مجال تشكيل الخزف والفخاريات، كما ألقيت محاضرات حول تاريخ فن تشكيل الخزف.

أحدث الكتب

- الشعر النسوي الأندلسي، تأليف سعيد بو فلاقة.

- آراء سياسية وقانونية في بعض قضايا الأزمة الجزائرية، تأليف د. عمر صدوق.

صدر الكتابان السابقان عن ديوان المطبوعات الجامعية.

- دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، تأليف د. بشار قويدر.

- دراسات في النظم الإسلامية، تأليف د. بشار قويدر.

صدر الكتابان السابقان عن دار دحلب في مدينة الجزائر.

المغرب

اليونسكو تعتمد «إعلان فاس»

اعتمد المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو العالمية في ختام دورته السادسة والأربعين بعد المائة وثيقة «إعلان فاس» وعدة توصيات أخرى تتعلق بالحفاظ على المدن التاريخية.

وتتضمن وثيقة «إعلان فاس» تأكيد أهمية الحفاظ على المدن التاريخية لكونها تراثًا إنسانيا، ولكون إنقاذ مدينة فاس وصيانتها أنموذجًا للمدن التاريخية في العالم، ويبلغ عدد المصنف منها من قبل اليونسكو كتراث إنساني مائة وتسع مدن.

من ناحية أخرى، وقع المدير العام لليونسكو فريديركو مايور ووزير الصناعة والتجارة المغربي إدريس جطو اتفاقًا يقضي بإنشاء مركز دولي للصناعة التقليدية في فاس، لإنعاش الحرف والصناعات التقليدية.

ملتقى فاس الشعري

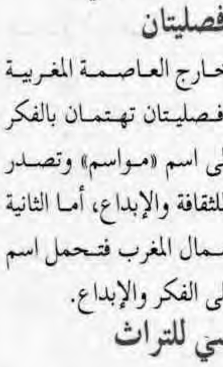
أقيم في فاس الملتقى الشعري السابع في النصف الأول من شهر محرم الماضي؛ بمشاركة مجموعة من الشعراء والنقاد المغاربة والعرب.

دارت ندوات الملتقى حول القصيدة المغربية المعاصرة تحت شعار «التصور والإنجاز»، وتم خلاله تكريم اثنين من شعراء القصيدة المغربية المعاصرة هما: أحمد المجاطي وعبد الملك بن المأمون البلغيثي.

مجلتان فصليتان

صدرت - مؤخرًا - خارج العاصمة المغربية بمبادرتين فرديتين مجلتان فصليتان تهتمان بالفكر والإبداع، تحمل المجلة الأولى اسم «مواسم» وتصدر في طنجة، وتولي اهتمامًا للثقافة والإبداع، أما الثانية التي صدرت في الناظور بشمال المغرب فتحمل اسم «فضاءات مغربية» وتركز على الفكر والإبداع.

جائزة الفاسي للتراث


علال الفاسي

استحدثت - مؤخرًا - جائزة باسم المجاهد الكبير علال الفاسي تحمل اسمه، وتمنح سنويا لموضوع مرتبط بالتراث الفكري والوطني الذي خلفه الفاسي.

تمنح الجائزة مؤسسة علال الفاسي بالرباط، وسوف يكون كتاب النقد الذاتي لعلال الفاسي موضوع الجائزة هذا العام، كما تعلن في وقت لاحق شروط الجائزة التي ستكون مفتوحة لجميع المثقفين والأدباء والباحثين.

كتب جديدة

- المجتمع والثقافات في المغرب، تأليف أحمد بوكوس، صدر ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط.

- تربية المسلم على هدى الشريعة في مواجهة

تحديات عالم معاصر، تأليف يوسف عبدالمعطي، صدر عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

- فراغات مرقعة بخيط شمس، مجموعة شعرية لعبدالله زريقة، صدرت عن منشورات الفنك في الدار البيضاء.

- طريق الحرية (شهداء وأبطال معركة درب بوشنتوف)، تأليف مبارك ربيع، صدر عن المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير.

- أنا ميراي حين كنت ياسمينة، رواية لفضيلة السبتي، صدرت بالفرنسية عن دار لوفينيك بالدار البيضاء.

- الضروري في أصول الفقه: أو مختصر المستصفى، تأليف أبي الوليد محمد بن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ)، حققه د. جمال الدين العلوي، صدر عن مركز الدراسات الرشدية بجامعة سيدي محمد بن عبدالله في فاس.

بريطانيا

مهرجان ثقافي سعودي

شهدت العاصمة البريطانية مهرجانًا ثقافيا فكريا سعوديا في مطلع شهر محرم الماضي، استمر خمسة أيام بمناسبة مرور عشر سنوات على إنشاء أكاديمية الملك فهد في لندن.

تضمن المهرجان معرضًا للكتاب السعودي، حوى ثلاثة آلاف عنوان في مختلف فنون المعرفة، ومحاضرة عن توحيد المملكة العربية السعودية، وندوة ناقشت دور الأكاديمية ومراحل تطورها منذ نشأتها. كما شاركت مجموعة من الشخصيات الأجنبية في ندوة تناولت انطباعاتهم وذكرياتهم أثناء زيارتهم للمملكة العربية السعودية.

احتجاب «الناقد»

تحتجب اعتبارا من الشهر الميلادي الجاري مجلة «الناقد» بعد ثماني سنوات من الصدور.

وباحتجاب «الناقد» التي أسسها الناشر والصحافي اللبناني رياض نجيب الريس تفتقد المكتبة العربية بعامة والأدبية بخاصة مجلة لها أثرها في الحركة الفكرية والثقافية والأدبية.

نصوص

صدر في لندن مؤخرا العدد الأول من مجلة «نصوص» الفكرية العراقية، وهي مجلة فصلية متخصصة للدراسات النقدية والمقالات التحليلية في شؤون الأدب والشعر بالإضافة للحوارات واللقاءات. وخصص ملف العدد لتسليط الضوء على رواد الصحافة الأدبية في العراق.

أحدث الكتب

- مقاتل من الصحراء، تأليف الفريق أول ركن (المتقاعد) الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز، صدر عن دار هاربر كولينز.

- ليالي ألف ليلة (رواية نجيب محفوظ) ترجمها إلى الإنجليزية دينيس جونسون ديفيز، صدرت عن دار دبل داي.

- عاطفة خالدة، رواية لنعيم عطا الله، صدرت عن دار كوارتيت في لندن.

- حواجز أمام مفاوضة حل النزاع، تأليف كينيث آرو وآخرين، صدر عن دار نورتون.

- قصائد للحرية والحياة، للشاعر اليوناني يانيتس ريتسوس، ترجمها إلى العربية فاروق فريد، وصدرت عن دار الساقي.

- ثورة العقل وحياة أندريه بروتن، تأليف مارك بوليزوتي، صدر عن دار بلو مسبري.

- صباح الخير، تأليف خالد القشطيني، صدر عن الشركة السعودية للأبحاث والنشر.

- النصوص المحرمة، تحقيق جمال جمعة، صدر عن دار رياض نجيب الريس.

اليونان

جائزة كافافيس لنازك الملائكة

فازت الشاعرة العراقية نازك الملائكة بجائزة كافافيس للشعر لعام ١٩٩٤م. ومن المقرر أن تستلم الجائزة من السفارة اليونانية في القاهرة

إسبانيا

وفاة شيخ المستعربين

توفي إميليو جارثيا جوميث شيخ المستعربين الإسبان قبل يومين فقط من بلوغه عامه التسعين.

وبوفاة جوميث تنتهي رحلة عُمْرُها سبعون عامًا في عالم الدراسات العربية الأندلسية، أثرى صاحبها المكتبة الإنسانية بمجموعة قيمة من الأبحاث والكتب والترجمات.

ولد جوميث عام ١٩٠٥م، وعشق منذ سنوات عمره المبكر الأدب العربي بعامة والأندلسي بخاصة، وكان واحدًا من جيل ١٩٢٧الشعري مع صديقيه فيدريكو جارثيا لوركا ورفائيل ألبرتي، وكان لنشره ترجمة كتاب «الشعر العربي الأندلسي» في الثلاثينيات نقطة تحول للعديد من الشعراء الإسبان، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب بعد ذلك إلى لغات عدة.

وقد حصل جوميث على درجة الدكتوراه في الدراسات الأندلسية، وهو بعد لايتجاوز الثانية والعشرين من عمره، وسافر بعدها إلى القاهرة لينهل من علوم اللغة العربية وآدابها، ثم عاد إلى بلاده ليؤسس مجلة «الأندلس» ومدرسة الدراسات العربية في غرناطة، ويدرِّس في جامعة مدريد اللغة العربية وآدابها حتى إحالته إلى التقاعد في السبعينيات، كما عمل في السلك الدبلوماسي.

ويصعب إيراد كل مؤلفاته التي تجاوزت الثلاثين كتابا ما بين دراسة وترجمة، أو رصد ما ناله من جوائز وشهادات دكتوراه فخرية، أو عضويته في المحافل العلمية، وفي مقدمتها مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد والرباط. وآخر جائزة نالها جائزة أمير استورياس أرقى الجوائز الأدبية الإسبانية. ومن أبرز

مؤلفاته وترجماته: «الشعر العربي الأندلسي» و«خمسة شعراء مسلمون» و«عروض الموشحات الأندلسية والعروض الإسباني» ومؤلفات أخرى.

وكان يعكف قبل وفاته على إنجاز دراسة حول تأثير الأمثال العربية في الأمثال الإسبانية، وأوصى أن يدفن في أرض غرناطة التي عشقها.

(راجع في العدد ١٧٩ مقابلة مع جوميث).

مهرجان للموسيقى والشعر في إشبيلية

بلغ عدد زوار مهرجان الموسيقى والشعر الأندلسيين الذي استضافته مدينة إشبيلية مؤخرًا قرابة ربع مليون زائر. ومن النشاطات المتميزة التي شدت انتباه الزوار عرض أسطوانة ليزر عليها أدوار موسيقية أندلسية مع كتاب يحتوي على دراسة شاملة للموسيقى والشعر الأندلسيين، قام بها باحثون عرب وإسبان.

فرنسا

مولد علم جديد: «اتنو سينولوجيا»

كانت ثمرة ندوة دولية أقيمت - مؤخرًا - في العاصمة الفرنسية أن أعلن عن ولادة علم جديد يجمع بين ميادين مختلفة من العلوم الإنسانية، اتفق على تسميته علم «اتنوسينولوجيا».

يرمي العلم الجديد إلى دراسة وسائل التعبير المختلفة في العالم من فنون وآداب. وتبنت الندوة التي عقدت بمبادرة من الدار العالمية للثقافة وجامعة باريس الثامنة ودعم من اليونسكو ووزارة الثقافة الفرنسية إنشاء مراكز وطنية لـ «الاتنوسينولوجيا» في عدد من الدول، من بينها فرنسا.

الداخلية تتراجع عن حظر كتاب «الحلال والحرام»

تراجعت وزارة الداخلية الفرنسية عن قرارها بحظر كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للشيخ يوسف القرضاوي، وصدرت تعليمات جديدة بإباحة توزيع الكتاب بفرنسا.

بعد أن وصفت الوزارة - قبل شهرين - قرار المنع بأنه «خطأ إداري» وأكدت أن الكتاب «لايهدد النظام العام».

وكان قرار منع الكتاب قد أثار ضجة كبيرة في أوساط الجالية الإسلامية لكونه يمثل التيار المعتدل، ولايضم شيئًا يثير ضد غير المسلمين.

الفائزون بجوائز جونكور ورونودو ودوكا

أعلنت أسماء الفائزين بجوائز جونكور الأدبية ورونودو وسيمون ديل دوكا للعام الحالي.

وكما حدث في العام الماضي ذهبت جائزة جونكور مرة أخرى إلى الشباب، مؤكدة على أن رياح الشباب قد بدأت تدب على الجوائز الفرنسية، حيث منحت للكاتبة فلورنس سيفوس البالغة من العمر ٢٨ عامًا، عن روايتها «الرؤى».

ونال جائزة رونودو الكاتب الشاب جيوم لوتوز البالغ من العمر ٢٦ عامًا. أما جائزة ديل دوكا التي أسست عام ١٩٦٩م فقد نالها أحد شيوخ الأدب، وهو الكاتب إيف بونفوا (٧١عاما) لكون أدبه يعبر عن رسالة إنسانية شمولية حديثة.

قاموس للمؤلفات الفرنسية في القرن العشرين

صدر في باريس عن دار روبير قاموس لمؤلفات القرن العشرين في ٦٢٦ صفحة.

يتضمن القاموس تحليلاً لنحو ١٦٠٠ عمل أدبي فرنسي أو من الدول الناطقة باللغة الفرنسية (من بينها لبنان ودول المغرب العربي) قدمها ١٤٥٠ كاتبًا، خمسمائة منهم فقط لايزالون على قيد الحياة.

وفاة رائد الحوار النصراني الإسلامي

توفي في مدينة مونبليه المفكر اللبناني الأب

رسائل جامعية

«ابن دراج القسطلي: حياته وشعره في ظل الدولة العامرية» عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الآداب للبنات التابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات في الرياض، تقدمت بها مها صالح سعود العلي.

«التوجيه الأمثل للقروض والإعانات الزراعية الممولة من البنك الزراعي العربي السعودي للمشروعات الزراعية المتخصصة في المنطقة الوسطى» موضوع رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الزراعة بجامعة الملك سعود في الرياض، تقدم بها خالد تركي بن حميد.

«دور الفيلم التاريخي العربي في عرض تاريخ الأمة العربية» عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، تقدم بها عاصم بكري حسن.

«عالم المثال بين الغزالي والسهروردي وابن عربي» موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها هالة فؤاد.

«عمارة المسلمين والخط العربي» موضوع رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الهندسة بجامعة الأزهر، تقدم بها هشام أحمد محمد صبح.

«تأثيرات التهابات الجيوب الأنفية على حاسة الشم» موضوع رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الطب بجامعة القاهرة، تقدم بها د. حسام حمدي.

«مشكلات الترجمة الإنجليزية للتعبيرات الاستعارية في الشعر العربي، ودراسة لمشكلات ترجمة الصور الشعرية عند صلاح عبدالصبور وأدونيس» موضوع رسالة ماجستير، نوقشت في جامعة القاهرة، تقدمت بها عزة مازن.

«مواقف أدباء إيرلندا من مشكلات بلادهم مع بريطانيا» موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، تقدمت بها سوزان سامي مشعل.

«ترجمة الشعر عند العرب: دراسة مقارنة» عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في جامعة السوربون - باريس الرابعة، تقدم بها كاظم جهاد.

«دراسة على التحول البكتيري لبعض المعادن في خاماتها المحلية في المملكة العربية السعودية» عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية التربية للبنات بالرياض، تقدمت بها ريم بنت مساعد بن عبدالرحمن آل سعود.

يواكيم مبارك أحد رواد الحوار النصراني - الإسلامي عن عمر يناهز ٧١ عامًا.

ويحمل الأب مبارك ثلاث شهادات دكتوراه في اللاهوت والعلوم الإسلامية والآداب من جامعة السوربون، وهو من مواليد عام ١٩٢٤م، وله العديد من المؤلفات باللغتين العربية والفرنسية، وحصل على وسام المؤرخين العرب من اتحاد المؤرخين العرب.

ومن أبرز مؤلفاته باللغة العربية: «الحوار الإسلامي - المسيحي في لبنان» و«القدس القضية» و«الخماسية الأنطاكية: أبعاد مارونية»، وباللغة الفرنسية: «الأسماء الحسنى في القرآن» و«إبراهيم في القرآن» و«الإسلام» و«الفكر المسيحي والإسلام من أيام النبي إلى المجمع الفاتيكاني» وكتب أخرى.

توقف مجلة «القنفذ» الساخرة

توقفت مجلة القنفذ (هريسون) الأسبوعية الساخرة بعد ٥٩ عامًا من صدورها نتيجة لانخفاض مبيعاتها إلى ٢٠ ألف نسخة فقط.

وكان ساشا جيتري وابنه جان بيار قد أسسا المجلة عام ١٩٣٦م، وتوقفت للمرة الأولى إبان الحرب العالمية الثانية، ثم عاودت الصدور بالاسم نفسه عام ١٩٤٥م، حيث واصلت صدورها إلى أن أعلن عن توقفها نهائيًا.

أحدث الكتب

- تيميمون، رواية لرشيد بوجدرة، صدرت عن دار دينوبل في باريس.

- إغراء البراءة (عن الوضع السياسي في فرنسا عام ١٩٩٥م)، تأليف فيليب ماير، صدر عن دار نشر فلامارن.

- المحاكمات الأخيرة (عن محاكمات نورمبرج) تأليف جوزيف كيسيل، صدر عن دار نشر كريستيان دو بارتيلا.

- جزيرة جوشيه، رواية لإكسندر جاردان، صدرت عن دار نشر جاليمار.

- زمن الأخطاء، ترجمة فرنسية لرواية للكاتب المغربي محمد شكري «الشطار» وهي تمثل سيرته الذاتية، صدرت في باريس.

- شموس ثانية، قصائد مختارة للشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس)، تقديم المستشرق الفرنسي جاك بيرك، صدرت عن دار ميركوت دو فرانس.

- دليل الكتابة الصحفية، تأليف جان لوك مارتين، صدر في باريس.

- الأشعار الكاملة للطاهر بنجلون، صدرت بالفرنسية عن دار لوسوي.

الحركة الثقافية في شهر

ألمانيا

توصية بتدريس الإسلام

أوصى المؤتمر الخاص للمكلفين بشؤون الأجانب على مستوى اتحاد ألمانيا وبلدياتها وولاياتها بضرورة تعميم تجربة ولاية نورد راين ويست فالن في إدخال الدين الإسلامي في المناهج الدراسية.

يأتي القرار اعترافًا بالدين الإسلامي بصفته ثاني أكبر الديانات في ألمانيا من حيث عدد المنتمين إليها، وينص القرار على الاقتصار في تدريس المادة على تلاميذ الصفوف من الأول إلى السابع، مع عدم تدخل أولياء أمورهم أو حكومات أوطانهم الأصلية في اختيار المدرسين.

هولندا

وفاة هرمانس

فقدت الحركة الأدبية والثقافية الهولندية الكاتب ويليام فريدريك هرمانس إثر وفاته عن عمر يناهز ٧٤ عامًا. ولد هرمانس في امستردام عام ١٩٢١م، وانضم في شبابه إلى مجموعة الكتاب الشبان الذين تمردوا على القواعد التقليدية للشعر والنثر، وعرفوا باسم «فيجتيفر»، ونال عام ١٩٥٥م درجة الدكتوراه في الجغرافيا الطبيعية، حيث عمل أستاذًا بجامعة جروتنج.

النرويج

مهرجان ثقافي عالمي

نظم في مدينة مولدي مهرجانًا أدبي عالمي شارك فيه خمسون مفكرًا وأديبا من أبرزهم جوزيف

«دراسة أطياف جاما المنبعثة من بعض النويات المشعة» عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية التربية للبنات بالرياض، تقدمت بها شريفة محمد عبدالعزيز العسيري.

«قضية فلسطين في شعر محيي الدين الحاج عيسى» عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الآداب للبنات بالرياض، تقدمت بها سمية بنت عبدالعزيز الرومي.

«العوامل المؤثرة في صحافة الإسكندرية» موضوع رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الاعلام بجامعة القاهرة، تقدمت بها نعمات أحمد عثمان.

«التحول وأثره في الفقه الإسلامي» عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، تقدم بها عبدالقادر بن سليمان الحفظي.

«اتجاهات التأليف والنسخ في مجال الفقه وأصوله في القرنين السابع والثامن الهجريين مع التطبيق على المخطوطات المحفوظة في مكتبات المدينة المنورة»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، تقدم بها عبدالرحمن بن سليمان المزيني.

«التعبير الزمني في روايات نجيب محفوظ» موضوع رسالة دكتوراه في الأدب العربي قُدِّمت إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة، تقدم بها محمد عبدالرحمن.

«نظرية الحرب في الإسلام» موضوع رسالة دكتوراه في العلوم السياسية قُدِّمت إلى المجلس العلمي الأعلى في روسيا، تقدم بها محمد القديعي.

الحركة الثقافية في شهر

بروسكي من روسيا وجانج جانج من الولايات المتحدة الذي اشتهر بروايته «البجعات المتوحشة» والأديب التركي ياسر كمال.

السويد

من أحدث الكتب

ـ التربية العربية: التعليم في العالم العربي في القرن الحادي والعشرين، تأليف منير بشور.
ـ خليل حاوي وأنطون سعادة، تأليف محمود شريح.
صدر الكتابان السابقان عن منشورات دار نلسن.

الأوروجواي

الاحتفال بذكرى جبران

أقيم في مونتيفيديو مهرجان كبير إحياء لذكرى رحيل الشاعر المهجري جبران خليل جبران. تضمن المهرجان ندوات ومحاضرات ومعرضًا تشكيليًا لفناني الأورجواي المنحدرين من أصل لبناني.

الولايات المتحدة

إدارة الموسوعة البريطانية للبيع

أفادت تقارير صحافية أن إدارة أقدم موسوعة باللغة الإنجليزية معروضة للبيع، إذ قالت إن الموسوعة البريطانية التي يبلغ عمرها ٢٢٦ عامًا ينتظر في حالة بيع إدارتها أن تدر على مالكها قرابة خمسمائة مليون دولار، حيث قام المالك بتأجير شركة استثمار لتتولى عملية البيع، بعد أن عانت الموسوعة من خسائر كبيرة.

الحقيقة البسيطة تفوز

منح الشاعر فيليب ليفين جائزة بوليتزر للشعر للعام الحالي عن ديوانه «الحقيقة البسيطة». ويعد ليفين المتخرج في جامعة داين عام ١٩٥٠م واحدًا من أبرز الشعراء الأمريكيين المعاصرين، وأشعاره موجهة أساسا إلى الطبقة الكادحة المكافحة التي يعد واحدًا منها.

معرض لأعمال دورو

يقام حاليا في متحف المتروبوليتان في نيويورك معرض لأهم الأعمال الإبداعية الفنية للفنان التشكيلي البرشت دورو (عاش في القرن السادس عشر الميلادي). يضم المعرض مائة وخمسة وعشرين عملاً فنيًا متنوعًا ما بين رسم على الألواح الزجاجية الملونة، ونحت على الخشب، وحفر على النحاس، ويستمر العرض حتى ١٢ أغسطس المقبل.

وفاة كينجسلي

فقدت الأوساط الأدبية الأمريكية الأديب والمسرحي سيدني كينجسلي عن عمر تجاوز التسعين عاما حيث توفي بأزمة قلبية في منزله في ولاية نيوجرسي. وعرف كينجلسي بتجسيده ومعالجته للقضايا المعاصرة في إطار فني رفيع برز في أعماله المسرحية المتعددة.

أحدث الكتب

ـ المعابد والرجال والآلهة (كتاب علمي عن الحضارة المصرية القديمة) تأليف ألبرتو سيليوتي، صدر عن دار جاويز أند سانز.

ـ التخصيص في عملية الانتقال، تأليف مجموعة من الباحثين، صدر عن وحدة البحوث بمنظمة الأمم المتحدة.

ـ أخطار بعيدة الاحتمال، تأليف روبرت هـ. جونسون، صدر عن دار سانت مارتينز بريس في نيويورك.

كندا

٣٠٠٠ مؤرخ في مؤتمر العلوم التاريخية

تستضيف مونتريال المؤتمر الدولي الثامن عشر للعلوم التاريخية خلال الفترة من ٣٠ ربيع الأول إلى ٧ربيع الآخر المقبلين (٢٧ أغسطس ـ ٣ سبتمبر ١٩٩٥م).

يعقد المؤتمر مرة كل خمس سنوات، ويشارك فيه هذا العام قرابة ثلاثة آلاف مؤرخ من مختلف أقطار العالم، وتتخلله ندوات وحلقات بحث ومناقشة.

كولومبيا

وفاة بيتانكور

توفي ـ مؤخرًا ـ في ميديين الكاتب والنحات الكولومبي رودريجو أرسيناس بيتانكور عن عمر يناهز ٧٥عامًا. ويعد بيتانكور من أشهر نحاتي كولومبيا وأبرز كتابها، ومن أعماله في مجال النحت «نصب بوليفار» في بيريرا، ومن كتبه «خطوات محكوم» ويروي فيه تجربة ذاتية حين تعرض للخطف بواسطة مجموعة مجهولة قبل ثمانية أعوام.

الأرجنتين

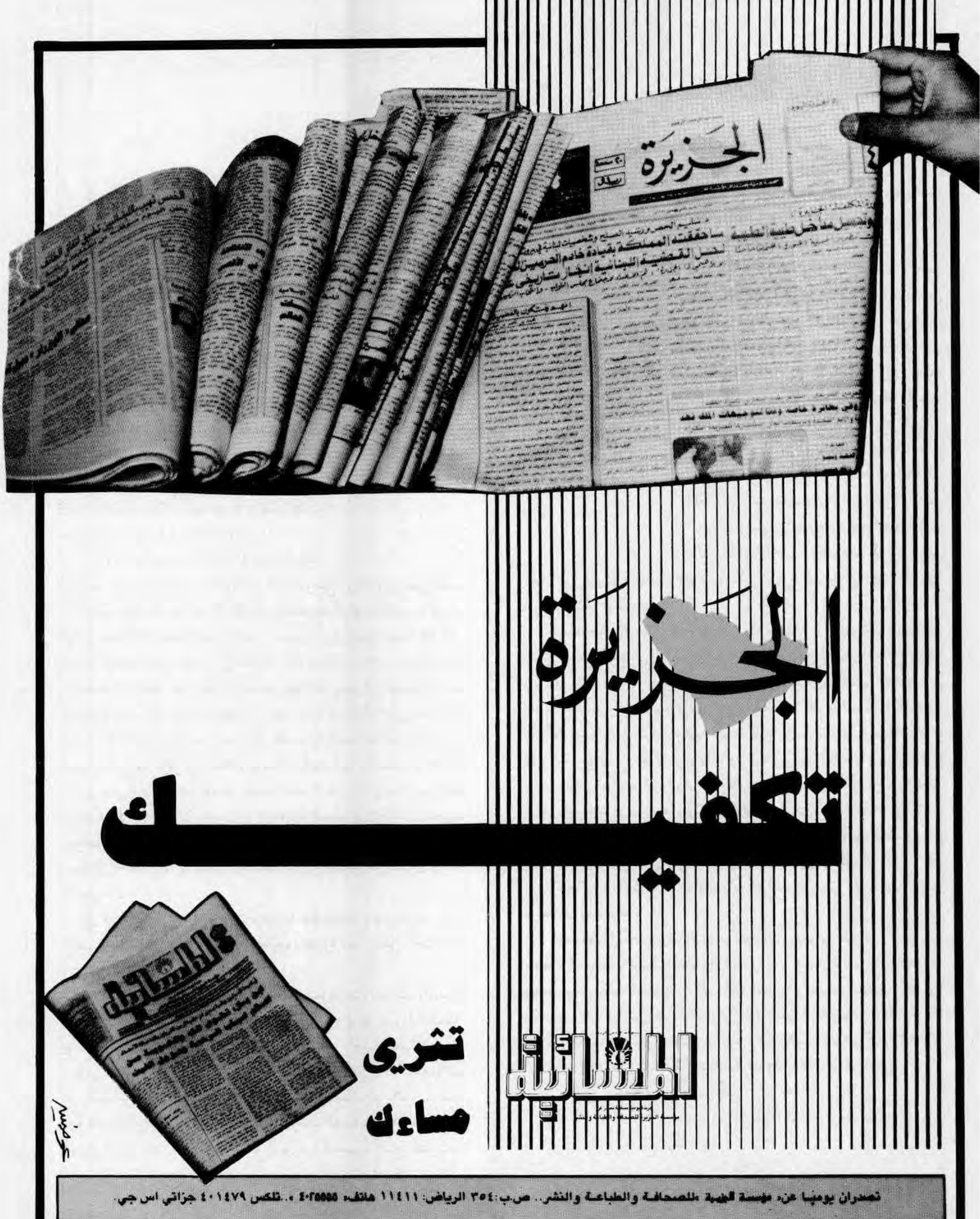
وفاة جواروز

توفي مؤخرا الشاعر الأرجنتيني روبيرتو جواروز عن ٦٩ عاما. واشتهر جواروز بترجمته لأشعار الشاعر الفرنسي الراحل أنتوانات أرتو، وبتوليه لرئاسة تحرير مجلة الشعر الأرجنتينية التي أسسها بنفسه بين عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥م، وحصل على العديد من الجوائز الوطنية والعالمية، وترجمت معظم أشعاره إلى الفرنسية.

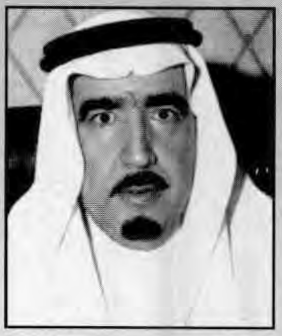
الصين

اكتشاف آثار مهمة

توصل علماء الآثار الصينيين مؤخرا إلى آثار مهمة تلقي الضوء على فترة طويلة من عهد الثقافة الصينية القديمة تمتد إلى ثلاثة آلاف سنة مضت، وتنسب هذه الفترة إلى عهد أسرتي تشانغ و تسو التي حكمت في الصين في القرن السادس عشر قبل الميلاد. كما اكتشفت آثار تعود إلى أسرتي مين و تانغ التي حكمت الصين في الفترة الممتدة من عام ٥٨١م حتى عام ٩٠٧م، وتضمنت القطع الأثرية المكتشفة في إحدى ضواحي مدينة تشنغدو التابعة لمقاطعة سيشوان أوان خزفية ومقبرة وسيفًا وفأسًا وحربة ورمحا. وأشاد خبراء الآثار بالقيمة العلمية لهذه المكتشفات.


الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب: ٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف ٤٠٢٥٥٥٥ ..تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.

نحو منهج أصيل لتحقيق كتب التراث ونشرها



عبدالله بن حمد الحقيل

التراث هو المخزون الفكري الذي تَجَمَّعَ خلال العصور، يجسد الماضي، ويبرز ثقافة الأمم وحضارتها كما كانت عليه. ولقد خَلَّفَ الأسلاف تراثًا ثقافيًا غزيرًا مشرق الصفحات وضّاء المعالم على مدى حقب السنين وتعاقب القرون، ومن يقرأ سيرة الجاحظ وابن العميد والصاحب بن عَبَّاد والحكم بن الناصر صاحب الأندلس، ومايرويه صاحب كتاب «نفح الطيب» يدرك مدى اهتمامهم بالعلم.

ويزخر التراث العربي الإسلاميَ بالتاريخ المجيد والمؤشرات الحضارية والعهود المشعة حضاريًا وفكريًا وعلميًا في جميع المستويات لما فيه من إضاءات متعددة تكشف عن فضائل جليلة وشواهد كثيرة على حضارة أمة قدمت للإنسانية منهجًا قويمًا، وانطلقت منها فتوحات الهداية في أرجاء الأرض.

إن الاهتمام بالتراث من أجلّ الأعمال وأولاها، وخير معيار يقاس به وعيها؛ فالعودة إلى التراث رجوع إلى المثل الروحية والقيم الأخلاقية. ولقد تميزت أمتنا الإسلامية بتراث مجيد اهتم به الغرب ووضع له فهارس تسهيلاً لدراسته، فعلى باحثينا أن يتجهوا إلى تراثهم وينفضوا عنه غبار السنين، ويطّلعوا على ماحفل به في مجالات العلوم والآداب والفنون. لقد عكف المستشرقون عليه سنين طويلة، مقتنعين بفائدته، ومدركين أهميته. وقد انحسرالاستشراق والمستشرقون في السنوات الأخيرة، لذا فعلى أبناء الأمة العربية الإسلامية العناية به، والعمل على تحقيقه ودراسته بجد متواصل وعزم قوي حثيث وصبر طويل في جمعه وفهرسته وتحقيقه وطبعه، لنستمد منه الفائدة والعون على إرساء قواعد نهضتنا العلمية الطموح على أساس مكين من القيم الروحية والأخلاقية والإنسانية، وإبراز صفحة جديدة في المعرفة الإنسانية، ومواصلة السير نحو التقدم العلمي متخذين من الماضي نبراسًا نُضيء به دروب المستقبل، وحافزًا لإدراك الشأو، واستعادة التاريخ المجيد والأمل كبير بإذن الله لتحقيق ذلك.

إن قراءة التاريخ والتراث قراءة موضوعية غاية جليلة؛ إذ بها نتعرف كنوز الماضي وأحوال أسلافنا السابقين وماسطروه وخلفوه حتى نواصل الإنجازات، ونتعرف الفعاليات التي صنعت تلك الحضارة.

ولاتحمل الجامعات ومراكز البحوث وحدها مسؤولية نشر التراث، والتنسيق بين المتاحف والمكتبات في اقتناء المخطوطات وتصويرها، وإنما هي مسؤولية تضطلع بها المؤسسات العلمية والثقافية كافة، ودور النشر والأجهزة المعنية بالتراث وشؤون المخطوطات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، مع إتاحة التسهيلات التي تمكنها من تأدية هذه الرسالة العلمية المهمة التي حملت إلى الإنسانية علمًا ومعرفة ومثالية وحضارة. ويقيني أن معهد المخطوطات العربية - وغيره - بما لديه من خبرة وتجارب، قادر على الإسهام الفعال والتقويم العلمي لأوضاع المخطوطات العربية وأماكن تواجدها، بالتكاتف مع المؤسسات الثقافية المعنية للبحث عن تلك المخطوطات التي أخنى عليها الدهر وتعرضت للإزراء والفناء، وهي ثروة علمية نفيسة جديرة بالاهتمام. ورسم منهج مناسب لجمع التراث وتحقيقه، له أثره المجدي في هذا الصدد، لما يحفل به من عطاء جم ونفع وفير وعدة صالحة للدرس والبحث والفائدة ليكون نبراسًا وضياء لجيل اليوم، يشحذ عزائمهم لتَعَرُّف ذلك الماضي المجيد الذي أدى دورًا فاعلاً ومؤثرًا بما يحويه من رؤى عميقة وثرية، ومايحمله من مضامين فكرية وعلمية، وإضافة للعلم والمعرفة لها في تاريخ الثقافة والحضارة صيت بعيد وأثر حميد. وهكذا تتجلى اليوم - وأكثر من أي زمن مضى - الحاجة الملحة إلى العناية بالتراث، ومازالت المراجع والمصادر تحفل بإشارات ومعلومات تومئ وتوضح أسماء الكتب والمكتبات والمتاحف، ومخطوطات التراث العلمي المجيد الحافل بالميادين العلمية والمخترعات والآثار الفكرية النفيسة التي اعتمدت عليها أوربا في عصور نهضتها.

كما يوجد لدى عدد من الأسر والأفراد كَمٌّ هائل من المخطوطات المهملة في خزائن خاصة تحتاج إلى الترميم والمعالجة ووضعها أمام الباحثين للاطلاع عليها، والمؤسف أن البعض مازال يحجبها أو يبيعها لمن لايقدرون قيمتها وماتحويه من معلومات نفيسة. ولقد اهتم الأوربيون بشراء المخطوطات العربية فتسربت آلاف منها، ومازالت هناك مؤسسات تتاجر فيها، ويوجد لديها مجموعات ثمينة من المخطوطات معروضة للبيع بأسعار خيالية في بريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا وروسيا واستانبول والهند وبعض العواصم العربية وغيرها. ومما يدعو للتفاؤل مانراه اليوم من مسح دولي لمراكز المخطوطات الإسلامية، ولمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية جهود محمودة في هذا المجال، فقد قام بوضع قائمة فهارس بالمخطوطات، وبوضع إحصاء جيد وتصنيف للدول التي تحتويها ومعلومات عنها، مما دفع كثيرًا من الباحثين إلى الإعجاب به والإشادة بمكانته لاهتمامه بالتراث، يدل على هذا ماتحويه مكتبته من معارف ومخطوطات.

وبعد، فعلينا أن نحترم تراثنا الذي هو مفخرة لنا، ونحرص عليه كل الحرص بكل مقوماته التاريخية والدينية واللغوية والأدبية، ومن الواجب أن نكتب عنه، ونعايشه، وننقب فيه، ونبحث عنه، ونتناول ذلك كلّه بالدراسة والبحث والتحليل والتحقيق والضبط والدقة وحسن إخراج النصوص على أصول ثابتة ومناهج قويمة. والوفاء لتراثنا والدفاع عنه، ومنع الدخلاء من الولوج إليه وإفساد نصوص كثيرة مما خلفه أسلافنا، والوفاء له من الصفات الأصيلة الكريمة، وقديمًا قال الشاعر العربي:

حلبنا الدهر أشطره ومرّت
بنا عقب الشدائد والرخاءِ
وَجَرَّبنا وَجرَّبَ أوّلُونا
فلاشيء أعز من الوفاءِ

كشف النقاب عن الأسماء والألقاب

من أهم مايتصل بعلوم الحديث النبوي الشريف معرفة ألقاب الرواة ضمن الأسانيد التي قد يُكتفى فيها بذكر ألقاب الرواة دون أسمائهم، ومن هنا يصعب على غير المتقنين معرفة هؤلاء الرجال المعرفة الصحيحة، فيتوقف العمل بأحاديثهم حتى يعرف حالهم من الثقة والضبط والإتقان، لذلك ألف علماء الحديث كتبا في معرفة الأنساب والألقاب، وأخرى لكشف الأسماء المبهمة المشتركة بين العلماء، وفي ذلك يقول الحافظ بن حجر العسقلاني - رحمه الله - : «ومن أنفس ذلك معرفة ألقابهم، لأنها قد تأتي في سياق الأسانيد مجردة من أسمائهم، لايعرفها إلا الطالب الحصيف». وكتاب «كشف النقاب عن الأسماء والألقاب» الذي حققه وعلق عليه محمد رياض المالح، هو من تأليف الإمام الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ، من أوسع العلماء دراية في علم الحديث، والتاريخ، والتراجم في عصره، وقد جاء كتابه «كشف النقاب» من أوسع الكتب مادة وأذخرها علمًا وتفننا في علم الألقاب، يقول المحقق: «إن ميزة كتاب كشف النقاب أن مؤلفه العلامة ابن الجوزي يحاول اثبات سبب اللقب لكل عَلَم وربما أورد ذلك بسنده». وهو ما لم يجده المحقق في الكتب الأخرى التي عالجت موضوع الألقاب. ومما يعلي شأن كتاب ابن الجوزي ويجعل له قيمة أكبر بين هذا النوع من المؤلفات، ذات الصلة بعلم الحديث - كما يقول المحقق - أنه يحوي أسماء لكل علم ولقبه وحادثة تمكن من معرفته مع ذكر من روى عنه..

يقع الكتاب في ١٩٥ صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن مؤسسة علوم القرآن في عجمان بالشارقة، ودار ابن كثير في كل من بيروت ودمشق.

رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم

يتلمس المؤلف د. السيد شاهين الصلة بين الصحوة الفكرية والعقدية وبين الحضارة، وتسود النظرة الفلسفية مايتناوله من قضايا ومشكلات، كما أنه يُعَوِّل على التحليل كمنهج، فهو يحلل العقل، ومراحل تطوره التي يقسمها إلى مرحلة التأثر، ثم التأزم، فبلوغ حد المأساة حين يتأزم فلايجد لأزمته مخرجا.

ويعرض المؤلف في كتابه المجموعات الأكثر أهمية في الفكر الإسلامي التي تمثل تياراته، كما يعرض انتقال هذا الفكر إلى الغرب، وتأثيره في الحضارة الغربية، حتى لُيعد سببًا رئيسًا في بداية النهضة الأوربية. ويطرح المؤلف تساؤلاً يرى أنه لم تظهر له إجابة شافية حتى الآن، وهو: لماذا لم ينتقل الفكر النقدي بالذات إلى الغرب مع انتقال قدر كبير من الفكر الفلسفي والعلوم التطبيقية، عن طريق الترجمة والاحتكاك الثقافي؟

بعد تشخيص الواقع، يطرح المؤلف تصوره لكيفية التقدم الثقافي والحضاري في العالم الإسلامي المعاصر طارحًا خيار «الأصالة الإسلامية أو مواجهة الكارثة» التي لاتزال موضع جدل بين المنادين بالحداثة وأصحاب الأصالة كصفة تشمل الفكر والقيم على السواء، وتتضمن معيار الوسطية الذي يمكن المسلمين من تقويم حضارة العصر وثقافته. ويتعرض المؤلف - في هذا المجال - بالتحليل والنقد لمقولات أصحاب الفلسفة، واليساريين، ودعاة المنطق الوضعي، كما يتناول قضية التعريب الثقافي: أسبابها، صورها، نتائجها، ويناقش محاولات التعريب من المؤسسات، والأفراد، وأجهزة الإعلام، ويشير إلى أن انهيار الشيوعية وانزوائها خارج الحياة الفكرية في المجتمع العربي والإسلامي دفع بعض أتباعها السابقين - المتعطلين فكريا - إلى مهاجمة الأديان والإسلام بالذات لاقتناعهم بأنه كان سببا من أسباب سقوط الفكر الشيوعي وانهياره.

صدر الكتاب في بيروت عن دار المنتخب ١٩٩٤م.

وجوه في زمن الحرب

رواية تسجيلية تناقش انعكاسات الصراع العربي الإسرائيلي على الأمة العربية. وتذهب الكاتبة يمنى الزيبق في معالجتها لموضوع الرواية إلى إفساح مجال واسع للوقائع الحربية المسجلة، وتلك التي ترويها شخوص الرواية، بالإضافة إلى إيراد التحليلات السياسية بمنطلقاتها المتباينة.. هذه الأحداث وتداعياتها تمثل أرضية الرواية. وتوظف الكاتبة تفاصيل الحياة الاجتماعية ورأي الشارع العربي، مع «وجوه في زمن الحرب» لتأكيد التأثير المباشر الذي أحدثته مراحل الصراع في واقع الأمة، ومؤشرات تأثيره على المستقبل، وفي ذلك تقول المؤلفة: «.. إنها رواية تحكي أفراح الأمة وأتراحها في حقبة زمنية (لاحقة)، والأحداث الماضية وإن اندثرت فإنه يبقى في اندثارها - بما تحمل من خفايا وأحداث - ماهو سبب حاضرنا وربما.. مستقبلنا..».

عمدت المؤلفة، لمعالجة موضوع روايتها، التي تشتمل على ١٥ فصلاً، إلى الاستعانة بالعديد من المراجع والكتابات التي تناولت القضية موضوع الرواية من مختلف جوانبها، السياسية والعسكرية.

يقع الكتاب في ٣٥٤ صفحة من القطع المتوسط، وصدرت الطبعة الأولى منه في الرياض ١٤١٤هـ.

موسوعة المعلومات الميسرة

كتاب معلوماتي صدر عن دار المداد للنشر والتوزيع بالرياض، يقدم فيه مؤلفه عبدالرحمن بن علي الدوسري معلومات ثقافية متنوعة.

يقع الكتاب في ١٤٤ صفحة من القطع المتوسط، وقد قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام: القسم الأول بعنوان: «أوليات منوعة»، ويشتمل على نخبة مختارة من الأوليات التي حدثت عبر التاريخ، والقسم الثاني بعنوان: «أقوال متناثرة»، ويضم مجموعة مختارة من الأقوال والحكم لعدد من الحكماء والعلماء والأدباء من شعوب العالم في عصور مختلفة. والقسم الثالث بعنوان: «معلومات وأرقام قياسية»، وفيه جمع المؤلف معلومات في مجالات الحياة المختلفة. أما القسم الرابع الذي جاء بعنوان: «من مكتبة التراث العربي»، فقد اختار المؤلف فيه عددًا من كتب التراث العربي، وعرَّف بها، وبمؤلفيها وعرض محتوياتها بطريقة مختصرة.

مسابقة مجلة الفيصل

١- جوائز المسابقة :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ - ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب - خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج - عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د - خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢- شروط المسابقة :

أ - الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية - وليس نسخة مصورة - للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثيًا أو رباعيًا - إن أمكن - وعنوان المراسلة.

ب - ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة . مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ - أية إجابات تصل بعد ٤٥ يومًا (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د - من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد (٣٢١)

ج١ : من الأحاديث الشريفة التي لعنت المحلّل:

١- مارواه أحمد والترمذي والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلِّل والمحلَّل له، وآكل الربا وموكله».

٢- مارواه أحمد وأبو داود وابن ماجة عن علي رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه والواشمة والمستوشمة للحسن ومانع الصدقة والمحلِّل والمحلَّل له، وكان ينهى عن النوح».

ج٢ : هو الصحابي الجليل صهيب بن سنان بن خالد بن عبد عمرو من ولد النمر بن قاسط. لقب بالرومي لأن الروم سبته صغيرا، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾(البقرة:٢٠٧). قال ابن عباس وجماعة: نزلت في(صهيب الرومي) وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، إن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وماذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «ربح البيع صهيب». وروي عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريش: ياصهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لايكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال:«ربح صهيب، ربح صهيب» مرتين.

ج٣ : قال ابن اسحاق في السيرة النبوية: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها (أي الكعبة) [وذلك قبل البعثة النبوية بخمس سنين]، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن (يعني الحجر الأسود) فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسُمُّوا «لَعَقَة الدم»، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أُمية بن المغيرة - وكان عامئذ أسنَّ قريش كلها - قال: يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا... هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم: «هلمَّ إليَّ بثوب»، فأُتي به، فأخذ الركن - يعني الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا»، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين).

ج٤ : هو الحجاج بن يوسف الثقفي: (٦٦٠-٧١٤م)، وال وخطيب. ولد بالطائف ومات بواسط بالعراق. اشتغل بالتعليم بالطائف، ثم انتقل إلى دمشق وولي الشرطة الحربية لروح بن زنباع نائب الخليفة عبدالملك بن مروان، ثم للخليفة، واشترك معه في حروبه ضد مصعب بن الزبير. ثم بعثه قائدًا للجيش المحارب لعبدالله بن الزبير فهزمه وقتله، فولاه الخليفة الحجاز واليمن واليمامة. ثم استدعاه وولاه العراق المضطرب بفتن الخوارج والشيعة والساخطين، فأخمدها. وأرسل الجيوش التي فتحت بخارى وبلخ والسند. بنى واسط واتخذها عاصمة، وضم إلى

ولايته عُمان وأدخل عدة إصلاحات في نظم النقد والمقاييس والضرائب والزراعة. كان يرى طاعة الخليفة فرضًا دينيًا، فأدى به ذلك - مع كثرة الفتن - إلى القسوة في سياسته، فكرهه كثيرون وشنعوا عليه وألصقوا باسمه القصص الكريهة. كان متعصبًا للعروبة، فقسا على الموالي، وأحل اللغة العربية محل غيرها في الدواوين. ولما كثر الخطأ في قراءة القرآن، عهد إلى نصر بن عاصم بضبطه. وكان فصيحًا خطيبًا قادرًا على الاستيلاء على أفئدة سامعيه. وكان يعتمد على الألفاظ الجزلة الضخمة الرنين، غير المألوفة، والاستشهاد بما ماثلها من الأشعار، وإبراز المقدمات التي تؤدي إلى مايريد من نتائج، والإغراب في هيئته إذا صعد المنبر.

ج٥ : أُدرجت رياضة «القوس والسهم» لأول مرة ضمن الألعاب الأولمبية الحديثة في دورة سانت لويس ١٩٠٤م، ثم في دورة إنفرس ١٩٢٠م.

نتائج مسابقة العدد (٢٢١)

أ - فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها ٥٠٠ ريال سعودي، علوان أحمد عبدالله مهدي، صنعاء - اليمن.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها ٣٥٠ ريالاً سعوديًا، صهيب أحمد حسين، عمان - الأردن.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة وقدرها ١٥٠ ريالاً سعوديًا، انتصار كامل محمد حرزالله، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

ب - فاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عددًا)، كل من:

١ - أحمد محمد عباس يحيى، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية.

٢ - خديجة الحاج محمد ابنحيى، الرباط - المغرب.

٣ - آدم فرج همد، كسلا - السودان.

٤ - غاي جمال، الطارف - الجزائر.

٥ - محمود عيسى أشلق، دمشق - سورية.

ج - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عددا)، كل من:

١ - محمد الأمين عبدالله إدريساي، كسلا - السودان.

٢ - عاتكة سيدي عثمان المريني، الدار البيضاء - المغرب.

٣ - فاطمة رمضان حميدة السيد، الخبر - المملكة العربية السعودية.

٤ - رندة محمد ذيب الأبكم، عمان - الأردن.

٥ - دليلة شقيرين، المسيلة - الجزائر.

٦ - خالد محمد بهاءالدين إمام، بانياس الساحل - سورية.

٧ - محمد أحمد عويس علي، القاهرة - مصر.

٨ - سلوى زياد شما، دمشق - سورية.

٩ - عبدالقادر بكراوي، بوسعادة - الجزائر.

١٠ - يوسف أحمد أحمد البولاقي، بورسعيد - مصر.

د - كما فاز بجائزة إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

١ - محمود يوسف إبراهيم، عمان - الأردن.

٢ - نوف هاشم أحمد حسن، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية.

٣ - عمر بن محمد ساعي، الدار البيضاء - المغرب.

٤ - ثامر بن زيان محمد، المسيلة - الجزائر.

٥ - إبراهيم محمود عبدالسلام محمود، إسكندرية - مصر.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
العنوان: ....

أسئلة مسابقة العدد (٢٢٤)

السؤال الأول:

في سور القرآن الكريم خمسة عشر موضعًا للسجود. اذكر خمسة منها (اسم السورة ورقم الآية فقط).

السؤال الثاني:

ذات السواري، معركة بحرية هزم فيها العرب المسلمون جيش بيزنطة. من كان القائد العربي لتلك المعركة، ومن القائد البيزنطي؟

السؤال الثالث:

الجرجاني، لقب علم على كوكبة من علماء العربية. من منهم صاحب: «العوامل المائة»، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه»، و«الوكالة» في الفقه؟

السؤال الرابع:

الوردة، رمز للجمال والود بين أمم الأرض، لكنها - في فترة من فترات التاريخ - كانت رمزًا لحروب وقعت بين أسرتين شهيرتين في العالم الغربي. أين ومتى كان ذلك؟

السؤال الخامس:

في عهد مَنْ مِنْ ملوك مصر جرت واقعة مرج الصّفر بين المماليك والمغول، والتي انتهت بهزيمة المغول؟

قسيمة مسابقة مجلة الفيصل
العدد (٢٢٤)
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

استراحة العدد

ويأتيك بالأمثال

مادونه شقذ ولا نقذ

أي مادونه شيءٌ يُخاف ويُكره

قال الميداني: لم يزد على هذا، ولعل الشَّقَذَ من قولهم: «أشْقَذَهُ فشَقَذَ» أي طرده فذهب، كأنه قيل: مادونه بعد، والنقذ إتْباع له، وإذا قيل: «مابه شقذ ولانقذ»، فإن ابن الأعرابي قال: مابه حراك، ولعله يجعل الشَّقَذَ من الشقاذ، من قوله:

لقد غضبوا عليَّ وأشْقَذُوني
فصرت كأنني فَرَأٌ مُشَارُ

أي أزعجوني وحرَّكوني، ويجعل النَّقَذ من الإنقاذ، أي لايمكنه إنقاذ شيء من يد العدو.

سبب الأرق

في غرف أحد أكبر فنادق فرنسا، اشتهر بأن معظم نزلائه من رجال الأعمال، عُلِّقَتْ لافتة تقول: إذا لم تتمكنوا من النوم، فلاتبدؤوا بإلقاء اللوم على السرير، بل حاسبوا ضمائركم أولا!

بين أشعب وابنه

ذهب أشعب وابنه إلى إحدى الولائم، وظل أشعب يأكل من الطعام دون أن يشرب مرة واحدة، بينما كان ابنه يشرب كثيرا من الماء، وحين انتهت المأدبة، وفي طريق عودتهما إلى المنزل نظر أشعب إلى ابنه ثم لطمه لطمة شديدة، وقال له: كيف تشرب كل هذا الماء، لو جعلت مكانه طعامًا لكان خيرًا لك!

فنظر إليه ابنه ثم قال: يا أبي إنك ظننت خطأ، فشرب الماء يوسع للطعام ويفسح له المجال، فاشتاط أشعب وصفع ابنه صفعة أشد من الأولى، وقال له: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تخبرني قبل الأكل، لقد أضعت عليّ فرصة كبيرة أيها التعس.

يربطون الحجارة

دخل أعرابي مدينة للمرة الأولى، فهاجمته كلابها وكادت تعقره، فأراد أن يأخذ حجرًا من الأرض ليضربها به كي تبعد عنه، فاستعصى عليه، فقال حانقًا: عجيب حال أهل هذه البلدة يطلقون الكلاب ويربطون الحجارة!

يأمر وينهى

دخل شُريح القاضي على زياد بن أبيه يعوده في مرض موته، فلما خرج سُئل: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى.

فقال مسروق بن الأجدع: إن شريحًا صاحب تعريض فاسألوه عما يعنيه، فسألوه، فقال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن البكاء.

القلم

سئل أحد المفكرين عن القلم فقال: هو أحد اللسانين، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة من معان معقودة بحروف معلومة مؤلفة، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكير، ونتاجها التدبير، تخرس منفردات، وتنطق مزدوجات بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن محدودة، ولاحركات ظاهرة.

صينية النجاح

المقادير: خذ مقدارا من العلم، ومقدارا من التواضع، ومقدارا من الالتزام، ومقدارا من الإخلاص في العمل.

طريقة الطهو: تُمزج هذه المقادير جيدًا بملعقة الإدارة الناجحة، وتُزيَّن بتعاون جميع العاملين، ثم تُعرض على الناس.

من عجائب الخلق

يقوم ذكر أحد أنواع العناكب حين يعتزم الاقتران بأنثاه باصطياد ذبابة داخل شباكه، ليقدمها لأنثاه هدية عرس، ويكون قبولها للهدية بمثابة موافقة على الزواج.

احفظ عينيك

شكا أحدهم إلي حكيم فسادًا يجده في قلبه، فقال الحكيم: هل نظرت إلى شيء فتاقت إليه نفسك؟ قال: نعم. قال: احفظ عينيك فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

قناعة .. وضراعة

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: احتمال الفقر أفضل من احتمال الذل، لأن الصبر على الفقر قناعة، والصبر على الذل ضراعة.

تعلمت

قال أحد الفلاسفة: تعلمت الكرم من البخيل، والاجتهاد من الكسول، والعفة من الفاسق، لكنني لا أقر بفضل هؤلاء المعلمين.

أنواع السرعة

تقول العرب في تفصيل أنواع السرعة:

الحقحقة: سرعة السير

الهقيق: سرعة الطيران
الخطف: سرعة الأخذ
السح: سرعة المطر
الحزم: سرعة القطع
العيث: الإسراع في الفساد
المشق: سرعة الكتابة والطعن والأكل
الإمعان: الإسراع في السير والأمر

خمس وصايا

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خذوا وصايا خمسًا عني: لايرجون عبد إلا ربه، ولايخافن إلا ذنبه، ولايستحي من لايعلم أن يتعلم، ولايستحي إذا سئل عما لايعلم أن يقول: لاأعلم، واعلموا أن منزلة العبد من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهبت الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان.

لا إملاء!

طُلب من الكاتب ج.ك. تشسترتون أن يكتب تعقيبًا على موضوع حرية المرأة، فقال: هذا موضوع حيوي جداً، فقد نهضت ٣٠ مليون امرأة وصحن قائلات: لن نسمح لأحد بعد الآن أن يملي علينا مايريد. ثم مضين لكي يصبحن كاتبات اختزال.

إلى ولدي عمر

قال الشاعر عبدالمنعم الرفاعي:

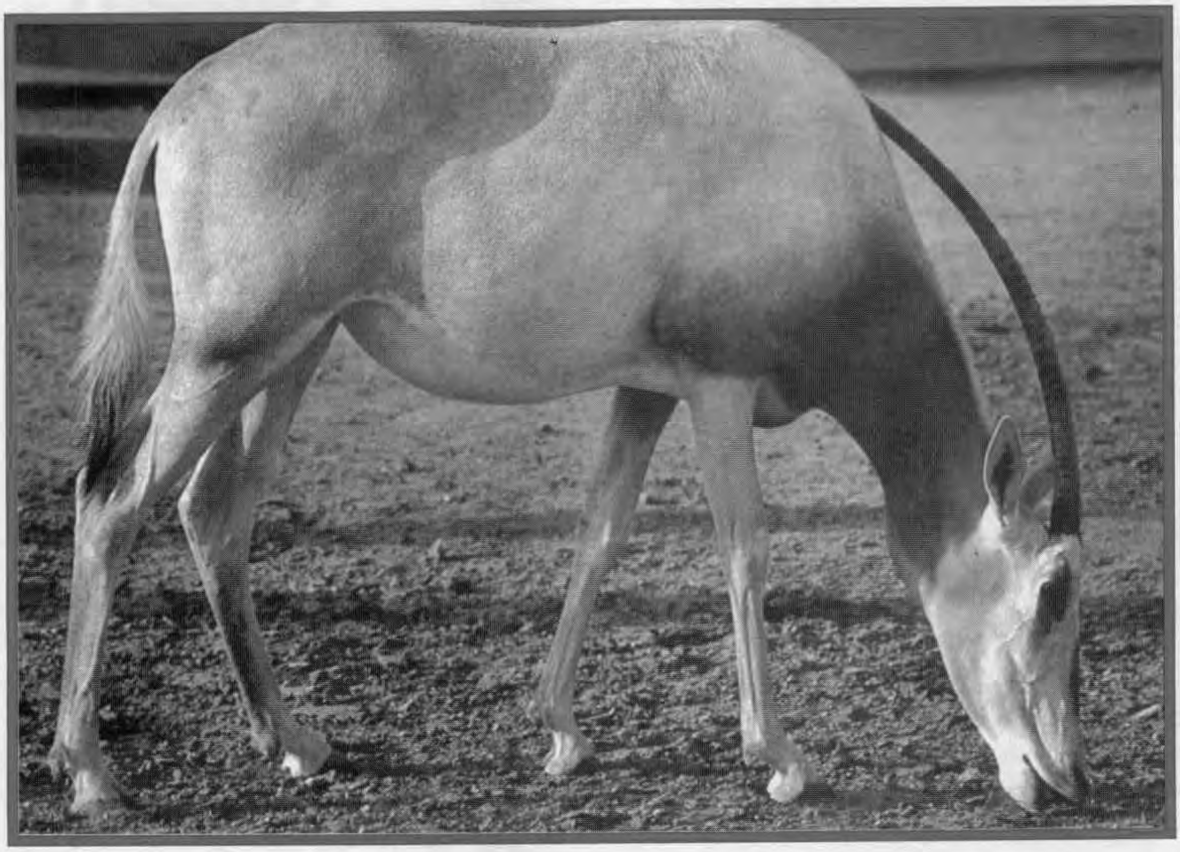
سكَنَ المبيتُ سوى مؤرقة
قد شدَّها لسريرك النظرُ
إن زل عنك غطاؤك انخلعت
عيني وقمت إليك أبتدرُ
أحنو عليك وكل جارحة
تحنو معي والسمع والبصرُ
أصبحت وحدي لايشاركني
خلٌ وأنت الليل والسمرُ

شرف الدنيا والآخرة

روي أن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ مرَّ أثناء حجه ـ مع زوجته ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوفل ـ بجماعة حول رجل يستفتونه فيما أشكل عليهم من المناسك فسأل: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا عبدالله بن عمر، فالتفت إلى زوجته وقال: هذا لعمر أبيك الشرف، هذا والله شرف الدنيا والآخرة.

موعظة

وعظ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً فقال: أوصيك بعدم التكلم إلا بالحق، ولاتذهب بكلامك إلى مالا يعنيك، واعرف عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله. ولاتمشِ مع الفاجر فيعلمك فجوره، ولاتطلعه على سرك، ولاتشاور في أمرك إلا الذين يخشون الله عز وجل.



المها العربي (الوضيحي)، ثروة علينا أن نتكاتف جميعا من أجل الحفاظ عليها، وتنميتها.



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع. وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

قصة قصيرة

«الحصار.. والأجندة»

محمد محمد حافظ صالح

وأنا مستلق على السرير، استمع إلى موسيقى ليلية هادئة، والعينانُ مشرعتان تحدقان في الفراغ بدأت الوجوه تحاصرني، وجوه فقط ليس لها أجساد.

كان الوجه الأول لأمي، رأيته حزينًا، كانت الشفاه مطبقة، والعينان قد اغرورقتا بالدموع، لكن صوتها رنّ في أذني معاتبًا: هل تنسى أم تتناسى؟! تعلم علم اليقين أنه ليس لنا سوى الله ثم أنت، «أحمد» لم يذهب إلى المدرسة منذ أسبوع، تسأل عن السبب.. لم يسدد المصروفات؛ لذا لم يتسلم الكتب والزي المدرسي حتى الآن.

على فكرة.. الذكرى السنوية لوفاة عمك «إبراهيم» كانت يوم الخميس الماضي، نسيتها ولم تحضر، طبعا تضايقوا جداً، حاولت أن أعتذر لزوجة عمك، لكنها قاطعتني بحدّة:

إذا كان الأستاذ قد كبر.. فيجب أن لا يتكبر علينا، ابنتي «فاطمة» ليست بائرة، ست البنات وألف شاب يتمناها، أنا باقية على العيش والملح وصلة الدم واتفاق الرجال، إذا كان ابن عمها غير راغب فيها.. فلا لوم أو عتاب إن زوجتها من أول عريس يطلبها، لأن (من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه، ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه)(١).

أحب أن أعرفك أن «مسعود» ابن خالك نقلناه إلى مستشفى المبرّة منذ عدة أيام، كان يتقيأ دمًا، الأطباء قالوا تليف كبدي ناتج عن بلهارسيا متأخرة، لابد أن تزوره، هذا واجب.

راح وجه أمي يتراجع كابيًا، وبدأ وجه «أمنية» يتقدم عابسًا، قالت في غضب: تصرفك الأخير أحرجني ووضعني في موقف لا أحسد عليه، الذي لاتعرفه أنني أقنعت أبي وأمي بالموافقة على استقبالك في بيتنا بصعوبة، قلت لهم زيارة تعارف، لكنك خذلتني، لم تحضر ولم تفكر حتى في الاعتذار، لو كنت تحبني أو - على الأقل - تحترم مشاعري.. ما كنت وضعتني في مأزق كهذا، هل تعتقد أنني متيّمة بك إلى حد التفريط في كرامتي!.. لا، أنت واهم.

بدأ وجه «أمنية» ينسحب ببطء، ويأخذ مكانه بجوار وجه أمي، بدأ وجه ثالث أعرفه يتقدم، إنه رئيسي في العمل، برأسه الصلعاء وعينيه الضيقتين، وشاربه الهتلري، راح يرغي ويزبد في عصبية: كل يوم لك معنا مشكلة، إما تأخير في الحضور، أو الانصراف من العمل بدون إذن، أو الغياب دون إجازة، أنت موظف مهمل في عملك، أعترف أنني فشلت في تقويم مسارك المعوج، تحقيق.. وحولناك للتحقيق، جزاء.. ووقعنا عليك كل أنواع الجزاء، خصم من مرتبك، وقف ترقيتك، حتى وصل بنا الأمر إلى إنذارك بالفصل من العمل، لقد حيرتنا معك يا أخي.

راح وجهه الهتلري يتقهقرمزمجراً، اقتربت عدة وجوه ترقص وتضحك عاليًا في هيستيريا، إنهم زملائي في العمل، ظلوا يضحكون ويغمزون ويلمزون حتى إن بعضهم سال لعابه على جانبي فمه، بينما كان بعضهم الآخر يخرج لسانه ويأتي بحركات غير مهذبة. بدأت الوجوه تقترب وتتحلّق حولي في دائرة مغلقة، ظلوا يدورون بسرعة جنونية وهم يطلقون الصيحات والضحكات والسباب.

صرخت فيهم: كفى، هل فكّر أحدكم في حل مشكلتي بدلاً من السخرية، النسيان هو مشكلتي، ذاكرتي أصبحت مشوشة، ها أنا ذا اعترف لكم صراحة، لكنني لست رديئًا إلى هذا الحد.

ابتسم الوجه الهتلري في خبث، ثم قال: إذا كان النسيان هو مشكلتك.. فالحل هو «الأجندة» تدوّن فيها كل التواريخ والمواعيد المهمة والحاجيات الضرورية، فإذا استعصى عليك أمر من الأمور رجعت إليها ووجدت الحل ميسوراً، ستقوم (الأجندة) بترتيب حياتك المبعثرة، ستقوم بتنظيم كل شيء بدقة فائقة، احتمال الخطأ غير وارد، يمكنك الاعتماد علّي (الأجندة) بدلاً من ذاكرتك المتهرئة، مارأيك، حل جهنمي، أليس كذلك؟..!

راقتني فكرة (الأجندة) وتساءلت: كيف لم تخطر ببالي من قبل؟ تناولت أجندة قديمة، نفخت ماتراكم عليها من تراب، على الصفحة الأولى.. كتبت اسمي وعنواني، قسمت الأجندة إلى أجزاء مبوّبة، وضعت فهرسًا في المقدمة حتى يصبح البحث سهلاً. في باب

«التزامات عائلية» دونت تاريخ إرسال الحوالة المالية لأمي، موعد زيارة ابن خالتي في المستشفى، ميعاد سفري للبلدة، الذكرى السنوية لوفاة عمي وزوج خالتي.

في باب «الحياة اليومية».. دوّنت أماكن الطعام والملابس وأوراق العمل، حددت الأصناف التي قاربت على النفاد والكميات المطلوبة منها. في باب «التزامات أخرى» حددت مواعيد سداد إيجار غرفتي، فاتورة المياه والكهرباء، قسط (الراديو). توقفت عن الكتابة، لكن الوجه الهتلري نهرني بشدة: كل تحركاتك وسكناتك.. يجب أن تسجلها، لو استطعت أن تدوّن أحلام يقظتك ونومك.. فلا بأس. تناولت القلم ثانية وكتبت: «والآن أطفأت النور وتمددت مفرودًا على السرير».

طويت الأجندة ووضعتها على المخدة.

حين استيقظت.. تمطيت في كسل لذيذ، وقع بصري على الأجندة، تناولتها، فتحتها، توجهت إلى الحمام، راجعت الأشياء المدونة، راعني أن كل شيء في مكانه بالضبط.. معقول، حلقت ذقني، غسلت وجهي وأنا أردد في انتشاء «كله تمام.. كله تمام، من ساعة ما أصحى لحد ماأنام». امتدت يدي أسفل المخدة وأمسكت بالنقود والبطاقة الشخصية ودسستهما في جيبي، ارتاحت الساعة حول معصمي، نظرت في الأجندة.. الجبن والزيتون في النمليّة، الخبز في الكيس، والشاي والسكر والبراد والأكواب على الطبّاخة، أصبح إعداد الفطور والشاي - في خمس دقائق - شيئًا رائعًا. أشبه مايكون بالمعجزة، ارتديت القميص والبنطلون والحذاء في ثلاث دقائق. قرأت آخر سطر في الأجندة: «والآن أطفأت النور وتمددت مفرودًا على السرير».

نظرت إلى السرير فلم أجدني، بحثت عني تحت السرير وداخل الدولاب فلم أجدني، انتابني شعور بالخوف، أحسست بمرارة وغصة في حلقي، فتحت الباب واندفعت مهرولاً في الشارع و«الأجندة» في يدي، تفحّصت وجوه المارة باحثا عني، كادت إحدى السيارات تصدمني.. فانكفأت، سقطت الأجندة من يدي، وتناثرت أوراقها ممزقة في كل اتجاه، أحسست بأيد غليظة ترفعني من تحت الإبط، سألني أحدهم: من أنت؟ شحذت ذاكرتي وحاولت أن أتذكر ذلك الوجه، كان غليظًا أشوه التقاطيع إلا أنه يشبه وجه رئيسي في العمل إلى حد كبير، لكزني بشدة وكرر السؤال: من أنت..؟ ثم عَقّب في حدّة: انطق، هل أنت أخرس..؟ بصعوبة سجلت الكلمات وقذفتها في وجهه: كل شيء مدوّن في الأجندة. التفت إليهم وضرب كفًا بكف، فانفجروا ضاحكين. اقترب ثانية وسألني: ماذا تعمل وإلى أين وجهتك؟ رتبت الكلمات في تأنٍ: موظف.. نعم أنا موظف، بالطبع كنت ذاهبًا إلى المصلحة. انخرطوا ثانية في الضحك واهتزت أجسادهم بشدة.

اقترب الوجه الهتلري ثم بصق على الأرض وقال هازئًا: اليوم الجمعة.. إجازة رسمية يا أستاذ.

بدأت الوجوه تتحلق حولي من جديد وتحاصرني، كانت أصواتهم تعلو وتتداخل في ضجيج وصفير عال مزعج.

حين فتحت عيني، وجدتني مـاأزال ممددًا في السرير، كانت الساعة تقترب من الثالثة والنصف صباحًا، كان الضجيج والصفير المنبعث من (الراديو) عاليًا، فقد انتهى بثّ البرنامج الموسيقي، والراديو بجواري على المخدة. حرّكت مؤشر (الراديو) حتى استقر عند تلاوة قرآن الفجر، مع أذان الفجر.. انتفضت واقفًا، توضأت، صليّت، سبّحت، تناولت المصحف الشريف، وفتحته، رحت أرتّل آياته بصوت مسموع، بدأ شعور بالرضا والطمأنينة يغمرني ويحتويني، رحت أمسح أرجاء غرفتي بنظرة متأنية، كانت أشعة الضوء قد تسللت وغمرت كل شيء، فتحت نافذتي، ملأت صدري - قدر استطاعتي - من النسيم والنور.. فانتشيت، كان يبدو صباحًا جديدًا فريدًا في حياتي.

التعليق

الحصار، ذلك الوضع الذي يوحي - على إطلاقه - بكل ملامح الأزمة المستحكمة، أزمة تمسك بتلابيب الموقف القصصي برمّته، والقصة القصيرة - كما يرى كبار منظّريها - فن الأزمة لأنها تتمحور حول بؤرة متوترة، ويوحي شريطها اللغوي المكثّف وشخصياتها القليلة المضغوطة ومحيطها الزمني المحدود بأجواء الحصار. والأجندة بما تشي به من تحديد صارم للزمن والفعل من شأنها أن تضفي مزيدًا من التوتر.

واختيار الكاتب لموقف تتركز فيه عوامل التأزم وتحدو به إلى ذروة الاختناق، حيث وفّر كل عناصر الانفجار في احتشاد لافت، ثم اتجاهه إلى الانفراج التام جعل القصة قادرة على توليد الانطباع في نفس المتلقي وتوحيد الأثر الذي هو مناط فنية هذا اللون من الكتابة الأدبية.

وفي موازاة التطوّر الحدثيّ القائم على تجمّع الوقائع على مستوى الداخل النفسي والخارج الواقعي، كان التكنيك الفني متمثلاً في الأدوات الجمالية التي استثمرها الكاتب، إذ استخدم تقنية مستعارة من فن السينما وهي «المونتاج»؛ حيث الثبات في المكان والحركة عبر الزمان، فالراوي (بطل القصة) مستلق على السرير وعيناه تحدقان في الفراغ، ومخيلته تطوف عبر الزمن القريب تتداعى إليه الوجوه تحاصره وتضيق عليه الخناق، وجه الأم، وما يوحي به من تداعيات تكثف سمة الحصار وتُحكمُه: زوجة العم إبراهيم وابنة العم وارتباطاته الأخرى بها، ثم وجه أمنية والمأزق الذي وضعها فيه الذي انعكس عليه، ثم رئيسه في العمل بوجهه الهتلري ووجوه الزملاء الساخرين، وهكذا.

أما الأداة الجمالية الثانية فهي تعتمد على المفارقة: النظام الصارم في مقابل الفوضى العارمة: الأجندة بحساباتها الدقيقة وبرامجها الزمنية المحددة لأدق التفاصيل ومايستلزمه ذلك من تصنيف وتبويب، لون آخر من ألوان الحصار الذي يُحدق به ويضيّق عليه الخناق.

وقد نجح الكاتب في استثمار تقنية جديدة عبر هذه المفارقة تجلّت في مسارين:

الأول: الكابوس الذي أطبق عليه نتيجة لهاجس الأجندة، وهذا الكابوس تقاطع مع المفارقة المشار إليها، فإذا كان قد عثر على حل لمشكلة النسيان والفوضى فَقَدْ فَقَدَ شيئًا أهم من ذلك كله هو نفسه التي لم يستطع العثور عليها، وهنا يتبدّى المغزى الذي أراد أن يشير إليه الكاتب؛ فالأزمة ليست كامنة في التفاصيل والأعراض الخارجية، وإنما هي في صلب التكوين النفسي الداخلي وجوهره، وهنا تبدو الحاجة ملحّةً للتغيير الجذري من الداخل، وليس من خلال معالجة الأعراض.

ويتطور الكابوس ليتحول إلى تفجير للمأساة برمّتها من خلال السؤال الذي يطرحه رئيسُهُ في العمل: من أنت وإلى أين أنت ذاهب؟ وتبدو المفارقة المُرّة حين يكتشف أنه ذاهب إلى العمل في يوم الجمعة، بعدها يصحو من نومه وينهمك في قراءة القرآن.

الثاني: الفانتازيا: تقنية اللامعقول، الإتيان بأعمال خارقة للمألوف، متمردة على سياق المنطق والواقع، وإذا كانت لاتعرب عن الواقع المعيش في تجلياته العملية، فإنها تبدو معادلاً فنيًا وجماليًا للحقائق النفسية والإنسانية، من ذلك بحث الشخصية عن نفسها أسفل السرير والاندفاع إلى خارج البيت وما إلى ذلك مما يتقاطع مع (الحلم/ الكابوس) ويعزّز دلالاته، وهذه تقنية جمالية حديثة، تبدو خروجًا على المألوف في بناء القصة التقليدية.

إن أسلوب عين الكاميرا التي تلتقط المشاهد وتكدّسها وفق منهج معين غير منفصل عن السياق السردي، بل إن ثمة تعاضد بينهما؛ فعين الكاميرا التي تعمل على تجميع الصور في بؤرة شعورية وذهنية واحدة من شأنها أن تثري السياق السردي الذي يحتفل بشتى ألوان الصياغات التي قد تقترب من أسلوب تيار الوعي. وهو كشف عن مرحلة ماقبل الكلام حينا، وتتحول إلى حديث نفسي مباشر حينًا آخر؛ بل إن ذلك يبدو كبير الشبه من المونولوج الداخلي حيث يدور حوار يتداعى في سياق السّرد بحرية وعفوية، ولكن دون أن تفقد اللغة تماسكها ومنطقيتها، وتخرج عن إطارها المنظّم. إن الكاتب لينسج الحديث الشخصي محتفظًا بخصائصه الطبيعية من حيث الصياغة والتراكيب في إطار السّرد مرويًا بنبرته الطبيعية وسماته الخاصة، ،وهذا مايسمّى في لغة القصة الفنية وأدبيات النقد القصصي «بالإدراك المتمثّل» من مثل قول الراوي: لكن صوتها رنّ في أذني معاتبًا: هل تنسى أم تتناسى؟! تعلم علم اليقين.. إلخ.

ولكن الإطار السّردي الذي يتوسل بالفعل الماضي ظل هو الأساس في تقديم المادة القصصية، وضمن هذا الإطار تحتشد الوسائل الأخرى من وصف وبوح واستنطاق واعتراف.

ثم تقنية أخرى يوظّفها الكاتب مستفيداً من فن الرواية التي تتعدد فيها زوايا النظر أو مايسمى بالمنظور القصصي؛ إذ تقدم المادة القصصية أو مايسمى بالمتن الحكائي برواية أشخاص متعددين، ولكن هذه التقنية الروائية المعروفة تبدو مختلفة في القصة القصيرة، إذ تتوازى في الرواية، وكل شخصية تقدم الأحداث من وجهة نظرها الخاصة، أما في القصة القصيرة هنا فإنها تتكامل وتتقاطع ولاتتوازى؛ فالكاتب يقدم لنا ماترويه الأم، ثم يستكمل المأزق بما ترويه «أمنية» وتضيفه إلى المشهد السابق مكثّفة من أجواء الأزمة، ثم يقدم حديث رئيس العمل فيستحكم المأزق، وهكذا فإن هذه التقنية تعزز سبل الخلاص من الأزمة بعد أن تكون قد أوصدت الأبواب دون حلها، ولكنها تحمل نقيضها، وهنا يكمن الملمح الدرامي القائم على مايمكن أن يسمى «جدل النقيضين» (الأزمة/الحل)، ولكن الكاتب إذ يصل إلى هذه (النقطة/الذروة) يتصاعد بالحدث إلى أقصى مداه مولّدًا مأزقًا جديدًا يتمثل فنيًا في «الكابوس» فيزداد الأمر تعقيداً، وهنا تنبثق طريق النجاة فجأة بعيداً عن كل المقدمات التي كان يفترض أن تقود إلى (النتيجة/ الحل) ممثلة في تلاوة القرآن الكريم.

وربما كان المأخذ الرئيس على القصة يكمن في طريقة الكاتب في الوصول إلى النهاية؛ لأنها بلا مقدمات ولا إرهاصات، فنحن نجد أنفسنا فجأة أمامها وهي نهاية واضحة الغرض مباشرة الهدف لم تولد من رحم المأزق، أو مايمكن أن يسمى بالعقدة.

ويفترض أن تكون القصة في وحدة متصلة منذ البداية إلى الكلمة الأخيرة التي تفضي إلى وحدة الأثر والانطباع، وكلما كانت النهاية مفتوحة قادرة على الإشعاع كان ذلك مظهراً من مظاهر الثراء في القصة، وقد لاحظنا أن الكاتب أسقط الخاتمة إسقاطًا فجاء الخلاص في قراءة القرآن الكريم، ولكن كان من الممكن تقديم هذه الوصفة جاهزةً دون حاجة إلى تدبيج القصة؛ إذ جاء تحريكه لمؤشر الراديو بعد أن استيقظ من نومه عشوائيًا حيث سمع القرآن الكريم والأذان، وكان يفترض أن يوقظه الأذان من كابوسه فيكون ذلك متصلاً مع سياق السّرد والقص، ثم كان يكفي أن يستمع إلى القرآن الكريم وينصت إليه حتى تنفرج نفسه، غير أن الكاتب أحسن صنعًا حين وازى بين هذا الانفراج الروحي الداخلي والإضاءة الخارجية والانفتاح الحسي ممثلاً في تسلل أشعة الضوء وعبور النسيم عبر النوافذ.

ومهما يكن من أمر فإن مسألة إحكام النهاية بحيث تأتي محصلّة طبيعية يقود إليها سياق القصة منذ كلمة البدء بالغة الأهمية، إذ هناك من يرى أن القصة تنطلق من البداية كالصاروخ باتجاه النهاية لتفجرّ الأثر المرجو.

د. محمد صالح الشنطي

نظرية التطعيم الإيقاعي لاتدعو إلى العامية

البشير بن سلامة: ابن تنباك لم ينعم النظر في كتابي بعناية علمية



قرأت باستغراب الفقرة التي خصني بها الدكتور مرزوق بن تنباك في مقاله حول الفصحى والعاميّة بالعدد ٢١٨ من مجلة «الفيصل» الغراء، التي يقول فيها: «ومنهم من يرى أن تُطَعّم الفصحى بالعامية وتخلط معها، ويَصِفُ الفصحى بأنها عُزِلت عن معظم مجالاَت الحياة قرونا طويلة حتى قلت طواعيّتها للتعبير الحي الدقيق. وخير وسيلة لمدّها بروح الحياة - كما يقول - تطعيمها بإيقاعات اللهجات العامية (انظر نظرية التطعيم الإيقاعي)». ويحيل في تعليقه إليّ غافلا أو متغافلا، لست أدري، عن ذكر عنوان الكتاب وهو: نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى (الدّار التونسيّة للنشر ١٩٨٤م).

ولو أنعم الدكتور النظر في الكتاب لتبين أنني حذّرت من الوقوع في الدّعوات الأيديولوجية. والحال أنّ هذه النظرية العلمية تريد أن تبيّن أن من جملة الأسباب التي جعلت الفصحى باقية على وجه الدهر لاتموت هي قدرتها على استيعاب العاميات في الأقطار العربية عن طريق الإيقاعات. والإيقاعات ليست الألفاظ والجمل، بل هي ترجع إلى مصطلح علمي مضبوط أصبح اليوم يقاس حتى بالآلات. هي المكوّن الموسيقي للغة، أية لغة، ويظهر في الشعر والنثر على حد سواء، ويتناول النبرات وموسيقية الصوت وتنغيمه، وجرسية النص بما فيه من جناس وتجانس وغير ذلك من الدقائق الراجعة إلى هذا المصطلح. وهل يعقل أن تكون هذه النظرية داعية إلى إحلال العامية محل الفصحى وهي تنظُرُ، من هذه الناحية، في مقومات كتابات ابن المقفع وأبي نواس وطه حسين وأبي القاسم الشابي وغيرهم، وهم - حسب علمي - لم يكتبوا كلمة واحدة بالعامية.

أغلب الظن أن الدكتور لم ينعم النظر في الكتاب بما يستحقه من العناية العلمية، ولو فعل ذلك لوجد في صفحة ٩٤ مايلي: «إن كل عبقري أضفى على الجملة العربية نمطا جديدا غيّر به إيقاع صياغته ونظامها فإنه قدر في الحقيقة على إقحام إيقاعات لهجته العامية المحلية في الفصحى، وتطعيم صوغه لها بهذه الإيقاعات من كلامه. ومعنى هذا أنني أدّعي أن أمثال ابن المقفّع والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني والتوحيدي وابن خلدون وأبي نواس وأبي العتاهية والشابي ومحمود المسعدي وغيرهم قد طعّموا شعرهم أو نثرهم بإيقاعات لهجاتهم المحلية بدون أن يشعرو بذلك لقدرة حباهم الله بها؛ لأن اللغ العربية الفصحى بإعجازها وطاقتها الكبرى قادرة على الدّيمومة والاحتفاظ بعبقريته الكامنة في نحوها، مع الارتباط بواقع أهل المتحوّل المتحرك التي تعتبر اللهجة العام جزءا منه يحمل خلاصة الحياة المعيش ويترجم عنها حقيق الترجمة. ولكن تبق الفصحى هي القادرة دائما على السم بذلك الواقع وتلك الحياة وهذا سر من أسرار بقائها».

ثم أقول في صفحة ٩٥: «أريد أن أنبّه مرة أخرى أنني لا أدعو إلى العامية ولا إلى الاستعاضة عن الفصحى بلهجة من اللهجات. وأقول هذا رفعا لكل التباس وردّا على من يتربصون بأعمالنا سواء في تونس أو خارجها ولايناقشوننا في صلب نظرياتنا، وإنما يلبسوننا جبّة خيانة الأمة العربية، أو يرموننا بالإقليمية وهي موضة متداولة ويا للأسف في العالم العربي لما تردى فيه معظم الفكر العربي الطافي على السطح من دركات، وما أصاب الأمة العربية من ضعف في مستوى الأخلاق إلا من رحم ربنا.. ولو علم القوم لأدركوا أن هذه النظرية تسد في الواقع الباب على كل من يدعو إلى العامية لأنها تثبت أن الفصحى قادرة على امتصاص حيوية اللهجات للسموّ بها».

وأخيرا أقول للدكتور: ألا يكفي هذه الأمة تفرقة حتى نبحث عن موضوع آخر هو أدعى إلى توحيدها، بينما أعرف أن فيمن ذكرهم صاحب المقال من كرّسوا أعمارهم لتصبح الفصحى لغة العلم والتفكير العلمي والفلسفة كما كانت من

قبل في عصور ازدهارها لا لغة الأدب والدين فقط. ثم ألا تكون متفقا معي ياحضرة الدكتور على الدعوة إلى تكريس جهودنا كلها وحشد طاقاتنا جميعها لجعل الفصحى سبّاقة إلى صوغ النظريات العلمية، ولابتكار الفلسفات التي عملت عصور انحطاطنا على قتلها، ولإشاعة التفكير العلمي المنبني على التمسك بالعقل كما حثنا على ذلك ديننا كشأن اللغات المهيمنة على العالم الآن. ولكن لنصل إلى هذا ألا يجدر بنا، قبل كل شيء، أن نقوم كلنا بمجهود لجعل الفصحى تستوعب كل مافي اللغات المهيمنة الآن من علوم وفلسفات ونظريات علمية كما فعل أجدادنا قديما في دار الحكمة في بغداد وبيت الحكمة بالقيروان؟ أليس هذا أولى بنا من صرف أوقاتنا في المشاحنات والتلويح بالأيديولوجيات المهلكة والمعارك التي لاطائل وراءها ولايغذّيها كما نرى اليوم إلا أعداؤنا؟

البشير بن سلامة
تونس



حول رسالة الفكر والأدب:

إحياء الحس النقدي يتطلب الإحساس بالحرية والتقدم

طرحت مجلة «الفيصل» في عددها رقم ٢٢١ موضوعا بالغ الأهمية تحت عنوان « أدونيس: وَهْمُ الكونية والتطلع لنوبل». ومما لاشك فيه أن الشاعر أدونيس لايتقدم في صفة المبدعين نحو الشعر الإسلامي مع تصدره الجبهة الشعرية الحديثة إبداعا. فلقد كسر مفاهيم إسلامية عديدة خاصة باتهامه كتاب الله الكريم بأنه انتهك حرمة الشعر والشعراء، واستطاع أن يضل العديد من أبناء الأمة، فيرى الباطل حقا والحق باطلا. وأدونيس أشعاره يحتدم الصراع حولها، وبعضها يحدق في وجوه الأزمة وبصفة خاصة مع المجهول ومع الحياة.

وأتساءل: هل الشاعر الحق، مثل الزمن، عليه أن يتجدد بلغة شعرية مبتكرة بعيدة من روح الإسلام؟ الواجب أن يكون الشاعر المثقف مجسدا بأشعاره قضايا أمته وبخاصة أنه يمتلك طاقات إبداعية. والإبداع مجال بحث دقيق وواسع عند العرب منذ أوائل تاريخهم الحضاري، وهو بحاجة إلى تحسين وتطوير بما يغني اللغة العربية، والعمل الإبداعي لايرتبط بالسن؛ بل ثمة سلوكية ذهنية ونفسية تفرد المبدع بخاصية ذاتية متشعبة الجوانب، مثل احترام الذات، والمسؤولية تجاه الناس في المجتمع، والحساسية تجاه المشكلات، وتمثل القواعد الأخلاقية والجمالية.. إلخ، بالإضافة إلى مجال اللغة العربية. واللغة العربية بخصائصها التي تميزت بها دون سائر اللغات تمثل أرقى مستوى تعبيري، ولهذا اختارها الله عز وجل لتكون لغة كتابه العزيز. وبعض الشعر العربي قديمه وحديثه مازال محصورا في نطاق حدوده، ولايستطيع أن يُعلن عن نفسه شعرا وأدبا عالميا. والتيارات العالمية الأدبية تتحرك بمسميات التقدمية والواقعية والعالمية.. إلخ، وكلها سمات التطلع لنوبل، مع أن الإنسان العربي سليل أمة تاريخية خيِّرة، ولامعنى للوجود من دون لغة جادة وبخاصة في مجال الإبداع. والكلمة والشعر والأدب له عين النقد، وبخاصة أن اللغة العربية لها أسرار تراكيب عديدة في الجمل والمعاني والأفعال.. إلخ.

والعرب عرفوا قيمة الكلمة وتفوقوا في صناعتها وفنونها إلى مدى لم تبلغه حضارة أخرى. لكن مما يؤسف له أن العديد من الشعراء والأدباء سرى فيهم تيار إبداعي غريب عن حضارة الإسلام وتراثه، مع أن اللغة العربية لها حضور فهي حصن الدين. ومواجهة أزمة الكلمة الشعرية أو العمل الأدبي يجب أن تكون نقطة اللقاء العربي؛ لأن الكلمة يتوقف عليها مصير أبناء الأمة تربويا وتعليميا في غمار التغيرات المتسارعة في العالم. والكلمة تصنع الحاضر والمستقبل وتشكل سبقا تقدميا لاستعادة مسارات علمية وتقنية، وبخاصة أن الكون مسخر لمن يعرف نواميسه، والشاذ عن القاعدة يذهب جفاء. ولايمكن للأمة أن تتبوأ مكانة مرموقة في النظام العالمي إلا إذا تمتعت بقاعدة علمية وتقنية متينة. والكلمة في أي مجال شعري أو أدبي أو تعليمي تنمو على أساس نظام تربوي تعليمي متطور يغذي الفرد

بحقائق ومتغيرات عصر جديد هو عصر الثورة التقنية الثالثة والتغيير المتسارع والانفتاح الإعلامي والثقافي العالمي. وأي تقدم يعتمد أساسا على العقل البشري، لأن العقل يمثل طاقة متجددة لاتنضب.

والأدب في صوره كافة نقد للواقع بنشاط تعبيري قولي مثل الخطاب السياسي أو الصحافي أو الجماهيري أو التمثيلي أو الشعري أو المسرحي بما يملك من صفة الجمالية مع الزمن. لكن بعض الشعر مثل شعر أدونيس وقع في مأزق؛ فالدفاع عن الحداثة وهم، والتنازل عن المكسب المعرفي الذي حققته الثقافة العربية أمر صعب، والمهمة الشعرية والأدبية أن تقوّم الوعي بالذات الإسلامية؛ لأن الثقافة الإسلامية صالحة على مستوى الإنسانية كلها زمانا ومكانا. وكل النظريات الشعرية التي تعادي الفكر الإسلامي غير صالحة للانتقال بحُرِّية داخل الأمة؛ لأن للأمة خصوصية ومرجعًا ومنهجًا إسلاميًا. والشعر ثقافة وأحاسيس وتطورات، والمفكر الثقافي العربي يعد أصلاً نتاجا لثقافة الأمة بحيث يُحَسِّن النسيج الثقافي. لكن أدونيس وبعض أشعاره في كتابه «الشعر والقصيدة» ينطلق أحيانا إلى كل ما لم يفكر فيه كما لو أن القصيدة هي التي تكتب نفسها. فهل الشعر في نفس أدونيس سر لم يُعرف بعد؟ وبعض قصائده تتحرك أمام مذهبية (أيديولوجية) جديدة من نوع خاص، بشعور ليبرالي أو انفتاحي غريب عن فكر الأمة. فهل الشعر حب وحرية وحياة دون استخدام الكلمة أو الجهل بها؟ وهناك شعراء لايعرفون البداية إلا من نهايتهم، وهناك آخرون لايبدؤون لكي يمكن القول عنهم إنهم ينتهون. وأدونيس ينظر لمرحلة الشيخوخة على أنها مرحلة طفولة ثانية أو تفرض على النفس نوعا من الحضور الطفولي، وحياته كلها سهر، وفي الليل يسهر على النهار وفي النهار يسهر على الحياة. ولقد استطاع أدونيس أن يثير العديد من القضايا بما يجعل آراءه وأشعاره موضعا للتأييد أو المعارضة، وتحوَّل في نظر بعضهم إلى شاعر يتحرك بالحداثة مع أنها محفوفة بالمخاطر والمحاذير.

ومن الصعب أن نعرض لكل القضايا التي يثيرها أدونيس، فمفتاح شخصيته في النرجسية التي تكرس الأنانية والاستعلاء، وتمجيد الذات والغطرسة، والادعاء بلا حدود، وبخاصة أن مايكتبه أدونيس قد يرجع إلى أوهام في عقله أو متاهات في وجدانه أو أغراض له شخصية بحتة.

وأدونيس يذكّرنا بلويس عوض ونزار قباني. فكم من مقالات نشرها لويس عوض عن أبي العلاء المعري، وكانت تحت عنوان «على هامش الغفران»، والدواوين الشعرية لأدونيس تمثل ظاهرة خطيرة مثلما يفعل نزار قباني، والمتابع لرحلة نزار الشعرية يشهد أنه بعد حرب ١٩٦٧م لم يُعرف عنه أنه شاعر هجاء، لكنه فضل أن يهدهد بأشعاره غرائز المرأة بأسلوب السهل الممتنع. وظل وراء المرأة، حتى دخل غرفة نومها، يكشف عوراتها، ويعبث بعطورها، ويقلب في أسرارها، محاولاً رسم صورة مزيفة للعاشق العصري.

ونالت تلك الأشعار اهتماما من المراهقين، وغاب العقل العربي. كما أن شعر نزار السياسي - مثلما فعل أدونيس - يتسم بالضعف، ويفتقد البناء الفني القوي. إنه شعر يدمّر روح الانسان العربي وقواه. وأدونيس - مع شلالات أمطار الدعاية من دعاة العلمانية العربية - لم يستطع أن يقدم لنا شعرًا خاصًا بالأمة يعبر عن آمالها وآلامها، كما كان شوقي وحافظ والجواهري والبياتي، والشهرة أفقدت أدونيس توازنه وتحول من النقيض إلى النقيض، مثلما صنع نزار في قصيدته التي نشرت في جريدة «الحياة» اللندنية بعنوان «متى يعلنون وفاة العرب؟» وبها بيت شعر رخيص قال فيه:

رأيت العروبة معروضة في مزاد الأثاث القديم
ولكنني مارأيت العرب

وأتساءل عبر مجلة (الفيصل): هل مأساة أدونيس أو نزار وحصادهما الشعري يتفق مع روح العلم والقيم الإنسانية وهم يغالطون في آرائهم بفكر عقائدي مغلق غريب عن روح الإسلام؟ الإسلام يدعو أبناء الأمة دائما لتشغيل العقل بعيدا من الوهم والخلط في العديد من الموضوعات؛ فكيف نجعل الحداثة قوة خارقة داخل نسيج الأمة لتحقيق الوعي بعيدا من الصور الزائفة؟ إن أي معرفة مرتبطة بعالمين: عالم يتضمن الحقيقة، وعالم يحتوي الخطأ. والحداثة لن تبني نفسها إلا بتواصل مع موروث الأمة وبرؤية تاريخية؛ فالأمة ليست بحاجة إلى وجوه علمانية اختزالية كما ينشد الغرب، وإنما بحاجة إلى المعرفة والنقد المتجدد للواقع السائد في نظم المعرفة والقيم والفعل والسلوك.

وإحياء الحس النقدي معناه إحياء الحس

بالحرية والتغيير والتقدم والحوار المستمر، بهدف رفع قيمة العمل وتحقيق التقدم والإبداع.

والنقد الشعري هو الجهد العقلي والعلمي لارتباط الإنسان بعالمه ومجتمعه، وهو جهد يوفق بين جوانب الحياة الاجتماعية وأصول الأشياء والظواهر وجذورها. والخيارات المطروحة على الأمة تتمثل في عدم الاختباء؛ وإنما التصدي لكل معوّق لروح الإسلام وتطوره وتقدمه نحو إعلاء المثل العليا، وبخاصة أن للشعر والأدب مبادئ وقيما. والشعر الجاد في مُثله وأخلاقياته يمثل عنصراً تعبيريًا مفيداً نحو وعي أبناء الأمة بالتحديات التي تواجههم. فهل نعي الدرس.

يحيى السيد النجار
دمياط ـ مصر

ليت الأطباء يقرؤون هذا الموضوع بتدبر!



في العدد ٢٢١ شد انتباهي كثيراً موضوع «التشقيف الطبي ليس للأطباء فقط»، فقرأته أكثر من مرة محاولاً الاستفادة من النقاط الحساسة التي أثارها محمد كرزون ويوسف المصري، وناقشها بموضوعية وفكر واسع كل من الدكتور سعيد الحديدي والدكتور نادر نورالدين والدكتور نزار الباش المحاضرين بجامعة حلب السورية، حيث تفضلوا، مشكورين، بكشف النقاب عن حقائق مهمة في ميدان الطب، كلنا بحاجة إلى الإلمام بها والعمل بمقتضاها في عصرنا هذا.

وتمنيت في سري ـ وأنا أقرأ ـ أن يقرأه معي أطباؤنا هنا في غرب السودان الذين ترى الكثيرين منهم ـ ولا أقول كلهم للإنصاف ـ تغيب عنهم هذه الحقائق المشار إليها. إن بعض الأطباء هنا يتخذون ـ وهم يتعاملون مع الناس ـ مواقف بعيدة كل البعد من المفاهيم السامية

للطب متنكرين للعلاقة الطيبة التي يجب أن تكون بينهم وبين المرضى.

ولعل نشر مثل هذه الموضوعات التثقيفية المهمة يساعد على بث الوعي أكثر بين الأطباء، ويكرس احترامهم لأخلاقيات المهنة وأصول التعامل الإنساني الرحيم مع مرضاهم من أجل إسعاد الناس ورفع المعاناة عنهم بسبب الأمراض وسوء معاملة بعض الأطباء. والله الموفق.

الهادي سراج بوش
الفاشر ـ السودان

المحرر:

لم نتمكن من نشر الجانب الشخصي في تعقيبك، ولعل مانشرناه في هذه المساحة محقق للغرض الذي من أجله كتبت هذا التعليق، مع دعواتنا لمريضك بالشفاء العاجل.

متى نستوعب الدرس؟



نشرت «الفيصل» في العدد ٢٢٢ مقالاً متميزاً للدكتور عبدالقادر طاش بعنوان «ثقافتنا بين الأصالة والتغريب»، وفي رأيي أن موقف أمتنا في هذا العصر من قضية الأصالة والتغريب يبدو مشابهًا لموقف أجدادنا في القرن الثالث الهجري حين بدأ التلاقح الحضاري والتأثير والتأثر عبر حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية، ولكن أجدادنا كانوا في موقع أفضل من موقفنا، فقد كانوا حضارة جديدة منتصرة تمتلك حرية الاصطفاء والانتقاء، في جو إسلامي يسوده العلم ويحكمه شرع الله، لا انفصال فيه بين الدين والدولة، أما نحن فيبدو

الموقف صعبًا؛ حيث الانـهزام والتواكل والأميّة والتبعيـة والاستلاب الثقـافي ـ الحضـاري ـ والفصل بين الـدين والدولة تقليدًا لـ «علمـانية» الغـرب التي جـرّت علينا الويلات وعطلت أحكام الشريعة الإسلامية.

ويقف المسلمـون اليوم في موقف ضـعف حضاري يتحملون جزءًا كبيرًا من مسؤوليته؛ لأنهم لم يستوعبوا دروس التاريخ، ولم يَقْتَفوا سِيَرَ الأجداد في تحكيم العقل والاستناد إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

إنها معركة الحضارة ـ الثقافة (القيم)، بعد أن خسـرنا معـارك أخرى في السيـاسـة والاقتصاد... إلخ. والجميع يعلم أنه لاينقصنا المال، ولاتنقصنا الإمكانات البشرية لكسب المعركة الثقافية في مواجهة ثقافة الغرب، ولكن ماينقصنا هو يقظة الضمير وتحكيم المنطق عبر التوجيه النبوي: «الحكمة ضالة المؤمن».

تُرَى، هل فكرّ المسؤولون عن أجهـزة التلفزة العربية في «الحكمة»التي من أجلها يصدر لنا الغرب هذه البرامج والأفلام بأثمان بخسة؟! وهل فكروا في مستقبل الثقافة؟ وهل فكروا في «الحكمة» التي من أجلها يعرض لنا الغرب هذا السيل من الأفلام والمسلسلات حيث قيم الغرب وثقافته؟ وأي ثقافة؟ العنف والجنس والحب! حقًا إنه لشيء مخجل أن نرى العـربي يعـرف عن واشنطن وباريس، ونجوم الأفلام «الهوليودية» أكثر مما يعرف عن عمر بن عبدالعزيز وابن تيمية وابن سينا والفارابي وابن خلدون! هذا غيض من فيض سيدمرنا ويغمرنا ويغرقنا بدعاوى الإنسانية والثقافة والتقدم والحرية والحداثة، والقائمة تطول. كثيرة هي مفاتيح التقدم التي أهدرناها وأضعناها برعونة، فهل حان الوقت كي نستوعب الدرس؟ أتمنى ذلك وأرجوه، وأدعو الله أن يُعيد للأمة رشدها.

محمود بن تركي الداؤد
إدلب ـ سورية

أصل «حساب الجمل» إضافة وإيضاح



اطلعت على ماجاء في باب «مناقشات وتعليقات» في العدد ٢٢٢ حول سؤال من أحد القرّاء يسأل فيه عن «حساب الجمل» وأصله وعلاقة ذلك بالدين. وقرأت ماسطّره يراع الأستاذ عاصم محمد بهجة البيطار الذي لخص فيه الإجابة عن سؤال القارئ. وقد وقع في يدي مجموعة من رسائل الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني بتحقيق مجاهد بن حسن المطحني؛ ومن ضمنها رسالة تتعلق بالأعداد للحروف، وقد جاء فيها قوله رحمه الله: «هذه الأحرف التي جعلها الناس أسماء لأعداد معينة؛ فالألف واحد، والباء للاثنين... هل لها أصل لغة أو

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كُتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١ـ أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢ـ ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣ـ حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤ـ أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥ـ الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

شرعًا؟ أو لا أصل لها؟ فإنه قد لهج الناس بها، واعتمدها الشعراء في تاريخ ولادة أو وفاة أو نحوهما.. فأقول: الذي في القاموس ما لفظه: «أبجد إلى قرشت وكلمن رئيسهم: ملوك مَدْيَنَ، وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسماء ملوك هلكوا يوم الظلة» ـ قلت: والذي في القاموس: «على عدد حروف أسمائهم» وجاء في الحاشية مانصه: «هذه رواية حول أصل الخط العربي وهي ضعيفة لاتثبت بالنظر» أ.هـ. ثم قال الصنعاني رحمه الله ناقلاً عن القاموس: «فقالت ابنة كلمن:

كلمن هدّم ركني
هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الـ
ـحتف تارًا وسط الظلة
جُعلت نارًا عليهم
دارهم كالمضمحلة»

«فهذا أصل هذه الكلمات لغة، وفيه دلالة أن من جعل حروفها أعدادًا ليس من وضع اللغة، وإنما هو أمر اصطلاحي، ويدل عليه اختلاف أهل الغرب وأهل الشرق في ذلك، فإن السين المهملة ثلاثمائة عند الأولين وستون عند الآخرين، والصاد أي المهملة ستون عند أهل المغرب وتسعون عند أهل المشرق كما ذكره عنهم الحافظ ابن حجر، وإذا كان أمرًا عرفيًا فالأمر فيه سهل. وأما أهل اللغة العربية فمعلوم أنهم لايعرفون ذلك، ومن الآثار مايشعر بأنه عُرْفٌ لليهود».

ثم ساق الصنعاني رحمه الله أثرًا أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير»، ومن أراد الاستزادة من الآثار فليرجع إلى كتب التفسير عند الحديث عن الحروف المقطعة كتفسير الطبري وابن كثير والشوكاني رحمهم الله. ثم قال الإمام الصنعاني بعد ذلك: «فهذا دليل أن ذلك كان من عرف اليهود واصطلاحهم. ومن المعلوم قطعًا أنه لم يكن من لغة العرب... فما هو إلا من علم اليهود ومن أوضاع أسحارهم، وقد ثبت عن ابن عباس النهي عن عدِّ أبي جاد والإشارة إلى أن ذلك من السحر. وأما ما يفعل الشعراء من التأريخ بذلك العدد فلابأس به، وغايته أنهم يختارون كلمة بذلك العدد فيها حال يطابق مافعلوه له» أ.هـ.

وقد نقل المحقق عن «مجموعة الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مانصه: «وقد تنازع الناس في أبجد هوز حطي، فقالت طائفة هي أسماء قوم، قيل: أسماء ملوك مدين أو أسماء قوم كانوا ملوكًا جبابرة، وقيل: هي أسماء الستة الأيام التي خلق الله فيها الدنيا. والأول اختيار الطبري، وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد، مثل أبي عاد وهوّاز مثل روّاد وجوّاد، وأنها لم تعرب لعدم العقد والتركيب، والصواب أن هذه ليست أسماء لمسميات وإنما ألّفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم، ولفظها: أبجد هوز حطي، ليس لفظها أبو جاد هوّاز...». ثم قال بعد ذلك رحمه اللّه: «والمقصود هنا أن العلم لابد فيه من نقل مُصدَّق ونظر محقق، وأما النقول الضعيفة لاسيما المكذوبة فلايعتمد عليها، وكذلك النظريات الفاسدة والعقليات الجهلية الباطلة لايُحتج بها» أ.هـ.

هذا ما أردت التنبيه عليه، والإشارة إليه، والله من وراء القصد. وعذرًا عن الإطالة فالكلام نفيس، وحبًا في إفادة القارئ وبيان الحق كان هذا التعليق، والحمد لله أولاً وآخرًا.

عبدالعزيز بن محمد الثبيتي
الدمام

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ ـ ٤٦٥٣٠٢٧ ـ
ـ ٤٦٤٧٨٨٤
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ٠١٤٠ ـ ٠٢٥٨ رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلسا ـ الإمارات ٧دراهم ـ قطر ٧ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلسًا ـ عُمان ٧٥٠بيسة ـ الأردن ٥٠٠فلس ـ اليمن ٢٥ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٣ جنيهات ـ المغرب ٦دراهم ـ تونس ٦٠٠مليم ـ الجزائر ١٠دنانير ـ العراق ٤٠٠فلس ـ سورية ٢٠ليرة ـ ليبيا ٨٠٠درهم ـ موريتانيا ١٠٠أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠شلن ـ جيبوتي ١٥٠فرنكًا ـ لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

ردود خاصة

الأخ خالد إبراهيم الشمسان ـ المذنب:
ملاحظاتك واقتراحاتك الخاصة بـ «الطريق إلى الله» نقلناها للزميل محرر الباب ليأخذها في الحسبان. أما الفتاوى فسوف ندرس الاقتراح إن شاء الله.

الأخت إيمان حمود الثقفي ـ الطائف:
رسالتك أحيلت إلى قسم الاشتراكات، والأعداد الناقصة التي لم تصلك خلال فترة الاشتراك ستصلك في أسرع وقت، وسيتم التحقق من سبب عدم وصول تلك الأعداد، مع رجاء إحاطتنا بأي ملاحظة مماثلة مستقبلاً.

الأخت نورة كمّون، صفاقس ـ تونس:
تحياتك إلى الأستاذ الدكتور حسن ظاظا نقلناها إليه، وهو يشكرك على مشاعرك، والأعداد المطلوبة في الطريق إليك.

الأخت الزهرة تامن، سطيف ـ الجزائر:
ليست لدينا في الوقت الحاضر معلومات عن الجمعيات والمجلات التي سألت عنها، وفي حالة توافرها في وقت لاحق سوف نزودك بها.

الأخ عصام حميد شمسان، الحديدة ـ اليمن:
شكرا على مشاعرك الكريمة تجاه «الفيصل» والعاملين فيها.

الأخ وليد بلال، الحسكة ـ سورية:
نرجو تحديد مجال الدراسة بالنسبة للمراكز التي تسأل عنها، لأنها كثيرة، ومجالات الدراسة فيها متسعة، وفي ضوء تحديدك للمجالات المقصودة يمكننا مساعدتك إن شاء الله.

الأخ قلاتي بشير، سطيف ـ الجزائر:
استفساراتك المتعلقة بمؤلفات وحيد الدين خان سوف يجيبك عنها قسم خدمات المعلومات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بعد أن أحلنا رسالتك إليه، أما عنوان نجله ظفر الإسلام خان فهو غير متوافر لدينا.

الأخ غلام حميد، مدينة بني ملال ـ المغرب:
نرحب بأي إسهامات تحريرية ترغب في المشاركة بها في مجلتك، ونفضل أن ترسل لنا نماذج من أعمالك وإنتاجك الفكري للاطلاع عليه قبل الرد على ماذكرته في رسالتك.

الأخ بياز عبدالرزاق، الجلفة ـ الجزائر:
المجلدات تباع مجموعة كاملة، ويصعب بيعها مجزأة، لأنها ستكون ناقصة، وللرد على استفسارك سوف يزودك قسم التوزيع بالمجلة بإيضاحات حول تلك المجلدات.

الأخت ليلى محمود البيروتي، دمشق ـ سورية:
يمكنك مراسلة وكالة الأهرام للتوزيع على عنوانها: شارع الجلاء ـ القاهرة ـ مصر، للحصول على نسخة من المجلة التي سألت عنها، فالعدد المطلوب غير موجود لدينا.

الأخ رفيق عبد الهادي محمد، سطات ـ المغرب:
وصلتنا ملاحظتك الخاصة بجائزتك التي فزت بها في مسابقة العدد، وقد أبلغناها

بين القارئ والقارئ

ـ لقد طلب القارئ الأخ عبدالله الردادي من المدينة المنورة، في باب «ردود خاصة» في العدد ٢١٩ ص ١٤٤، عنوان مجلة «المشكاة». وخدمة لقراء المجلة ولتعميم الفائدة، فإن عنوان هذه المجلة المتخصصة في شؤون الأدب الإسلامي هو عنوان رئيس تحريرها وصاحبها وهو: د. حسن الأمراني، وجدة ـ ص.ب ٢٣٨ ـ المملكة المغربية.

القارئ: إبراهيم نويري
بلدة بو خضرة ١٢٣١٠
ص.ب ٦٢ تبسة ـ الجزائر

ـ أمتلك بعض الأعداد القديمة من مجلة «الفيصل»، وأرغب في بيعها لمن يرغب في الحصول عليها، وأرقام الأعداد على النحو التالي: من العدد الأول حتى العدد ٦١ (عدا الأعداد: ١٤ و ٥١ و ٥٤و ٥٩) وكذلك العددان (٦٨ و ٧٧) (المجموع:٥٩عددا). مع العلم أن هذه الأعداد في حالة جيدة.

محمد ترسن محمد شريف تركستاني
ص.ب ١٩٢٥ الطائف
هاتف ٧٤٦٢٦١٤ ـ ٠٢

ـ لدي أعداد زائدة على حاجتي من مجلة «الفيصل»، وهي من العدد ١٦٢ إلى العدد ١٩٢، وأنا مستعد لإرسالها هدية لمن يطلبها شريطة تحمله تكاليف البريد التي تعادل قيمتها في بلد الطالب.

محمد أحمد حجاج
ص.ب ٧٣ رمز بريدي ٣١٩٥١
المحلة الكبرى ـ مصر

للقسم المختص للاهتمام بها.

الأخ محاسن محمودي، اللاذقية - سورية:

شكرا على اهتمامك وتعليقك على مانشر في «مناقشات وتعليقات» لأحد الأعداد السابقة، وصورة إحدى صفحات الديوان المخطوط التي أرسلتها سنفيد منها إن شاء الله.

الأخ فيصل محمد السيد علي، سوهاج - مصر:

المبلغ الموضح في (الفاتورة) يمثل المبلغ النقدي المطلوب سداده.

الأخوين: محيي الدين بوعونية، حمام سوسة - تونس، يحيى عبدالجليل الحاج، الخرطوم - السودان:

الأسئلة التي بعثتم بها تم عرضها على الشيخ صالح بن سعد اللحيدان، وسيجيب عنها في «طريق الهدى» في أحد الأعداد المقبلة إن شاء الله

الأخ مبروك عطية، سطيف - الجزائر:

آراؤك بشأن الإخراج الحالي للمجلة الذي ظهر على صفحاتها منذ السنة الماضية نعتز بها ونقدرها، أما الأبواب التي أشرت إليها فقد اختفت كمسميات فقط (مدينة وتاريخ ومن متاحف العالم وفي بلاد الله... إلخ) ولكنها باقية كموضوعات ومواد صحافية نحرص قدر الإمكان على تنويعها، فالمهم هو المضمون، أما التبويب فهو مسألة شكلية لا أكثر. أليس كذلك؟

الأخت ليندة شارف خوجة، باتنة - الجزائر، الأخ شفيق البشير غربال، صفاقس - تونس:

المطبوعات التي طلبتموها سوف ترسل لكم في أقرب فرصة.

الأخ حمدي محمود الحنفي، المحلة الكبرى - مصر:

الموضوع الذي أشرت إليه لايتناول أمراض الجهاز الهضمي، فهو يتناول عادات الأكل في رمضان والمأكولات التي يُنصح بأخذها أو تجنبها حرصا على صحة الصائم، وعبارة «الجهاز الهضمي - أمراض ٦٦٦» هو تعبير اصطلاحي استخدم في الكشاف للدلالة على الموضوع العام للمقال والرقم يخص التسلسل في الكشاف. عموما أرسلنا لك العدد الذي يتضمن هذا المقال تلبية لرغبتك.

عناوين

الأخ عبدالرحمن صالح المرشد، بريدة - القصيم:

عنوان دار رياض الريّس في لندن هو:

RIAD EL- RAYYES BOOKS
56 KNIGHTSBRIDGE
LONDON SW1X 7NJ
TEL: 071 - 245 1905 - FAX: 071- 235 9305

أما عنوانها في بيروت فهو:
الصنائع - بناية الأونيون
ص.ب ٥٧٩٦ - ١١٣
بيروت - لبنان
هاتف: ٨٦٣٥٧٥ ، ٣٧١٤٦٠، ٣٥٢٣٨٦
فاكس: ٥١٥٨٤٥ - ٠٩ - (٣٥٧)

الأخ منتصر إبراهيم المصري - الرياض:

يمكنك مراسلة الأستاذين أحمد رجب ومحمود السعدني على عنوان جريدة «أخبار اليوم»: شارع الصحافة - القاهرة - مصر

الأخ تركي عبدالله المحيا، صنعاء - اليمن:

مجلة «العلوم والتقنية» تصدر عن مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بالرياض، لا عن جامعة الملك عبدالعزيز في جدة، وعنوانها:
مجلة (العلوم والتقنية)
ص.ب ٦٠٨٦ الرياض ١١٤٤٢
المملكة العربية السعودية

- أرغب في الحصول على كتب في البلاغة (الأدب العربي)، لعلها تكون سببًا في إخراجي من العقدة التي تربط لساني وتعوق السير المنتظم للكلمات التي أنطق بها، كما أرجو أن يجدد ذلك ثقتي بمقدرتي على مواصلة مشوار التدريس، وسيكون لمن يقدم لي هذه الخدمة أعظم الأجر والثواب من المولى العلي القدير إن شاء الله.

راضية خوشية
المعهد التكنولوجي الجهوي
طريق سطيف - بجاية - الجزائر

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفا من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.

على موعد

عن التاريخ والمستقبل



د. حلمي محمد القاعود

عندما استتب الأمر لمصطفى كمال «أتاتورك»، وأسقط الخلافة، اتخذ من فوره خطوة خطيرة بإلغاء «اللغة العثمانية» التي كانت تضم ثروة معجمية عربية هائلة، بالإضافة إلى ألفاظ فارسية كثيرة، ثم ألغى الحرف «العربي» الذي كانت تكتب به اللغة العثمانية، وأحلّ مكانه الحرف اللاتيني، وجعل التركية الحديثة في معظمها ذات جذر أوربي (فرنسي - إنجليزي - ألماني، على وجه الخصوص)، وصارت اللغة الجديدة الهجين تكتب من اليسار إلى اليمين. وتصوّر أتاتورك - أو صُوِّر له - أن اللغة الجديدة مفتاح التقدم والانطلاق إلى مصاف الدول الكبرى، وبخاصة بعد أن هجر الإسلام، و«عَلْمن» الدولة وانتمى عمليا إلى الغرب الأوربي.

قوبلت خطوة «أتاتورك» برفض مكتوم، فقد كان الرعب والخوف يسيطران على المسلمين الأتراك، بعد أن حُرموا من التعبير عن هويتهم، حتى في اللباس والمظهر، حيث فرضت عليهم القبعة بدلاً من الطربوش، وصارت المشانق في ميادين المدن والقرى كالأراجيح، على حدّ تعبير كاتب تركي مسلم، ولكن ذلك لم يمنع من المعارضة الساخرة أحيانا، فقد قال شاعر تركيا الكبير «عبدالحق حامد»:

«لقد أضافوا إلى اسمي كلمة «إت IT» في أواخر حياتي».

وجه السخرية التي أرادها «عبدالحق حامد» يظهر في أن كلمة «حامد» تكتب باللاتينية هكذا HAMIT، ويعني المقطع IT في التركية «الكلب»!.

صارت اللغة العثمانية بعد سبعين عامًا مجهولة للأجيال الجديدة من الأتراك.

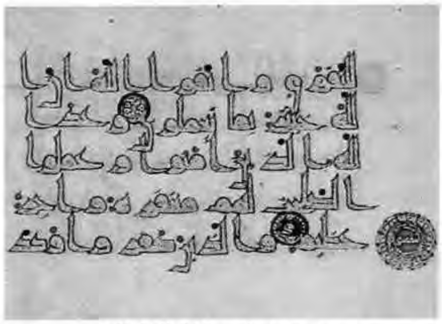
كانت منبعا من منابع الإسلام والثقافة الإسلامية فضلاً عن كونها لغة القرآن الكريم، وسجلاً أمجاد الفاتحين من آل عثمان.. ولكن الجيل الجديد لم يعد على صلة بها ولا بتراثها.

وقد حاول بعضهم في بلادنا العربية أن يقوم بالدور ذاته مع اللغة العربية، ولكن بوسائل مرحلية أو مقنّعة من قبيل الدعوة إلى الكتابة باللاتينية، أو استخدام العامية في التعبير الأدبي والإعلامي، أو إلغاء الإعراب.. إلخ، وكان حظ هؤلاء هو الخيبة والخسران.

بيد أن أعداء اللغة، أو أعداء الدين الإسلامي تحديدًا، لايكفّون عن المحاولة داخل الوطن العربي وخارجه، وكان أحدث تلك المحاولات نجاحهم في بعض جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية التي استقلت حديثًا عن الاتحاد السوفياتي المنهار، في إلغاء الحروف العربية، واستخدام الحروف اللاتينية. وقد مرّ الأمر على المسلمين بهدوء شديد، ولم يثر انتباه أحد. إن هذه الجمهوريات الضعيفة اقتصاديا وسياسيا، لاتبدي مقاومة تُذكر تجاه الاجتياح الفكري والثقافي الذي يأتي من خارج الحدود!

ولا أدري مَنْ أُطالب بتدارك هذه المأساة التي تعني نفي الآثار العربية في الفكر والثقافة والتعليم هناك، فضلاً عن نفي الإسلام، وبخاصة إذا عرفنا أن المنطقة تعرضت على مدى سبعين عامًا لتغيير الهويّة الإسلامية وقطع الصلة بها تماما!

إن خطوات من قبيل افتتاح مراكز إسلامية ومدارس عربية هناك، واستقدام طلاب من تلك البلاد للدراسة في الجامعات العربية؛ سيكون لها تأثير فعّال في مواجهة الاجتياح الفكري والثقافي الغريب، فضلا عن تكوين الطاقات المؤهلة لحماية الإسلام، واللغة العربية، في هذه الجمهوريات البائسة! والله المستعان.



مصحف شريف كتب بالخط الكوفي المجوّد



قطعة نقدية ضمن ما عرضه المركز عن النقود الإسلامية في السويد



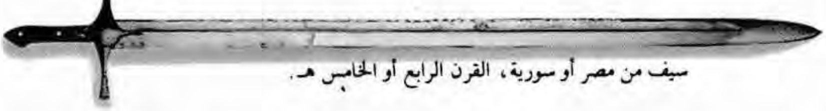
اسطرلاب يرجع تاريخه إلى ٥٤٧هـ



مخطوط يبين تشريح العين وأمراضها



ترس مزين بزخارف نباتية مطعمة بالذهب



سيف من مصر أو سورية، القرن الرابع أو الخامس هـ.

تجلية للفنون الإسلامية، زمانيا ومكانيا وموضوعيا، يحرص مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية على تقديمها من خلال معارض متنوعة تسهم في إعطاء صورة صادقة عن حضارتنا الإسلامية وتراثها وأصالتها في كل ما تطرقت إليه من علوم وثقافة وفنون.

البداية كانت معرض **وحدة الفن الإسلامي (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)** الذي أوضح أن الفن مرتكز حضاري أصيل لم تخلُ منه معظم جوانب الحياة الإسلامية، فقدّم المعرض بُعدا زمانيا شمل أغلب فترات التاريخ الإسلامي، وبُعدا مكانيا تجسّد في اتساع الرقعة الجغرافية التي تنتمي إليها المواد المعروضة، التي تمتد من أقصى القارة الهندية إلى أقصى الأندلس، وكذلك بُعدا موضوعيا حيث مثّل معظم مجالات الفن الإسلامي من خط وزخرفة وعمارة ونسيج وما إلى ذلك، فأبرزت المعروضات وحدة الأمة في عقيدتها وتاريخها وثقافتها وعلومها وفنونها وعظمة حضارتها ومآثرها الإنسانية.

وتعددت المعارض التي يقدمها المركز بالتزامن مع أنشطته الفكرية والثقافية المتنوعة فكان أهمها المعارض التالية: **الخط العربي من خلال المخطوطات (١٤٠٦هـ)** الذي أوضح جماليات هذا الفن وتطوره على مرّ العصور؛ **الإصدارات الفرنسية في مجال الدراسات العربية والإسلامية (١٤٠٧هـ)** وكان نشاطا مصاحبا لندوة نظمها المركز تناولت المجال نفسه؛ **زخرفة الفضة** والمخطوطات عند المسلمين (١٤٠٨/١٤٠٩هـ) للتعريف بإسهام المسلمين في هذا الفن وإغنائهم له ونظرتهم إليه كتقنية علمية أسهمت بأبعادها في البناء الحضاري؛ **كنوز من الشرق (١٤١٠هـ)** وأقيم في ستوكهولم بمشاركة مخطوطات المركز، وكانت المرة الأولى التي تعرض فيها خارج السعودية؛ **الأسلحة الإسلامية (١٤١٢هـ)** وركّز على السيوف والدروع، عُدّة أجدادنا الأوائل في مواجهة أعداء الله، فالسيف «فيصل» لفصله بين الحق والباطل، والدرع ضرورة لمدافعة الطغيان والعدوان، فكانت هذه الأسلحة وسيلة لحماية مكتسبات الأمة الفكرية والثقافية والحضارية.

سلسلة المعارض هذه مستمرة، وهناك خدمات لجمهورها وللمهتمين بها تتمثل في: الكتب المصورة الصادرة عن هذه المعارض بالعربية والإنجليزية، والشرائح الملونة (سلايدات) لمحتوياتها، وقواعد المعلومات المتخصصة، إلى جانب قاعات عرض متاحة لمختلف الاستخدامات التي تتناسب مع اهتمامات المركز ورسالته الحضارية.

لمزيد من المعلومات:

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص. ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ فاكس ٤٦٥٩٩٩٣
هاتف: ٤٦٢٢٣٧٥ / ٤٦٥٢٢٥٥